أمين الريحاني

ملوك العرب

أو

رحلة في البلاد العربية تشتمل على مقدمة وثمانية أقسام

مزينة بالخرائط والرسوم
وفهرست أعلام

الجزء الثاني

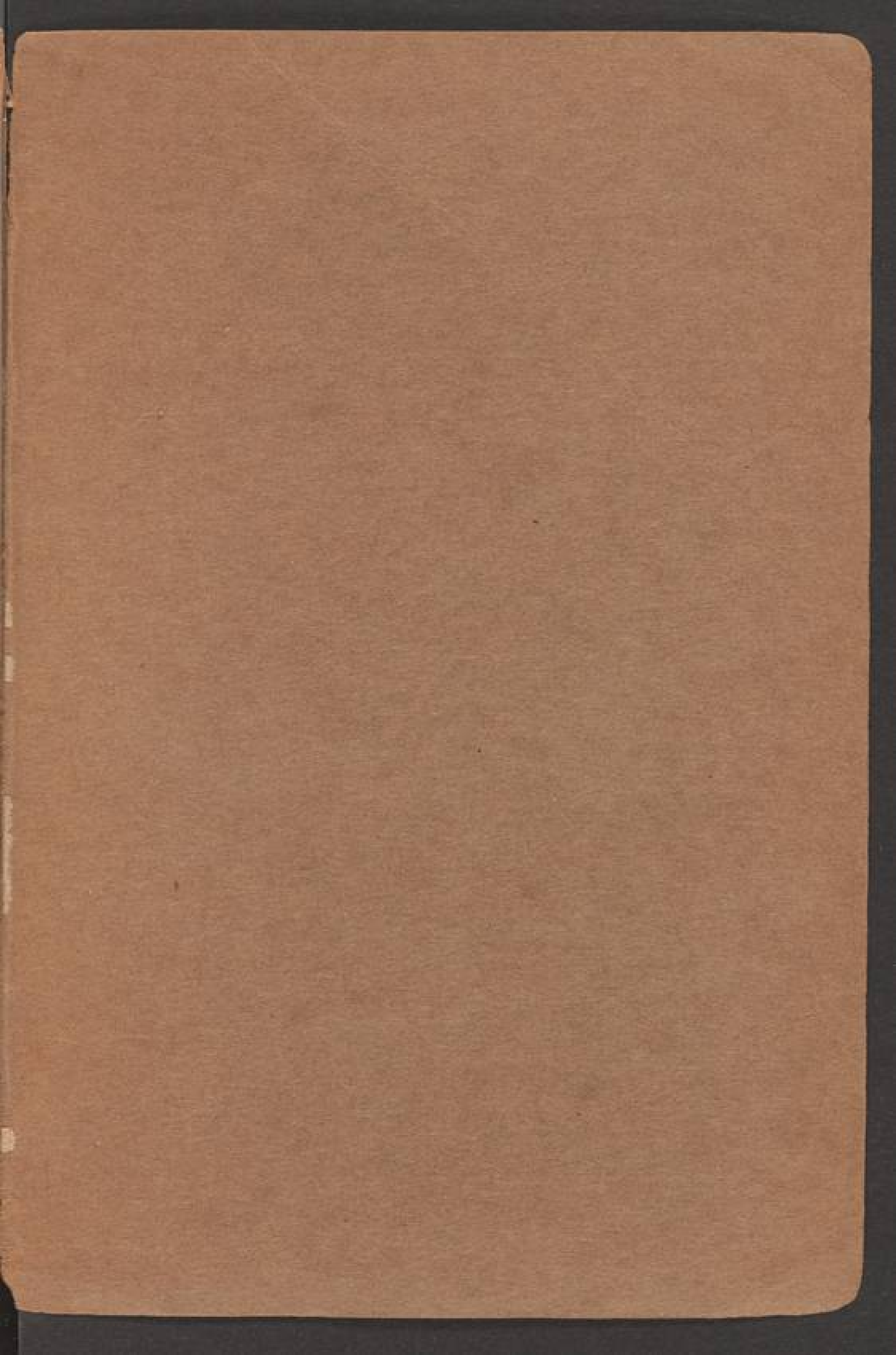
سلطنة نجد وملحقاتها

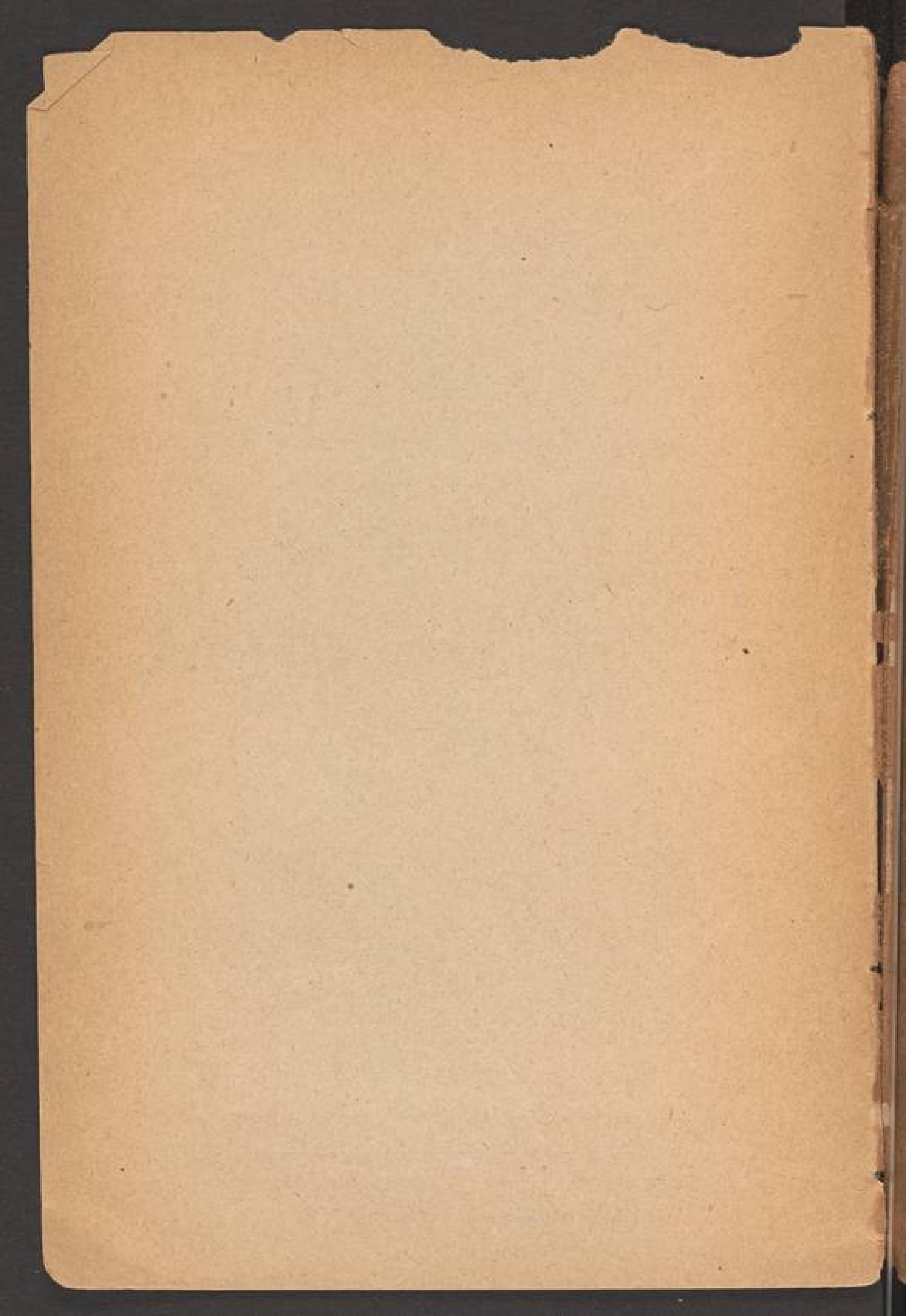
الكويت – البحرين – العراق

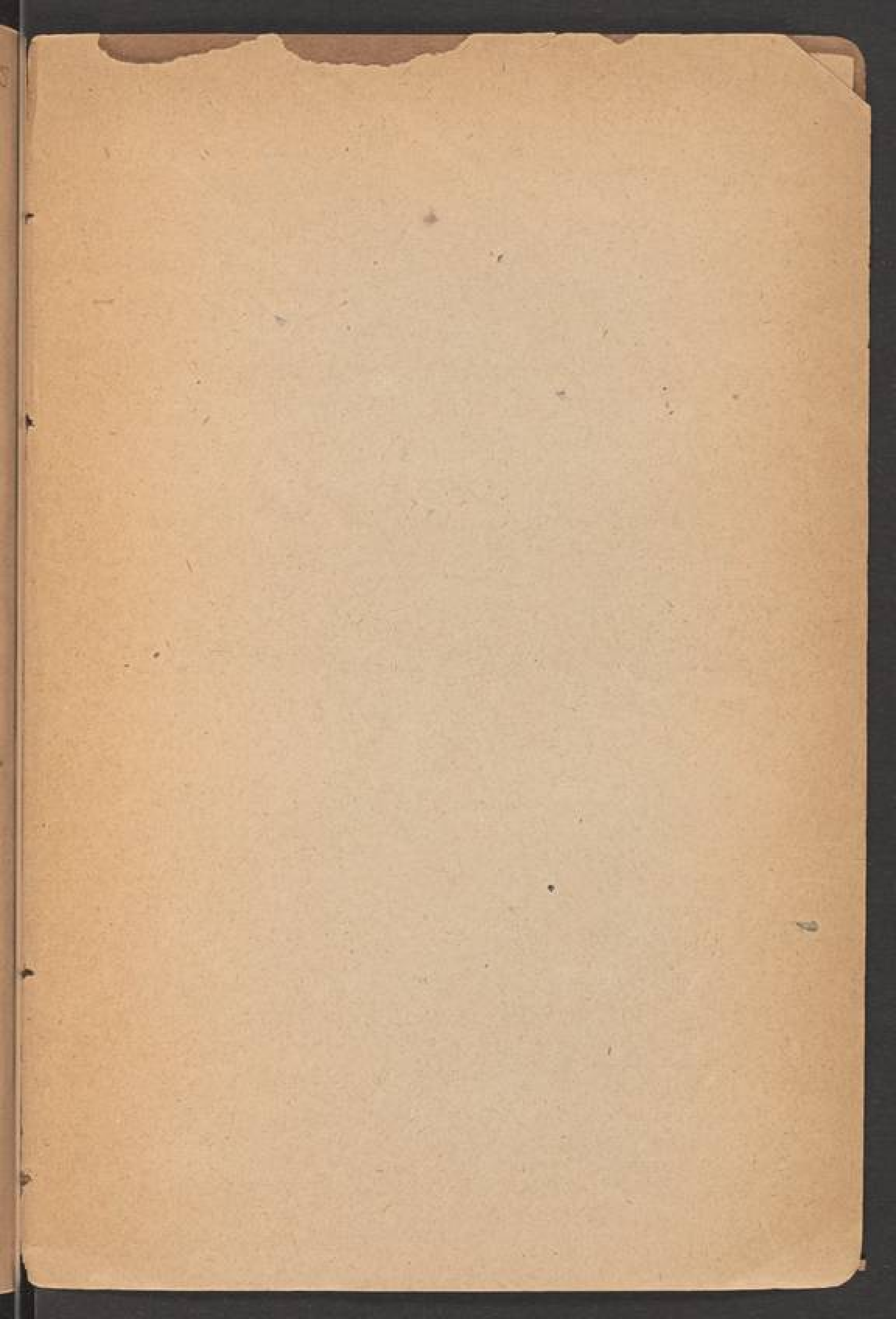
الطبعة الثالثة

اشرف على تصحيحها وطبعها البرت الريحاني شقيق المؤلف

طبع في مطابع صادر ريحاني – بيروت ١٩٥١







أمين الريحاني

ملوك العرب

أو

رحلة في البلاد العربية تشتمل على مقدمة وثمانية أقسام

مزينة بالخرائط والرسوم

وفهرست اعلام

الجزء الثاني

سلطنة نجد وملحقاتها

الكويت – البحرين – العراق

الطبعة الثالثة

اشرف على تصحيحها وطبعها البرت الريحاني شقيق المؤلف

طبع في مطابع صادر ريحاني – بيروت ١٩٥١

الطبعة الاولى : بيروت – ١٩٣٤

الطبعة الثانية : بيروت – ١٩٣٩

الطبعة الثالثة : بيروت – ١٩٥١

فهرس الجزء الثاني

القسم الخامس

عبدالعزيز آل فيصل آل سعود سلطان نجد

صفحة

القسم السادس

آل صباح شيوخ الكويت

القسم السابع

آل خليفه شيوخ البحرين

القسم الثامن

الملك فيصل والعراق

فهرس الخرائط والرسوم



عظمة السلطان عبد العزيز آل فيصل آل سعود

القسم الخامس

عبد العزيز آل فيصل آل سعود
سلطان نجد

سلطنة نجد وملحقاتها[1]

سنة ١٩٢٢ م ١٣٤٠ هـ

•

حدودها : شرقاً خليج فارس من الجافوره وقطر الى رأس المشعاب ثم منطقة الحياد بـ نجد والكويت من رأس المشعاب الى رأس القليّة .

جنوباً خط يمتد من أبها في عسير الى ملتقى الخطين الثامن عشر من العرض الشمالي والسادس والاربعين من الطول الشرقي ، ثم يدور شمالاً الى السليّل ومنها حول الربع الخالي شرقاً الى الاحقاف فحدود قطر فالجافورة حتى الخليج

شمالاً منطقة الحياد بين نجد والعراق ، وهي في شكل قطعة بقلاوة بين الخطوط ٢٨ و٢٩ و٣٠ من العرض الشمالي والخطوط ٤٦ و٤٧ و٤٨ من الطول الشرقي ، ثم خط يمتد من قرب شعب الاعوج شمالاً الى بير ليفه ، ثم شمالاً بغرب الى بير مُنيا فجدَيده فجبل عنيز الكائن بين الخطين ٣٢ و٣٣ من العرض الشمالي والخطين ٣٩ و ٤٠ من الطول الشرقي .

اما غرباً من جبل عنيز الى شرقي الاردن ومن شرقي الاردن الى آخر الحجاز الجنوبي الغربي فلا تزال الحدود مختلفاً عليها . الا ان الجوف وحرَّة خيبر هما اليوم في حوزة سلطان نجد .

---

(١) محافظة على التاريخ ابقيت اسم سلطنة نجد وحدودها كما كانت يوم رحلتي ويوم صدرت الطبعة الاولى من هذا الكتاب . اما تطور البلاد النجدية واتساع حدودها . ومبايعة سلطانها ملكاً بعد ذلك فقد دونت اخبارها في كتابي « تاريخ نجد الحديث »

عدد سكانها : نحو مليوني نفس .

مساحتها : نحو خمسمئة الف ميل مربع .

اهم قبائلها : مطير وحرب وعتيبه وسبيع والدواسر والعجمان والعوازم والسهول وبنو مرّه وقحطان .

اهم بلدانها : الرياض وبريده وعنيزه وحايل وثرمده وشقرا والمجمعه وحوطه والهفوف والقطيف .

مذاهبها : الوهابية والشيعة وبعض السنة .

الفصل الاول

شتنا حريَلة فشاء الله أضرُمة[١]

العقبات الثلاث بيني وبين ابن السعود – في قهر الاركان بعدن – الحمى والجدري والانكليز – قلت نجد : فقالوا : العراق – جاء الاذن بالسفر – الفرصة تستقبلني في بمباي – السفر الى العراق – مضبوط معزوز – الامر الذي يتعلق بسفري . وكيل ابن السعود يصل الى بمباي – « مولانا السلطان يرحب بكم » – والانكليز لا يأذنون – كتاب من كاتب اسرار الحاكم العام في الامور السياسية الى مدير الشرطة في بمباي .

كنت في لحج يوم كتبت الى عظمة السلطان عبد العزيز اطلعه على الغرض من رحلتي في البلاد العربية واستأذنه بزيارته والسياحة في بلاده . وكان بيني وبينه بحر الهند ثم النفود ثم الدهناء ثم الانكليز . اما العقبات الثلاث الاولى فقد كانت والحق يقال سهلة بالنظر الى الاخيرة . هي ذي العقبة الكأداء حقاً وقد يكون في قصتها عبرة للسياسيين وفائدة للسائحين والقراء . كتبت كتابي قبل ان سافرت الى صنعاء وارسلته بواسطة تاجر معروف في عدن ليرسله الى وكيل ابن سعود في البحرين ، وفي الكتاب رجوت من عظمة السلطان الاسراع في الجواب عن يد وكيله القصيبي حتى اذا مررت بالبحرين في سفري الى العراق اتشرف بعلمٍ تتوقف عليه خطتي في الرحيل . وكان في نيتي اذا كان الجواب بالايجاب ان اسوح في نجد قبل ان ازور العراق . هي خطة يوجبها المسلك الجغرافي وطرق البحر، فضلاً عن الاقتصاد بالوقت والمال .

عدت بعد ثلاثة اشهر من صنعاء الى عدن واقمت فيها تحت سرادق

---

(١) مثل من امثال نجد يضرب بمعاكسات الزمان ، وحريلة وضرمة بلدان في العارض هم يسكنون فاه الاسم أضرمه.

القيظ ، في فم البركان ، بين اشباح الجدري والحمى ، ستة اسابيع انتظر من اصحابي الانكليز اذناً بالسفر الى — الى نجد ؟ كلا . بل الى العراق . فان ابن سعود عند هؤلاء الاماجد شخص مقدس لا يدنو منه غير المقربين من قدس الاقداس على شاطىء التميس . وانك اذا جهرت لاحد الوكلاء او المندوبين السياسيين في السواحل العربية برغبتك فضلاً عن الاستئذان تجد الرجل واحداً من ثلاثة : فاما انه يرجىء ويسوف سياسةً ، او يبتسم هزءاً ، او يرفض بتاتاً . وقد لقيت الثلاثة في اولياء الامر بعدن . قلت : نجد ، فقالوا : العراق . قلت : ابن سعود ، فابتسموا ثم رفضوا : لا علاقة لنا بالرجل واموره . ثم جاءني كتاب من الحاكم يقول فيه : قد وصلنا نبأ برقي من المندوب السامي في العراق يأذن لك فيه بالسفر الى بغداد . ومن كتاب آخر تلاه علمت ان لا بأس بمروري بالبحرين ، واني بعد مقابلة اولياء الامر في بغداد اسافر الى نجد اذا كان جواب ابن سعود يأذن بذلك .

كان قد مر اربعة اشهر ونيف على كتابي الى السلطان عبد العزيز ، فسافرت من عدن الى بمباي قاصداً من هناك البصرة ، وفي قلبي تشوق الى الجواب شديد . ولا اكتم القارىء ان رغبتي بزيارة رجل نجد الكبير كانت تزداد شدة كلما تعددت وحالت دونها العقبات .

وصلت الى بمباي فوجدت ان امري موكل برجال الشرطة هناك . ولكنهم اكرموا وفادتي فزرت الدائرة ولم يكلفوني زيارة السجن . وقد اظهر المدير رغبته في التعرف الى هذا السائح العربي الاميركي الذي تفتح له ابواب اقفلت مراراً دون سواه ، اذ ان السفر في تلك الايام حتى الى العراق كان محظوراً على غير الانكليز . وقد علمت ان بعض التجار الاميركيين انتظروا شهرين في بمباي ليجيئهم الاذن بالسفر الى العراق ، وكانوا بعد ذلك من الخائبين . فلا عجب اذا أكبر امري . وقد ظهر لي ، بعد ان اقت

اسبوعاً في بمباي وتحدثت وبعض رجالها من تجار وكتاب وسياسيين ، اني من المغبوطين في سفري الى بغداد . ولكن ذلك لم يسرني كثيراً .

شئنا حريله فشاء الله أضُرُمه . قال المدير : أمرنا بان نسهل طريقك الى العراق . واظنهم اي « اولياء الامر » في ما كتبوا الينا يقولون ان لم يصلهم بعد الجواب من ابن سعود . سابحث عن الامر وارسل نسخة اليك اذا شئت . شكرت للمدير هذا التلطف وعدت الى النزل فاذا بعض التجار والادباء من المسلمين ينتظرونني هناك . وقد اخبرني احدهم — وما كان حديثي في تلك الايام ليخلوا من سؤال عن نجد وسلطان نجد — ان عبدالله القصيبي وكيل ابن سعود في البحرين وصل صباح ذلك اليوم الى بمباي . فبادرت في اليوم التالي اليه يصحبني الحاج علي رضا زَينل احد كبار التجار في الهند وفي الحجاز .

وكان موضوع الحديث السلطان عبدالعزيز وكتابي اليه . قال الوكيل : نعم وصلنا كتابكم بوقته وارسلناه الى حضرة الامام ، فجاء الجواب مرحباً بكم وقد امرنا باعداد كل ما يلزم من اسباب السفر والراحة عند وصولكم الى البحرين . ثم قال : ونحن من زمان ننتظركم . ابطأتم في السفر او انكم غيرتم في الخطة التي كتبتم الى حضرة الامام عنها . قلت : لا التغيير ولا الابطاء بيدي . فقال : بل بيد الله . فقلت مستفهماً : واصحابنا الانكليز؟ فضحك الوكيل وسكت . وبعد رجوعي الى النزل استلمت كتاباً من معاون مدير الشرطة ضمنه نسخة الامر المتعلق بسفري ، وهذه ترجمته الحرفية :

رقم ٣٥٨ —
الدائرة السياسية . مكتب كاتب الاسرار . بمباي في ٢٢ آب سنة ١٩٢٢ من آي . ف . كِندرزلي كاتب اسرار حاكم بمباي في الامور السياسية الى مدير الشرطة .
الموضوع سفر المستر امين ريحاني الى البحرين ونجد .

سيدي :

جواباً على كتابكم رقم ف – ٢٠٧١ المؤرخ في ٢١ آب سنة ١٩٢٢ اقول ان قد امرني الحاكم ان اخبركم لكي تبلغوا المستر امين ريحاني ان الاذن بسفره الى نجد لم يصلنا حتى الان ولكنه منتظر في البحرين . اما سفره الى العراق فلا اعتراض عليه . وفي كل حال يجب ان يسافر اولاً الى بغداد . اتشرف يا سيدي بان اكون

خادمكم المطيع

عن كاتب الاسرار السياسية

دجاي . اراتون

اما التناقض بين كلام الوكيل ، وكيل ابن سعود في البحرين ، وبين امر الحكومة ، حكومة بريطانيا العظمى في الهند ، فسوف تنجلي الحقيقة فيه ان شاء الله .

الفصل الثاني

في بغداد

حقيقتان جوهريتان – مفتاح نجد – انكليزية عراقية – ولا تزال امرأة – التقارير السرية – الملك فيصل – صراحة بحدود – سكوت يخف عن الريب – وما الغرض الحقيقي من رحلتي ؟ – « جزيت على الابتسام بابتسام » – المندوب السامي – حادث العيد في القصر – زيارة ابن السعود – اشد العقبات – « واتغلبن الانكليز » – الحفلات الادبية – اما السياسة فالبيداء دونها – تباركت المرأة – الباب ينفتح – تعللني بالوعود – « سأبقى في بغداد الى ان يجيئني الاذن بالسفر الى نجد » – صوت في الهاتف يقول : « ستسافر مع المندوب السامي » – ما قضت به الحكمة .

لم يُؤذن لي بالسفر الى البحرين .

شئنا حريته فشاء الله اضرُمه . وصلت الى العراق وقلبي يحدثني بنجد، وفكري يبعدني عن حسن الظن بالانكليز . وقد وجدتهم في بغداد ، كما هم في بمباي ، السادة المطاعين برغم النهضات الوطنية والدسائس السياسية . ثم بدت لي حقيقتان جوهريتان استنرت بهما قولاً وعملاً في عاصمة العباسيين . الحقيقة الاولى هي ان مفتاح نجد للاجانب الذين يبغون الدخول الى تلك البلاد من الجهة الشرقية انما هو بيد المندوب السامي . اما الثانية فهي ان الباب قلما يفتح لغير الانكليز ، بل لاولئك القلائل منهم المنتدبين لامور سياسية او المقربين من النظارة الخارجية . وقد رفض الوكيل السياسي في خليج العجم غير مرة ان يأذن لبعض الاطباء الاميركيين في البحرين بالسفر الى نجد . هذه هي الحقائق الراهنة التي جُبهت بها في الدوائر السياسية وغير السياسية . بسموا لجسارتي بل لجهالتي في الحديدة ، واحالوني في عدن على المندوب السامي ، وسوفوني في بمباي . فماذا عسى ان يكون من امرهم في بغداد؟

بعد ان زرت جلالة الملك فيصل على شاطىء دجلة الشرقي جئت الى دار

الوكالة في الشاطىء الغربي، لاقابل السيدة جرترود بل كاتبة اسرار المندوب السامي في الامور الشرقية . والعراقيون يدعونها الخاتون . الا انها في قوامها ونحولها وتيقظها انكليزية لا غبار عليها . كانت المقابلة الاولى في مكتبها . وكانت ، وهي القابضة على زمام الحديث ، تدخن السيكارة تلو السيكارة ، ثم تنهض عن الديوان فتتخطر في القاعة ، ثم تجلس وترفع رجلاً على رجل وهي تتكلم ثم تتكلم بدون انقطاع . فقلت في نفسي : لا تزال الخاتون امرأة والحمد لله . عرضت امامي عقلها في الجلسة الاولى فاعجبت به ، وكشفت الحجاب عن زاوية من قلبها فدهشت . بل كادت ترفع الستار السياسي كله اتريني انها اخلصت العمل لفيصل وللعراقيين ، وان الانكليز لا يزالون اصدقاء العرب واقرب الناس اليهم . ثم قالت : لا شك انك تيقنت ذلك في رحلتك يا امين افندي .

كنت شاكراً لانها لم تقف لتسمع جوابي ، بل استمرت في الحديث .

واطلعتني على امور تتعلق برحلتي لم يدهشني علمها بها ، لاني اعلم ان وكلاء انكلترا السياسيين ومندوبيها في البلاد العربية يتبادلون التقارير السرية من حين الى حين . ومنهم من يكتب تقريره كل اسبوع فيرسل نسخاً منه لزملائه في مصر والسودان والعراق والهند الغربية .

عادت السيدة جرترود الى الملك فيصل الذي كان في تلك الايام غاضباً على المندوب السامي وعليها ، فلا يوقع المعاهدة المشهورة بين الانكليز والعراق فقالت : قد سعيت سعياً متواصلاً من اجل الملك فيصل ، فاقنعت رؤساء العشائر واستملتهم اليه . كانوا يقولون لي يا امين افندي : هذا حجازي اجنبي . وكنت اقول لهم : انا اكفله ، انا الكفيل . صدقني يا امين افندي اني احب العراق اكثر من حبي بلادي . انا عراقية .

تفقهت في مجلس الخاتون وتفكهت . على ان اعجابي بها وهي امرأة

كان اقل من ارتيابي بشأنها وهي ولية الامر او ولية العشائر في العراق. ولا يظنن القاري، ان كاتبة المندوب السامي باحت بكل اسرارها الشرقية والعربية والعراقية في الجلسة الاولى. لا ولا في الجلسات العديدة التالية. فهي من هذا القبيل تكذب ما نشيعه نحن الرجال عن النساء.

ما جئت على ذكر السيدة جرترود في هذا الفصل من الكتاب الا لانها كانت في عهد السر برسي كوكس تقبض على مفاتيح الامور السياسية في العراق، وفي البلدان العربية والعجمية على الخليج التي يتولى المندوب السامي البت في شؤونها. ومفتاح نجد من هاته المفاتيح، فهل تأذن به يا ترى؟

سألتها سؤالًا دون ان اكشف عما جال في صدري من الريب بحسن نية زملائها، ودون ان اشير الى التناقض في ما قاله لي وكيل ابن سعود وما كتبه حاكم ببماي، فتغيرت عندئذ لهجتها وتغير اسلوبها، فلم تجبني بالصراحة التي عرضت امامي مثالًا منها في حديثها عن العراق. ذلك لانها كانت لا تزال في ريب مما قد يكون من امري وسلوكي السياسي في بغداد. أجئت مبشراً بالوحدة العربية، ام جئت اضرم نار الثورة على الانكليز؟ أجئت انصر الحزب الوطني او الحزب الحر او اصحاب الانتداب، ام جئت من اميركا رسولًا سرياً لشركة من شركات النفط هناك؟

هي بعض الاشاعات التي انتشرت في بغداد وحامت على مكتب الخاتون، ولكنها لم تتنازل ان تسألني سؤالًا واحداً صريحاً بخصوصها. بل كانت في حديثها تشير اشارة الى ما فيه الحجة الراهنة – بحسب ظنها – على علمها الوافر الشامل بكل ما يختص بالسياسة الانكليزية في البلاد العربية. اظنها اتخذت سكوتي دليلًا على الاقتناع، او انها قرأت فيه شيئاً من الميل الى التصديق. واللوم او بعضه عليّ. فقد كنت حتى في ابتسامي اول مرة قابلت الخاتون غير الرجل الذي اعرفه ويعرفه الناس. وما ذلك الا لخوفي ان تحول

دون رغبتي ، فداريتها في دارها . على اني لم اخاتل ، ولم اداج ولا جمجمت الكلام في كل ما القيته من الخطب في بغداد . خرجت من مكتب المس بل وفي نفسي يتنازع الريب والامل . هي الحاملة المفتاح ، مفتاح نجد ، فهل تفتح لي الباب ؟[١]

بعد ذلك قابلت المندوب السامي السر برسي كوكس ، فكان نقيض كاتبة اسراره الخاتون في انه اولى جليسه اولًا الحديث . سألني سؤالات تتعلق برحلتي فاجبته عليها بصراحة زمامها التحفظ . ثم ذكر حادثة القصر عندما راح يهنىء الملك بعيد جلوسه ، فتكلم بما يجري نفسه من العسف والاستبداد في نفيه زعماء الحزب الوطني واقفال جرائده وناديه . ثم انتقلنا في الحديث ، فاخبرني حضرة المندوب ان في نيته زيارة السلطان عبد العزيز قريباً ، عله يتوفق الى رتق الامر بينه وبين العراق . وهناك معاهدة يريد استئناف المفاوضات بخصوصها .

قلت : زيارتكم اذاً في سبيل السلم والولاء بين اثنين من ملوك العرب . فقال : بل اكثر من اثنين ، وان اقصى تمنياتي ان امهد سبيل الاتفاق والولاء ما استطعت . فقلت : هو كذلك قصدي وسعيي . خذني معك اذاً الى ابن سعود فاخدمك في ما تأذن به ولا اتقاضاك والحكومة الانكليزية اجرة على ذلك . فضحك وفاه بكلمة لم اسمعها ، لان الخادم دخل اذ ذاك يقول : الغداء حاضر . فاستأذنت وانصرفت .

خرجت من مكتب المندوب كما خرجت من مكتب الخاتون متيقناً ان محجتي لا تزال بعيدة ، بل ان العقبة الاخيرة بيني وبين نجد هي كما قلت في اول الفصل اشد العقبات كلها . وليس الذنب في ذلك ذنب ابن سعود .

---

(١) في الفصل الرابع عشر من القسم الثامن تتمة الكلام على هذه الامرأة الفذة التي توفيت في صيف سنة ١٩٢٦ في بغداد رحمها الله .

فقد اجاب على كتابي كما تقدم بالايجاب والترحاب . بيد ان للانكليز في سياسته عوامل يتساهل احياناً بالعرض منها ليتمكن من مقاومة ما هو جوهري خطير .

جلست اسأل نفسي واناقشها : هل يمنعونك وانت اميركي ؟ قد منعوا غيرك من هذه التبعة ، وهم يكرهونها في العراق . الا يستطيع قنصل اميركا السعي من اجلك كما فعل زميله في عدن ؟ هو لا يعترف بالعجز ولا يتيقن الفوز اذا سعى.. ألا يقدرون خدماتك في اليمن وعسير فيجازوك عليها ولو باجازة سفر الى نجد ؟ الانكليز لا يعترفون رسمياً بخدمات تقدم لهم مجاناً . قد يشكرون وبعد ذلك لا يذكرون . واذا رغب ابن سعود بزيارتك وهم رغبوا عنها فاية رغبة تحقق يا ترى ؟ لا رغبتك ولا رغبة ابن سعود . لان سلطان نجد لا يغيظ الانكليز في صغيرة او كبيرة من اجلك .

هذا ما كنت اعتقده بسياسة ابن سعود في تلك الايام . ولا ازال على شيء من الظن انها الخطة المثلى – وان كانت عليَّ فلست الوم – في ما لا يضر بمصلحته ولا يجحف بحقوقه . فمن هو الريحاني ليعادي سلطانُ نجد الانكليز من اجله ؟ ومن هو ليتغلب على الانكليز ؟ عييت عن الجواب ، ولكني لم افقد الامل ولا يئست . بل سررت جداً برغم معقولي عندما قال المندوب السامي : سأزور قريباً ابن سعود . فرأيت نفسي – وما الفائدة من الخيال ومن الاحلام اذا كانت لا تشركك بنعيمها ؟ – رأيت نفسي مسافراً واياه الى الحسا . ولم يهمني اني في عملي هذا اثبت التهمة على نفسي . فيقول المخدوعون من الاصدقاء والاعداء : الا ترونه مسافراً والمندوب السامي ؟ فكيف لا يكون في خدمة الانكليز ؟ لا بأس بذلك . كنت اعود ، ساعة يستحوذ علي اليأس ، الى هذه الرؤيا فانعش بها املاً بزيارة نجد كاد يتلاشى ، فينعشني الامل واسمع اذ ذاك همس صوت يقول : ولتغلبن الانكليز .

اقيمت الحفلات الادبية في بغداد، الاولى والثانية....... والعاشرة، وكانت الحكومة حكومة الانتداب تبعث من يسمع فيخبرها او يخبر بالاحرى المس بل بما اقول . واظنني هدمت جانباً من معقل الريب في اول خطبة فهت بها . تباركت في مثل هذه المواقف المرأة، فانها اسرع الى التصديق وحسن الظن من الرجل. دعتني المس بل الى بيتها بعد ذلك مراراً. واقامت في مكتبة السلام التي هي رئيستها حفلة دعت اليها كبار العراقيين والانكليز وافتتحت هي الحفلة بخطبة ما اثر في ثناء مثل الثناء فيها، ليس لانه من امرأة عالمة فهيمة، بل لانه من نفس احسنت بعد ان اساءت الظن، واخلصت بعد ان اظهرت الوداد .

ومع ذلك كنت عندما اقول : نجد . تقول هي : العراق . وعند ما اقول : ابن سعود ، تعللني بالوعود . ولّى الشهر الاول وتلاه اسبوعان من الشهر الثاني في بغداد وانا رهين مكارم الادباء العراقيين ومعهم كما اشرت بعض افاضل الانكليز . وقد تسنى لي ان ازور اثناء ذلك الاماكن التاريخية والاثار القديمة في العراق ، فلم يبق في النفس حاجة ولا في البلاد اثر يشغلني او يسليني عن امنيتي القصوى .

متى شبع السائح من بلادٍ ما تقفل ابواب عقله دون الاستفادة منها مهما كان من اسبابها ومظاهرها . شبعت من العراق ، وسئمت الاقامة خصوصاً في بغداد لاني مرضت ثلاث مرات فيها بالحمى . زد على ذلك اني كنت مشتاقاً الى بلادي واهلي ، فحدثتني نفسي مراراً بالسفر الى سوريا . الا اني كتمت ذلك عن المندوب وعن الخاتون ، وما اظهرت غير تلك الرغبة الشديدة في زيارة ابن سعود. بل أشعت في مجالس رسمية ان سوف لا اتحرك من بغداد حتى يجيئني الاذن بالسفر الى نجد . الحرب خدعة وحرب الارادات لا تخلو من الخداع. اني على يقين ان لو علم المندوب السامي آنئذ بما جال في خاطري،

لو علم اني سئمت الاقامة في بغداد وكنت على وشك السفر الى سوريا ، لسوفني اسبوعاً آخر ولأفلحت سياسة الملاطفة والتأجيل . فأكون قد حرمت علم اهم ما في البلاد العربية اليوم .

ولكن المس بل اخذت الامر بناصيته عندما حان وقت السفر للمندوب السامي ووالتني معروفاً اسجله لها ، شاكراً سعيها وحسن ظنها . كلمتني يوماً بالهاتف فقالت : ستسافر مع المندوب السامي . بيد ان سقوط وزارة لويد جورج في ذاك الحين اضطرت المندوب الى تأجيل سفره . وبما اني كنت وعدت ادباء البصرة بزيارة سافرت من بغداد قبله ، وفي نيتي حسب الاتفاق ان انتظره هناك ، فنترافق الى البحرين ثم الى العقير .

اشرت فيما تقدم الى مظهر في سلوكي الادبي والاجتماعي هو ثمرة الاسفار في البلاد العربية ، بل ثمرة الحكمة العملية . فلولا تلك الحكمة كنت فشلت في اولى المراحل وعدت خائب الامل . اجل ، قد داريت في بعض الامور ، واكثرها سطحية ، لأفوز بكل ما اروم من العلوم والاخبار . او بالاحرى كنت صريحاً على عادتي عند ما كانت الصراحة تفيد . وقد كنت اشد تحفظاً واتقاء في المعيشة والاسفار حباً بالرجوع سالماً اولاً الى اهلي وثانياً الى مهنتي . اذ ما الفائدة لمثلي من رحلة عربية اذا كنت لا اسلم فيها لأخبر عنها ولو في كتاب واحد ؟

كانت الحكمة العملية شرعتي اذاً ودليلي . فهي التي حملتني على السفر وحدي الى ابن سعود . واظنها أوحت للسر برسي كوكس كذلك في الموضوع فانتصح مثلي بنصيحتها ، فابرق يخبرني بانه سيتأخر اسبوعاً ثانياً وان لي ان اسافر قبله اذا شئت . حسناً فعل المندوب السامي وحسناً فعلت انا كما سترى في سياق هذا الكتاب .

الفصل الثالث

في البحرين

نجدي يحذرني من السياحة في نجد – رسول اليقين والخير – « عظمة السلطان ينتظركم في الحسا » – من سراديب بغداد الى قصور البحرين – في ضيافة وكيل السلطان – الشرق يهمد والفكر يشتغل – من هو ابن سعود ؟ – ما سمعته في الحجاز وفي العراق – رأي الانكليز – رأي اديب نجدي – كتاب من السلطان – ما تخبئه الصحراء .

وقد حاول بعض اصحابي في البصرة ان يحولوني عن عزمي وقصدي . قالوا اني لا اقوى على مشقات الاسفار في البلاد النجدية ، في تلك البلاد الغنية بالمفاوز والرمال. جسموا في عينيّ المخاطر في ركوب البعير، وفي الدهناء، وفي بلاد البدو والاخوان . كنت ذات ليلة ضيف حضرة الفاضل احمد باشا الصانع متصرف البصرة ، وهو نجدي لا يزال يلبس العباءة والعقال ، فقلت خلال الحديث عن اليمن : عند ما دخلت الى صنعا. احسست اني رجعت بغتة الى الجيل العاشر. فقال احمد باشا : وسترجع الى الجيل الخامس في نجد. ما لك وهذه السياحة وكلها مشقات واخطار ! يمكنك ان تزور ابن سعود في الحسا وترجع . هوذا نجدي يحذرني من السياحة في نجد . فهلا انتصحت وارعويت ؟ لا انكر انه اعتراني آنئذٍ شيء من الخوف .

على انه زارني في اليوم الثاني اديب من الادباء ، شاءت الاقدار ان يكون بعدئذ رفيقي في السفر وعشيري في الرياض ، فعرفت فيه العربي الحر ابن القفار والبحار الذي يسرك ويسبي. اليك عفواً دون تكلف في احد الامرين . وسيجتمع القاريء ، من حين الى حين ، بالسيد هاشم ابن السيد احمد الرفاعي من الكويت . كان يومئذ في خدمة سلطان نجد كاتباً من كتاب ديوانه ، وقد جاء البصرة في مهمة رسمية ، فزارني يوم كنت والحق

يقال في حاجة شديدة الى زيارة مثله . حدثني السيد هاشم فازال ما كان يخامرني من الخوف في السفر الى نجد ، ومن الريب برغبة ابن سعود الحقيقية في زيارتي ، ثم قال : عظمة السلطان يعرفكم مما يطالعه عنكم في الجرائد التي تصله كل اسبوع ، وهو متشوق الى مشاهدتكم وينتظركم في الحسا . . .
نعم ، السلطان عبدالعزيز يحب الاجتماع بكل اديب عربي مخلص لبلاده . وقعت هذه الكلمات في اذني وقع الانغام المطربة . ولكنت قبّلت السيد هاشم بين عينيه لو ان الرسميات التي الفتها في البلاد العربية تسمح بذلك . الا ان القلب رقص طرباً دون ان يشين ادبي او يحط من كرامتي امام الزائر الكريم . سافرت وانا في هذه الحال الى البحرين . ومن حسن الاتفاق ان السيد هاشم كان رفيقي في الباخرة .

البحرين ، جزيرة اللؤلؤ ، هي بعد الكويت اهم محطة في الجهة الغربية من خليج العجم لبواخر الهند وللتجارة بين الهند ونجد . وهي كذلك درجة امام الباب — باب نجد الشرقي — لا بد للمسافر ان يقف عندها فيستبدل فيها البخار بالشراع اذا كانت وجهته العقير او القطيف . وفي البحرين وكالة لابن سعود يرأسها عبدالله القصيبي احد اعضاء البيت التجاري المشهور هناك .

نزلنا من الباخرة بعيدين عن الجزيرة وسرنا في شراع فوق منازل اللؤلؤ الراقد تحت الامواج ، والبحر ساعتئذ رهوٌ ، والهواء عليل ، وشمس الصباح تتهادى بين الاثنين . فبدت المنامة خلالها مشرقة بيضاء كأنها ابراج شيدت من اللؤلؤ . بل هي ابنية اللآلي وقد صعدت من اماكن الغوص واستوت على عرش الخليج . وكان الشراع يهمس سلاماً كلما مرَّ بشراع آخر ، وكلها مثل اجنحة الحمام تميس وتتهادى على بساط من الزمرد ، كأنها تتلو القصائد في مديح ربة الدُر ودُرة البحار .

وما ساءنا ان وصلنا اليها لانها عن كثب وعن بعد سواء . فمن الرصيف

سرنا الى بيت على البحر جميل اعده القصيبي لضيوفه وضيوف سلطان نجد . وكنت انا والسيد هاشم في اليوم الاول سيدَي تلك الغرف الفسيحة المشرفة كلها على الخليج، وذاك الايوان الواسع الطويل المحيط بها من الجهات الاربع. ثم انفردت في اليوم الثاني بالسيادة فانساني هذا القصر سراديب في بغداد كنا نأوي اليها في النهار ، وسطوحاً نلجأ اليها في الليل . ليست البحرين بنجد ولا من بلاد نجد اليوم . على ان ضيافة ابن سعود ومكارمه تبادر الزائر اليها لترحب به وتحييه باسم سيد العرب في بلاد العرب. جاءني القصيبي بكسوة وبخياط يوم وصلت فاصبحت في اليوم الثاني وانا عربي نجدي في ما تحت وما فوق الزبون[1] وزرت في المحرق الشيوخ شيوخ آل خليفة فعلمت آسفاً اني اخطأت فيما سبق من امري فلم انزل ضيفاً عليهم . ولكنني اقمت ببعض الواجب الادبي وكان عملي على ما اظن مرضياً .

عند دخولي البحرين فقدت حريتي في ما يتعلق بالاسفار او بالاحرى تنازلت للسيد هاشم عنها . وكان من فضل الرجل انه وقف نفسه على خدمتي قبل ان ينتدبه السلطان لذلك . فمنذ اليوم الاول في الجزيرة الى آخر يوم في الرياض تواصلنا وتآخينا في ما يشمل العقليات وشيئاً من الروحيات . بيد انه لا بد في مثل هذه الحال من فترات تنقبض فيها النفس فتضيق الطريق ، ويسيء الرفيق الى الرفيق .

سافر السيد هاشم وحده الى الحسا ليجيب عن المهمة التي انتدب لها في البصرة ، فأرسلت معه كتاباً الى عظمة السلطان اخبره بوصولي الى البحرين . وعدت بعد ان خلوت بنفسي الى النظر في ما اجتمع لدي من الاراء المتضاربة فيه . عندما قربت من الرجل سكن الشوق قليلاً واستيقظ الفكر وما يلازمه من الهواجس والظنون . فقد كان شوقي قبل وصولي الى البحرين كنار الغضا

---

(١) الزبون في العراق وفي نجد هو القباء او ما يسمى في سوريا القنباز .

تأججاً ، فاصبح وقد قربت محجتي ، وزالت – ذُلّلت – العقبة الكبرى ، كلهيب العرفج صامتاً هادئاً .

ذكرت ما قيل في الحجاز وفي العراق : ابن سعود بدوي جاهل . ابن سعود جلف ، لا قلب ولا دين له . هو من الخوارج ، بل من الذين يخدعون وينافقون باسم الدين . والاخوان رجاله ذئاب تعصب ضارية يذبحون ويحمدون الله . يسلبون وينهبون ، ويكفرون من لا يقتدي بهم . يشنعون بالقتلى في الحرب ويرتكبون من الفظائع ما تقشعر منه الابدان . . . ان دعوة ابن سعود مذهبية لذلك لا تنجح خارج نجد . لا أمن في الجزيرة ولا راحة للعرب ومطامع ابن سعود السياسية تزداد يوماً فيوماً . هذا ما يسمعه الناس دائماً في الحجاز وفي العراق ، وقد رددت مصر والشام صدى القطرين .

وذكرت ما قيل لي في الحديدة وفي عدن وفي دار الوكالة الانكليزية ببغداد : ابن سعود رجل كبير . هو نابغة بلاده ، هو السياسي المحنك ، والقائد الباسل ، والحاكم العادل . هو اكبر امراء العرب اليوم واقواهم . . . رجل عظيم رجل نجد . هو ابن البادية التي ينبغ فيها من حين الى حين كبار الرجال . فيظهرون فجأة ويسودون الناس بالعقل قبل ان يسودوهم بالسيف . هذا ما كان يقوله الانكليز وبعض العرب خارج الحجاز والعراق .

اما رأي الفريق الاول فمصدره مكة والاشراف . بل هو ثمرة ذاك العداء القديم الذي لا يزال مستحكماً بينهم وبين الوهابيين . ومصدر رأي الفريق الثاني انما هو المشاهدة والمنقول عمن شاهدوا . وقد يكون مصدره السياسة او المصلحة السياسية . كنت اعجب عندما اغربل هذه الاراء المتناقضة في سلطان نجد لما تبقى في الغربال فاقول : وشهادة الصديق مثل شهادة العدو ، اساسها الميل والغرض . فلا تصدق الاشراف ولا تصدق الانكليز . الرجل حليف هؤلاء وصديقهم ، وهو عدو اولئك الاكبر .

ثم اجتمعت في البحرين برجل يرى غير ما يراه الفريقان ، وهو اديب وهابي من ادباء نجد معجب بابن سعود ، الا انه قليل الكلام فيه . سألته رأيه فقال : انت ذاهب اليه والراغب مثلك في الحقيقة يصم اذنيه ويفتح عينيه . ثم قال : اسألك يا حضرة الاستاذ بل ارجو منك ان تشير على عبدالعزيز وتلح عليه بان يفتح المدارس في بلاده . رسخت هذه الكلمة في ذهني لان قائلها مجرد عن الاهواء السياسية والمذهبية . هي مصباح بيد صديق لابن سعود اضاء موطناً من مواطن الضعف في بلاده . وقد ذكرتني بكلمة متصرف البصرة : ستنتقل وانت في نجد الى القرن الخامس .

كان في البحرين يومئذ رجل آخر معجب بابن سعود ، راغب في تحسين حال من احوال نجد، هو الميجر دكسون وكيل المندوب السامي او بالاحرى مأمور الارتباط بين المندوب السامي في العراق وبين السلطان عبد العزيز . ذلك لان السلطان طلب من الانكليز ان يكون اتصاله بحكومة لندن رأساً اي بواسطة مندوبها في بغداد لا بواسطة حكومة الهند[1] . والميجر دكسون انكليزي ولد في سوريا وله شغف بالعرب وبلادهم . حدثني ذات يوم قال: ابن سعود رجل عظيم وقد يكون نظري فيه نظر من يؤله الابطال . هو الحاكم العربي الوحيد الذي تمكن من تأديب البدو وعرف كيف يحكمهم. عنده السيف ، وله القلب الكبير ، ولكن يلزمه ادارة في ملكه . ويلزمه زيادة في الخراج . اني اود من صميم قلبي ان يكون القطيف ميناء كبيراً لنجد ترسو فيه البواخر فتتحول اليه التجارة من البحرين ومن الكويت . على ان

---

(١) الفرق بين الاثنين كالفرق بين طريق العربات في الجبال وطريق الرجل اي المقربة . والسلطان عبدالعزيز على ما اعلم يكره الدورات . ان لحكومة الهند مثلاً وكيلاً في البحرين، ولها دوائر سياسية ونظارة خاصة في لندن لا يهم ابن سعود شيء منها ، لان علاقته هي مع نظارة الخارجية . وما حكومة الهند غير عقبة ، بل هي مثل الدهناء بينه وبينها .

ذلك يستوجب ان يكون في القطيف قنصل انكليزي. والسلطان عبدالعزيز لا يقبل قناصل في بلاده. حدثه في الموضوع عندما تقابله.

هاك من انكليزي معجب بابن سعود نوراً يضيء موطناً آخر من مواطن الضعف فيه. وهل هو من مواطن القوة؟ كأني باهل نجد يقولون نحن نخشى الاجانب ولا نريدهم في بلادنا. الرجل الاولى تجر وراءها الالوف. انه لعذر مقبول، ولكن ما العذر في الجهل؟ أيكره التعليم غير البدو؟ أيرغب في الجهل غير البدو؟ أبدوي اذاً سلطان نجد؟ وهل للبدوي اخلاق سامية وشعور لطيف، ومطامع في الدنيا مقرونة بالحكمة والاعتدال؟ ها اني قربت من ابن سعود فقربت من الحقيقة فيه، وبت انتظر جوابه لأصل اليها واتيقنها بنفسي. وهاك الجواب الذي جاءني بعد اسبوع من سفر السيد هاشم:

باسم الله الرحمن الرحيم

من عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل آل سعود الى حضرة الوطني الغيور والمصلح الكبير امين افندي الريحاني المحترم دامت افضاله امين.

سلاماً وشوقاً وبعد فبأشرف طالع وردني كتابكم الكريم المنبيء بوصولكم الى البحرين وانكم مزمعون التوجه الى طرفنا. اهلاً وسهلاً على الرحب والسعة. بالله لقد سررت جداً بذلك فطالما كنت مشتاقاً للقياكم. وقد حققت الايام شوقي والحمد لله. الا انه لا يسعني الا ان اظهر شديد اسفي لعدم اشعاركم لنا تلغرافياً في حين توجهكم من البصرة ذلك الامر الذي اوجب فتوراً قليلاً في اخبارنا وكياننا في البحرين لملاقاتكم لاني سألت الخبيرين بمعرفة اوقات وصول المراكب الى البحرين وعلمت منهم ان المركب القادم من البصرة ربما يتأخر ولهذا وحده حصل تاخير منا فارجوكم المسامحة. نحن بانتظاركم وقد امرنا

وكيلنا القصيبي ان يهيء لكم سفينة تقلكم الى العقير ويوصولكم اليها تجدون السيد هاشم بانتظاركم وبالختام تفضلوا بقبول الاحترام ودمتم.

في ٢٧ ربيع اول ١٣٤١ الختم

هذا اول كتاب جاءني من السلطان عبد العزيز، نشرته لتظهر حقيقة فيه اثبت الخبرُ خبرها. فالرجل لا يتكلف اللطف ولا يتكلف التواضع، لانهما من خلاله الفطرية. ولكان اللطف والتواضع اجمل ما في الكتاب لولا درة الاخلاص. ومع ذلك فلا بد من التحليل والتعليل توصلاً الى الحقيقة كلها. قد تقترن عفواً رقة الشعور بالشدة حتى في البدوي، فهو اذ ذاك رجل كبير الخلق. وقد تقترن كرهاً اي صناعة، فهو اذ ذاك سياسي يحسن التلبيس والمجاملة. وقد لا تقترن قطعاً، فهو اذ ذاك، اسواء كان شديد البأس ام دمث الاخلاق، رجل عادي له من يومه ما لعامة الناس. فهل الرجل الذي انا زائره ممن طُبعوا على شيمة اللطف والرقة وكانت القوة فيهم او في اعمالهم بنت الحوادث والاحوال؟ ام هو سياسي محنك يغلب خصومه بالمكارم ويسود امته بالدهاء؟ هل ابن سعود من اولئك الافراد القليل عددهم في البلاد العربية بل في العالم اجمع، اولئك الذين يبقون على شيء من الفطرة مهما عظموا او تعاظمت شؤونهم، اولئك الذين يسيرون الى محجتهم في الصراط المستقيم فيأخذون الحكمة من لوح الوجود لا من الكتب، ينبغون ولا يتفوقون، ويكرهون ولا يخاتلون، ويحبون ولا يملقون، ويسودون ولا يظلمون، ويعدلون ولا يخافون غير الله؟ اننا في الطريق ايها القارىء وستنكشف لنا الحقيقة التي تحجبها الصحراء دون ذلك الافق اللازوردي، وراء تلك الاكام الذهبية.

الفصل الرابع

في ظل الشراع

حسنات السفر البطيء – السفينة والقطار – منكرات البخار – في ظل الشراع – الجلبوت – سكن الريح – طرد في القبة – الامر برفع الشراع – « شلنا وتوكلنا على الله » – الرياح تسبق البخار – الصلاة في ظل الشراع – الامير والقصر – ما حيا في نجد – العقير – موانئ السلطان الثلاث – الطريق الشرقية الى نجد – سفن البر وسفن الصحراء تتبادل احمالها .

من حسنات الاسفار تنوع اسبابها وطرقها . وان الابطاء في القديم منها أحب الى السائح من الابطاء في الحديث الذي اخترع ليطارد الريح فينهب كما يقال المسافات . ما الفائدة اذاً من بخار لا يحسن النهب ؟ ابحرت من عدن ووجهتي ابن سعود فاجتزت اولاً بحر الهند في باخرة كبيرة فخمة الرياش معتدلة في سيرها . ثم خليج العجم ، فصغرت الباخرة ، وبخست العدة ، وطالت علينا المسافة والايام . ثم قطعت فيافي العراق بين البصرة وبغداد في قطار مخلع مرجرج — هو اثر من آثار الحرب — لا شك ان قطار الشحن في اميركا اسرع منه ثم عدت من بغداد في مركب من مراكب دجلة وقد آليت على نفسي الا أكون غير شرقي كسول فلا اعد الساعات ولا احاسب البخار والآلات . فكانت السفرة لذلك جميلة ، قصرت وان تعددت ايامها . ثم في رجوعي من البصرة الى البحرين خبرت في البواخر ابطأها سيراً فقلت : تباركت الاقدار في الاسفار . هي تبدل في الاسباب التي تزداد ابطاء كلما قربنا من محجتنا ، فتسرن اثناء ذلك على الصبر والتجمل ، وعلى التأمل والتفكير . وسنصل الى تلك المحجة برغم طول المسافات وبطء المطايا البخارية والحيوانية ، اللهم اذا ثبتنا في السير والترحال .

قد كان سروري في خروجي من البحرين مثل سروري في الوصول اليها .

وكيف لا وكل خطوة الان تدنيني من البغية القصوى ، فقد ذللت من العقبات البحر والانكليز ولم يبق امامي غير زاوية من الخليج تأبى البخار ، وارض لا تلين لغير الابل . ان الساحل في تلك الزاوية ، جنوباً بغرب من البحرين ، على مسافة اربعين ميلاً من المنامة ، هو اول ما نشاهده من ملك ابن السعود . هناك العقير[1] وشاطيء الاحساء الذي يُرى من مكان في اخر الجزيرة يدعى رأس البر . اما المسافة بين البلدين فهي رهن الشراع ، والشراع رهن الرياح . فاذا لانت كان حظك من السفر على طريقة الاجداد ست ساعات فقط . واذا عارضت تفوز بالثلاثين . وقد تتجاوز الثلاثين اذا كنت الى « نبتون » من المقربين .

احبني الله البحر فاستبقاني في مجلسي بالجلبوت[2] نهاراً واحداً وليلتين . اذ بعد ان خرجنا من مياه المنامة مساء سكنت الريح ولم تتحرك بما يرضي الله والشراع حتى انتصاف الليلة الثانية . وكنت انثنا ذلك اذكر القصيبي بالخير واشكره خصوصاً على كرسي جعلته سريري وعلى طعام انعشني بشيء من المرق . وبينما انا نائم في الليلة الثانية ، او بالاحرى مرمي كطرود في القبة وقد برد الدم مني وتعقدت الاعصاب ، سمعت صوت الناخوذاه يصدر الاوامر برفع الشراع ، وسمعت الملاحين يرددون انشاداً : شلنا وتوكلنا عَلاالله . شلنا — وتوكلنا عَلاالله . فتحركتُ في معقلي الصغير وقد انعشني الهواء كما انعش من الجلبوت الشراع . وشكرت مسكّن الرياح ومثيرها . فقلت : لا شَيل

---

(١) القاف في بعض الكلمات تلفظ جيا في نجد فيقولون العُجير .

(٢) الجلبوت مركب شراعي صدره ، وهو للبضاعة ، مرتفع مستطيل وفي مؤخره قبة او علية للمسافرين يسميها الملاحون عرشة . وهو اذا كان كبيراً شبيه بالمهيلة في العراك وبالسنبوك في البحر الاحمر واذا كان صغيراً فلا يكون له عرشة فيشبه اذ ذاك البلم . اما اسمه جلبوت ، ولا يسمى كذلك الا في البحرين ، فهو على ما اظن تحريف jolly boat في الانكليزية اي مركب للنزهة لطيف .

يقيناً لولاه ، ولا توكل على سواه — شلنا وتوكلنا على الله .

كنا في الهجيع الثاني من الليل قريبين من بر ظنناه الاحساء. فما صدق الظن . وشد ما كانت دهشتي وخيبتي لما علمت اننا لا نزال عند بر الجزيرة. على ان الرياح تجاري اذا شاءت البخار ، وتسبق الحديد الدوار . ولا اظنك اذا كنت ملاحاً تماريني في ذلك . اجل ، عندما ينتفض فيمتلىء الشراع ، فقل للمسافات : الوداع . ان هي الا ساعة حتى اجتزنا رأس البر وكان الهواء قد اثقل جفني فنمت قليلاً ، ثم ايقظني صوت الملاحين وهم اذ ذاك يشتغلون في قلب الشراع طوعاً للريح ويرددون : صلِّ على النبي صلِّ عالا النابي ! وربك ايها القارىء ما سمعت في انغام الليل على المياه اطرب منها . الا ان يكون صوت المؤذن في الخليج وهو يؤذن الفجر . ليس في صلوات الامم كلها ادعى منه الى الورع والخشوع ، وقلَّ فيها ما هو اجمل وقعاً في النفس من صلاة الملّاح في ظل الشراع

صلى اخواني الفجر ، عند ما دخلنا ميناء العقير ، ورفعوا العلم ، علم ابن سعود ، وهو اخضر ذو حاشية بيضاء مكتوب عليه : لا اله الا الله . وقد كان ينتظرنا هناك على الرصيف السيد هاشم وابو الفصر ، فمشينا معهما الى البيت المعد للضيوف ، وفيه سرير ابهجني مرآه . واعجبت كذلك بذوق رفيقي الذي علم السبب في ابطاء السفينة وقرأ في وجهي قصة الليلتين ، فتركني والسرير وانصرف .

ذكرت الامير والقصر . فلا يظنن القارىء ان القصر قصر وان الامير امير . بل هي اسماء اصطلح اهل نجد عليها . فهم لا يرغبون في الالقاب بل يزدرونها ، ولا يرون غير المساواة وقد ساوى بينهم دين التوحيد ، شرعاً وسنة . اما اذا شاء امامهم ان يسمي عماله امراء ، وقد يتضمن ذلك التحقير لمن يدعون النبالة ولا يستحقونها ، فهم لا يعترضون . واذا شاء النجدي ان

يسمي خربة له في الصحراء قصراً فلا الامام يعترض ولا الرعية . اما الامير الحقيقي عندهم فهو من يعبد الله وحده ، ولا يشرك به احداً ، ولا يخاف ولا يرتجي سواه . واما القصر الحقيقي فهو المسجد .

ليست العقير بمدينة او قرية ولا هي حتى مضرباً من مضارب البدو . انما العقير اسم لقصر من القصور التي ذكرت ، ولجمرك من جمارك نجد في الاحساء على ساحل الخليج . العقير هي احد موانيء السلطان الثلاثة يتبعها القطيف والجبيل شمالاً منها . ولكنها موانيء قلما يُرى فيها غير المراكب الشراعية . ومن العقير تبدأ الطريق الشرقية الى نجد .

اما القصر فهو بناء كبير مستطيل يقيم في جناح منه الامير والضيوف ، ويستخدم الجناح الآخر للجمرك وللحامية التي لا تتجاوز العشرة الانفار . وامام القصر على الساحل ساحة كبيرة تمرح فيها الابل وتُنزل اليها البضاعة ، فتتبادل سفن الصحراء وسفن اليم احمالها . الخام والارز والسكر من بمباي والزيت من عبادان — احملها يا بعير الى ما وراء الدهناء . والتمر من الحسا والجلود والصوف من سدير والوشم ، والسمن من الخرج والافلاج — خذها يا جلبوت الى البحرين لتُنقل من هناك الى ما دون الخليج والبحار .

الفصل الخامس

الملتقى في النفود

قدوم المندوب من العراق – خروج السلطان من الحسا – اول يوم على الذلول – الغزالتان – النفود – ام النز – الحمّار للجان – المراح والمناخ – الشيوخ – الارض الذهبية – السادة والخدم يلعبون – حلم تحققه الايام – « من الريم ! » « السلطان قادم اليكم » – التأهب لاستقباله – سجادة ورحل ونار مشبوبة – « يا سعيد ! » – الليل والنفود – « هنا المكان بموكب السلطان » – السلطان يزورنا في الخيمة – ما قيل له وما قاله بخصوص الريحاني – امراء العرب والوحدة العربية – « هنا (نحن) العرب » – أول من دعا الامراء الى الاجتماع والائتلاف – رجل يثق بالله وبنفسه .

يوم سفري من البحرين اخبرني الميجر دكسون بان المندوب السامي السر برسي كوكس يسافر من بغداد في القريب العاجل وقد يصل الى الجزيرة بعد بضعة ايام . وعندما وصلت الى العقير اخبرني السيد هاشم بان عظمة السلطان يخرج قريباً من الحساء ليلاقي المندوب السامي في المكان الذي نحن فيه . فاخرجت خريطتي وقست المسافة بين الحسا والعقير – ٤٠ ميلاً – وقابلت بين اثنتي عشرة ساعة على الذلول ذهاباً ومثلها اياباً ، اذ لا بد من الرجوع مع السلطان ، وبين يوم على الشاطيء استعيد فيه قواي واستعد ، اتمرن على ركوب البعير ، للسفر في البادية ، فكان الحكم والحكمة في جانب الثاني ، وكتبت الى السلطان اطلعه على حقيقة حالي واستشيره في الأمر . – اذا امرتم بالقدوم اليكم او بانتظاركم في العقير فسمعاً وطاعة في الحالين .

حمل كتابي نجاب الامير صباح الثلاثاء ، وعاد صباح الاربعاء بجواب فيه ما تناهى من لطف الاسلوب ورقة الشعور . – الامر راجع لرغبة حضرتكم وتبعاً لراحتكم . وقد اخبرني السلطان انهم سيخرجون يوم الخميس من الحسا ويسيرون الهوينا ليصلوا صباح السبت الى العقير . كنت قد عزمت على

ملاقاته في منتصف الطريق اذا قويت على ذلك ، وعندما علمت من السيد هاشم بان سموه قد يرغب في الاجتماع بي قبل ان يجتمع بالمندوب السامي شددت حقوي وقلت : الى البادية .

أعدّت لنا الركائب فسرحنا — سافرنا — صباح الخميس انا ورفيقي الاديب يصحبنا خمسة من الخدم . وكان اول عهدي بالذلول[1] وبالنفود[2] فابهجتني هذه وازعجني ذاك . بل كنت في كل حركة احس بشيء تحتي او حول رجلي وجنبي لا يجوز في نظري ان يكون هناك . والغزالتان[3] بليتان، تدق الواحدة صدري والاخرى ظهري كلما حدوت الى الامام والى الوراء . والكور ، اكاد اطيح منه . هو مائل الى الامام ، مائل الى اليمين ، مائل الى اليسار ! والشداد — الرحل — ان فيه لما يحتك بالجنب ، وما يقرص

(١) الذلول الهجين المعد للركوب من ذلّل ذلله للركوب . ولا يكون الذلول غالباً الا ناقة وما سمعت له جمعاً فهم عندما يريدون الجمع يقولون الركائب .

(٢) النفود بادية رمل بين ساحل الخليج والاحساء تمتد من القطيف شمالا الى راس الجافورة جنوباً وعرضها من حيث تقطعها الى الحساء ٣٥ ميلًا . اما الاسم فقد يكون مشتقاً من نفد اي نفدت الارض من الماء والكلاء . والنفود تختلف عن الدهناء في تكوين تلالها الرملية وعلوها . فهي في بعض الاماكن شبيهة بالجبال وليس فيها مقالر اي مراع . والدهناء في بلاد العرب واحدة ، والنفود كثيرة .

(٣) الغزالتان خشبتان مرتفعتان مستقيمتان في الكور، واحدة الى الامام والاخرى الى الوراء تقيان الراكب من السقوط، وتستخدمان في التحميل لشد الحبال وتعليق الاحمال. وهما في شكلها وفي وضعها انواع. فالغزالتان في نجد مثل الخطين المستقيمين في الهندسة، او مثل الشمعتين في شمعدان واحد . وفي بعض الاكوار تراهما مائلتين الواحدة نحو الاخرى وترى الراكب بينهما كأنه فحمة في ملقط . ولكن التجدي على الذلول اقوم من الغزالة واثبت . اما في الشمال اي في بادية الشام فالغزالة توضع في شكل زاوية منفرجة Optuse , الواحدة الى الوراء والاخرى الى الامام ، فيصبح مكان الجلوس في الكور منفرجاً والراكب معها حدا في مأمن من الدق والاحتكاك . اما اهل عمان فهم يستغنون عن الغزالة ، والكور عندهم مثل السرج الانكليزي .

الرجل ، وما يبي . — اي والله يبي . الادب ! يا سيد هاشم . . . فاجابني بقوله : ابشر ابشر .

بارك الله فيه ما كان الطفه في تلك الايام واكرمه . أنخنا الركائب ، وجاء احد الخدم يقول سَم [1] فعدل الرحل واصلحه . ثم ركبنا وتوكلنا على الله ، فاجتزنا الاول والثاني من افاق النفود الذهبية ، ووصلنا الى مكان يدعى ام الذر [2] ، أنخنا فيه وكنت انا اسرع الى ذلك من سواي . لان « سم » الخادم لم تصلح الرحل ولا ألانت قلب الغزالة . عند ما أنخنا طفق الربع ينكتون الرمل بايديهم فيظهر الماء تحت قدم او قدمين منها . ان ام الذر مورد القوافل الوحيد في هذه الطريق من النفود .

ملأنا القرب واستأنفنا السير . وكان معنا حمار مجان ، كثير الاسفار والهذيان ، يحمل حماره بعض المواعين والحطب ، وهو يعدو وراءه كالسعدان ، فيرقص رجليه ويديه ، ويسمعنا نكات اهل الامصار — البصرة والبحرين والكويت — ويمثل لنا رقص البطن ، ويردد كلمات ما سمعتها لا في الشرق ولا في الغرب . حمار مجان ! ما رأيت اصقع منه حينا كان يجثو على ركبتيه كل مرة يظن نفسه اجاد ، وما اجاد بغير البذاءة لفظاً وايماء . على انه انساني بعض ما كنت اقاسي من ركوب الذلول . وكانت ضحكتي تضيع في قهقهة الربع ، وكلمتي تتلاشى عند امواج ثرثرتهم .

— اسمع يا هويدي — تصغير عبد الهادي — جاوب الاستاذ . هو يسألك أيشو الـ « موتر » [3] ؟

(١) سَمْ مختصر بسم الله في اصطلاح اهل نجد .

(٢) ام الذر من شجر حول المكان يدعى الذر وهو شبيه بالعشر .

(٣) في البلدان العربية على ساحل الخليج وفي العراق يسمون السيارة « موتر » من اسمها الانكليزي Motor ويطلقون في البصرة اسم الموتر على الراقصة التي تجيد الرقص .

– الموتر يا افندي تجري ، وتنزل ، وتدور . الله ، الله ! الدعشوقة ، الخفيفة ، السريعة الحركة هي الموتر .

قال هذا ووقف يهز كتفيه وعطفيه . مهما كان من بذاءة الرجل فقد احسن الي في يومي الاول في البادية ، فخفف مشقة عشرين ميلاً اجتزناها في ذاك اليوم . ثم مرحنا[1] العصر في مكان يدعى العلاة[2] وعلمنا من بعض الذين كانوا قادمين من الحسا بان الشيوخ[3] مارحون في الجشة على مسافة عشرة اميال منا . فارسل السيد هاشم رسولاً يعلمهم بمكان مراحنا ، واننا سنقف لهم هناك في الطريق صباح الغد واظنه رغبة في راحتي ، اباح للرسول بما كنت احاول كتمانه . قل للامام : ذبح[4] الذلول الاستاذ .

ولكن التعب والالم لا يدومان طويلاً في فسح الرمال وسكينة النفود . فبعد أن نصبنا الخيمة وشبينا النار وتقهونا[5] تهافتت حسنات المكان علي . فلكني من السرور ما كان قد هجرني راكباً ، ورحت اتغنى بمدح ارض يحلو هواؤها ، يحلو شكلها وفسحاتها ، يحلو لونها وسكونها ، يحلو وطؤها ، تحلو مجسّتها . وبعد العشاء تبارينا برمي الجريد ، وتسابقنا حفاة في العدو ، ووقف ماجد على يديه ليبرهن لرجحان ان رجليه ارفع من رأسه (اي رأس رجحان) وانه مستقيم وان كان ابدُوي – بدوياً – كيفما وقف او مشى ، وانه قوي

---

(١) مرح القوم اي اناخوا للمبيت وسرحوا اي خرجوا من مراحهم . ويسمى المكان المراح . اما الاناخة فلا تكون الا للراحة ولشرب القهوة اثناء الرحيل .

(٢) العلاة من علو المكان على ما اظن وهو لا يعلو اكثر من ثلاثمئة قدم فوق سطح البحر .

(٣) يطلق لفظ « الشيوخ » في الاصل على الامام وحاشيته من اقاربه وخدمه اذا كانوا مجتمعين . ولكن اهل نجد يخرجون من القاعدة الاصلية فيقولون الشيوخ وهم يريدون السلطان او الامام بعينه .

(٤) انهكه واضناه في اصطلاحهم .

(٥) شربنا القهوة .

يغلبه بكل شيء : بالصراع ، بالعدو ، بالقنص ، بالركوب ، وبالـ . . .
أوقفناهما عند هـذا الحد في المفاخرة ، فاستعاضوا عنها بالغناء و « اللعب »
اي الرقص .

دخلت الخيمة والخدم لا يزالون في السمر ، فاستلقيت على السرير وانا
في بهجة من حققت الايام حلماً من احلامه . فها هي الصحراء ، وهوذا الهجين ،
وهؤلاء العبيد عبيدي ، وها انا ذا جار لامير من امراء العرب ، لسلطان نجد .
ما كاد هذا الحلم الذهبي يغمض جفني حتى سمعت صوتاً يسأل : مَن الربع ؟ ثم
اناخ عند نارنا رجلان عرفهما السيد هاشم ، رجلان من رجال السلطان ، جاءا
ينبئاننا بان رسولنا وصل وان سموه — نهض السيد هاشم مدهوشاً وبادر اليّ
يقول : قم يا استاذ ، قم حالا . السلطان قادم الينا .

نهضت مسرعاً فلبست ثيابي - وما احسن الثياب العربية خصوصاً في مثل
هذه الحال . حسبك عباءة تغطي بها قميص النوم ثم كوفية وعقال ثم — حي
الله الجاي ، مرحباً بالضيف .

راح الربع يجمعون الحطب للنار وفرشنا انا والسيد هاشم البيت ! مددنا
السجادة ثم وضعنا الكور في الصدر مسنداً على عادة العرب — وهذا كل ما
هنالك تأهباً لاستقبال مليك من ملوك العرب .

وكان الليل صافي الجبين ، رقيق الجلباب ، شأنه في البادية . تدنو النجوم
في سمائه من الارض بريقاً ، وتُسمع فيه الاصوات ، كأنها على طول المسافات ،
الابواق في الغابات ، لها دوي لطيف ينجد ويغور ، وصدى يتموج كالنور .
وما ارهب وما اجمل صوتاً سمعناه آنئذ وراء الاكام في مروج الليل ينادي :
يا سُعَيْد — يَنْعَـايَـد ! مبشراً بقدوم السلطان او بمروره في ذاك
المكان . ان المنادي ليتقدم الموكب السلطاني حتى اذا سمعه احد من البادية
او الحضر يروم من سيد البلاد امراً ، او يحمل اليه شكاية ، او يبغي

الركوب في موكبه ، فهو يقصد مسرعاً الى مكان الصوت فيفوز ببغيته — يا سُعَيد — يَنعَايـد ا [1].

وبعد هنيهة ضج المكان ، بموكب السلطان ، فاناخ عندنا ، على اكتنا، حول شراعنا الصغير ، مئتان من الركائب ، وهي تربد وترغي . إخ — إخ — وصوت الخيزران على رقاب البعارين كصوت المطر على النخيل . ثم نُصبت الخيام ، وشبت عشرات من النيران ، وسُمعت على القور المداق في الاجران.

خرجنا نبادر الى استقبال الزائر الكبير ، فاذا هو قد خف الينا ، وفي معيته اثنان فقط من حاشيته . قلت الزائر وهو الذي شا. تلطفاً وتنازلاً ان يعكس الاية . وكانت المشاهدة الاولى على الرمل ، تحت السما. والنجوم ، وفي نور النيران المتقدة حولنا . الفيته رجلاً لا يمتاز ظاهراً بغير طوله ، وكان يلبس ثوباً ابيض ، وعباءة بنية ، وعقالاً مقصباً فوق كوفية من القطن حمراء.

اين ابهة الملك وفخفخة السلاطين ؟ انك لا تجدها في نجد وسلطانها . وان اول ما يملكك منه ابتسامة هي مغناطيس القلوب . لست ادري كيف حييته وانا في دهش وابتهاج من تلك المفاجأة الكبيرة . ولكنني اذكر انه حياني باسماً بالسلام عليكم وظل قابضاً على يدي حتى دخلنا الخيمة ، فجلس والكور الى يمينه يستند اليه ، والنار قبالته تنير وجهه . ثم عرفني بمن كان

---

(١) سُعيد تصغير التصغير الشائع كثيراً في نجد وسعيد نداء ابن سعود يدل على تواضع في امراء هذا البيت جميل . كان الامير يقول لكل واحد من رعيته : ان السعادة الكبرى من الله . واما الصغير الصغير منها فقد يجيئكم من الامير . ولاكثر امراء العرب منادون وكلمة نداء خاصة بهم ينادى بها كذلك يوم يخرج الامير الى الحرب او الى الغزو . في الحجاز مثلاً كان نداء الملك حسين : يا فرحان . وفي جبل شمر كان نداء ابن الرشيد : يا مرزوق .

في معيته ، وهما الدكتور عبدالله الموصلي[1] وعبداللطيف باشا المنديل[2] فجلسنا كلنا في صف امامه .

وما اضعنا وقتاً في تبادل المبتذل من السلام والتحية . اعتذرت عن الابطاء في الوصول اليه وقلت ان ساطلعه على حقيقة الامر فيعلم ان الذنب ليس ذنبي ، فقال : علمنا بذلك واستغربناه . اما نحن فما ترددنا ولا ابطأنا في الجواب . وكيف نرد من يبغي زيارتنا وهو من صميم العرب ؟ قالوا لنا انك اميركي جئت تنشر الدين المسيحي في البلاد العربية . وقالوا انك تمثل بعض الشركات وجئت تبغي الامتيازات . وقالوا انك قادم من الحجاز وانك شريفي تسعى لتحقيق دعوة الشريف . وقالوا غير ذلك . فقلنا اذا كان في الرجل ما يضر فنحن نعرف كيف نتقيه . واذا كان فيه ما ينفع فنعرف ايضاً كيف ننتفع . ونحن اعلم يا حضرة الاستاذ بهمتك . بارك الله فيك .

فاستأذنته اذ ذاك ان اخبره بالمقاصد الثلاثة في رحلتي فقلت : وقد تم الاول بمشاهدتكم ، وسيتم الثاني بما سأكتب ان شاء الله في ما شاهدت . اما الثالث فلا يتم الا بمساعدة ابن سعود . واني متيقن يا مولاي ان الوحدة العربية لا تتحقق الا باجتماع امراء العرب كلهم للتعارف اولاً والتفاهم ، فهم اليوم في معزل بعضهم من بعض اذا لم نقل في احتراب دائم ، ولا يعرف

(١) الدكتور عبدالله الدملوجي الموصلي هو طبيب السلطان ، وكاتب سره في الامور الخارجية ، ورسوله وترجمانه ووكيله في ما يختص بالاجانب سواء اكانوا من رجال الحكومة ام من رجال العلم السائحين ، والدكتور عبدالله درس في الاستانة ، وخبر الطبابة في الحروب وخبر الحياة في عواصم اوروبا ، فطاف وشاف وعاف ، عافاه الله ، ثم رسا في نجد .

(٢) عبداللطيف باشا المنديل ، صديق السلطان الحميم ووكيله في العراق ، هو نجدي الاصل ، عراقي الاقامة ولا يزال للبداوة اثر في حديثه وفي سلوكه الحر . راجع الحاشية في آخر الفصل الثاني عشر من القسم الثامن .

الواحد منهم الآخر معرفة حقيقية .

فاجابني بكلمة صريحة رددتها بمثلها دون ان ادرك انها تلمس فيه وتراً حساساً . فقد تكلمت في حضرته عن امراء العرب كما تكلمت في حضرة سواه واكنه ، وهو يعرف انه كبيرهم ويظن انهم في غير بلادهم لا يُعتد كثيراً بهم ، لم يسكت عما قلت . فما كدت انتهي من كلمتي ان امراء العرب في عزلة بعضهم عن بعض حتى قال : ومن هم العرب ، حنا العرب[1] قال ذلك وضرب السجادة بقضيب يحمله من الخيزران .

من غريب الامور اننا في الجلسة الاولى تناقشنا في الموضوع . وما كان ذلك نقصاً في تأدبي . فلم اكن لاقدم على مساجلته في تلك الساعة لو لم يتقدمني بصراحة علمت بعدئذ انها من سجاياه الكبيرة ، وانه قلما يقف فيها عند حد من حدود التحفظ . اجل ، قد هدم السلطان بكلمة من كلماته حواجز الرسميات ، فجعل نفسه تنازلاً في مقام الصنو والرفيق .

— لك الحرية يا حضرة الاستاذ ان تتكلم معي بكل حرية . ولا اقبل منك غير ذلك . وانا اكلمك بكل حرية . ولا تتوقع مني غير ذلك . انت تقول امراء العرب . اسمع انا اعلِّمك . انا اعرفهم ، وقد خبرتهم ، عجمت عودهم ، العرب يا حضرة الاستاذ لا يعرفون الا مصلحتهم ، وغالباً لا يعرفونها فنعلمهم بها ونكرههم عليها . وقد قاسينا كثيراً في سبيلهم ، وكانت الخيانة في اقرب الناس منهم الينا .

دخل عبد من العبيد يحمل بيده اليسرى ابريق القهوة وباليمين الفناجين فصب للسلطان اولاً ثم لي ثم للحضور .

— اتعرف يا استاذ اننا اول من دعوا امراء العرب الى الاجتماع والائتلاف ؟ وسنطلعك ان شاء الله على ما يثبت ذلك . فتتأكد اننا اقربهم

---

(١) حنا اي نحن

الى الالفة والاتحاد . نحن اهل نجد لا نبغي المحافظة الا على امرين : ديننا وشرفنا . . . ثم قال : ولا نثقل عليك الليلة وفيك تعب يدعو الى النوم .

قمنا نشيع السلطان ، وكان قد انتصف الليل فخيم على المضارب السكون ، ولم يبق حولها غير بصيص من النار . وعندما عدت الى الخيمة التي كانت منذ حين مجلس سلطان اقل ما يقال فيه انه عربي حر كريم لم يكن « فيّ » لا تعب ولا نوم ، فاشعلت الشمعة وكتبت في مذكراتي بضع صفحات انقل منها ما يلي :

« ها قد قابلت امراء العرب كلهم فما وجدت فيهم اكبر من هذا الرجل . لست مجازفاً او مبالغاً في ما اقول . فهو حقاً كبير : كبير في مصافحته ، وفي ابتسامته ، وفي كلامه ، وفي نظراته ، وفي ضربه الارض بعصاه . يفصح في اول جلسة عن فكره ولا يخشى احداً من الناس . بل يفشي سره ، وما اشرف السر ، سر رجل يعرف نفسه ، ويثق بعد الله بنفسه . « حنا العرب » ان الرجل فيه اكبر من السلطان . وقد ساد قومه ولا شك بالمكارم لا بالالقاب . . . غريب عجيب ! جئت ابن سعود والقلب فارغ من البغض ومن الحب كما قلت له . فلا رأي الانكليز ، ولا رأي الحجاز ، الا الثناء ، ولا المطاعن اثرت بي . وها قد ملأه ، ملأه حباً في اول جلسة جلسناها . على ان الحب لا يكون مقروناً دائماً بالاعجاب . سنرى . قد عاهدته على ان اكلمه بصراحة وحرية . وسأكون في ما اكتب كذلك حراً صريحاً . . . ولكني احسن شيئاً من الفراسة ، وصرت اركن الى ما تشعر به النفس في المقابلة الاولى . فضلاً عما عندي الآن من الملوك للمقابلة والتفضيل . . . اني سعيد لاني زرت ابن سعود بعد ان زرتهم كلهم . هو حقاً مسك الختام » .

كانت الساعة الاولى بعد نصف الليل عندما نمت والساعة الرابعة عندما ايقظني رفيقي السيد هاشم قائلاً : قام السلطان . وكانت ضجة التأهب للرحيل . سمعت الابل ترغو وتمج وقد بادر العبيد والخدم اليها بالرحال والاحمال . ورأيت النار تشب في كل جانب ، وسمعت المداق في الاجران تدق البن ، ثم صوتاً يؤذن الفجر : الصلاة خير من النوم . الصلاة خير من النوم ! لا اله الا الله ، لا اله الا الله ! وما هي الا فترة حتى صلى السلطان ورجاله وشربوا القهوة وارتحلوا . رفع العرب الخيام ، كما يقول الشاعر الانكليزي ، وسرحوا ساكتين .

الفصل السادس

في موكب السلطان

السفر في نجد – غُلِبتُ في الابكار – مهارة تجيئني فجأة كالوحي – في موكب السلطان – من نحل السامر في التنود – حديث في السياسة – اميركا والرئيس ولسون – اوروبا باب من حديد لا شيء داخله – الضحى – الاستقبال على الرمل – « افقر الطنافس في مجلس الله » – المراح – ساعة مع السلطان – الذهاب في البادية – الصلاة – السلطان يغضب – فهد الهذال والانكليز – لا نبغي غير الحق ولا نخاف غير الله .

من عادات العرب في السفر ، خصوصاً عرب نجد ، انهم يبكرون وغالباً يسرون . والسلطان عبدالعزيز ابكر المبكرين دائماً واعجلهم تأهباً للرحيل . حتى انه ليصلي الفجر احياناً اول وقت الصلاة كي لا يضطر الى الاناخة بعد ذلك قبل الضحى . هو نظام عسكري يتمشى عليه ، ولا بدع فالرجل قوي البنية ، شديد العصب ، يكفيه من النوم ساعتان ، ثم ربع ساعة للرحيل .

وها هنا غُلِبتُ . قد يكفيني ما يكفيه من النوم ، ولكني في يومي الثاني في البادية لا استطيع ما يستطيعه لا في التأهب ولا في الركوب . الا ان اعجوبة حدثت صباح ذاك اليوم فكان قد سبقنا الموكب الكبير ، موكب السلطان ، وسرت انا والسيد هاشم في موكبنا الصغير نحث الركائب حتى لحقنا به بعد ساعة . وكان الشفق يتموج وردياً وعصفراً على الاكم ، وعقال سلطان نجد الذهبي بادياً في رأس الموكب فوق كل الرؤوس . فاخترقت الصفوف ، احث ذلولي ، وانا معجب بمهارة في الركوب جاءتني دفعة واحدة ، فجأة ، كما يجيء الوحي الشعراء[1] . . . فاعتزلت ربعي وسرت مستقلاً ابغي

(١) قد يكون الفضل في ذلك للذلول لا لي . وقد علمت بعدئذ انها من العمانيات اي نجائب الابل التي تأبى السير الا في مقدمة الجيش .

الى جانب السلطان مكاناً . وفُزت به فادهشته فقال اذ رآني : ما ظنناك تنهض باكراً .

صبحت ابن سعود اول مرة من عُلى السنام في النفود . وسرتُ واياه نحدو في وجه الشمس بصف يتراوح عدده بين الخمس والخمس عشرة من الركائب يتبعه خمسة صفوف او خمسة عشر آخر دون نظام في مثل هذه الحال . اننا في الطريق لا الى الغزو ايها القارىء بل الى مؤتمر سلم يُعقد في البادية . لذلك كنت ترى البنادق[1] معلقة بالرحال من الوراء ، والسيوف في اغمادها ثم في بيوت من الجلد تتمايل حولها اللفائف الحمراء والشراريب الطويلة . وكل في رحله ملتف بعباءة السكينة والاطمئنان . انه لموكب بهيج مهيب . وكنت افضل السير في مؤخره لاملأ النظر منه لولا رغبة اشدّ ، وواجب احبّ الي .

السلطان عبدالعزيز فصيح اللسان ، سريع الخاطر ، لطيف الجواب . وهو مثل امراء العرب كلهم يقدم السياسة في الحديث وتهمه على الخصوص منها سياسة اوروبا في الشرق الادنى . على انه شاء صباح ذاك اليوم ان يكون الموضوع اميركا وسياستها مع الاحلاف .

سألني السبب في سقوط الرئيس ولسون فاعلمته بطرق الانتخابات هناك وبما للاحزاب السياسية من السيطرة على الحكومة وعلى البلاد .

— عجيب ألا يسوقهم الشقاق الى الحروب ؟

— يحلون مشاكلهم السياسية بالاقتراع .

— زين . وكم حزباً عندهم ؟

— الرئيسية اثنان والثانوية كثيرة .

— زين . وكيف يُرضي الحزب المنتصر بقية الاحزاب ؟

(١) العرب يختصرون لفظة بندقية فيقولون بندق جمعها بنادق .

– الاقلية تخضع دائماً يا مولاي لحكم الاكثرية .

– وكيف سقط ولسون اذاً وهو الحاكم والاكثرية مع الحاكم .

– لم تكن معه في الانتخاب الاخير فقد هجره من انصاره كثيرون انقلبوا واقترعوا عليه .

فهز السلطان عصاه يربت بها رقبة الذلول وقال : لا اظنهم احسنوا . لان ولسون رجل عظيم ، وله الفضل الاكبر في تنبيه الشعوب الصغيرة المظلومة . استنهضهم ولسون الى الحرية والاستقلال . وهو ايضاً عرّفنا بامير كا . ما كنا نعرفها قبل ولسون . اما اليوم وقد تكلم بلسانها فله فضل عليها كما ان فضلها على العالم . . . انا احترم امير كا ، يا حضرة الاستاذ ، وان كانت سياستها الآن مع الاحلاف غير سياسة ولسون . . . اميركا ام الشعوب الضعيفة . ونحن العرب منهم . والعاقل يكفيه التنبيه والاشارة . . . انا احسن اليك – ومال بوجهه اذ ذاك الى من كان في الجانب الآخر منه – أفتبغي كذلك ان اطعمك بيدي ، ان اضع اللقمة في فمك ؟ يكفي ما عملته امير كا ، ما قالته للشعوب الصغيرة المظلومة ، ما قاله ولسون عنها . والعاقل من سعى وانتفع .

اما اوروبا فللسلطان عبدالعزيز رأي فيها افصح عنه بكلمة بليغة وجيزة اذ قال : اشبه اوروبا اليوم بباب حديد كبير ولكن لا شيء داخل الباب . وهو لذلك لا يلوم اميركا على اعتزالها الاحلاف وانسحابها من السياسة الاوروبية . ثم قال مخاطباً احد رجاله : ان مشاركة امير كا واوروبا اليوم مثل مشاركتي انا ابن سعود وبادية الشام . ترى الصحيح .

فهز الرجل رأسه استحساناً .

صعدنا الى اكمة فسيحة مستديرة بين العلاة وام الذر اختارها السلطان مناخاً فانخنا وتفرقنا ارهاطاً كل رهط جلس في حلقة على الرمل . وكان وقت

الضحى [1] اي ساعة الفطور فطاف الخدم بجفان مما كان قد طبخ الليلة البارحة من الارز واللحم ، ثم قدموا التمر وصبوا اللبن من القرب لمن اراد ، فأكلنا وغسلنا ايدينا ، وكان قد اتم السلطان عمله مثلنا فسمعناه ينادي من مكانه : انجيئكم او تجيئوننا ؟ فبادرنا اليه فتصافحنا ثم عرفني ببعض حاشيته اذكر منهم اخاه محمداً وعبدالله بن متعب امير حايل الاخير وعمه فيصل بن الرشيد ، فوقفوا صفاً امامي بعد المصافحة والتسليم دون ان يفوه احدهم بكلمة . ثم ، باشارة من السلطان ، انصرفوا . فجلس اذ ذاك مجوه على الرمل وقال : تفضل يا استاذ ، هذه احسن سجادة عندنا .

يقيناً هي كذلك . فاي فرش انعم من رمل النفود وانظف ؟ واية سجادة اجمل لوناً واعجب صنعاً ؟ جلسنا متربعين على افخر الطنافس في مجلس الله . وكان السلطان فينا اجملنا اتضاعاً وافصحنا في لغة الحكمة والورع لساناً : « حنّا » اهل نجد نبغي المحافظة قبل كل شيء على امرين ، ديننا وشرفنا .

استأنفنا السير واتخنا بعد ساعتين عند ام الذر التي كانت مراحنا ذاك اليوم . فسرحت الابل ، ونصبت الخيام ، فكان فسطاط السلطان على رأس الاكمة والمضارب حوله متفرقة متنوعة ، منها الخيم الاوروبية ، ومنها بيوت من الشعر كبيرة وصغيرة . ثم حفرت الحفر وشبت فيها النار ، وأخرجت المعاميل [2] ، وبعد قليل شرع السقاة يطوفون بالاباريق والفناجين . جاء اذ ذاك عبد يدعوني الى مجلس السلطان فشربت القهوة هناك وبقيت وسموه ساعة كان الانكليز فيها موضوع الحديث .

عدت الى خيمتي وبي شيء من التعب والنعاس ، فوجدت فيها جيشاً من

(١) قبل الظهر بساعتين والمكان الذي ينيخون فيه للفطور يسمى المضحى .

(٢) المعاميل في اصطلاحهم هي ادوات القهوة اي مقلاة التحميص والجرن والاباريق والفناجين .

الذباب استحال علي طرده والتغلب عليه . ما رأيت حياتي اثقل واقبح من الذباب في البادية ، في صحراء الرمل ، في تلك الجنة التي جردها الله من كل شيء سوى السكينة والهواء الطيب ، فجاء الذباب يفسدهما عليك ومن يجيء ؟ هو يركب الذلول واياك . على ظهرها ، وعلى ظهرك ، وعلى رأسك ، يرافقك مواخياً ، فيسبقك الى الخيمة ويذبح فيك ما تبقى من أمل بالحياة .

ثم يُحيي الله سبحانه الامل عند الغروب . فيخرج الناس من الخيام ملبين دعوة المؤذن ويصطفون وراء الامام ، والسلطان في وسط الجماعة وأحد الحجاب وراءه يحمل السيف ولا يشترك في الصلاة[1] . وكانت اول مرة سمعت الوهابيين يصلون وهم يرنمون بعد تلاوة الفاتحة : آمين ، فتجيء شبيهة بصلاة المسيحيين . غير المغضوب عليهم ولا الضالين . اذ ذاك يصعد من الصفوف صوت متين من المصلين يرنم ترنيماً : آمين ! فيتراجع الصوت في الفضاء المهيب كصوت الاجراس في الجبال ساعة الغروب . ما اجمل اصوات المصلين في تلك الساعة التي تبشر بقدوم الليل وبركاته . اصوات المصلين وهم يذكرون الله رب العالمين — اهدنا الصراط المستقيم ! فمن ذا الذي يردد هذه الصلاة خصوصاً في البادية ؟ انها لطلبة تصح حقيقة كما صحت مجازاً في تلك الفيافي والمفازات . اي بالله . ان كل من سار حادياً في بحر من الرمال ، في ارض تهب فوقها الرياح فتمحو بنظرة كل اثر فيها من آثار البشر والحيوان ، ليبغي الصراط المستقيم . وانا لنهلك يقيناً اذا ضللناها .

في صباح اليوم التالي جاء نجاب من العقير يحمل البريد الذي يتبع السلطان الى حيث يكون ، وفيه خبر من البحرين بسفر المندوب السامي اليها . فدفع الكتاب الى اخيه ثم الى بعض حاشيته فتناوبوا قراءته وكل يهمس ان الخبر اغضب السلطان .

---

(١) قتل الامام تركي بن سعود في وقت الصلاة فجرت العادة منذ ذاك الحين في استخدام حاجب يحرس الامير ساعة يصلي في الجماعة .

سار الموكب والسكوت يظلله والمهابة تماشيه ، فما كنت تسمع غير صرير الرحال وطق الخيزران على رقاب الركائب . ثم رفع احد الركب صوته يتلو شيئاً من القرآن ، وكلنا نحدو في وجه الشمس ساكتين خاشعين ، وتحدو تحتنا الابل على نغم الايات . وبعد قليل ساد السكوت ثانية وقد تجسم فيه غضب الشيوخ . ثم تكلم فاعلمنا بما اغضبه صباح ذاك اليوم .

ان المندوب السامي على ما يظهر قد اصطحب رجلاً غير مرغوب فيه ، رجلاً من العرب الناقم عليهم ابن سعود . وهو فهد الهذال[1] شيخ العمارات في الشمال ، والعمارات فخذ من عنزى[2] . ولم يكن لفهد دخل في السياسة او على الاقل في المصالح التي سيعقد مؤتمر العقير من اجلها . بيد ان للانكليز قصداً باصطحابه كما ظن السلطان وقد جاءوا يحققون هذا القصد على حساب ابن سعود . وقد يكون لفهد الهذال كذلك قصد جاء يحققه على حساب الانكليز .

فرفع رجل نجد صوته في تلك الارجاء الرملية ، وهو على ذلوله ، والخيزران بيده ، يسير في راس الموكب ، بين اثنين من رجاله .

— لا لا هذا ما يصير . لا نتنازل عن شيء من حقوق اجدادنا . اما اذا قال الانكليز نبغي هذا منك وجاؤوني بامر مختوم فانا ابن سعود اسلم لهم : ولكن في اول فرصة تسنح اسعى لاسترجاع حقوقي المهضومة . ترى الصحيح . وماذا يبغون لابن الهذال ؟ وماذا يبغي ابن الهذال منا ؟ دعهم يغزلون فاننا لا نتحول عن جادة الحق ، ولا نعمل عملاً فيه ظلمة او غموض . ووجه هذا

---

(١) فهد بك الهذال انتخب بعدئذ عضواً في المجلس التأسيسي في العراق . وقد اصطحبه يومئذ المندوب السامي لانه كما قيل خبير بالحدود بين العراق ونجد . والحقيقة ان السياسة الانكليزية كانت ترجح اعطاءه بعض الاستقلال في ناحيته او تؤسس شيخة مستقلة من العمارات بين العراق ونجد على طريقتهم حول عدن .

(٢) العرب يسكنون فاء الاسم فيقولون عنزى .

الضحى ، لا نعمل عملاً ولا نقول كلمة فيها ظلمة او غموض . ولا نطلب غير حقوقنا ولا نخاف غير الله . . . ومن هو ابن الهذال ليجرأ علينا ؟ ابن الهذال الغزال ، ليغزل وعشائره ما شاؤوا وليغزل . . . الانكليز . . . من احلامهم . قال ذلك وهو يرفق الاستعارة بحركة من سبابته لطيفة . انا ابن السعود لا اعرف غير الجادة القويمة ولا اقول غير الحق . لست من الغزّالين . اما « الانكليز » فهم اصدقائي وانا صديقهم . اذا قالوا : نبغي هذا منك ، قلت : لكم ما تشاؤون . ولكن — ولكن الصبر له حدود . ويظهر اننا قربنا منها ذا الحين . ترى الصحيح .

الا لا يجهلن احد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

الفصل السابع

السلطان عبد العزيز

يتعل ويتطيب – عيناه وعصاه – الورد والنصل في شفتيه – ساعة الغضب – سرعة خاطره – تهكمه – نكتة من نكات – الريم الغالي – معيشة العتور – السلطان في الفسطاط – عرشه وفراشه – ساعته ولاظوره – « علينا الكبيرة والصغيرة » – حافظته وتيقظه – مع الانكليز على مائدة متبدلة – مع السلطان على الزمن – « نحتسي الي لنا والي علينا » .

السلطان عبد العزيز طويل القامة ، مفتول الساعد ، شديد العصب ، متناسق الاعضاء . وهو اسمر اللون ، اسود الشعر ، ذو لحية خفيفة مستديرة وشارب يقضبه على الطريقة الوهابية . له من السنين سبع واربعون ، وله في التاريخ – تاريخ نجد الحديث – مجد اذا قيس بالاعوام تجاوز السبع والاربعين والمئة . يلبس في الصيف اثواباً من الكتان بيضا ، وفي الشتاء « قنابيز » من الجوخ تحت عباءة بنية . وهو ينتعل ، ويتطيب ، ويحمل عصاً من الشوحط[1] طويلة يستعين بها على الافصاح عن ارائه – على تشكيل كلماته ، اذا صحت الاستعارة ، وتمكينها . ان له في الحديث غيرها من الاعوان . له انامل طويلة لدنة يشير بها في مواقف البلاغة . وله عينان عسليتان تنيران اماكن العطف والالطاف ساعة الرضى ، وتضرمان في كلامه ساعة الغيظ نار الغضا . وله فم هو كورق الورد في الحالة الاولى ، وفي الحالة الثانية كالحديد . يتقلص فيشتد ، فهو اذ ذاك كالنصل حداً ومضاء .

اجل ان ابن سعود ليتغير ساعة الغضب كل التغير ، فيذهب العطف من ناظريه ، ولون الورد من شفتيه . ثم في افتراره يستحيل النور ناراً بيضاء ،

(١) الشوحط شجر تتخذ منه القسي او نوع من النبع شبيه بالشريان ينبت في نجد الغربية

فهو اذ ذاك رهيب . سألني لما كان يصب غضبه على الهذال والغزالين[1] : وما رأيك يا استاذ ؟ وكان بيني وبينه بضع مطايا ولا رأي لي اصيح به في تلك الساعة ، فاجبته بكلمة مبتذلة : ان الله مع الصابرين يا مولاي . فردد الكلمة ووكز كتف ذلوله برجله ، فراح يُدرهِم وتبعناه كلنا مُدرهمين[2] .

لا اكتم القاري، انه اعتراني شيء من الانقباض اول مرة شاهدت ابن سعود غضباً . وكنت عندما يقاطعني الحديث قائلاً : اسمع انا اعلمك ، احس اني في مجلس رجل غير الرجل الذي زارني في خيمتي بالنفود[3] . بيد انه سريع الغضب سريع الرضى . فهو اذا ضرب الارض بعصاه مرة يلمس القلب منك عشر مرات . وقد يتسرع في الكلام احياناً ثم يَنتبه لذلك فينتزع من خصمه السلاح . أُحضر امامه رجل ليجيب عن ذنب اقترفه ، فقال بعد ان سمع قصته : الحق عليَّ لاني لم احذرك ، فلا اقاصك هذه المرة .

ان في الرجل ضيماً حياً كحلمه وسرعة خاطر تقارن التيقظ في ذهنه . يبدد بكلمة غيوم الانقباض في مجلسه ، ويجلو افقاً قد يكون الاضطراب فيه من كلامه . وهو خفيف الروح ، حلو النكتة ، لطيف التهكم . كان يحضر مجلسه احد الثقلاء المتعجرفين وهو من بيت معروف في نجد فقال السلطان يصفه يوماً : هو رُبع الدنيا ؛ ثم اردف كلمته بـ«الخالي» — ربع الدنيا الخالي . وقد اشار الى الربع الخالي في بلاد العرب — الخالي من كل شيء غير الرمال .

عندما نصبت الخيام للمؤتمر في العقير كان نصفها معداً للمندوب السامي

---

(١) اي اصحاب المفاسد والفتن .

(٢) الدرهام ، درهم يدرهم ، نوع من الخبب واللفظة من اصطلاح عرب نجد والحجاز وهو ثلاث درجات : درهام خفيف ، ودرهام «صقلاوي» نسبة الى الخيل الصقلاوية ، ودرهام يقرب من الغارة .

(٣) النفود : اي صحراء النفود بين ساحل الخليج الفارسي والاحساء .

ووفد العراق ، وهي من الخيام الكبيرة الجميلة ، وكانت في معزل عن خيامنا بيننا وبينها قرب مئة باع ، وفيها فسطاط للاستقبال وآخر للاكل تناولنا فيه الشاي يوم وصولنا . فقال سموه : هذا شاي متمدن — وكان قد صُب مع الحليب في فناجين كبيرة بدل ان يكون صرفا في الاقداح كما هي العادة في نجد والحجاز — شاي متمدن !

وسلطان يتهكم ويسر . كان عندما ينتقل من الجهة العربية الى تلك الجهة الاوروبية يقول لي : الى مدنية العقير ، تعال يا استاذ نسافر الى البلاد المتمدنة . لا تظننا بعيدين كثيراً عنها ، عشر خطوات فقط . . . وها نحن في المدنية — مدنية العقير — هات الشاي يا غلام ! ثم يجلس على الكرسي قائلاً : لنتمدن قليلاً . تفضل يا استاذ شاركنا في التمدن . وهو يشير الى كرسي آخر .

نصبت خيام تلك المدنية وخيامنا على تل مشرف على الخليج وفي معزل عن القصر . وكانت خيمتنا ، انا والسيد هاشم ، عند رأس التل قرب الفسطاط السلطاني الكبير ذي الابواب الاربعة التي يُفتح ويُقفل بعضها وفقاً لمهب الريح ولرغبة سموه في الهواء . كان الفسطاط مفروشاً بالطنافس وفي الصدر فراش فوقه سجادة فخمة ورَحل يُقسمه الى مجلسين ، مجلس السلطان — عرشه — ومجلس اخر لمن يُكرم اكراماً خاصاً من الضيوف .

لكل عربي ، من هذا القبيل ، بيته وعرشه ، اي المِضرَب ، والسجادة ، والرَحل . والسلطان عبد العزيز مثل كل اعرابي ينام على الفراش والسجادة في الليل ، ويضعها تحته على الكور في السفر . وهو لا يحمل شيئاً في جيبه ، لا ساعة ، ولا قلماً ، ولا ذهباً ، ولا فضة . وربما لا يكون في ثيابه جيوب البتة . الا انه يحمل ساعة في خرج عند السفر ويضعها تحت الوسادة عندما يقيم في مكان . يحملها في الصندوق المخملي الذي جاءت فيه من المعمل .

ويحمل كذلك ناظوراً كبيراً لا غنى له عنه . فهو دائماً يراقب من مجلسه حركات رجاله وخدامه حتى انه لا تمر غيمة في الافق الا رفع اليها الناظور متيقناً متثبتاً . — امرنا مُشكِل يا حضرة الاستاذ . علينا الكبيرة والصغيرة . فاذا كنا لا نداوم المراقبة لا نكون عالمين بكل ما يتعلق بشؤوننا . . . العبد والامير ، عيننا على الاثنين حتى ننصف دائماً الاثنين ونعدل بينهما .

كان اذ ذاك يراقب قافلة اناخت عند خيمة المونة تحمل الينا الخضر والماء من الاحساء . فامر ان يحضر قيّمها ، فسأله سؤالاً بخصوص جمل من الجمال ، فقال القيم : هو حرون يا طويل العمر . فاجابه السلطان : اتركه يرعى مع الجيش[1] لا ترجعه معك .

ثم عاد الى حيث وقف في الحديث فأستأنفه قائلاً : العدل عندنا يبدأ بالبل — الابل — ومن لا ينصف بعيره يا حضرة الاستاذ لا ينصف الناس .

كثيراً ما يقف السلطان عبدالعزيز في حديث مهم لينظر في امر ظاهره طفيف ، ثم يدخل عليه احد الخدم او الكتاب فيقطع عليه الحديث ثانية فينظر في الامر الثاني ، ثم يعود — وهذا ما كان يدهشني جداً — الى الكلمة الاخيرة من حديثه الاول دون ان يسأل كما هي العادة في مثل هذه الحال عند اكثر الناس : ماذا كنت اقول ؟ لا . ما سمعته مرة ، وكانت احاديثنا معرضة دائماً للتقطيع ، يسأل هذا السؤال . فهو شديد الحافظة ومتيقظ دائماً . عليه الصغيرة والكبيرة يقيناً . وله اليد الصالحة المصلحة في الاثنتين .

اقمنا في العقير ثلاثة ايام قبل وصول المندوب السامي وكان الخدم في اثنائها — العرب وربك — يشتغلون في تشييد المدنية الجديدة ، مدنية العقير ! نصبوا الخيام ، وفرشوها بالطنافس ، والكراسي ، والمنضدات ، واواني الشرب ، والغسل ، ومعدات الكتابة . لم ينقص حتى في فسطاط المائدة

---

(١) الجيش تطلق على مجموع الابل من ركائب ومحملات .

شيء من اسباب المدنية ونوافلها . فقد جيء لاخواننا المتمدنين بالماء ليس من وراء الحبابل من وراء البحار — من اوروبا في القناني المختومة . وما فات الانكليز منهم شيء مما القوه . اما نحن في مضارب البدو فما كان فينا على ما اظن من يحسدهم على ذلك .

اعجب لهؤلاء الانكليز الذين لا يتنازلون عن شيء من « انكليزيتهم » حتى في البادية رأيت احدهم في رحلتي يسير وفي قافلته حمار يحمل صندوقين كبيرين من قناني الصودا . واظن ان الوسكي كانت مخبأة في الاحمال الاخرى . ولما دعيت الى تناول الطعام على مائدة المندوب السامي كان سعادته وسعادة حاشيته وصاحب الاقبال مندوب العراق في الثياب الرسمية (smoking) بالعقير ! وانا وحدي مع السلطان في الثياب العربية . فسر صحوه بذلك . ولكنه لم ينتقد « الانكليز » حتى ولا مندوب العراق العربي الذي لم يتنازل فيلبس العباءة والعقال .

اكلنا تلك الليلة بالاسباب ، اي الشوكة والسكين والملعقة ، وشربنا من ماء « بريه » المبارك ، وقدم لنا الطعام بانتظام وترتيب ، وكانت الحلويات تزيد على ما تعودناه ، وفوق ذلك الثمار من موز وتفاح وبرتقال . ولكننا لم نشعر في تلك الليلة بان سعادتنا قد تمت على الارض وكللت في زاوية من الجنة تدعى العقير .

خرجنا من فسطاط المائدة الى فسطاط الاستقبال فودعنا المتمدنين عند الباب ، وسرت والسلطان عبدالعزيز ، وقد نزعنا نعالنا ، نتمشى وبيدي في يده ، حفاة على الرمل — على الرمل البارد المنعش ، تحت النجوم القريبة البريق ، الدافئة الضياء . فاحسست اذ ذاك بان ما يقربني من هذا الرجل ويقربه مني ليتجاوز اللياقة والاشتراك ذوقاً ببعض العادات . هو هو السر الذي يقرب منا النجوم ويبرد تحت ارجلنا رمال البادية . اليك ايها القارىء كلمة اخرى من مذكراتي :

« مهما قيل في ابن سعود فهو رجل قبل كل شيء . رجل كبير القلب والنفس والوجدان . عربي تجسمت فيه فضائل العرب الى حد يندر في غير الملوك الذين زينت آثارهم شعرنا وتاريخنا ، وتجسمت فيه كذلك من آفاتهم ما لا يحاول ان يخفيه رجل صافي الذهن والوجدان ، خلو من الادعاء والتصلف ، خلو من التظاهر الكاذب . قص علينا ليلة امس قصة حرب من حروبه وبيت الرشيد وختم قصته العجيبة بهذه الكلمات : لا اخذناهم في تلك الوقعة ولا كسرونا . ترى الصحيح . نختشي اللي لنا واللي علينا[1] نفخ بعد ذلك في يده وقد رفعها في شكل بوق الى فمه كأنه يقول : ننثرها كالهواء لمن يريدها ولا نخاف غير الله .

---

(١) نحكي الذي لنا والذي علينا . عرب العراق والشام يلفظون الكاف ثش وعرب نجد يخففونها فيلفظونها تس . نختشي – نحكي .

الفصل الثامن

بين العراق والحجاز

مؤتمر المحمرة – المعاهدات بين نجد والعراق – العمارات والضفير – هم اهلنا عبثنا – وعندنا حجج ثلاث عورها – رعايا اجدادنا – العمارات والروله فخذان من عنزي – نوري الشعلان وفهد الهذال – ابن سعود والانكليز – الشريف واولاده – جريدة القبلة – عتاب من الملك حسين – حاوي نور – مصالح الانكليز في الخليج العجمي – ابن سعود حامي بريطانيا العظمى – لا يساعدون الامراء في عقد مؤتمر عربي عام ولا يتركون الامراء وشأنهم – حيث يحسمون الخلاف بين اميرين متخاصمين .

اول مرة قابلت المندوب السامي في بغداد قال لي ، كما يذكر القارىء ، ان القصد من زيارته لابن سعود هو ابرام المعاهدة بين نجد والعراق ، تلك المعاهدة التي عقدت في مؤتمر المحمرة ولم يوقعها السلطان عبدالعزيز لان مندوبه تساهل يومئذٍ في امر القبيلتين ، العمارات والضفير ، اللتين يدعيهما وتدعيهما كذلك حكومة العراق . وقد قال لي الملك فيصل ان خير حل لهذه القضية هو ان تعين لجنة من الخبراء بالعشائر والحدود للنظر فيها ، وان تقبل الحكومتان حكمها . فجاء السر برسي كوكس الى العقير ليقنع صديقه ابن سعود في وجوب عقد المعاهدة وقبول حكم الخبراء في العمارات والضفير .

ولكن السلطان عبدالعزيز جاء الى الحسا ثم الى العقير لغير هذه الغاية ، ولم يكن يخطر في باله ان المندوب السامي وحكومة العراق يبغيان تجديد النظر في معاهدة المحمرة . فلما علم صباح ذاك اليوم بقدوم المندوبين غضب تلك الغضبة الشديدة وهو راكب في موكبه يجتاز النفود . ومما قاله لي انه هو الذي طلب الاجتماع بالمندوب السامي ، فدعاه الى الحسا ، وجاء من اجل ذلك يلاقيه الى العقير . اما العمارات والضفير فما كان ليكلف نفسه الخروج

من الرياض من اجلها . وقد كان اعد لمندوبه في مؤتمر المحمرة دفاعاً عن حقوقه فيها هذه خلاصته :

اولاً : عند ما سقطت دولة آل سعود ، انقسمت الى قسمين كان احدهما بيد الترك والاخر بيد ابن الرشيد . ثم ظهر السلطان الحالي ، الذي احيا تلك الدولة واستعاد ملك ابائه واجداده . فاستولى على نجد ، واخذ القصيم من يد ابن الرشيد ، وهزم الترك وطردهم من الاحساء والقطيف . وهو لا يزال يطالب بما تبقى من املاك اجداده وعشائرهم شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً .

ثانياً : ان عشيرة الضفير التي تقطن اليوم الشامية « بالعراق » كانت في الماضي من رعايا آل سعود . اما العمارات والولا فهما فخذان من افخاذ عنزى ، وكانوا يسكنون نجداً خصوصاً القصيم ، ومشايخهم بنو الهذال وبنو الشعلان هم ابناء عم آل سعود ومن رعاياهم .

ثالثاً : ان الانكليز عند ما احتلوا العراق احترموا فيه حدوده السابقة التي كانت تحترمها الحكومة العثمانية . كالحدود الشرقية بين حكومة ايران والعراق مثلاً ، والجنوبية بين العراق والكويت . وقد اعترفوا ايضاً بالاحوال الجارية والقواعد المرعية بين الترك قبلهم وحكام العرب المجاورين لهم ، وفي مقدمتهم امارة بيت الرشيد . وبما ان سلطان نجد الحالي استولى على امارة الرشيد . وادخل في ملكه وحوزته جميع ما كان لتلك الامارة المتفرقة من بادية وحضر ، فله الحق بن كثرد او تسرب منهم ، اي العمارات والضفير ، الى العراق .

كثيراً ما سمعت السلطان يقول : هم رعايا ابائنا واجدادنا ، بل هم ابناء عمنا . وهذه الكلمة الاخيرة كانت غالباً تسبق كل حجة في كلامه عن الخلاف بينه وبين امراء العشائر — هم ابناء عمنا . اضحكتني مراراً منه هذه الكلمة ،

بل شغلت بالي . فقد خفت أن تصل دعواه الى سوريا والسوريين وهناك الطامة الكبرى . الا ان قوله ان ابن الهذال وابن الشعلان من ابناء عمه هو مبني على كونهما شيخي العمارات والرولا . وهاتان القبيلتان فخذان من عنزى كما قلت ، وعنزى كما هو مدون في كتب الانساب ، اخو وائل من ربيعة ، ونسب ابن سعود السلطان عبدالعزيز يتصل ببكر ابن وائل . فقبيلة عنزى اذن هي كلها جمعاء ابنة عمه وله عليها حق الرعاية . واذا كان نوري لا يحسن سياسة عشائرها وفهد لا يستطيع ان يؤدب بدوها ، فالشوحط بيد ابن سعود يلبي الطلب . وما الشوحط الا الخشبة ، اذا كان لا يسارع به الى الشمال فيحمي ذمار ابنة عمه عنزى المتشردة الضاربة في بوادي العراق والشام ، شمالي جبل عنيز شرقاً وغرباً ، ويعلمها حسن السلوك ، ليطمئن بالك يا فهد ، وليطمئن بالك يا نوري ، وليطمئن بال صديقتيكما انكلترا وفرنسا . ان لشوحط ابن سعود ما يشغله عنكم الان . ولكن من يكفل المشاهرات والانتدابات الى الابد ؟

قلت ان السلطان عبد العزيز هو الذي دعا السر برسي كوكس اليه ، وجاء يلاقيه في العقير اما القصد من هذه الدعوى فمزدوج . حدثني سموه قال : « يظن الناس اننا نقبض من الانكليز مبالغ كبيرة من المال . والحقيقة انهم لم يدفعوا لنا الا اليسير مما تستحقه الاعمال التي قمنا بها اثناء الحرب وبعدها . ونحن لا نخلف معهم قبل ان يخلفوا معنا . بيننا وبينهم عهد نحافظ عليه ولو تضررنا في انفسنا ومصالحنا . . . الانكليز مديونون لنا ، ترى الصحيح يا استاذ ، ونحن لا نطالبهم ، من العار ان نطالبهم . ولكن ما هي سياستهم الان ، تراهم يغزلون وينزلون . تراهم يدسون الدسائس علي — علي انا صديقهم ابن سعود — احاطوني بالاعداء . اقاموا دويلات حولي ، ونصبوا من اعدائي ملوكاً ، وهم يمدونهم دائماً بالمساعدات المالية والسياسية . الشريف في الحجاز ، وابنه عبدالله في شرق الاردن ، وابنه فيصل في العراق . . . ما

القصد من هذه الاعمال ؟ وما الداعي أليها ؟ انا ابن سعود صديق الانكليز وهم في سياستهم الشريفية يعاملونني معاملة العدو . . . ومن هو ابن سعود في نظر الشريف واولاده ؟ هو الجلف الكافر الخارجي . ترى الصحيح يا حضرة الاستاذ . قد قالوا ذلك . بل قالوا اكثر من ذلك . وهم مع ذلك يطلبون مني ان احمل على الفرنسويين في سوريا لاخرجهم منها . ترى الصحيح »

ونادى اذ ذاك احد كتاب ديوانه ، فامره ان يحضر بعض اعداد من جريدة القبلة ، فاطلعني فيها على قصيدة تثبت كلامه الاخير . قصيدة لشاعر حجازي يستنجد سلطان نجد على الفرنسيس في سوريا . وفي عدد آخر مقالات كلها مطاعن في ابن سعود الجلف الخارجي . فقلت : الصحافة يا مولاي واحدة ، ان كانت في ظل الحرمين اوفي ظل برج ايفل . والرجل الكبير لا يكترث باقوالها . فقال السلطان وكان قد احتدم غيظاً ، فذهب القرمز من شفتيه ، ونور العطف من ناظريه : اسمع . انا أعلمك[1] . هذا قول الشريف لا قول احد الكتاب المسترزقين ، وساطلعك على ضده ، بخط يده . . . هات آخر كتاب جاءنا من مكة .

خرج الكاتب .

– هات القهوه .

من عادات السلطان انه حين يحتدم غيظاً يطلب القهوة . فنادى العبد في الباب . القهوه . وكرر الصدى خارجاً عند النار .

---

(١) كانت تغيظني هذه الكلمة « انا اعلمك » حتى سمعتها من العبيد ومن احد خدامنا فقلت لصديقي السيد هاشم وقد طفح الكيل : أيعلمني حتى العبيد والبدو في بلادكم وهم لا يعلمون شيئاً منا ، ولا احد يتنازل ان يخبرنا او يتلطف بافادتنا ؟ فاجابني السيد : اليك ذلك . فابن نجد يعلمك وهو لا يريد غير الخبر . اعلمك هو اصطلاحهم في اخبرك . او ما سمعتهم يقولون : هات علومك اي اخبارك ؟ فلا يثقل التعلم على طبعك يا استاذ .

– لا نسلم بذرة من حقوقنا ، ولكننا لا نقول في اعدائنا ما يقولون فينا، ولا نطلب غير ما كان لابائنا واجدادنا قبلنا . ليعلم ذلك اصحابنا الانكليز . وضرب بالشوحط السجادة عند قدميه .

جاء الخادم بالقهوة فوقف امامه وقفة جندي الماني وسلم ثم انتظر الى ان ينتهي من كلامه .

– وليعلم ذلك الشريف واولاده . قالها بلهجة اشد من الاولى ومكنها بضربة اخرى . ثم مد يده ، فصب الخادم القهوة ، ثم صب لي ، ثم للحضور . دخل اذ ذاك الكاتب يحمل كتاباً تناوله السلطان ، وبعد ان شرب ثلاثاً دفعه الي فرأته وانا مدهوش – بعد ان قرأت مقالة القبلة – مما جاء فيه من كلمات التودد والاكرام والتبجيل . اسلوب الديوان الهاشمي لا يتغير . ثم دفع الي ملحقاً خطه غير خط الكتاب وفيه الخبر اليقين ، حاوي خير ، فحواه : ان الملك حسيناً يدعو السلطان الى الصلح والى الولاء والاتفاق ، ويعرض عليه ذلك مقيداً بشروط منها ان تعاد تربه والخرمه[1] الى الحجاز ، وان يعاد الى ابن الرشيد ملكه في حائل وسيادته في جبل شمّر .

– كلام – كلام ولا ندري أنصدق الكتاب ام الجريدة

ثم سألني رأيي وكانت قد تغيرت لهجته وسكنت فيه ثورة الغضب .

– ما رأيك يا حضرة الاستاذ ؟ لا تقل لي ان لا دخل لك بالسياسة ، وان سياحتك في بلادنا سياحة علمية فقط . « حنا » نفهم . ومرّ بيده على جبينه وهو يبسم بسمته الخلابة . لا تخدعنا يا استاذ . لا تغزل عندنا في المقاصد والكلام اصدقنا الخبر . فقد قابلت الشريف وحدثته ، وقابلت الامام يحيى والادريسي والملك فيصل وحدثتهم كلهم . فأعطني الان رايك . ابغي نصيحتك . تكلم ويكفي ان تقول رايي تسدا « كذا » ولا جزم فنقبله

(١) راجع القسم الاول صفحة ٥٩ في الجزء الاول من هذا الكتاب .

منك . ولكني كلمتك بالحرية وابغي منك مثلها . المندوب السامي يصل غداً . « حنا » دعوناه للنظر في هذا الامر ، امر الشريف واولاده . فما رأيك يا صديقي الاستاذ ؟ وماذا ينبغي ان اقول للانكليز غداً ؟ اراك ساكتاً .

كنت قد افصحت عن رأيي فيما يختص بالموضوع وفروعه في احاديث سابقة . ولكني وجدت ان من المستحيل ان نخطو خطوة واحدة بدون ان نتعثر بشيء للانكليز او من الانكليز في كل مكان ، خصوصاً في الخليج العجمي وفي سواحل البلاد العربية على الخليج . فالانكليز يحتكرون الخليج وهم يعززون هذا الاحتكار بنشر سيادتهم على ضفتيه الشرقية والغربية ان لهم ها هنا ولا شك ما لهم في عدن من مصالح وحقوق قديمة لا يتنازلون عنها . وهم يأبون ان يكون لسواهم من الاوروبيين او الاميركيين يد او رجل او شراع في تلك البقعة من الارض . اما في الخليج وفي الجهة العجمية منه فهم آمنون على انهم في السواحل العربية لا يطمئنون كل الاطمئنان رغم ما عقدوه من المعاهدات مع امراء العرب ولولا ابن سعود وهو اول المتعاهدين واكبرهم لما امنوا التعديات البرية والبحرية . لست مبالغاً اذا قلت ان ابن سعود هو حامي بريطانيا العظمى في الخليج ، لانه يستطيع اذا شاء ان يخرج وكلاءها من الاساكل ويقضي على سياستها في السواحل العربية الشرقية فيستولي عليها . ما ضره اذن لو قال لانكلترا في سبيل مصلحته خصوصاً ومصلحة العرب عموماً كلمة حق صريحة ؟

قلت مجيباً على سؤاله : قل للانكليز يا مولاي ان قد حان الوقت لواحد من امرين . اما ان يساعدوا امراء العرب مساعدة حقيقية فيحملوهم على عقد اجتماع عربي عام للنظر في الوحدة العربية او في تأسيس حلف عربي ، واما ان يرفعوا يدهم من التدخلات كلها فينهض امراء العرب انفسهم لهذا الامر ويجتمعون دون واسطة اجنبية .

فأكد لي السلطان ان الانكليز لا يعملون لا هذا ولا ذاك . ولو سعوا سعياً اكيداً ليجمعوا امراء العرب ويوفقوا بين المتعادين منهم لا يفلحون ، بل يزيدون الخرق اتساعاً . ثم ضرب مثلاً على ذلك فأطلعني على طريقتهم : لنفرض ان شيخين من مشايخ العرب مختلفان في الحدود بينهما . والخلاف بسيط يمكن حسمه بواسطة شخص ثالث من البلاد . ولكن الانكليز يتدخلون في الامر فيعقده مأمورهم او وكيلهم السياسي فيصبح السلم بين المتخاصمين مستحيلاً اما الحق في ذلك فليس على المأمور الانكليزي وحده . كلا ، العرب انفسهم يشاركون في الذنب . كل من الشيخين المتخاصمين يقول في نفسه : لا بد ان يتحزب المأمور الانكليزي اما لي واما عليّ . وهذا اكيد . هي عادة الانكليز في تدخلاتهم كلها . فيضاعف العربي مطالبه عشرة اضعاف ، ولسان حاله يقول : اذا كان الانكليز معي فيعطوني حقي وزيادة ، واذا كانوا عليّ فيعطوني في الاقل بعض ما اطلبه ، ولا بد ان يكون فيه شيء من حقي .

ثم قال السلطان : هذه طريقة العرب يا حضرة الاستاذ ، وهذه طريقة « الانكليز » . عسى ان الله يعلمنا فنعقل ويؤدبهم فيعدلوا . . . هات القهوه .

الفصل التاسع

مؤتمر العقير

بلاد الغربة – خباء الكآبة والغم – الرفيق الحزين – الاستاذ المزين – الشوق والحنين في النسطاط – الشوق والحنين في المضارب – السمر – اشعار نبطية – « الله يخربل الانكليز » – وصول المندوب السامي – اول جلسة من جلسات مؤتمر العقير – قنبلة السلطان ونكتته – الحكومة والعشائر – الحكومة الضعيفة تسترضيهم والحكومة القوية تضربهم – « احمدوا السيف فيطفون اشهروا السيف فيرتدعون » – رجال الاقتصاد في المؤتمر – النقابة العمومية الشرقية – شركة عبادان – امتياز الحسا – الميجر فرنك هومس – فهد الهذال – مندوب حكومة العراق – السر برسي كوكس يوكل في السلطان .

مللنا الاقامة في العقير ونحن ننتظر المندوب السامي . وما العقير غير حراش من الخليج والنفود ، شمسها في شهر كانون محرقة ، ورطوبة هوائها تنهك حتى الابل . ولها مزية اخرى يعدها العرب من الافات ، العرب الذين لا يقيمون زمناً في مكان وهم يستأنسون كثيراً بالاسفار . فقد قالوا ان العقير هي الغربة بعينها ، تبعدهم عن الاوطان ، عن الاهل والعيال ساد في المضارب روح السآمة والكآبة فكان اشد وطأة من الرطوبة في الهواء .

سمعت حتى العبيد يشكون . وكانت خيمتي ، وانا الوحيد بين هذا الناس البعيد حقاً عن الاوطان ، البعيد عن الاهل والخلان – واحق منهم لذلك بالشكوى – كانت خيمتي خباء الكآبة والغم . فسألت رفيقي الاديب السيد هاشم عن السبب في بؤس حاله :

– هل هناك غير الهواء والوحشة والانكليز ؟

– لا شيء من ذلك يا استاذ .

– وهل هو مما يستطاع مقاومته ؟ هل يمكنني ان اقوم بشيء يخفف وطأته عليك ؟

– لو كنت يا عزيزي الاستاذ مزيناً ، وكان عندك مقص وكنت ترغب في خدمتي لفعلت .

فتحت اذ ذاك حقيبتي وقلت : شروط ثلاث تم منها اثنان . فها المقص وها انا ذا . اتبغي ان اقص شعرك ؟

– لا يا استاذ . بل هذه اللحية التي تطاولت علي ، فافسدت عيشي ، سودت ايامي .

ولكننا لم نفز بتبييض شيء منها ، اي من ايامه . فبعد ان شذبت لحيته وجعلتها لحية نجدية قصيرة مستديرة ، قال السيد الحزين : لله يا استاذ ما اضعف الانسان وما اسخف اراءه ساعة يستولي الحزن عليه . حاولت ان اخفي حزني في لحيتي فما نجحت . اضحكتني يا مزين – زين الله حالك – ولكنك لم تفرج غمي . لله در من قال : لا تخف ما فعلت بك الاشواق . وكأنه لمس وتراً لي ، شدته الى حد الانين يد الهجر والنوى ، فأنَّ ولسان حالي يقول : واشرح هواك فكلنا عشاق .

– كان لي امرأة يا حضرة الاستاذ بارعة جميلة ، حسنة الخلق ، لطيفة الذوق ، شديدة الهيام ، وكانت وحيدة قلبي وبيتي . متعني الزمان بها سنتين ثم جاء القواد الموت اختطفها من بين يدي . فهجرت الكويت وجئت نجد ابغي علاجاً في البعد والنسيان . ولكن العقير تعيد اليَّ الم الذكرى ، ادنتني العقير من الكويت والاحزان . . . لله ما اضعف الانسان . . . يا هويدي[1] هات القهوة[2] .

---

(١) هويدي تصغير عبدالهادي .

(٢) في نجد يسكنون فاء الاسم ويحركون العين اذا كانت ساكنة ، او بالحري ينقلون حركة الفاء الى العين ، فلا يقولون قهوة او شجرة او الدهناء بل القهوة واشجرة والدهنا .

ولما كنا ذات ليلة في مجلس السلطان جاء النجاب بالبريد ، وفيه كتب لأناس في معيته فوزعت عليهم . ثم شرع عظمته يقرأ كتبه والكاتب جالس عند قدميه فيطرحها اليه سنماً ، حتى وصل الى كتاب عرفه قبل ان يفضه ، فاربد جبينه وهو يطالعه . ثم مال وجهه الي وقال : هو من الاهل ، وهم يشكون البعد والهجر . منذ اربعة اشهر « حنا » في الحسا ، وفينا مثلما فيهم من الشوق والحنين . . . ما كنا نبطىء بالرجوع لولا المندوب السامي وهو صديقنا . انا احب السر برسي كوكس واحترمه ، ولكنه ابطأ ، ابطأ جداً . وهذا الهواء الردي ، هواء العقير ، وهذه الوحشة التي لولا انسك يا استاذ لما كانت تطاق . « حنا » اهل العارض لا نتحمل هواء الساحل ، سشنا الاقامة هنا ، مرضنا . وسنرجع اذا كان لا يصل السر برسي كوكس غداً ، اي بالله نرجع ثم كلم الحاجب في الباب : هات القهوه . فردد الحاجب : القهوه . واجاب راعي المعاميل عند النار : اي والله القهوه .

وبين كنا عائدين تلك الليلة الى الخباء مررنا بحلقة من حلقات الربع حول نار مشبوبة يؤمها كل من يبغي القهوة من الخدم والسادة . فكانت حافلة عامرة تباري النار تأججاً واللهيب حنيناً . فافسحوا لنا مكاناً وهم يواصلون قص القصص ويروون من الاشعار ما يفصح عما فيهم من الشوق والحنين ، فيردد الجلوس اخر كلمة من كل بيت وفيهم طرب يمازجه الغم

يا ليتني حرته[1]	احمل ذهابه وماه .	الجلوس : وماه
يا ليتني مهرته	وزَبنه[2] عن عداه .	« : عداه
يا ليتني محبسه	واكل معه من عشاه .	« : عشاه
يا ليتني نعلته	واطا معه ما وطاه .	« : وطاه

(١) حرته اي ناقته الحرة النجيبة .
(٢) زَبنه في اصطلاحهم أبعده او حماه .

— زين بالله زين !

ولكنها ابيات قيلت في مدح ابن رشيد . فقال راويها : ولكنها لسان حال صديق لي بالمنفوحة .

يا جالي الحب ما تجلاه تجلي المودة وتفطن لي[1] . الجلوس : تفطن لي
طواني الحب طوي اللحا[2] عجزت عراويه تنحلي . الجلوس : تنحلي

— زين بالله زين .

— صب يا دُحيم[3]

فقال دحيم وهو يصب القهوة : حنا العرب لا نصبر على البعد والجفاء. فقال اخر شارحاً مفصحاً : يقول دحيم ، اننا لا نصبر على البعد عن الحريم . نبغي النساء أبداً ، دائماً . والشيوخ اشدنا شوقاً اليوم . الله يغربل الانكليز[4]

وقد استجاب الله سبحانه طلبة الاعرابي فغربل فريقاً منهم في اليوم التالي وقذف ما في الغربال الى شاطئ العقير . اجل وصل المندوب وحاشيته مساء ، فبادر الخدم اليهم بالخيل ولاقاهم السلطان على الرصيف عند القصر . ثم عادوا كلهم راكبين ، فترجلوا عند فسطاط الاستقبال وكان قد انير بنور قنديل اسمه « اللوكس » ويدعى هناك بالكهرباء .

جلس المندوب السامي الى شمال السلطان[5] والى جانبه كاتب سره

(١) يا مبعد الحب والمودة الا تفطن لي وتبعدني اي تدنوني منها .

(٢) اللحا قشر شجر الطلح . ولكي يستقيم الوزن والقافية يجب ان تلفظ اللحا على القاعدة النجدية بتسكين اللامين اي اللْحا . وهذه الابيات من الشعر النبطي الذي يتغنى به اهل نجد .

(٣) دحيم تصغير عبدالرحمن .

(٤) قلما يسبون في نجد ولكنهم اذا اغتاظوا من احد يقولون : الله يغربله ، اي يغربل الشر منه ، واذا اشتد غيظهم وسخطهم يقولون : سلط الله عليه .

(٥) كان المندوب اول من دخل الى الفسطاط واظنه اختار المكان تأدباً ، اما الشيخ فهد فلا اظن ان عظمة السلطان اجلسه الى اليمين .

والوكيل السياسي في الكويت والميجر دكسون مأمور الارتباط في البحرين وجلس الشيخ فهد الهذال بيني وبين عظمته الى اليمين .

اعتذر المندوب السامي لانه ابطأ ، فقبل السلطان العذر ، وشرع يفصح عما كان يتقد في صدره وهو ينظر اليه غير مكترث بسواه . فجاءت الكلمة الاولى قنبلة زعزعت المكان . — انا لا اخشى الا الرجل الذي لا شرف له ولا دين .

ثم قال : لا ندري يا حضرة المندوب ما خفي من المقاصد ولكننا نرجو منها الخير ومما نعلمه علم اليقين ان العشائر ، خصوصاً عشائر العراق ، لا ترتاح الى حكومة قوية شديدة الساعد ، بل لا تبغيها . لان الحكومة اذا كانت قوية تضربهم تؤدبهم ، فيتأدبون . اما اذا كانت ضعيفة فتسترضيهم كما هي الحال اليوم . العشائر يا حضرة المندوب لا يفهمون الا بالسيف . والا فهم يركبون على ظهر الحكومة ويسوقونها والبلاد الى مهاوي الخراب . . . اشهروا السيف يرتدعوا ، يتأدبوا . اغمدوا السيف ينهبوا ويقتلوا . ويتقاضوكم مع ذلك الخوة .

فاه عظمته بهذه الكلمات مولياً وجهه المندوب السامي وظهره ابن الهذال . وكان الشوحط الطويل بيده يساعد بالافصاح والتمكين ، فرابني بل راعني منه هذا التصريح ، فقلت في نفسي : سامح الله عبدالعزيز . قد اخطأ في استرساله الى غضبه . ولكنه وهو السياسي المحنك اراد ان يفهم ابن الهذال بانه صريح مع الانكليز كما هو صريح مع العرب ، وانه في الحق لا يهاب بشراً . على ان المجلس ادلهم هنيهة من كلامه فجاء هو على عادته ، كما قلت سابقاً ، يجلوه بكلمة لطيفة فأزال الانقباض الذي استولى على النفوس . لانه في غمزه قناة الهذال اهان حكومة الانتداب التي تدفع له مشاهرة ليحفظ الامن في البادية بين العراق والشام .

— اغمدوا السيف يقتتلوا وينهبوا .

ثم مال بوجهه الى الشيخ فهد وقال مبتسماً : أليس كذلك يا فهد . «حنا نعرف بعضنا . فضحك كل من كان في المجلس سوى شيخ العمارات الذي كان يحدق نظره في السجادة ، ثم يرفعه خلسة الى المندوب السامي كأنه يقول : لا بارك الله بساعة جئت فيها معك .

هذه اول جلسة وان كانت غير رسمية في مؤتمر العقير ، تبعتها جلسات سرية بين السلطان والمندوب ، وجلسات عمومية حضرها رئيس وفد العراق ووكيل بريطانيا السياسي في الكويت والشيخ فهد الهذال . وكان الكتاب والمترجمون — الميجر دكسون من الجهة الانكليزية والدكتور عبدالله من الجهة العربية — والاخصائيون ايضاً من البدو الخبراء بارض الشمال وحدودها واماكن الماء فيها ، يؤمون من حين الى حين خيمتي الصغيرة . فرأيت ان رغبة الفريقين بالسلم رغبة حقيقية ، وان السعي مع ما تخلله من وعيد وتهديد ظل متواصلاً حتى النهاية ، فكللت في اليوم الخامس اعمال المؤتمر بالنجاح[1]

ولم يحرم مؤتمر العقير غير ممثلي الصحافة . اما رجال الاقتصاد وطالبو الامتيازات ، الذين يحومون على كل مؤتمر يعقد في اوروبا في هذه الايام ، فقد شرف بعضهم العقير وكان البعض ، وهم على الشاطىء العجمي من الخليج ، يتقربون من ذوي الامر فيه باسم الصداقة للعرب — والبترول . فقد علمت ان السير آرنلد ولسون رئيس شركة الزيت الانكليزية الفارسية في عبادان كتب الى صديق له في المؤتمر يسأله مفاوضة السلطان عبد العزيز بخصوص امتياز في الحسا .

ولكن الذي كان قد باشر المفاوضة فجاء بنفسه ونصب خيمته بالقرب من فسطاط السلطان هو الميجر فرانك هومس وكيل النقابة العمومية

(١) راجع تاريخ نجد الحديث الفصل الخامس والثلاثين ص ٣٧٨ « مؤتمر العقير »

الشرقية بلندن . كنت قد سمعت بالميجر في عدن وعسير ، فأدهشني امره عندما اجتمعت به على رمل العقير . هو في العقد الخامس من العمر، وفي طور الشباب همة ونشاطاً . فقد ساح في تهامة وفي الاحساء بالرغم عن انه لا يعرف كلمة في اللغة العربية ، وهو يبحث عن الزيت وينشد مثل شركة عبادان الامتيازات .

على ان الفرق بينه وبين تلك الشركة هو ان حكومة بريطانيا العظمى تعضدها لانها تملك سبعين بالمئة من اسهمها ، وتقاوم كل شركة سواها تبغي امتيازاً في الشطر الشرقي من البلاد العربية . قال لي الميجر هومس ذات يوم في العقير : لا خصم لنا غير حكومتنا . ولكن لا دخل لنا في السياسة ، نحن تجار ننفع ونتنفع

لذلك منحه السلطان عبد العزيز امتياز « الحسا » بالرغم عن مقاومة الحكومة الانكليزية التي كانت تفضل ان تمنحه لشركة عبادان . ثم شد الميجر اطنابه في الكويت وفي البحرين حتى وفي العراق فاذا جاء فوزه مقابلاً لجزء من سعيه ، وكانت شركته بعيدة دائماً عن السياسة ، قد يصبح اشهر من نالوا امتيازات في البلاد العربية واحبهم الى العرب .

وقف في صباح اليوم السادس مندوبو المؤتمر المصورين فينا وقفة الرضى والامتنان . وكان الميجر هومس مع الفريقين ، من تصوروا ومن صوروا . ثم انتثر العقد ورددت كلمات الوداع . فعاد كل في سبيله يثني على رجل المؤتمر ، بل رجل نجد الكبير السلطان عبدالعزيز . حتى ان الشيخ فهداً كان صباح ذاك اليوم من الراضين ، المسرورين ، المادحين . سأله السلطان عند الوداع : هل من حاجة نقضيها لكم ، فاجاب : نعم يلزمنا بعض العمانيات[1] . فقال عظمته : ارسل احد رجالك معنا نرسلها اليك من الحسا . ففعل . ثم

---

(١) النوق العمانيات من عُمان وهي انجب الابل واعزها .

جاءني يعتذر ، والرضى ابو العطف والاتضاع ، لانه لم يرد زيارتي فقال : ان اشغال المؤتمر حالت دون ذاك ، وامر كاتب سره ان يدون اسمي في دفتره ، دفتر المقربين المغبوطين . ثم دعاني بارك فيه الى ديرته في الشمال قائلاً : سنقوم هناك بواجبكم ان شاء الله .

اما مندوب حكومة العراق فامره يحزن . كان قد مرض في الطريق الى العقير فوصل الينا ورديفته الحمى . وكان اثناء المؤتمر يشكو كل شيء — ثقل الهواء ، وملوحة الماء ، ووحشة البيداء ، وظلم السماء ، ويقبل مع ذلك يد السلطان عبدالعزيز . اظنه كان يجهل ان اهل نجد لا يقبلون يد السلطان ، وان تقبيل الايدي هو مستنكر عندهم . سألني عند الوداع قائلاً : أصحيح انك مسافر مع السلطان الى نجد ؟ فقلت : نعم ، تعال معنا . فقال : وان اعطيتني ثقل رمال البادية ذهباً لا اخطو خطوة اليها . ها هنا — واشار الى البحر — خلاصي . البحر يوصلني الى بغداد . وكان في كلماته وفي تنهداته يمثل العاشق المشتاق ، البعيد عن جزر الواق الواق . مسكين المتمدن الذي لا يستطيع ان يستغني عن المدنية ولو يوماً واحداً .

اما الانكليز في المؤتمر فما سمعتهم مرة يشكون ، شأنهم في كل مكان . فهم يقتبلون كل حال حسنت او ساءت ، عاملين عملهم جادين ، راضين بقسمتهم الوقتية ساكتين صابرين . وودعوني ولسان حال كل منهم يقول : هنيئاً لك ، يا ليتني مسافر معك !

ولكن المندوب السامي السر برسي كوكس قال لي ساعة الوداع : وهلا سافرت الى الربع الخالي ؟ فقلت ضاحكاً : كأنك تبغي هلاكي . ثم فاه وهو يودع السلطان بكلمة انستني الاولى لان فيها منحت ضمناً حق الحماية الانكليزية . قال باللغة العربية مخاطباً السلطان ومشيراً الي : هو بذمتك . فاجاب السلطان بكلمة الطف منها واجمل . قال ويده على كتفي : الاستاذ نجدي الان ، هو منا .

الفصل العاشر

العدل اساس الملك

عدل ابن سعود – الشرع – البسط في المذهب الوهابي – عرب البادية – الحطاب – « لولا الشيوخ والله لاذبحه » – الامن في نجد – من القطيف الى ابها ومن وادي الدواسر الى وادي سرحان لا يسأل المسافر من اين والى اين ؟– طريق الحسا في عهد الاتراك – « الخوة » على خمسة اميال – عبدالله ابن اجلوي – عمر الاحساء يؤدب ابنه – « اذا كنا لا نبدأ بانفسنا فكيف نعدل في غيرنا » – لصوص بني مرة – ثمانية رؤوس تقطع في ساحة الهفوف – التدخين في نجد – الصلاة – من يبسطون ممن يدخنون وممن لا يصلون في المسجد .

العدل اساس الملك ، ومن العدل ما كان يعجب ، ومنه ما كان يرعب ويخيف . وقد شاهدت من مظهريه في بلاد نجد ما لم اشاهده في البلاد العربية كلها . بل ما وجدت خارج نجد بلاداً تتمثل فيها هذه الحكمة « العدل اساس الملك » ذاك التمثل الصحيح الشامل ، ذاك التمثل المعجب المخيف معاً . عدل ابن سعود ! كلمة تسمعها في البحر وفي البر وفي طريقك الى نجد قبل ان تصل اليها . كلمة يرددها الركبان في كل مكان يحكمه سلطان نجد ، من الاحساء الى تهامة ، ومن الربع الخالي الى الجوف .

وما عدل ابن سعود غير الشرع – غير عدل النبي . اضف اليه قسوة في بعض الاحكام الاجتماعية اشتهر بها المذهب الوهابي . فمن يدخن مثلاً يبسط[1] وكذلك من لا يصلي . اما احكام الشرع فمعروفة الا انها تنفذ في نجد بلا تردد ولا محاباة ، ولا مرافعات لولبيات طويلات . حكم ابن سعود لا يعرف في سبيل العدل كبيراً او غنياً . كل الايدي الاثيمة عند الحاكم سواء ، وكل الرؤوس سواء عند السياف . وكم من يمين في اول عهد هذا السلطان الكبير

(١) البسط عندهم هو ان يطرح الرجل الى الارض ويضرب بالرطب من عسيب النخل

قطعت لسرقة صغيرة . وكم من رؤوس طاحت الى الارض لذنب يخففه في غير ذلك الحال وذلك المكان عذر وندامة . ان مثل هذا العدل ليثير خواطر المتمدنين ويغضب من عاشوا في ظل الاحكام المدنية التي لا تخلو من الرأفة والحنان ، وان كان العدل لا يسلم دائماً فيها .

شاهدت بسط رجل في الرياض لاغتصابه فتاة صغيرة . بسطه العبيد على بطنه وأمسك عبدان منهم يديه ورجليه وسقط العبدان الآخران بالعسيب الاخضر على ظهره يعدون الضربات الى ان عدوا الخمسين او الستين . نفرت من ذا المشهد نفسي ، وسئمت العيش بعد ذلك اياماً . ولكن من يعرف عرب البادية ويقيم بينهم ويخبرهم يرى وجوب مثل هذه القسوة في تأديبهم وضبط امورهم .

اما المظهر الجميل في عدل ابن سعود فاليك مثلاً صغيراً منه . كنا في العقير نحتاج الى الكثير من الحطب ، وكان يجيء البدو باحمال منه يبيعونها الى رؤساء الخدم باسعار غالية لقلة الحطب في ذاك المكان ولعلمهم بحاجة الشيوخ وضيوفه الانكليز اليه .

وقف يوماً احد هؤلاء الحطابين ومعه اربعة جمال محملة . ساومه قيم السلطان عليها ، فطلب الجمال روبيتين[1] ثمن كل حمل ، وسعره الاعتيادي نصف روبية . نزل الجمال الى روبية ونصف . رفض القيم شراءها . ساق الجمال جماله . ناداه القيم ودفع له روبية فأبى . فقال القيم وكان الجمال قد ولى باحماله : أبدوي قواد . لولا الشيوخ والله لأدبته .

ولو كنا في معسكر تركي او اوروبي وكان الجيش بحاجة الى الحطب فهل تظن انهم كانوا يعاملون هذا الحطاب مثل هذه المعاملة ؟ بل كانوا يكرهونه على البيع بما يريدون ثم يسخرونه . لولا الشيوخ لفعل الخدامون

---

(١) الروبية من عملة الهند وهي تساوي نحو سبعة قروش مصرية .

بالبدو الخطابين مثل هذه الفعلات . ولكن حق البدو يعطى لهم – وحقهم ان يبيعوا ما يملكون بما يشاؤون ويستطيعون . اما حق ابن سعود فيؤخذ منهم بالعدل ، وان اقتضى الامر بسيف العدل البتار .

اذا كان العدل اساس الملك فالامن اول مظهر من مظاهر العدل . وفي نجد اليوم من الامن ما لا تجده في بلادنا او في اي بلاد متمدنة . لا يظنني القارىء مبالغاً بما اقول . ولست على ما اقول مستشهداً بنفسي ، مع ان رحلتي النجدية استمرت خمسة اشهر ، قطعت في اثنائها الدهناء مرتين ، جنوباً في طريقي من الحسا الى الرياض ، وشمالاً في طريقي من القصيم الى الكويت ، وكانت حقائبي وفيها مالي مكسرة الاقفال مفتوحة وهي مع الحملة بعيدة مني النهار كله ، وكان في خدمتي اناس من البدو ، فلم افقد مع ذلك شيئاً من حوائجي ولا ورقة من اوراقي . الا اني لا اقدم نفسي حجة لاثبات ما اقول عن الامن في نجد لاني كنت اسافر بطريقة ممتازة مصحوباً بعشرة الى خمسة عشر رجلاً من رجال السلطان .

ولكن الامن في نجد لا يحتاج الى رحلتي مثالاً واثباتاً . ان له اكبر دليل واقطع حجة في اهل البلاد انفسهم ، المسافرين من قطر الى قطر ، وفي القوافل التي تسير اربعين يوماً في ملك ابن سعود من طرف الى طرف ، من القطيف مثلاً الى ابها ، او من وادي الدواسر الى وادي سرحان ، دون ان يتعرض لها احد من البدو او الحضر ، دون ان تُسأل من اين والى اين .

قدمت مثلاً صغيراً على العدل . وهاك مثلاً صغيراً على الامن في نجد اليوم . كانت الطرق في الاحساء في عهد الاتراك لا تعبر الا بقوة عسكرية ، او بدفع « الخوة » . وكانت الطريق بين العُقير والحسا ، وهي طريق التجارة الى نجد الاسفل ، اكثرها واشدها اخطاراً . فكان التاجر العربي المسلم الذي يروم الوصول الى الهفوف – مسافة اربعين ميلاً – يضطر ان يدفع

« الخوة » كلما اجتاز خمسة اميال او عشرة من هذه الطريق المخيفة ، طريق التجار والاموال . جاءها العجمان من الجنوب ، وبنو مرةٍ من الربع الخالي ، والمناصير من قطر وما دونها ، وبنو هاجر من الشمال من نواحي القطيف والكويت ، وجاء من داخل البلاد ، من وراء الدهناء ، الدواسر الاشاوس ، فحاموا على هذه الطريق وربطوها ، وقطعوها ، وتقاسموا اموال قوافلها .

كان يجيء التاجر من البحرين مثلاً فيدفع قبل ان يطأ برجله العقير « خوة » للعجمان . ومن العقير الى النخل خمسة اميال وخمسون ريالاً « خوة » للمناصير . ومن النخل الى ام الذر خمسة اميال وخمسون ريالاً « خوة » لبني مرة ومن ام الذر الى العلاة خمسون ريالاً « خوة » لبني هاجر . ومن العلاة الى . . . الخ واذا فاز التاجر المسكين بحياته وبقي شيء في كيسه ، فمن المؤكد ان احماله لا تصل كلها الى الحسا . وكان اذا خرج عسكر الترك لتأديب احد من هؤلاء المشائر يطاردهم البدو فيغلبونهم ، ويأخذون خيلهم وثيابهم ، ويرجعونهم الى الحسا حفاة عراة . ثم يجيء البدوي منهم راكباً حصان الجندي التركي ليبيطره على مرأى من السلطة المدنية .

هذه هي حال الاحساء قبل ان سقطت في يد ابن سعود . اما اليوم — فقد مررنا في النفود بجمل بارك ، رازح تحت حمله . فسألت عن صاحبه فقيل لي انه سار في طريقه وسيرجع بعد ان يصل الى البلد بجمل آخر يحمل البضاعة . وقد يموت الجمل الرازح ويبقى حمله على قارعة الطريق عشرة ايام فيعود صاحبه فيجده ، وما مسته يد بشرية ، كما تركه في مكانه . كيف تمكن ابن سعود من اقامة مثل هذا الامن وتوطيده في بلاده ؟ بامرين : اولهما الشرع وثانيهما الارادة والوجدان في تنفيذ احكام الشرع تنفيذاً لا يعرف التردد ولا التسيير ، ولا الرأفة ولا المحاباة .

ليس السلطان وحده في هذا الامر الخطير . فان امراءه كلهم يأخذون

عنه ويتمثلون به . وبين هؤلاء الامراء رجل مشهور يحكم الحسا . هو اكبرهم همة ، واشدهم تعصباً للعدل ، يجلس في كرسي القضاء وحده . فلا تجلس معه الرحمة ، ولا تجلس معه المحاباة . عدله عدل عمر بن الخطاب وقسوته قسوة البدو . يأمر بالقطع وبالنطع ولا يبالي . هو عبدالله بن اجلوي[1] امير الحسا وابن عم السلطان عبدالعزيز . ان اسم عبدالله ليرعب الناس اليوم ويروع منهم المجرمين . ان له صدى يقوم مقام الشرع في كل الاحساء، من اطراف القطيف شمالاً الى وادي جبرين جنوباً . انه ليخيف اكبر البدو ، واكثرهم استهتاراً . بل هو اسم تخوف الامهات به اطفالها .

ان لعدل عبدالله بن اجلوي عيناً واحدة لا ترى غير المذنب ولا ترى في ذنبه غير ما يستوجب التأديب في الحال . وهو اسرع في تنفيذ احكامه واشد من ابن عمه السلطان عبدالعزيز . ان ساحة الهفوف لساحة الدم ، ساحة القطع والنطع . خذوه الى الساحة ! وبعد هنيهة يلمع سيف السياف في شمس الضحى فتقع اليد او الرجل او الرأس في حجر القضاء . ويهز العدل رأسه استحساناً .

جاء عبدالله ذات يوم رجل يشكو ولداً ضربه وشتمه . فسأل عبدالله : ومن الولد ؟ فقال الرجل : لا اعرف اسمه . فقال عبدالله : وهل تعرفه اذا عاينته ؟ فاجاب الرجل بالايجاب . فامر الامير ان تجمع عنده اولاد ذاك الحي من البلد . فاحضروهم كلهم وجاء الشاكي فنظر اليهم واشار الى غريمه ، فهمس احد الحضور في اذنه : هو ابن الامير . فجمجم الرجل بعض كلمات اراد بها الاعتذار والعدول ، فرده الامير ، وسأل الولد فاقر بذنبه . فامر العبيد ان يبسطوه امامه وان يقدموا للشاكي عسياً اخضر من النخل . فتردد

---

(١) اصله جلوي من جلا يجلو ولكنهم في نجد يسكنون الفاء من الاسم ومن ذلك ايضاً قولهم : ابدَوي اي بدوي .

العبيد واحجم الرجل . فاخذ الامير القضيب بيده وشرع يضرب ابنه ويقول:
اذا كنا لا نبدأ بانفسنا فكيف نعدل في غيرنا .

جاء ذات يوم الى القصر في الرياض بضعة رجال من بني مرة ، اشد القبائل في الجنوب توحشاً ، يطلبون عيشاً وكسوة . فكان لهم من السلطان ما يبغون . ثم ارتحلوا شرقاً الى الحسا فمروا في طريقهم ببعض الاباعر ترعى فساقوها امامهم فشكاهم اصحابها الى السلطان في الرياض ، فبعث السلطان بنجاب يحمل الخبر الى الامير عبدالله في الحسا . وصل النجاب قبل ان يصل عربان بني مرة ، فتحركت اسباب العدل عند الامير بالسرعة التي اشتهر بها . ركب اربعمئة من رجاله وراحوا منقسمين اربعة اقسام ، شمالاً وشرقاً وجنوباً وغرباً ، يفتشون عن عربان بني مرة اللصوص . وما مر اربع وعشرون ساعة حتى جاءوا بهم وبالبعارين المسروقة الى الهفوف ، فاوقفوهم امام ذاك العربي الروماني ، العربي شرفاً ، الروماني عدلاً ، وكان سؤال ، وكان جواب ، وكانت الكلمة : الى الساحة !

هناك امام الامير والجمع المحتشد يشتغل السياف ويشتغل معاونه والطريقة في الاعدام بسيطة سريعة مدهشة . فيها دقة نظر وفيها مهارة . انهم يركعون المذنب على ركبتيه ، ثم يرقص امامه المعاون ليلهيه عن السيف الاخر المرفوع فوق رأسه ، فيكزه اولاً السياف وكزة شديدة سريعة في رقبته تحت المخيخ ، فيتحرك الرأس الى الامام ، فيتقلص عصب الرقبة ، فيضربها اذ ذاك ضربة — ضربة واحدة ! — يطيح منها الرأس الى الارض . دقيقة واحدة تبدأ بالرقص وتنتهي بالنطع ، فيتحدث بها الركبان في نواحي البلاد كلها .

وفي ذاك اليوم الرهيب لمع سيف السياف لمعات ثمانيا في ساحة الهفوف ، وفي شمس الضحى ، فرقصت على الارض ثمانية رؤوس من بني مرة . . . ياراعي البعارين ، ضاع لنا بعير فهل عاينته في الطريق . . . ؟ هوذا يا خويي البعير

تعالَ خذه ... العدل اساس الملك وسياجه . فان القلاع التي بناها الترك في الطريق الى الحسا هي اليوم مهجورة متهدمة ، والقوافل تسير ثلاثة ميل شرقاً وغرباً وثلاثة ميل جنوباً وشمالاً في ملك ابن سعود وهي تدعو له بطول العمر وتشكر الله .

قلت انهم يبسطون من يدخن في نجد ، ويبسطون كذلك من لا يصلي . وللكلمتين شرح توجبه الحقيقة والانصاف ، لان الناس في ما يسمعون من عجيب الامور ومنكرها يبالغون ، ولا يهمهم من الحقيقة غير ما يثبت منها المبالغات .

التدخين ممنوع في نجد بل في ملك ابن سعود كله ، ولا احد يدخن علناً او في الاسواق ، لا في الحسا ولا في العارض ولا في القصيم . ولكنهم في الحسا وفي القصيم يدخنون في بيوتهم ، والمشايخ يتساهلون . وقد رأيت في الرياض من يدخن سراً حتى في حضور اقرب الناس الى السلطان . ذلك لانهم لا يرون في الدخان ما يراه المتعصبون من العلماء . اما السلطان فهو يحب الروائح الطيبة ويشمئز من رائحة الدخان . وما كان ليزورني كل ليلة على ما اظن لو كنت ادخن يوم كنت ضيفه في القصر بالرياض .

حدثنا المستر فلبي في كتابه « قلب البلاد العربية » قال : كنت انا ورفيقي ندخن ذات ليلة (وكانا مثلي ضيفين في القصر) اذ دخل علينا عبد يعلمنا بقدوم الشيوخ . وكانت الغلايين وعلب التبغ مبعثرة على الديوان ، فخبأناها مسرعين وفتحنا الشبابيك كلها . الا انه عندما دخل السلطان كان الدخان لا يزال منتشراً في الغرفة . فجلس متجاهلاً ، وكان لطيفاً على عادته . ولكن احد العبيد جاء تواً بالمجمرة وفيها الطيب فقدمها لسموه ودار علينا بها مراراً ثم تركها على السجادة في وسط القاعة تطهيراً للهواء .

تجاهل السلطان مع ان دخان الغلايين اكره شيء لديه ، وكان لطيفاً على

عادته . ولكنها كانت اول زيارة منه الى ضيوفه في منزلهم ، وآخر زيارة . هاك مثلاً آخر من تلطفه وتساهله .

في الرياض حيّ يسكنه العلماء . وللعلماء حاسة شم تخترق الجدران فتعرف ما وراءها من دخان ، وتميز بين الحلال منه والحرام . لذلك لا يجرأ احد في ذاك الحي ان يشعل سيكارة لا سراً ولا في غرفة مظلمة تحت الارض! واذا خاطر بنفسه واستهتر ، فاكتشف امره ، يحاكم امام الشيخ ، وعند اثبات الجرم ، بعد استماع الشهود يُبسط في الحال لا محالة ، و« يطقه » — يضربه — العبيد من اربعين الى ثمانين ضربة حسب خطورة الذنب وسوابق المذنب فيه . وقد سمعت السلطان عبدالعزيز يقول لرجل من اخصائه كان يبحث يومئذ عن بيت لينتقل اليه : في محلة الشيخ (اي في حي العلماء المذكور) بيت كبير ولكنك تعلم انهم هناك يواظبون على الصلاة ويشددون في الاحكام فتضطر ان تصلي دائماً في المسجد .

ان في كل مسجد بالرياض كما قيل لي جريدة باسماء الذين يصلون فيه ، يقرأها الشيخ كل يوم صباح مساء . فاذا كان احد غائباً يزوره وفد من الاخوان في بيته . قد يكون مريضاً فيعودونه ويؤاسون ، وقد يكون مستغرقاً في النوم فينبهونه وينصحون ، وقد يكون كسولاً فيحذرون . اما اذا تغيب عن الصلاة ثانياً بلا سبب فيعظونه ويوبخون ، واذا كرر فعلته فيبسطونه لا محالة ، ويعملون في ظهره النخل او الخيزران .

هي حقيقة الوهابية في العارض ، بل في الرياض ، بل في حي خاص من احياء الرياض . وكلما بعدت من ذاك الحي ومن تلك المدينة ، وكلما بعدت من العارض شمالاً او شرقاً ، تبعد من الغلو في الدين — دين التوحيد — ومن التعصب في تنفيذ احكامه الاجتماعية .

الفصل الحادي عشر

الاخوان

رسل الهول ورسل التوحيد – جنود ابن سعود – غلو من يدين بدين جديد – « انا خيال التوحيد اخو من طاع الله » – الحروب الشبرية – تساهل الفاتحين المسلمين – شجاعة الاخوان – عرستهم : هبت هبوب الجنة ' اين انت يا باغيها ؟ – آتون الايمان – نوادر مثال من الاخوان – الزكرت – التدخين والغناء – نوادر لا يصلي من اجل المريض الكافر – اعدده بالذبح – « الله يجيرنا واياكم من النار » – الاخوان ثلاثة اصناف : المجنون والمتعصب والمتساهل – فلاسفة في الشدة والفقر – قوة حالية ينقصها ادارة ونظام – خطبة السلطان عبدالعزيز وهو ينذر الاخوان .

مُن هم الاخوان ؟ من هم اولئك النجديون الوهابيون الذين يردد الناس في كل قطر من الاقطار العربية اسمهم مستعيذين بالله ؟ وقل من يعرف حقيقة حالهم ، ويدرك سر اشتهارهم . أهم رسل الهول والموت ، ام رسل دين لا يعرف غير الله والكتاب والسنة ، دين النبي محمد والصحابة ؟ اقول نعم جواباً على السؤالين .

الاخوان هم الفئة المحاربة ، الفئة المتعصبة ، الفئة المديّنة[1] جديداً في الوهابية . الاخوان هم جنود عبدالعزيز بن سعود الذين كانوا بالامس من العرب الرحل ، من البدو الجاهلين ، فديّنوا اي دانوا بدين التوحيد فصاروا مسلمين . وهم في غلوهم يعتقدون ان من كان خارجاً عن مذهبهم ليس بمسلم ، فيشيرون الى ذلك في سلامهم بعضهم على بعض . — السلام عليكم يالاخوان[2] حيّا الله المسلمين . واذا سلم عليهم سني او شيعي فلا يردون السلام .

---

(١) ديّن اي تمذهب بمذهب الوهابية في اصطلاح اهل نجد .

(٢) اهل نجد يدخلون في المناداة ال التعريف على الاسم فلا يقولون يا اخوان ويا امير مثلاً بل يا لاخوان ويا لامير .

من الحقائق الناصعة في الاديان ونشأتها ان كل من دان بدين جديد او كان جديداً في الدين ، يأخذ منه الغلو مأخذاً يلتوي عنده العقل ، فيسترسل في ما يظنه فضيلة ولا يطيب له عيش الا بالتبشير والجهاد . قد كان كذلك المسيحيون الاولون ثم البروتستانيون ، بل قد كانت شيع الاسلام كلها في بداءتها نازعة الى السيف معتقدة ان الدين كل الدين في نشره في الناس حرباً او سلماً ، كرهاً او اقناعاً .

وها ان الاخوان في هذا الزمان يحملون البنادق والبيارق باسم الله ، فيحملون او كانوا يحملون على كل من لا يدين من العرب وكأني بهم لا يرون خيراً في حياة لا اكراه فيها على التوحيد ، فينادي الاخ منهم ممتشقاً حسامه او رافعاً بندقيته : أنا خيّال التوحيد اخو من طاع الله ، بيّن رأسك يا عدو الله ! انهم من هذا القبيل مثل رجال البروتستانت الاولين الذين حاربوا شارلس ملك الانكليز . والسلطان عبد العزيز هو اشبه برجل تلك الثورة الكبير كرَموِيل .

على اننا لا نحتاج الى الامثال والمقارنات من تاريخ الغربيين وعندنا في تاريخ الاسلام مثل الوهابية الاعلى . أجل ان مثال « خيال التوحيد » انما هو النبي ، وان حروب الوهابية اليوم شبيهة من وجه خاص بالحروب النبوية . عودوا الى الله ايها المشركون ، عودوا الى النبي والسنة ، عودوا الى دين التوحيد . واذا كنتم لا تعودون فتكفرون بالطاغوت ولا تشركون احداً مع الله ، نحن الاخوان عليكم . ان سيفنا بتار ويومنا عصيب[1] .

قد برهنوا على ذلك في مواقع عديدة واثبتوا جوابي على السؤال الاول

---

(١) بعد حروب النبي التي كان بعضها دفاعاً عن نفسه واتباعه وبعضها تعزيزاً لدين التوحيد صار الفاتحون المسلمون يرضون من الامم التي يتغلبون عليها الخضوع لسلطانهم دون ان تغير دينها . وفي القرآن : لا اكراه في الدين .

فكانوا رسل الهول ورسل الموت في كل مكان سُمعت فيه « هوستهم » المشهورة : هبت هبوب الجنة ، اين انت يا باغيها ؟ فلا الحجاز ينساهم ، ولا الكويت يذكرهم بالخير ، ولا العراق يحسن بهم الظن ، ولا الجوف ولا الجبل ولا القصيم يكبر في ساعة الوغى سواهم ، ويردد خوفاً واعجاباً غير اسمهم . الاخوان ، زرعوا الهول في كل مكان . الاخوان يحاربون مستبسلين مستشهدين . روى الناس الموالون منهم والمعادون اخبار الشجاعة والبطولة التي اشتهروا بها . قالوا انهم شياطين الدين ، وقالوا انهم ابطال المسلمين . وما كانت البطولة بغير الايمان الحي والثبات في الجهاد . لولا ذلك ما كان الاخوان ، وما كان ملك ابن سعود . هبت هبوب الجنة ، اين انت يا باغيها ؟ وكل يبغيها . لذلك يحاربون وقلما ينهزمون . الجنة امامكم والنار وراءكم . فمن منهم اذن يتقهقر ، ومن منهم يولي مدبراً ؟ هم شوكة ابن سعود في ايام الحرب ، وهم في ايام السلم الشوك في غصن الدين . يحاولون بسلم التوحيد بالعرض ويزعجون احياناً حتى سلطانهم العزيز . حدثت كثيرين منهم فما وجدت وراء اللسان غير قلب فيه اتون من الايمان ، فلا يهاب صاحبه الموت ولا يخاف غير الله . ولكنك تسألني : أمن روح هناك فيها شيء من الحنان ؟ ام من عقل فيه ذرة من البرهان ؟

هوذا نوّار اقدمه مثلاً قوياً كريماً . وما نوار غير راعي بعير اكتراه منه شاب كان في خدمة السلطان ليسافر الى القصيم . كنا يومئذ على اهبة الرحيل فأراد الشاب ان يرافقنا فقبلنا ، فخرج راكباً معنا من الرياض ، ونوار صاحب الذلول يمشي امامه او وراءه . وكان في بعض الاحايين عندما يتعب ، يثب الى الرحل رديفاً ، ثم يترجل مستعيذاً بالله . ذلك لان الشاب الذي اكراه نوار بعيره هو « ازكرت »[1] يدخن ويغني والغناء في نجد اليوم محظور وفي بعض

(١) ازكرت لفظة فارسية معناها من لا اهل له ولا عيال ، وتطلق في نجد على من يقضي ايامه في قصر السلطان او الامير خادماً او حول القصر ينتظر قسمة ربه .

مدن العارض والقرى الجديدة ، الهجر ، محرم مثل الدخان . اما الزكرت فكان يرفع عقيرته كلما خرجنا من قرية وصرنا في الفلاة ، فيتلو اذ ذاك نوار التعويذتين . وعندما رآه لاول مرة يشعل السبيل كاد يجن . كان ذلوله ماشياً الى جنب ذلولي وكان نوار وقتئذ رديفه ، فوثب فجأة الى الارض كأن ناراً اشعلت تحته وهو يردد بصوت عال : اعوذ برب الفلق من شر ما خلق . . . اجرنا اللهم من النار . . اجرنا اللهم من النار . والزكرت اثناء ذلك والربع كلهم يضحكون .

كان الاخ نوار مع ذلك لطيفاً وذا مروءة تشكر . فيعاون الخدم ، ويرعى الركائب عند المراح ، ويجمع الحطب ويشب النار ، ولا يأكل الا قليلاً . رافقنا هذا البشر الغريب ، آخانا كرهاً ، عشرة ايام ، وما من مرة سلم عليَّ او كلمني او رد سلامي . مرضت اثناء السفر بالحمى فكنت ذات يوم على الفراش في خيمتي ونوار واقف اتفاقاً في الباب . فقلت مازحاً ، بل كنت اضايقه عمداً : يا نوار انا « مصخن » — مريض اليوم — . فقال بوجهه اليَّ هاتفاً والحمد لله ! كانت عصاي طوع يدي قرب السرير فرميته بها لما ظننته منه وقاحة بل قساوة وحشية ، فأصابت منه الرأس ولكنها لم تحرك اللسان بكلمة واحدة .

نهضت بعد ذلك وخاطبته وهو واقف عند النار : انت يا نوار رجل تقي ورع صديق وانا رفيقك في السفر — مريض — « خوياك مصخن » اليوم ، ونبغي الرحيل ولا رحيل مع مرض . فهلا ذكرتني في صلاتك وسألت الله لي الشفاء العاجل ؟ فلم يجبني بكلمة . فقلت : أفلا تصلي من اجلي يا نوار ! ظل معرضاً مني ساكتاً . فقلت مصراً : انا « خوياك » ابغي منك ان تذكرني

والزكرت كثير الاسفار عادةً و كثير الاخبار ، مرن العقل والخلق ، يحسن الخدمة ويحسن كذلك التهكم على الاخوان .

في صلاتك . هز الرجل رأسه متأففاً وبعد عني فتبعته وامسكته بعباءته ، واظنني كنت محموماً فزادني هذا الصد منه حرارة وغيظاً ، فقلت ولا مزاح : اسمع يا نوار انا اعلمك انت واحد و « حنا » خمسة عشر وكلنا ندخن ونغني ، فاذا كنت لا تصلي من اجلي وتسأل الله لي الشفاء ، نذبحك والله مثلما ذبح مسفر هذه الشاة . اظن ان تهديدي راعه فحرك شفتيه بهذه الكلمات : الله يجيرنا واياك من النار . وهذا منتهى التساهل منه . لم يطلب لي الشفاء ، كلا . بل اشركني من فضله بالاستجارة من النار ، نار الجحيم . كل الاخوان المدينين جديداً هذا الرجل ، كلهم نوار .

على ان هناك فريقاً آخر منهم ، قد مرّ على تدينهم او تدين آبائهم حقب من الزمان ، فلطف فيهم سورة الايمان . هؤلاء يسلمون على غير الموحدين ومنهم من يدخن سراً ويغني اذا سار في الفلاة[1] ولا يلوم ابن سعود على تساهله مع الكفار الانكليز .

وهناك فريق ثالث اكثرهم من جبل شمر ، دينوا بعد سقوط حائل او قبله اما خوفاً واما ارتزاقاً . فهم يتساهلون تساهل السني ، ولكن الاخ الجديد الاكيد يقول : انهم مدغلون .

قد كان في رجالي الذين عشت واياهم شهرين في السفر من العارض الى القصيم والكويت من الثلاثة الاخوان ، الاخ المجنون ، والاخ المتعصب تعصباً

---

(١) لا اظن احداً من العرب موحداً كان او مشركاً يستطيع ان يقاوم ما تحركه الفلوات في نفسه من حب الغناء او الحداء . كنا ذات ليلة حول النار نبحث في هذا الموضوع فروى احد الربع قصة عن السلطان عبدالعزيز قال : خرجنا يوماً من الحسا مع الشيوخ وكنا عشرين من خاصة رجاله . فلما وصلنا الى الدهناء رفع عبدالعزيز العقال والغطرة – الكوفية – عن رأسه ووضعهما في الخرج وقال باسماً : لا اخوان معنا . من كان عنده حس فليسمعنا الان . فرحنا نغني والله حتى قطعنا الدهناء وعبدالعزيز مسرور طروب .

نسبياً معقولاً ، والاخ المتساهل . وكان في الصنف الاخير ظريف ذكي الفؤاد يحسن النكتة والجواب ، يدخن دائماً ولا يستأثر بالسبيل بل كان يقدمه عند كل « تعميرة » الى رفقائه ، صارخاً بصوته العريض : دخنوا يا اخوان . بارك الله فيهم قد كانوا طيلة الطريق موضوع التهكم والضحك . اجل ، قد اضحكونا وفكهونا في ساعات الضجر الطويلة .

ويقسم الاخوان ايضاً الى ثلاثة اقسام ، اي المطاوعة[1] والعلماء والمتعلمين المبتدئين . اما المطاوعة فهم في كل نجد يُعرفون من قيافتهم النسكية ، بل من خلق اطمارهم . اما العمامة البيضاء الشبيهة بالضمادة فان هي الا نصف ذراع من الخام يلفه المطوع فوق القطرة على رأسه ويشكر الله . ثم يحمل عصا من الشوحط اذا كان كبيراً ، والا قضيباً من الخيزران ويجوب البلاد في سبيل التوحيد . المطاوعة يعلمون الناس الدين ، والعلماء يعلمون المطاوعة ، وكلهم يوم الجهاد « خيال التوحيد اخو من طاع الله » . وكلهم في ايام السلم فلاسفة في التجمل والقناعة ، في الشدة والصبر ، في الفقر والتقوى . ترى الاخ في الطريق حافياً لا يحمل غير عصاه ، ينفخ الهواء في اطماره فيكشف عراه ، وقد يكون مشى يومين او ثلاثة دون ان يذوق الخبز او التمر فتسأله بعد السلام : « وتسايف انت » — كيف انت — ؟ فيجيبك بصوت عريض ، وقلب وطيد كأنه يمثل دوراً في رواية : بخير ونعمة والحمدلله ! انما هذه فضيلة الاخوان بل فضيلة النجديين الكبرى . فهم على فقرهم وسوء حالهم في الدنيا قانعون راضون ، وقلما تسمع كلمة منهم فيها شيء من اليأس او الشكوى .

والسلطان عبدالعزيز امامهم في كل شيء . فهو يعرف الشجاع فيهم والتقي والصبور والعاقل والمجنون ، ويحسن سياسة الجميع ، فيستخدمهم في سبيل الله وملك ابن سعود . اجل ان عنده لكل من الاخوان وظيفة ومقاماً :

---

(١) جمع مطوّع اي المطوع في خدمة الله واصله متطوع فادغم .

المعتدل للخدمة ، والمتساهل للتجارة والسياسة ، والمجنون للقتال . اما امر الصنف الاخير ، اخوان نوّار ، فقد يستفحل عليه في بعض الاحايين ، وقد يعجز عن ضبطهم دائماً ، لان المسافات في نجد بعيدة والمواصلات كلها اولية . الاخوان قوة هائلة ينقصها نظام وادارة ، والا فتتفلت من يد سيدها وتكون عليه وعلى سواه وخيمة العاقبة . مثال ذلك ما حدث في الشامية بالعراق يوم هجم الدويش باهل الارطاوية على ابن سعدون وعشائر العراق فهزموهم شر هزمة واذاقوهم من هول الاخوان ما لا ينسونه حياتهم .

ولنا في ما حدث في الجوف السنة الماضية مثال اخر . غير ان عذر اخوان الجوف كان واهياً فلم يقبله السلطان عبدالعزيز . بل امر بالقبض على رؤساء تلك الغزوة وباحضارهم مقيدين الى الرياض حيث سجنوا ثلاثة اشهر .

كنت في عاصمة نجد يوم اطلق سراحهم فاحضروا امام السلطان فخاطبهم قائلاً : لا تظنوا يا اخوان ان لكم قيمة كبيرة عندنا . لا تظنوا انكم ساعدتمونا واننا نحتاج اليكم . قيمتكم يا اخوان في طاعة الله ثم طاعتنا . فاذا تجاوزتم ذلك كنتم من المغضوب عليهم . اي بالله ، ولا تنسوا ان ما من رجل منكم الا وذبحنا اباه او اخاه او ابن عمه . وما ملكناكم الا بالسيف . ترى الصحيح . والسيف لا يزال بيدنا اذا كنتم يا اخوان لا ترعون حقوق الناس . لا والله ، لا قيمة لكم عندنا في تجاوزكم . انتم عندنا مثل التراب . . . اما إذا عدلتم وعقلتم فحقكم بشرع الله خذوه من هـذا الخشم — وضرب بالسبابة انفه — وحقي آخذه منكم دائماً باذن الله . . . انتم ما دخلتم في طاعتنا رغبة بل قهراً واني والله اعمل بكم السيف اذا تجاوزتم حدود الله .

الفصل الثاني عشر

في القصر بالرياض

الشعر في نجد – بيت يشرح التاريخ – خيانات الاقربين – ولاء الاباعد – ما قاساه السلطان عبدالعزيز – السياسة فوق الجنسيات والمذاهب – بيتان من الشعر فوق باب المجلس – سجايا اهل نجد – يلبون النفير وقلما يكلفون السلطان شيئاً من النفقات – « هم يعطوننا في ايام الحرب ونحن نعطيهم في ايام السلم » – معرض العطاء – مثل من الجريدة اليومية – ابرهيم بن جميعه رئيس التشريفات والمستر فلبي – امراء العرب يجيئون الى الرياض مسلمين – حلم السلطان مثل كرمه – شلهوب وزير المالية والتموين – « الذي يجيء نقيده والذي يروح نقيده والنتيجة لا شيء » – جيش من الكسالى – فقر وقناعة – مئات يأكلون في القصر مرتين كل يوم .

لا يزال للشعر مقام في نجد وان رثت حواشيه وتفاقم اللحن فيه ، فكثيراً ما تجد اثراً على حيطان القصور من حكمة القدماء ونفائس الشعراء ينبئك بما يتمثل به الامراء والعربان ، او بما كان من حادثات الزمان . وفي القصر بالرياض فوق الابواب في رواق المجلس العام ، كُتبت على الحائط بالحبر الاسود بخط رديء ابيات من الشعر منها :

اذا خانك الادنى الذي انت حزبه   فواعجباً ان سالمتك الاباعد

ان اللبيب العالم بتاريخ نجد الحديث ليقرأ في هذا البيت الوحيد فصلاً في الخيانات والدسائس التي كان السلطان عبدالعزيز هدفاً لها وسيفاً لامعاً عليها . الخيانات في اقرب الناس اليه ، وفي البدو ايضاً والاخوان . اما الاباعد الذين سالموه بل والوه ، وكانوا له عوناً على اعدائه اثناء الحرب العظمى ، فهم حقاً من الاباعد ، الاباعد جنساً ، الاباعد ديناً ، الاباعد مزاراً . وما كان ليربط آل سعود بهم غير السياسة والمصلحة . ليس قصدي ان افيض الان في الكلام عن تلك الرابطة واسبابها ونتائجها – سينفسح المجال لذلك في الكتاب الذي

اشرت سابقاً اليه – وانما القصد ان اشير الى ما في حياة ابن سعود من شدة قاساها ، وغم يكتنه ، فيبدو في بعض الاحايين يابساً كالجرح القديم في وجه الجندي .

ان السلطان عبدالعزيز ، وان كان قد ذلل العقبات ، وفلّ حد النكبات ، واصبح ، اذا صح الحكم على الرجل من حديثه ومحضره ، آمناً مطمئناً ، انه ليفصح في هذا البيت من الشعر عن حقيقة لا يزال يؤلمه ذكرها وقد يكون امر بكتابته فوق باب مجلسه ليذكر ايضاً به اولئك الذين كانوا بالامس حرباً عليه واصبحوا اليوم من خاصة رجاله . اما ولاء الاباعد فالعجب فيه يتجاوز ظاهر امره . العجب كل العجب من مصالح تنتصر حتى في نجد ، حتى في الحجاز ، على رابطتي الجنس والدين . فعبثاً يكبر الناس الاولى ويقدس الثانية . ان عرى الاثنتين لتنحل وتتقطع ، كأنها حبال شمس ساعة الضحى ، عندما يمسنا منها الضر او يستحثنا عليها قصد مادي او معنوي .

وهناك ابيات اخرى من الشعر تفصح عن خلة حميدة مجيدة ، ليس في السلطان وحده او في آل سعود او في الاخوان ، بل في اهل نجد كافة . ولكنت اقول انها تعبر عما في قلب كل عربي من الاباء والنخوة والشجاعة وعزة النفس لولا اني رأيت من العرب في غير نجد من لا اثر في انفسهم لتلك السجايا الشريفة . اما في نجد ، في البادية والحضر ، فلا غرو اذا تمثل الناس بقول الشاعر الذي رفعه السلطان عبدالعزيز الى ارفع مقام عنده ، فأمر بكتابة كلماته فوق بابه :

فاما حياة لا تذم حميدة ... يحدث عنها من اغار وانجدا
تنال المنى فيها ، واما منية ... تريح فؤاداً خار من علة الصدا

هم يجيئون من كل حدب وصوب في ايام الغزو او الحرب وهذا لسان حالهم . اجل ان امراً يصدر من الرياض فيحمله النجابون الى اقاصي البلاد ،

ليَجمع على احد الآبار او في احد الشعاب في اليوم المضروب الوفاً من اهل نجد ، بادية وحضر ، وقد جاء كل على ذلوله مسلحاً ببندقيته ، ومنطقاً بذخيرته ، وحاملاً بعض التمر والماء ، فهم اثناء الغزو او الحرب لا يبغون من سلطانهم شيئاً . هم يعطوننا – الكلام للسلطان عبدالعزيز – ولا يأخذون منا . ونحن في ايام السلم نعطيهم ولا نأخذ منهم .

قد شاهدت معرض العطاء في الرياض ، بل كنت اشاهده كل يوم مدة اقامتي هناك ، واعجب جداً لا لكرم هذا الرجل بل لايمانه وثقته بالله ، مصدر الخير غير المتناهي وولي النعم التي لا تزول . والا فكيف يؤمل بدوام حال تمكنه من العطاء في بلاد لا ثروة لها ثابتة دائمة ؟ هنالك حكومة فردية اوتوقراطية وديموقراطية معاً تبرأ من قواعد الادارة والنظام كلها ، وبلاد ثلاثة ارباع مساحتها بادية قفراء ليس فيها من موارد الثروة غير الانعام، ورعية ثلثاها من البدو واكثرهم حتى اليوم لا يحسنون صناعة ما ، واقليم قيظه يحرق ويبيد وشتاؤه لا يصدق ولا يحسن الوفاء ، فتجيء السنون المجدبة فتعقم المغالي ويعم البلاء .

ومع ذلك ترى نجد اليوم عزيزة بعبدالعزيز ، تستمتع بأمن منقطع النظير في كل البلاد العربية ، وبعدل كبير شامل يحمل السيف والقسطاس ، وبخير فوق ذلك لا تنفد موارده

– هذه يا طويل العمر جريدة بن نوخوا اليوم .

يقدمها ابراهيم[1] رئيس التشريفات فيقرأها السلطان ويكتب الى جانب

---

(١) ابراهيم بن جُمَيعة من حايل كان من اعداء ابن سعود في احترابه وابن الرشيد وهو اليوم من اقدر رجال السلطان واكثرهم اخلاصاً له . قد رافق المستر فلبي – كان امير حملته – الى وادي الدواسر . فسألت ابراهيم ان يقص عليَّ قصة اهل الوادي و«النصراني الكافر» التي رواها فلبي في كتابه . فقصها علي وكان صادقاً ولا

كل اسم ما يجب ان يعطى صاحبه يوم ارتحاله . اذن مطمئنه باحدى تلك الجرائد وفيها اكثر من مئة اسم ، فانقل من رأسها ووسطها وآخرها ثلاثة اسماء ليطلع القارىء على احوال ابن سعود كلها .

بخط رئيس التشريفات : حمود بن صوَيط معه فرسان وذلول

(بعض الزائرين يجيئون بالهدايا من خيل وابل)

بخط السلطان : الفان روبية وبشت وبِرِ معلّم (اي عباءة مقصبة) وزبون (قنباز) جوخ وسيف مذهب .

بخط رئيس التشريفات : سليمان بن علي من اهل حايل .

بخط السلطان : اربعمئة روبية وبشت وزبون .

بخط رئيس التشريفات : هذاع بن سلطان بن زايد راعي (حاكم) عمان معه عشر ركائب (نوق) عمانيات (هدية)

بخط السلطان : ثمانية آلاف روبية وسبعون ليرة وعشرون بندقية وفرَسان .

ثم الى رجاله الخمسة والعشرين كل واحد كسوة

شك اذ ما وجدت فرقاً بين الروايتين . ولكن الفرق كل الفرق انما هو بين الانكليزي العالم وبين العربي الذي يكاد يكون امياً . الفرق بين اخلاق الاثنين يستحق هذه الحاشية . يظهر ان المستر فلبي ، وهو صعب المراس ، اختلف مراراً وامير حملته . فلم يدرك مقامه في القصر على ما اظن ، وفاته ان عظمة السلطان اكرمه اكراماً ممتازاً حين وكل امر رحلته الى رئيس التشريفات . اختلف الاثنان في الطريق وتنافرا ، فقص المستر فلبي القصة في كتابه وحمل على ابن جميعة بلغة لا يفهمها — طعنه في ظهره . ولعمري ان ما قاله لا يليق بشهم انكليزي ولا يجوز ان ينشر في كتاب علمي نفيس . اما ابن جميعة فاذا قال في المستر فلبي ؟ سألته مراراً ان يقص علي القصة كلها فابى وتردد . وكل ما قاله مما يشتم منه النفور . فلبي غضوب . طبعه ما هو زين . ولكنه كريم ، اعطى كل واحد من الربع من الاربع الى العشر ليرات . حبذا اخلاق العربي وحبذا معها العلم والتمدن .

وكيس فيه من المئة الى الخمسئة روبية
حسب مقامه .

هؤلاء ثلاثة من المئات الذين ينحرون[1] الرياض مستعطين ولي النعم فيها . ومنهم من يعود الى اهله ومعه فوق الكسوة والمال حمل او حملان من التمر والسمن والتمّن – الارز – والسكر والبن .

ان في الجريدة اسماء اناس من غير رعايا ابن سعود ، جاءوا زائرين مسلمين . منهم ابن صويط من مشايخ الضفير في العراق ، وابن مجلاد من مشايخ عنزى في الشمال ، وابن نايف من بني علي في المدينة المنورة ، وابن سلطان بن زايد من عمان ، وابن الدخيل من قبل نوري الشعلان . كلهم يؤمون الرياض لعلمهم ان فيها رجلاً من كبار رجال العرب اليوم بل اكبرهم . يؤمونها اما حباً واجلالاً ، واما خوفاً واستعطافاً ، واما ابتغاء مساعدة مادية او سياسية . وقلما يعود احد من عاصمة نجد خائب الامل .

انها لحقائق ايها القارئ مجردة من الغرض والغلو . واذا شئت الحقيقة في الشعر ايضاً تجدها في بيت لزهير بن ابي سلمى . فكان شاعر الحوليات نظر بعين الغيب الى ابن سعود حين قال :

تراهُ اذا ما جئتـه متهللاً كأنك تعطيه الذي انت سائله

وهو في حلمه مثله في كرمه . جاءه ذات يوم شيخ قبيلة حاربته بضع سنين ثم دانت له ، فاقام الشيخ اياماً في الرياض وقال للسلطان عند الوداع : قالوا لي انك سحار يا عبدالعزيز . صدقوا والله فقد سحرتني . ان اخبار حلمه لادعى الى الدهشة والاعجاب من اخبار كرمه .

ليس من ينيخون في باب السلطان كل يوم الشاهد الوحيد على جوده ،

(١) نحر البلد او الديرة اي قصدها سلماً او غزواً .

وليس من يجيئون ممن كانوا بالامس اعداء، الشاهد الفرد على حلمه واقتداره. فان في الخرج والافلاج[١] وفي القصيم، وفي ظلال آجا وسلمى[٢] مئات ممن يحمدون الله ثم ابن سعود على حياتهم وعلى ما هم فيه من خير ونعمة. وفي الرياض جيش من السباهلة والفقراء يتراوح عددهم بين الالف والالفين يأكلون في القصر مرتين كل يوم الظهر والمساء. وفيها ايضاً مئة اسرة او ما يزيد، منها اسر بيت الرشيد، لا يكلفهم الله على ما يظهر اقل سعي في سبيل رزقهم. فالبيوت والخيل والابل والثياب والمؤونة والجواري والعبيد، كلها من الشيوخ، من السلطان.

— ادفع يا شلهوب. وزع يا شلهوب[٣]

---

(١) الخرج والافلاج من مقاطعات نجد الجنوبية وهي جنوبي العارض.

(٢) اجا وسلمى من جبال بني طي قديماً، وجبال شمر اليوم وفيها حايل.

(٣) هو محمد بن صالح الشلهوب وزير المالية ووزير التموين عند السلطان عبدالعزيز وما الوزارة هناك غير صدى الارادة السلطانية وآلة من آلات احكامها. الا ان الشلهوب هو صليب الشيوخ فيه عذاب وفيه خلاص — وفيه اخلاص لا ريب به. معانته متعددة تشمل الكبيرة والصغيرة، من المدفع الى عود الكبريت. فهو يتولى امر التوزيع العام الشامل. يوزع الحطب، ويوزع السمن، ويوزع السلاح، ويوزع المال. طريقته في الادارة اولية بدوية، وحساباته قروية. قال لا فض فوه: الذي يجيء نقيده، والذي يروح نقيده، والنتيجة لا شيء. وليس في طريقته محاباة وتفضيل. طوّف بي ذات يوم في مخازنه فدهشت لما في ذمته من الاموال، وفي ذاكرته من الاشياء. هذا مخزن السلاح والذخيرة. وهذا بيت التموين، وهذه الخوابي صنع الهند للسمن، وهذا التمن مئات من الاكياس مرصوصة بعضها فوق بعض. ثم ادخلني غرفة ذكرتني بمخازن الرهون بلندن ونيويورك. كل ما فيها مهمل مجهول ومكدس بعضه فوق بعض سألت الشلهوب عنها فقال: غنمناها في احدى المواقع ولا ادري ما فيها.

ان خللاً في هذه الادارات، كلها لا يدركه شلهوب ولا يشعر به السلطان ليتجسم فيتفاقم امره. وليس في تقسيم الادارة خسارة. بل العكس. فان في توزيع العمل الذي يعمله شلهوب، وان كاف راتب وزير آخر بل وزيرين، كسب جزيل للسلطان

رأيت العربان والاخوان ينتظرون في الرواق وشلهوب جالس وراء منضدته بعد الوربيات ، واعوانه في المخازن حوله يوزعون الثياب . وكنت ارى كل يوم عند غروب الشمس صفاً طويلاً من العبيد ، ساسة الخيل ، كل يحمل وعاء ، وينتظر عند باب من ابواب شلهوب ليملأه شعيراً . ان لشلهوب منازل كثيرة ومهمات متعددة . هو مثل يوسف في مصر الفراعنة . وملكناه ... وجعلناه على خزائن الارض . وهو مع ذلك القيم الاول في المطبخ السلطاني والمطبخ العام اللذين لا يختلفان في غير السمن اي الارز . فالصنف الذي يطبخ للسلطان ورجاله احسن من ذاك الذي يطبخ للعربان والاخوان .

يوم وصلت الى الرياض هالني عندما انحنا امر اولئك العربان من بدو وحضر واخوان . رأيتهم جالسين خارج القصر وداخل القصر في الاروقة على مجالس من الطين ، رجال وصبية ، وبايديهم العصي ينكتون بها الارض ، او يرفعون رؤوسها الى شفاههم يداعبونها مثل اماجد الانكليز . وكل واحد منهم رب امره ملتف برداء العظمة والسكينة ، كأنه امير خطير لا ينظر الى جاره ولا يكترث به . مئات من « الامراء » جالسون صامتون — يتفرجون ؟ سألت رفيقي : هل جاؤا يتفرجون علينا ؟ فقال : لا . انما الان وقت الغداء . وهم ينتظرون الامر بالدخول ، الامر من وليه شلهوب . ولكنهم في دعائهم لعبدالعزيز بطول العمر لا يذكرون شلهوباً بغير الذم . ولماذا ؟ — التمن ما هو زين . الله يغربلك يا شلهوب .

وكنت ارى كل يوم قبل غروب الشمس ليس في ساحة القصر بل وراءه عند باب المطبخ جمعاً آخر محتشداً هناك ، جمعاً كبيراً من فقراء البدو المخيمين خارج المدينة ، نساء يحملن اطفالهن ، وصبياناً عراة ، وبعض الرجال في اطمار ممزقة بالية . جمعاً تأكله القذارة وتنتشر منه الروائح الكريهة . وكلهم جاؤا في هذه الساعة وبايديهم اوان من الخشب او النحاس او الفخار ينتظرون

شيئاً من الطبخ ، ينتظرون فضلات المائدة العامة .

ما رأيت في الفقر مشهداً اشد وبالاً وابلغ فصاحة في ما يثير التسخط والاحزان مثل هذا المشهد الهائل . انه افقر في ذل ، وذل في قذارة ، وقذارة في داء ، وداء في قناعة ، وقناعة في جوع وكدية .

لو كان مثل هذا الفقر في مدن نجد كلها لكان يخشى منه على ملك ابن سعود . ولكن العاصمة تمتاز عن سائر المدن بمن يحوم على موارد الرزق والخير التي لسيد البلاد . ومع ذلك فان مثل هذا البؤس في قلب نجد ليحط في عين الاجانب من كرامة ولي الامر والنعم ، وفي عين الحضر من العرب ايضاً . فحبذا العمل باقتراح اقترحته على عظمة السلطان ، وهو ان يشغل السباهلة المعطلين بدلاً من ان يتصدق عليهم . ليشغلهم في الاشغال العامة ايام السلم ، كاصلاح آبار المياه في البلاد[1] واكثرها في حاجة الى اصلاح وترميم ، فيأكلون اذ ذاك خبزهم بعرق جبينهم فينفعون وينتفعون .

---

(١) وتعبيد الطرق للسيارات التي بدأت اليوم «تطوي البيد طي» بين نجد والحجاز

الفصل الثالث عشر

ونفعل فوق ما فعلوا

بيت من الشعر فيه حكمة وفيه خطل – الشرقيون والمسلمون – العصامية في العرب – الاقتداء بالاجداد – « ونفعل فوق ما فعلوا » – ما يثبت هذا القول في اعمال السلطان عبدالعزيز – المشايخ والعلماء – تساهل السلطان – موقفه في الدعوة المذهبية – يجيب على سؤالين – الدين والسياسة والحرب – الحكم اللامركزي – رأيه في الوحدة العربية – المقابلة بينه وبين الملك حسين .

نقلت في الفصل السابق شيئاً من الشعر المكتوب على الحائط في رواق المجلس العام ، وفيه تصوير لاخلاق النجديين وقواعد في الحياة يتمشون عليها . بل فيه ينعكس بعض ما يخالج السلطان عبدالعزيز من أليم الذكرى ومن شريف المقاصد والآمال . وهناك بيتان آخران فيهما مزيج من الحكمة ومن الخطل الذي ألفه الشرقيون . عفواً أيها القارىء . اننا نجني على الشرقيين في التعميم ، لان اليابان والهند حتى الصين نبذت ذاك المزيج او اقامت تصلح ما افسده الزمان في التقاليد والاحكام . يجب ان اقول اذن : ذاك المزيج من الحكمة والخطل الذي ألفه المسلمون ، فخدر منهم العقل والروح والقلب كذلك . خدر العقل فقلما ينشط الى فكر جديد ينعشه ويحييه ، وخدر الروح فلا تكترث بما فيه صحتها ، وخدر القلب فلا يحس بالبلية المشتركة احساساً مدنياً قومياً يحمله على نبذ ما ألفه من قديم العادات ، وما يقيده من ذميم التقاليد والخزعبلات . قرأت مرة في حضرة السلطان ما كتب فوق بابه :

لسنا وان كرمت اوائلنا يوماً على الانساب نتكل

وهو بيت المتوكل الليثي :

لسنا وان احسابنا كرمت يوماً على الاحساب نتكل

جاء مغلوطاً مبنىً لا معنى ، فقلت ، والمعنى ما يهم : ليس اشرف منه مبدأ يا مولاي ولا اجمل منها حكمة . واني اجلكم واحترم اهل نجد لانهم يعملون بها ، ولان السيادة والمجد في بيت آل سعود نشأا عنها . انتم عصاميون ديمقراطيون ، ونحن في زمن يُرفع العصامي الديمقراطي فيه الى اعلى المقامات . ولكن البيت الثاني يا مولاي :

نبني كما كانت اوائلنا تبني ونفعل مثلما فعلوا

ها هنا الخطل الاكبر . ها هنا المستنقع الذي تنتشر منه جراثيم امراضنا الاجتماعية والسياسية والدينية . وانا اذا تساهلنا في تحليل البيت وتفسيره نسلم بنصفه الذي ولا شك ينفع الشرقيين العمل به . اذ لا اظن اننا نستطيع نبذ الماضي كله بجذافيره . فلا بأس ان نبني كما كانت تبني اوائلنا — ان تكون حكوماتنا ملكية مثلاً . . . فقاطعني عظمته قائلاً : نحن نبني يا حضرة الاستاذ كما كانت تبني اوائلنا . ولكننا نفعل فوق ما فعلوا . فقلت : احسنت يا طويل العمر احسنت . اصلحوا البيت اذن حتى اذا قرأ كل من تشرف بالمثول لديكم .

نبني كما كانت اوائلنا تبني ونفعل فوق ما فعلوا

تحتدم فيه شعلة الحياة الجديدة ، فيسعى وهو يحترم الاجداد في ما يؤهله لاحترامهم . كذلك علينا ان نسعى لنفوق ما قاموا به من خطير الاعمال ومجيدها في زمان حرم من اسباب الرقي والعمران التي يمتاز بها زماننا . والحق يقال ان السلطان عبدالعزيز آل سعود استعاد في دوره الاول ، دور الفتوحات ، ملك اجداده ، وعزز هذا الملك بالعدل والامن ، وبالدين الذي هو في نجد مصدر الاثنين ، فلا يخطىء . او يموه اذا قال نبني كما كانت تبني اوائلنا . ولكنه في تحضيره البدو ، وفي تأسيس الجديد من المدن والقرى التي تدعى

الهجر(١) وفي استخدامه من يحسن الخدمة مهما كان مذهبه ، وفي اعطاء امتياز الحسا لشركة انكليزية ، وفي ارساله اولاداً من نجد الى مصر ليتلقنوا فيها العلوم الحديثة ، وفي استحضاره الى الرياض السيارات وبعض الاطباء والمهندسين ، في كل هذه ما يثبت قوله انه يفعل فوق ما فعل اجداده .

ولا يبالي اذا كان المشايخ والعلماء لا يرضون دائماً عن هذه الخطة العمرانية ، اذ ليس لهم ان يعترضوه بشيء في سياسته الداخلية والخارجية التي لا تمس الدين . وهو ، وان قيل انه شديد التعصب المذهبي ، يحسن المداراة فيتجاهل في ما لا يضر ، ويتساهل في ما هو مفيد لبلاده . قد يفوه احد العلماء احياناً بكلمة فيها بعض ما يكنه من الوجد والاسى فيقول مثلاً : في ايام اجدادكم يا طويل العمر كانت الدنيا مستريحة من هذه المشاكل الجديدة كلها . فيسمع عبدالعزيز ويبتسم ثم يسير في سبيله ليتمم مقاصده .

وقلما يكترث مما يشيعه عنه الاعداء وفيهم من الادباء من يجهلون نجد الحديث . لذلك تضاربت الآراء في كثير من الشؤون التي تتعلق به وببلاده خصوصاً في موقفه الحقيقي تجاه الوهابية وانصارها الاولين المتعصبين اي العلماء والاخوان . فقد بددت بعض الظلمات على ما اظن في تصويري الرجل للقارىء تصويراً صادقاً حقيقياً ، وجئت الان اشعل مصباحاً في زوايا السياسة المذهبية التي كان يخامرني منها بعض الريب .

سألت ذات يوم احد رجال السلطان الاذكياء ان يصدقني الخبر او يجهر لي برأيه الخاص ، فقلت : لا انكر ولا ينكر احد صدق عقيدة الشيوخ

---

(١) الهجر جمع هجرة . وكل مدينة او قرية جديدة في نجد بناها البدو الذين دينوا وتحضروا فهجروا اليها من الجهالة الى الدين ومن البداوة الى الحضر هي هجرة . في تاريخ نجد الحديث الفصل الثامن والعشرين ص ٢٣٢ تاريخ هذه النهضة الاصلاحية الكبيرة التي قام بها السلطان عبدالعزيز .

الدينية ، فهو امام الموحدين . ولكني حائر يا صديقي في امره والاخوان . فهل تظنه يعتقد ان على الامام ان يحارب المشركين في كل مكان ، ان يجاهدهم حتى يديّنوا ؟ في نيتي ان اسأل عظمته هذا السؤال . فقال صديقي : لا تفعل . والذي اراه ان السلطان يعتقد من الواجب . لم يرضني جواب الرجل الشبيه بفتاوى الكهان الاقدمين . فتطرقت ذات ليلة الى الموضوع . ومما قلت للسلطان على ما اذكر اني في حيرة لا يزيلها سواه ، واذا سافرت من الرياض احملها ساكتاً لا اكون راضياً عن نفسي ، وقد اسيء اليه فيما اكتب. فقال عظمته : اسألني كل ما تبغي وانا اجيبك عليه . ولا اسامحك اذا سافرت من عندنا وفي نفسك حاجة تقضيها او مسألة تجلي غامضها . فقلت : هل ترون ان من الواجب الديني محاربة المشركين حتى يدخلوا في دين التوحيد ؟

فاجاب على الفور : لا ، لا . وضرب الارض ضربتين بعصاه ثم قال : هذا الحسا ، عندنا هناك اكثر من ثلاثين الفاً من اهل الشيعة وهم يعيشون آمنين لا يتعرض لهم احد . الا انا نسألهم ألا يكثروا من التظاهرات في احتفالاتهم . . . كن مطمئن البال يا استاذ . لسنا كما يرانا بعض الناس . فقلت اسمحوا لي بسؤال اخر . كان سؤالي الاول : هل ترون من الواجب الديني . . . وهل ترون من الواجب السياسي ان تحاربوا المشركين حتى يدينوا؟ فاجابني قائلاً : السياسة غير الدين . ولكننا اهل نجد لا نبغي شيئاً لا يحلله الدين . فاذا حلل الدين ما نبغيه فالسياسة التي نتخذها لتحقيقه محللة . واذا عجزت السياسة فالحرب ، وكل شيء في الحرب يجوز .

في الستة الاسابيع التي اقمتها في الرياض كان السلطان يزورني في منزلي كل ليلة فنتباحث في مواضيع شتى ، نجدية وعربية وعامة ، وهو دائماً في حديثه فصيح صريح . ليت شعري اية صراحة ابهر مما تقدم ومما سأذكر ؟ ان السلطان عبدالعزيز مثل كل رجل كبير لا يخشى ان يقال فيه ان عمله اليوم

يناقض عمله بالامس ، وانه في السياسة غيره في الدين . فهو في حكمه البلدان التي امتلكها والعشائر التي تغلب عليها يراعي شؤون اهلها الخاصة من مذهبية وقومية . ويندر ان يؤمّر فيها من هو من غير اهلها . هي السياسة اللامركزية التي يؤيدها في نجد امران ، عدل السلطان في الرعية وحب الرعية للسلطان .

قبل ان اختم هذا الفصل يجب ان اطلع القارىء على رأيه في الموضوع الذي يشغل افكار ملوك العرب اليوم وقلوبهم ، في الموضوع الذي شغل الصحافة العربية في كل مكان ، فكانت اخبارها واراؤها فيه مزيجاً من الحقيقة الناقصة والغرض الاعمى ، في الموضوع الذي شغل كذلك ساسة الانكليز وصحافتهم فساروا فيه على عادتهم سير صاحب المصلحة الذي يعد كل يوم اصحابه واعداءه ، ويغير كل يوم من آرائه ما توحيه الاحوال .

كانت الوحدة العربية حديثنا في جلسات عديدة . ولكن السلطان ، عندما دنا يوم الرحيل ، افاض في الموضوع فدوّنت خلاصة حديثه تلك الليلة وعرضتها عليه في الليلة التالية ، فقرأها واصلح خطأي فيها . واليكها ايها القارىء في الحالين :

رأي السلطان عبدالعزيز في الوحدة العربية

من حديث له ليلة ٣ جمادي الثانية سنة ١٣٤١ في منزلي بالقصر

١ً — هو يبغي الوحدة العربية ويساعد من سعى باخلاص في تحقيقها . فيحضر اجتماعاً يعقد لهذه الغاية، ويقبل الزعامة والبيعة ملكاً على البلاد العربية كلها لاعتقاده انه اهل لها ويستطيع تعزيزها .

٢ً — واذا بايع العرب غيره فهو يقبل ذلك ولا يتحول عن فكرته، بل يستمر في خدمة القضية العربية بما يستطيع .

٣ً – واذا لم تتحقق الوحدة وكان ائتلاف او حلف عربي بين امراء العرب لتعزيز شؤونهم معنوياً وسياسياً ولضمانة مصالحهم الاقتصادية المشتركة فهو ينضم اليه .

٤ً – واذا لم تكن الوحدة ولا الحلف فهو على سياسته يحالف دولة تكون المصالح مشتركة بينه وبينها .

٥ً – وفي كل حال هو رجل سلم في بلاده لا يبغي الاعتداء على احد ، ولكنه يأبى ان يعتدي احد عليه .

كتبت خلاصة الحديث تلك الليلة كما هو اعلاه واطلعت السلطان عليها لاتحقق صحة الرواية . فقرأ ما كتبت مادة مادة ثم اخذ القلم وضرب على المادة الثانية قائلاً : أسأت فهمنا فيها . نحن لا نقول كلمة ينقلها عنا الاستاذ الريحاني ولا نثبت عليها . ولكن هذا لا يكون . اشار وهو يتكلم الى المادة الثانية ثم قال : نحن نعرف انفسنا ولا نقبل الرئاسة في غيرنا .

أيذكر القارىء ما قاله لي الملك حسين ساعة الوداع ؟ – انا لا ابغيها – اي الزعامة – واساعد في تحقيقها – اي الوحدة – تابعاً كنت او متبوعاً . أوَ لا يذكر كذلك انه رفض ان يوقع المعاهدتين بينه وبين الامام يحيي والادريسي لانهما لم يعترفا له بالزعامة العامة ، لم يلقباه بملك العرب .

فاذا قابل القارىء بين القولين ، قول الملك وقول السلطان ، يرى الفرق بين الرجلين ، ويعجب وان كان شريفاً بصراحة ابن سعود .

الفصل الرابع عشر

الوَشْم

كم مرة خفت في رحلتي – الحمى والغربة – السلطان المؤاسي – الموت الذي يزعج – السيد هاشم يصلح عقاله امام المرآة – ما معنى الى الكويت – اكتب وصيتي – اهب السيد هاشم حصتي في الجنة – « وقد جعلتك وارث مرآتي ايضاً » – لا ماء الا في الحفر – مكارم عبدالعزيز – القافلة تخرج من الرياض – الدرعية – وادي حنيفة – خرائب العيينه – تعدد القلبان ولا ماء – اخوان يسلمون ويستردون سلامهم – الربع يغنون ويدرهمون – احسن الرياضات الجسدية – الحيسية والحطب – الوشم – ثرمدا وشقرا – قحطان وتميم – « دين يا امين فنزوجك بنت من بناتنا وتقيم عندنا » – غزارة الماء في الوشم – قصور الوشم – « ديرة » امرىء القيس – بلد الشاعر جرير – وادي السر .

قد غشيني الرعب ثلاث مرات في رحلتي العربية ، قد خفت ثلاث مرات كما يخاف الناس ، ولا تفلسف ولا اعتذار . قبض الخوف على قلبي وحماق بي هنيهة وهنيهتين ، ويوماً ويومين ، فزعزع مني الارادة والايمان ، فعرفت يومئذٍ عدو الانسان الاكبر ، وعرفت معنى السلامة والاطمئنان .

اول مرة خفت على حياتي عندما لحق بنا عساكر الحواشب واطلقوا النار ليوقفونا من اجل القطور . وخفت ثانية على حريتي في الاقل ، خفت ان اعتقل في قلعة مظلمة عندما سئلت في ماوية : أحسني انت ام حسيني ؟ وثالث مرة يئست من رحمة الله عندما اسرتني الحمى في القصر بالرياض ، فكنت اسيرها اياماً ودرجة الحرارة تهمس في اذني تلك الكلمة التي فيها خاتمة كل شيء .

نعم خفت مرة في الرياض واحسست لاول مرة في رحلتي كلها اني في الغربة ، بعيد عن بلادي واهلي ، بعيد عن اسباب الصحة والشفاء ، وعن الاطباء . بيد اني في تلك المحنة كنت اتعزى بما عاضني الله من صداقة رجل نجد الاكبر سيد البلاد والمكارم كلها . فكان يعودني كل يوم ويجيء كل

حرة بشيء يخفف سورة الحمى . — هل اكلت الكنكينا يا صديقي الاستاذ ؟ هذا شراب يعيد الدم . خذ منه . خذ منه الان ولكني في العقاقير كلها والمرطبات ما وجدت ما ينعشني مثل ابتسامة السلطان ومصافحته وكلماته .

قد كنت مع ذلك بائساً مكتئباً ، وخائفاً على حياتي . اقول ، يا حضرة النجيب ، خائفاً على حياتي • وما هي ، وحياتك ، بشيء ثمين لولا ما سُخر له صاحبها كما يقول الاولياء . خفت الموت لا لان الموت يخيفني — اقول ذلك اتضاعاً لا فخراً — بل لانه يزعجني ، يقطع علي عملي وانا في مبهجة منه ، يوقفني في نصف رحلتي . وكنت اسمع صوتاً فيه ارتعاش اذ كانت درجة الحرارة على حدود الاربع بعد المئة ، وهي درجة يغتفر عندها الهذيان ، كنت اسمع صوتاً يقول ويردد : الوشم ، وادي السر ، عنيزه ، بريده ، الكويت . . . الى الكويت . هات الخريطة يا دحيم .

وكان دحيم — مختصر عبدالرحمن — وهو السلحفاة في سيره وعمله يروح ويجيء في قميصه البيضاء القذرة كأنه طيف الموت بعينه . — ابشر يا استاذ ابشر . ولكنني ، قبل ان يجيء بالخريطة ، اكون قد سافرت على ظهر الحمى الى الكويت عشر مرات . وكان لدي خرائط كبيرة وجدتها في القصر جسمت في نظري المسافات وضاعفت المشقات . اما رفيقي السيد هاشم فكان قد تصلب من طول الصحبة ، او عاد الى صلابته ، فلم يعد يرثي لحالي . لا انساه حياتي وهو واقف عند النافذة والمرآة بيده يحكم وضع عقاله ، ويصف لي مشقات الطريق الى الكويت . وكان كل مرة يرى الخريطة بيدي يتناول تلك المرآة ليغين روحه ، فيغنيها وهو يقول : لا ماء الا في الحفَر ، فيعيني الحياة كلها مفازات ، ويسمعني فوق ذلك : كلها مفازات . الا فاسقني غماً وقل لي هو الغمُّ .

الى الكويت ! ليس في الكلمتين ، اذا كنت في غير قلب البلاد العربية ،

ما يدعو الى الخوف والاضطراب . هب انك في بباي ومحجتك الكويت فالسلامة ترافقك في مركب بخاري تعددت فيه اسباب الراحة والاطمئنان. ولو كنت في العراق وقلت : الكويت ، للبّاك كذلك البخار ، فيحملك على العجلات من بغداد الى البصرة ويكلك هناك الى باخرة تريك ، وهي تجري في شط العرب ، شيئاً من الجنة على ضفتيه ، وتنزلك في جون من الخليج حفرته يد الزمان ، فاطمأن اليه البحر والانسان .

ولكن تلك الكلمة : الى الكويت ، وانت في الرياض ، ووراءك الدهناء وامامك الدهناء والنفود ، ولست يا رجل من الدواسر او من بني مرة ، وليس لديك من السيارات والطيارات غير « البل » – الابل – انما هي المحنة التي تفاخرك دائماً باخيها الشقاء وبابن عمها الموت . ومع ذلك فالسيد هاشم كان يحبب اليّ الاخت واخاها وابن عمها اكراماً للشيخ احمد آل صباح والكويت . ولعله اكثر من عشرتي وفلسفتي فاستحجر قلبه .

– الشيخ احمد رجل زين ، يا استاذ ، متعلم متأدب ، سافر الى اوروبا ، وهو يتأنق بملابسه ومآكله . والكويت مدينة تنسيك الرياض . هي باريس البلاد العربية . فيها دخان ، وفيها وسكي ، وفيها المباح من النساء ، وفيها طبيب ومستشفى . نعم فيها طبيب ومستشفى . . . ثم يبادر الى المرآة فيحكم وضع عقاله ويقول : لا ماء الا في الحفر .

– وقد اموت يا سيد هاشم قبل ان اصل الى الكويت .

– حياة الفلاسفة طويلة يا استاذ . وهب انك مت فقد شاهدت الرياض والاخوان ، فيؤذن لك بالدخول الى الجنة .

– الجنة لكم لا لي . . . هات الخريطة يا دحيم . . . واعطني الماء . سأشرب ما يكفيني الى الكويت .

السيد هاشم بعد ان عدل عقاله ووضع المرآة تحت المسند :

– هلا تعتقد بالجنة يا استاذ ؟

– لا اعتقد لا بها ولا بك .

– ولكن الجنة كائنة بشهادة النبي والكتاب الكريم

– جَنة البلة كما قال الغزالي . هي لك بخشيش مني .

– انت تمزح .

– انا أجدّ .

– انهبني حصتك فيها .

– وهبتكها كلها .

– او َ تكتب لي حجة بذلك ؟

– يا دحيم هات الورق والحبر .

فبادر اليّ بهما السيد هاشم فكتبت ما يلي : على فرض ان الجنة موجودة فاني اهب السيد هاشم ابن السيد احمد الكويتي السني الشافعي الرفاعي حصتي فيها . ووقعت الصك ودفعته اليه ، فأعاده قائلًا : بالله يا استاذ امضه بالانكليزية ايضاً . فقلت ، وقد دونت اسمي باللغتين : أتظن ان لرضوان مستشاراً انكليزياً او ان الانكليز اصحاب الانتداب في الجنة ؟ فقال : الله اعلم . وعاد الى المرآة يعدل عقاله . كنت قد ادركت ما للمرآة من الاهمية في حياة صديقي فقلت والموت يداعبني : وقد جعلتك وارث مرآتي ايضاً . فسُرّ بالهبتين ونادى :

يا دحيم هات القهوة .

يا دحيم هات الخريطة . هذه هي الرياض وهذا الوشم – مئة ميل – وهاك وادي السر فشقرا فعنيزه فبريده – مئة وخمسون ميلًا – ومن بريده الى الحفر – مئة وخمسون ميلًا .

السيد هاشم : لا ماء الا في الحفر .

— توكلنا على الله . ومن الحفر الى الكويت مثلها — الجملة خمسة وخمسون ميلاً ، مسيرة عشرين ساعة في السيارة وعشر ساعات في الطيارة طير « الهوَن »[1] ولكننا في بلاد لا نريد ان نطير فيها ولا فوقها . فقد طابت لنا حتى في مفازاتها ، واحببنا اهلها واحببنا بعارينهم ، فوددنا السير فيها على طريقة دحيم كالسلحفاة لنزداد بهم وبها علماً ونزداد حباً .

قال لي احد الموظفين الانكليز عندما كنا في العقير : احسنت في سفرك من هنا فستعود تدريجاً على ركوب الذلول فتصل الى القصيم وقد تصلبت فتقوى اذ ذاك على السفر من القصيم الى الكويت .

انها والحق يقال اوعر الطرق في نجد . ومعما صحبني من مكارم عظمة السلطان عبدالعزيز من اسباب الراحة والامن وخفض العيش فقد كانت هذه الرحلة علي اشد الرحلات مشقة وتعباً وهماً . خرجنا من الرياض اثني عشر راكباً وفينا الرفيق والحارس والخادم والطاهي والقهوجي وراعي البعارين ، وهو يسوق قدامه قطيعاً من الغنم للذبح ، ومعنا في الحملة الخيام ، وفي مواعين المؤونة حتى العسل من عسير والبسكوت من لندن .

على انه كان معنا ضيف ثقيل خبيث ما رآه احد من الربع ولا علم به امير الحملة هذلول — هذلول الذي كان يرى ما وراءه كأنه امامه فلا يخفى عليه شيء يختص بالحملة او بمن جهزت من اجله ، لم يرَ ذاك الضيف الثقيل ولا علم به . فقد رافقنا من الرياض رديفاً ، رديفي انا بل رفيقي الاول ، شيخُ الحمى ! وكان يشهر حرباً علي من حين الى حين ليثبت وجوده وينفي وجودي فيحمل عليّ بالنار فاحمل عليه بالكينا . دامت الحرب شهراً ويزيد ، اثناء الرحلة كلها ، دون ان يفوز احد منا . فكان يتبع كل وقعة هدنة ،

---

(١) يقول اهل نجد في السير البطيء « سير الهون » .

وكل هدنة صلح كاذب . حتى اننا يئسنا من الصلح ففضلنا الحرب عليه . ولم يكتب لي النصر المبين الا بعد وصولي الى الفريكة واستنجادي بهواء لبنان .

اين نحن الان من لبنان . اننا لا نزال ايها القارئ العزيز تحت سماء العارض وفي ظلال بساتين الرياض التي تمتد جنوباً الى المنفوحة بلد الاعشى احد رجال المعلقات . صعدنا قليلاً في جبل طويق ، وعاصمة نجد التي هي عند سفح الجبل وراءنا والمنفوحة دونها . ثم اطللنا ، بعد سير ثلاث ساعات شمالاً ، على برج مهدوم اشار اليه هذلول قائلاً : هناك نصب ابراهيم المصري مدافعه واطلقها على الدرعية .

وبينا كان يقص علينا قصة تلك الحرب بدت بعد نصف ساعة الاطلال تحتنا غرباً بجنوب ، وقبالتها شرقاً بشمال بساتين من النخيل والاثل اختبأت فيها القرية التي هي اليوم الدرعية الجديدة . نزلنا في شعب من وادي حنيفة الذي يفضي الى اليمامة ، وسرنا بين الدرعيتين قليلاً ، ثم انخنا في عقيق السيل بين ظلي الاطلال والنخيل . وبعد ان امر هذلول بنصب الخيام واعداد العشاء ارسل الى امير البلدة رسولاً يطلب الحطب للنار والعلف للركائب ، ثم مشى يرافقني الى عاصمة الوهابية التي دمرتها مدافع المصريين منذ مئة سنة ونيف .

صعدنا الى الجانب الغربي من السيل القائمة على حاشيته بقايا قصور آل سعود ، فاذا نحن في اسواق مدينة كبيرة كانت تشرف شمالاً على جبل طوَيق وجنوباً على اليمامة التي هي اليوم بقعة صغيرة في مقاطعة الخرج ، فمشينا بين جدران تداعت ، وفي ساحات لم يبق من عمرانها غير الرسوم العافية ، ووقفنا على جسور متهدمة بين القصور ، ونزلنا في درجات مَعوّية الى ابار ردمها الزمان .

وبلدة مثل ظهر الترس موحشةٍ   للجن بالليل في حافاتها زَجَل

كانت الدرعية منذ مئة سنة اكبر مدينة في البلاد العربية ومحط رحال

العرب من الاقطار كلها . سرنا في اليوم الثاني ساعة في وادي حنيفة ونحن لا نزال في ظلال طلولها الدوارس فلا عجب اذا كانت في ايام مجدها ، في عهد عبد العزيز الاول وسعود الاكبر ، قطب البلاد العربية بعد الحرمين ، يؤمها العرب من كل قطر قصي للاستنجاد بامرائها والاتجار . من عمان ومسقط وحضرموت كانوا يجيئون الى الدرعية ، ومن العراق والكويت والبحرين ، ومن اليمن وعسير والحجاز .

هذه هي عاصمة نجد في وادي حنيفة وقد دمرها العدو الاجنبي . وهذه هي جُبَيْلة قريبة منها وقد جعلها آل سعود في حروبهم الاهلية مثل الدرعيّة . وها نحن في « بلد الشيخ » على مسيرة نصف ساعة من جبيلة . هي « بلد الشيخ » ، مسقط رأس محمد بن عبد الوهاب ، العُيَيْنَة المشهورة ، وقد اخنى عليها الذي اخنى على لُبَد . كانت طريقنا بين خرائبها ورسومها ، فسرنا ساعة فيها ، فأدهشنا عدد القلبان[١] التي كنا نراها الى اليمين والى اليسار ، وهي عميقة ومحكمة البناء ، وكلها ، يا من اخنى على لبد ، جافة مردومة .

كانت العُيَيْنة قائمة في وسط سهل فسيح ، سطحه يابس جاف ، غير ان تحته ولا شك مجاري من المياه كثيرة . فما معنى القلبان المتعددة لولا ذلك ؟

اما اليوم فلا ماء في العيينة ، لا في عيونها ولا في قلبها . هجرتها السواقي الخفية ، فهجرها الانس ، فنبت البَهَق[٢] في دورها ، والحرمل[٣] في حماها . دُكّ تحتها ضلع من الارض ، فتحولت المياه عن مجاريها ، فنضبت القلبان ، ودكت فوقها المنازل والقصور . ولو ان في جوارها اليوم بعض الماء لقامت عندها عُيَيْنَة جديدة مثل الدرعية الجديدة . قد شاهدت في نجد غيرها من

---

(١) قلبان جمع قليب تلفظ في نجد جليب اي بئر ماء وساقية .

(٢) بهق الحجر نبات يعلو الصخور شبيه بالطحلب .

(٣) الحرمل نبات مثل الطيون لا تأكله المواشي . قيل ان حبه يخرج البلغم والسوداء اسهالاً ويصفي الدم .

البلدان التي هُجرت او نُقلت لتحوّل مجاري المياه تحتها .

كانت العيينة من مدن نجد العامرة يوم فرَّ هارباً منها محمد بن عبدالوهاب ولجأ الى الامير سعود بن مقرن في الدرعية . بل كان هذا الوادي وادي حنيفة عامراً في ايام الصحابة بالبلدان والقرى التي كان يتصل بعضها ببعض من الدرعية الى العيينة . اما اليوم فقبور الصحابة فيه و «ديرة» مُسَيلَمة ، ومسقط رأس الشيخ ابن عبدالوهاب هي كلها مثل القلبان تحت الارض واحدة في الخراب والهجران . بل قد هجر وادي حنيفة حتى الاطيار والازهار ، ولم يبق من الشجر غير الشوكي كالطلح والسلم . كأنها مخالب الزمان في كبد العمران او اكاليل من الشوك للطلول الدوارس .

ومثل الطلح والسلم في الاخربة هولاء الاخوان في الدين . هاك ثلاثة ذاهبين الى الرياض « ليقروا » — ليتعلموا القرآن والحديث . سلموا علينا فرددنا السلام . وراح هذلول يحدثهم ليستطلع « علومهم » — اخبارهم . ثم سمعنا واحداً منهم يقول : ردوا لنا سلامنا . وسمعنا هذلولاً وقد ادبر بذلوله يصيح : سلامكم رد لكم . ثم اشعل السبيل فسألته الخبر فقال وهو يضحك ويدخن : بدو جهال . سلموا علينا ثم ندموا على السلام . سألوني عنك فقلت : سوري جاء يتاجر بالبل ، فما صدقوا ، وقال احدهم : هو انكليزي كافر . ردوا لنا سلامنا . فرددتهم وسلامهم الى الجحيم .

فضحك العجماني بدّاح ضحكته العريضة الفضفاضة ، وراح يدرهم ويغني :

يا راكب اللي هجيجا زين «يا راكب الناقة التي درهاما اي عدوها حسن»

ما ضيّجت صدر راعيها «ما ضيقت صدر صاحبها»

اسرع من رماشتك بالعين «رمش العين»

ورماشة العين تلهيها «اي الغمز بالعين»

تمشي العشر تأخذه بيومين

تحييك ما مل راعيها .

وكأنه كان يتغنى بمديح كل ذلول من ركائبنا الا ناقة سوداء شعراء حرون ، ميتها الحيزبون ، كانت تأبى السير الا غارة ، فيضطر راعيها سالم القهوجي ان يتخلف عن الربع من حين الى حين ، ثم يطلق لها العنان فتجيء كأنها « جلمود صخر حطه السيل من عل » وهي تهدر كالرعد والبحر الهائج معاً ، والمعاميل — مواعين القهوة — المعلقة بالرحل تصفق لها استحساناً . ولم تكد تلحق بنا حتى تسري منها الى ركائبنا الكهرباء ، فتنزق كل ذلول لمباراتها ، فيبادر الركب الى الارسنة وقد كانت على الغوارب ملقاة ، والى الخيزران يهولون بها فوق الرقاب ، وينادي هذلول بدحاً وبداح يحمس هذلوله حي هلا ، حي هلا ! جاب الحيزبون ، شنها سالم المجنون .

اسرع من رماشتك بالعين ورماشة العين تلهيها .

كنت في بداءة امري بالغارات احس ان شيئاً في صدري يذوب فيحدث فراغاً يصعب عنده التنفس . وكنت اتصور الرحل يعلو ويهبط كأنه موجة تحتي مائجة ، بيد اني بالممارسة ملكت النفس والعنان ، وصرت اهول بالخيزران كأني من الدواسر او العجمان . حتى اذا ما دنت مني الحيزبون كنت أسرع الربع الى النخوة والاعتزاز — خيال التوحيد اخو من طاع الله ! — وقرينهم في الغارات .

ان في ركوب الهجين خير الرياضات الجسدية . وهو يلذ ولا يتعب اذا بدل الراكب السير هوناً بالدرهام ، والدرهام بالغارة من حين الى حين . اي اذا سار يمشي الهون عشر دقائق مثلاً ، ثم مثلها درهاماً ، ثم بضع دقائق غارة ، وكذلك في المسير كله ، فلا هو يتعب ولا تتعب الذلول . بل في هذا السير المختلط صحة الراكب والمركوب وسرور الاثنين معاً . فالذي يشفق على هجينه لا يسير مشياً دائماً . ولم يكن هذلول ليسمح باكثر من ساعة من

بطء السير فيقول اذ ذاك : هوّوا الركائب ، فننشأ ندرهم جميعاً .

قد يخفى على القارىء المتمدن من لا يعرف من اخبار الجمل – الابل – غير « سائق الاظعان يطوي البيد طي » وغيرها في الدواوين ما في الكلمة « هوّوا الركائب » من الحقيقة ، وما في العمل بها من الرحمة بالحيوان . ليعلم اذن ان سنام البعير هو من اعضائه الطرية الحساسة وان قل عددها ، بل هو اطرى ما فيه منها . وان الكور في شكله يحوق بالسنام ولا يضغط عليه فيبدو السنام منه للهواء كأنه قبة من الشحم في اطار من خشب ، فيستأنس البعير بذلك . وليعلم القارىء كذلك ان الجمل المحمّل مها اثقل حمله هو اوفر حظاً من الذلول لان الحمل يضغط على جنبيه وظهره اكثر من ضغطه على السنام . اما الذلول فحملها[1] الاول الكور . ثم الفرش – وسادة وسجادة وخرج وجلد غنم – فوق السنام يمنع عنه الهواء ، ثم الراكب وهو على السنام يضغط عليه فيزيد بكربة صاحبته ، ولاسيما اذا سار الهون فلا يتحرك الا ترجعاً اي حركة افقية ، فتزداد بالفرك الحرارة ، ويمسي السنام كقطعة لحم مشوية . اما اذا درهم فتتغير الحركة ، تصير عمودية ، فيدخل ، وانت تنتفض في الرحل ، شيء من الهواء الى السنام فتنتعش الذلول المسكينة .

وحبذا اعتناء اهل نجد بالاشجار اعتناءهم بالابل . مررنا في وادي حنيفة ببقعة تدعى الحيسيّة فيها غاب من الطلح والسَلم هو اول ما شاهدت في نجد . ولكن الاشجار متفرقة متكسرة ، قليلة الاخضرار ، ضئيلة الظل ، تسطو على اصولها وجديدها الانعام ، ويفتك بفروعها فأس الحطاب . في الحيسية تحتطب الرياض . ولكن اهل العاصمة في غفلة عما يحدثه جهل الرعاة وجهل الحطابين . فهؤلاء يقتلون الشجرة واولئك يجهزون عليها ، ولا احد يشكو .

---

(١) قلت في حاشية سابقة ان الذلول ناقة تُذلّل للركوب ويندر جداً ان تكون من غير النياق اي من الذكور .

ويلوم . ما رأيت ولا سمعت ان احداً اهتم لغرس الجديد من الطلح والسلم .
فلا يمر والحال هذه عقدان من الزمن حتى يضطر اهل الرياض ان ينشدوا
الحطب كما ينشد الرعاة في سنة الجدب الحيا — المرعى — في الاراضي القصية.
وقد لا يجدونه .

بعد خروجنا من الجبيسية نطل على اول بلد في الوشم ، ذاك القاع
الكائن بين وادي حنيفة ووادي السر ، الذي يمتد غرباً من سفح جبل
طويق . ان الوشم مشهور بقصوره ومزارعه وتاريخه وتقاليده . هذه العرة
كأنها في قصرها ونخيلها واقفة عند الباب وبيدها المفتاح الى وادي حنيفة في
تلك الناحية . هي قرية لا يتجاوز عدد سكانها الخمسمئة نفس اكثرهم من
عرب مطير وفيهم مئتان من الاخوان المجاهدين .

اما ثرمدا بعدها ، ثرمدا الكثيرة العلبان ، فان الماء المالح والماء القراح
يجريان فيها جنباً الى جنب تحت النخيل . سكانها من بني تميم واميرها
المنقري الذي اضافنا وحدثنا عن العاصمي والعظامي من الرجال هو من بني سعد
وهم اطيب جذوع تميم في الزمان الاول . قال لي هذا المنقري التميمي
العصامي واكد قوله ان عندهم في ثرمدا ثلاثمئة قليب وثلاثة الاف مجاهد .
ولكن امير شقرا الذي قرأ بعدئذ المذدين في مذكراتي اسقط صفراً واحداً
من كليهما .

— هذا الصحيح . ثلاثون جليب ثلاثمئة مجاهد . أو لم يعلمك بطباع
نساء ثرمدا ؟ هن يكرهن الاقامة فيها . رجال ثرمدا لا يعدلون في النساء . .
لا يستطيعون . لذلك ترى نساءهم ، والحبل على الغارب ، في كل مكان .

لم اتمكن من الرجوع الى ثرمدا لاسمع ما يقولون هناك عن نساء شقراء .
ولكن الامير القحطاني اكد لي ان نساء بلادهم مقصورات الطرف لا يبغين
خارج السور بديلاً . ثم قال : اذا دَيّنت يا امين نعرسك ببنت من بناتنا

حتقيم عندنا وتتحقق قولنا . ونعطيك مع البنية بيتاً وذلولاً ، ونعلمك الغزو وضرب السيف .

ان شقرا لأجمل بلدان الوشم واكبرها . نخيلها ، مثل نسائها ، داخل السور بزين البيوت ويحجبها بعضها عن بعض . عدد سكانها خمسة الاف وهم من بني زيد وبني خالد وفيهم قليل من تميم . اما الاغلبيه فهي لبني زيد وهم كما يدعون من قحطان . وبنو خالد من عنزى فعدنان . على ان الجميع في شقرا متآلفون متحابون . ومع ان الناس في نجد يسخرون بالقحطاني ويتهكمون عليه ، فيرمونه بالبخل ، فقد وجدته في شقرا مثله في اليمن عربياً كريماً . لست انسى الامير ووكيل المال والشاعر فيها . ولا انسى ضيافةً حالت دونها ودوني الحمى . وهم على كرمهم ودماثة اخلاقهم متضعون . ينحرون لك ، ويمدون سماطاً ملكياً ، ثم يقولون : ما عندنا في نجد غير فاكهتين الماء البارد في القيظ والنار في الشتاء .

ان شقراء مشهورة كذلك بمائها ، ذاك الماء الذي ادهش البدوي عندما شرب منه لاول مرة ، فصاح قائلاً : اقبح يامطر . وعندهم داخل السور ثمانون قليباً والف من الاخوان المجاهدين يحرثون في ايام السلم الارض ويتعاطون التجارة . اما عمال ابن سعود فليس فيهم من لم يخرج ولو يوماً واحداً الى الجهاد ، فادى شهادة التوحيد وحمل على المشركين . وانه ليدهشك ما يقوم به العامل الواحد من الاعمال . فلا دوائر هناك ولا كتاب ، ولا كراسي تجلس فيها الالقاب ، وتأخذ من مال الامة بلا حساب .

كنا في شقرا ضيوف وكيل المال محمد السباعي ، وهو رجل صغير نحيل عليل ، يحمل في جيبه مفتاحاً من الخشب يفتح عشرين باباً في داره ، ويتولى الجباية في الوشم كله ، ان بيت السباعي مفتوح وان ناره مشبوبة على الدوام . السباعي لحية غانمة كما يقولون هناك . اي انه ذو يسر وفضل وحمية . ومع

ذلك فهو لا يوكل احداً بعمل يستطيع ان يعمله بنفسه . — نباشر امرنا بيدنا . الكاتب متيسر ولكن ما كل واحد نأمنه على الاسرار . فنصبر على المشقة ولا نشكو غير ضعف في البدن . لو كان لنا ما للبدو من الصحة والعافية . ثم طفق يشكو البدو . — هم على صحتهم كسالى ، خاملون ، ويجب علينا مع ذلك ان نلاطفهم عندما ينيخون علينا . ونجاملهم « ونحبهم » — نقبلهم — بين عيونهم ونحمل لهم الاكل بيدنا . والا راحوا يسبوننا ويقولون اننا كفار . . . البدوي اذا شاف الخير تدلى ، واذا شاف الشر تعلى . ثم انشد يقول :

من لا يجيها والديار مخيفة (في خطر)
لا مرحباً به والبلاد عوافي (في عافية)

شكرت الحمى بعدئذ واشكرها الان على يومين في بيت السباعي تداويت فيهما بطيبتين لبنه وحديثه .

ذكرت ما في ثرمدا وشقرا من تعدد القلبان مما يدل على غزارة الماء في الوشم . فان مياه جبل طويق تصب غرباً بجنوب تحت هذا القاع ، فتصل الى الخرج والافلاج ، فتتكون هناك بحيرات شتى ، كما تصب شرقاً بجنوب تحت الدهنا . والصمان فتظهر في الاحساء . والشاهد على غزارة الماء في الوشم تعدد القلبان في القرى وخارجها في القصور . قد اشرت فيما سبق الى القصور في نجد ذازيد القارىء علماً بها ، او بالحري بتلك التي في الهد مثل قصور الوشم . فالقصر هناك سور مربع في كل زاوية منه مفتول او برج ، وداخله بيوت للسكن وللانعام ، وقليب ومقهاية ومسجد . هو اذن جامع بين القلعة والمزرعة فيستخدم في ايام الحرب للدفاع . وهذه القصور بعيدة بعضها عن بعض ، حول كل قصر منطقة خضراء مزروعة ، وبين كل منطقة واختها قفر قاحل كالصمان .

فلو عاد تميم ووائل وقحطان اليوم الى تاريخ اجدادهم في الاندلس مثلاً لعلموا بما كان لهم على الارض من الايادي البيضاء ، لعلموا بما كان اولئك الاجداد يبنون من السدود والقني الري ، فيساوون بين كل بقعة صالحة للزرع ويستثمرونها كلها . اني على يقين من ان الابار الارتوازية في الوشم ، وبناء السدود والقني ، واستخدام الالات البخارية للرفع والدفع تمكن اهله من زرع كل باع فيه ، فتزداد غلاله عشرة اضعاف . وما يصح في الوشم يصح في القصيم .

دع عنك ذكر الزراعة الان . فها نحن في الطريق التي اكلت قديماً نعال الشعراء ، في « الديرة » التي زانها يوماً من قال : قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل . لست ادري اذا كان سقط اللوى ههنا او في ذا الجوار ، واذا كانت حومل والدخول بين ثرمدا والنفود . ولكن هذلولا وهو شاعر يقول ان الى يسارنا على مسيرة نصف ساعة بلدة تدعى أثاثية هي مسقط رأس الشاعر جرير ، وان بين ثرمدا واثاثية مرات بلد امرىء القيس .

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمأل

ولكن الوشم اليوم أصيب بادبه كما اصيب بارضه . فيا له من مجد عفت رسومه ، ومن بلد عفنت علومه ، فصار حتى الدوسري يزدري ابن الوشم ، والسديري يسخر بقراريشه اي حماريه .

لا تحسبني من قراريش الوشوم من ثرمدا والمشيقر والامرات

ان اقدم بلدان الوشم هذين البلدين ثرمدا والمشيقر ، وان اكبرها شقرا الكائنة في الطرف الشمالي ، وليس بينها وبين الطرف الجنوبي من القصيم غير وادي السر . على ان هناك بين الوشم والوادي ، النفود[1] التي قطعناها بثماني

---

(١) النفود جمع نفد وهي مشتقه من نفد نفاداً اي ذهب وفني وهلك .

ساعات . وبكلمة اصح ان هناك نفدين اثنين ، الصغير الذي يدعى البترة وهو مسير ساعتين ، والكبير الذي يدعى اعزم وهو مسير ست ساعات . وان بين النفدين حاجزاً من الارض الحصوبة الجدبة التي تُستغرب جداً في شكلها ومكانها ، هي دائرة بيضاء بين تلك الكثب الذهبية ، وفي احد اطراف الدائرة حجارة بركانية سوداء منها متبعثرة ومنها مرصوفة بعضها فوق بعض . اعجب بها من ارض يبهجك تكوينها الرملي ، ويدهشك ظاهرها البركاني . بعد ان نصعد خمسمئة قدم في النفد الكبير ، وننزل مثلها ، نشرف على وادي السر ، فنجوز العيون هناك ، ونسير في الوادي الى المذنب اول بلدان القصيم .

الفصل الخامس عشر

القصيم

الهواء والاخلاق – القاع في العوشزية – نهر متجمد من الملح – اهل العوشزية ملح الارض – الاشراف على عنيزه – باريس نجد – سحر النفود والنخيل – خطر النفود – سوق عنيزه – اسر عنيزه القديمة – اكرامهم للغريب – القهوة والشاي والطيب – قاعة الاستقبال – النقش على الجدران – هندسة عربية – آل سليم – آل بسام – التساهل في عنيزه – لو جاءها « خليل النصراني » اليوم لاكرمه اهلها – وادي الرُّمه – الفرق بين عنيزه وبريده وبين اهل المدينتين – القصر في بريده – سويلم بن سويلم وكيل الامير – التهذيب العربي في اجمل مظاهره .

القصيم يعلو زهاء الف قدم عن العارض ويبعد مئتي ميل عن الغلو في الدين ، فيتغير الهواء والنبات ، وتتغير كذلك اخلاق الناس . سرنا في وادي السر الى جانب النفود وهي الى يميننا قافلة من الكثب تدنو وتبعد منا ، فيتقلص ظلها ويمتد ، ثم يختفي معها فلا نرى منها اذ ذاك غير الاسنمة والرؤوس الذهبية . وبعد مسير عشر ساعات في وادٍ يكثر طلحه وشنانه اشرفنا على العوشزية وعلى ما يشبه النهر شرقاً منها . فسألت هذلولاً : أسراب هذا ؟ فقال هذلول : هذا القاع . وسألت سالماً فاجاب : القاع . وسألت بداحاً فقال : هو القاع بعينه .

وما هو القاع ؟ في اليمن يطلقون الاسم على السهل فيقولون قاع يريم مثلاً وقاع الحقل ، فيكون القاع اذ ذاك اما اخضر واما اسود او احمر اذا لم يكن مزروعاً . بيد ان هذا القاع ابيض كالثلج ولم يتغير في قربنا منه ، ولا بدا على وجهه تموج يدل على الماء . فعندما وصلنا الى العوشزية بعد الظهر تركنا الخدم ينصبون الخيام ويعدون الطعام وسددنا خطواتنا انا ورفاقي الى القاع شرقاً من القرية . فاجتزنا بستاناً من النخيل ، وغيضة من الطرفاء ،

وادغالاً من نبات طويل لزج يدعى الهرتمليل ، فاذا نحن بعد ذلك في ارض سبخة موحلة واذا بالنهر او القاع قيد بضعة ابواع منا . أنهر في نجد ؟ اي نعم نهر من الملح المتجمد ، من قصفات السودا ، عرضه نصف ميل ، وطوله من الخمسة الى السبعة اميال ، ووجهه كوجه الماء وقد عقده القر جليداً .

خضنا الارض الموحلة الى الصفحة البيضا . فالفيناها جامدة مصقولة كالجليد ، وصلبة كالجلمود ، وناشفة كالرمل ، ولا باردة هي ولا حارة . جلست هناك وتربعت وشكرت الله على ذا المظهر الغريب العجيب في الكائنات . هوذا نهر ماؤه جامد جاف ، وهي ذي بحيرة حار جليدها . سألت رفاقي ان يجلسوا فترددوا خائفين . هي اول مرة جاءوا الى القاع وخبروا حقيقته . دقوا ما تحت ارجلهم بخشب البنادق ليتحققوا صلابته وجلسوا وهم يضحكون ، ثم قال بداح : والله يا هذلول بلاد نجد عجيبة . فاجابه هذلول : واعجب منها يا بداح نحن الذين لا نعرف ما فيها .

قطعنا صفيحة من هذا الملح فاذا سمكها اربع اصابع ويتخلله شيء من التراب والقش . اما اذا دنوت من وسط القاع فيزداد السمك ويصفو الملح فيقل فيه التراب . على اننا لم نر في اسواق عنيزة وبريدة ملحاً نظيفاً . فهم يجلبونه من هذا المكان ويبيعونه صفائح كبيرة وصغيرة كما يقطعونها .

العوشزية قرية صغيرة حقيرة فقيرة لان تربتها بسبب هذا القاع جلها سبخة لا يصلح زرع او غرس فيها . ولكن اهليها ملح الارض . جاءنا وجيههم يدعونا للقهوة — تفضلوا نقهويكم — فقبلنا شاكرين ، وكانت اول ضيافة من مثلها في القصيم . جلسنا حول الموقد على الوسائد ورب البيت يحدثنا بينا هو يعمل القهوة . ثم اشعل السبيل ودخن وقدمه لهذلول فاداره على الربع . ثم جاءنا بخبيص يدعونه عبيطا يعملونه من التمر والسمن استلذذته واستعدته . فضحك العوشزي الكريم واثنى على حريتي قائلاً : كأنكم من القصيم .

جا. هذا العربي الفاضل في المسا. يرد الزيارة ويشرب القهوة فازددت اعجاباً به وبكرم اخلاقه اذ قدم للربع شيئاً من التبغ واعتذر قائلًا : لولا قلته والله زودناكم منه .

وكانت ضيافة العوشزي فاتحة الضيافات في الايام التالية بعنيزة مليكة القصيم . عنيزة حصن الحرية ومحط رحال ابناء الامصار . عنيزة قطب الذوق والادب، باريس نجد. وهي اجمل من باريس اذا اشرفت عليها من الصفرا[1] لان ليس في باريس نخيل وليس لباريس منطقة من ذهب النفود . بل هي اجمل من باريس حين اشرافك عليها لانها صغيرة وديمة خلابة بالوانها ، كأنها صورة صورها مانه[2] لقصة من قصص الف ليلة وليلة ، وكأنها لؤلؤة في صحن من الذهب مطوق باللازورد . بل قل انها السكينة مجسدة وقد بنت لها معبداً بين النخيل ، زانته بافريز من ذهب الرمال ، وكللته باكليل من الاثل . فهي في مجوف من الارض يحيط بها غاب من هذه الاشجار ليرد عنها رمال النفود التي تهددها من الجهات الثلاث ، من الشمال والغرب والجنوب . قلت مرة لاهلها : انتم والنفود قوم[3] فاعجبوا بالكلمة وتناقلوها . انها الحقيقة ولا مبالغة . فالنفود تحاربهم بالرمال تدفعها الرياح من كل جانب فتسفيها على المدينة ، وهم يحاربونها بالاثل يزرعونه غياضاً فوق الكثب خارج السور .

قد تصغر عنيزة دون اهلها ، وهم زهاء ثلاثين الفاً ، لان النفود تقيدها فلا تستطيع التبسط والامتداد . فهي لذلك مزدحمة بالسكان واكثر اسواقها كالسراديب لانهم يبنون فوقها الجسور وفوق الجسور البيوت . ولكن هناك سوقاً للتجارة كبيرة منيرة تدهشك بما فيها من الاشكال والالوان . فتذكرك باميركا وبلاد الانكليز ، وتنقلك الى الهند واليابان ،

---

(١) الصفرا مثل الصمان ارض حصوية مجدبة شرقي عنيزة وتعلوها نحو مئتي قدم .
(٢) كلود مانه Claude Manet المصور الافرنسي الشهير .
(٣) قوم اي اعداء في اصطلاح العرب .

وتسمعك اللغات الانكليزية والافرنسية والهندوستانية ، ولهجات من العربية متعددة .

وفي عنيزة أسر قديمة عريقة بالنسب والفضل[1] قد ساح اباؤها في البلدان القصية والامصار شرقاً وغرباً فزادتهم السياحة ادباً واتضاعاً ، فرفعوا الضيافة الى مقام تنفتح عنده ابواب البيوت والقلوب معاً . اجل ، ان الغريب لينسى في هذه المدينة كونه غريباً ، فسواء اكان مسلماً ام كافراً ، موحداً ام مشركاً ، فهو يشعر هاهنا انه بين اناس الفوا مثله والفوا فوق ذلك اكرام الضيف ايا كان . فيستأنس ايما استئناس ويلبي دعواتهم مسروراً شاكراً .

— تفضل نقهويك . هي دعوة شبيهة بدعوة الانكليز للشاي . وفي الضيافتين شيء غير القهوة وغير الشاي جميل ، فيهما ميل الى الحديث والتعارف ، ورغبة في الالفة والولاء . على ان ضيافة العربي العنيزي تمتاز عن ضيافة الانكليزي في ان رب البيت يخدمك بنفسه من حين الاستقبال الى حين الوداع . وما اجمل ذاك الكرم وتلك الوداعة لاسيما ان الفضيلتين نشأتا في عزة نفس لا تحتاج الى الابهة لتؤيدها .

ان قاعة الاستقبال عندهم تدعى القهوة . وهي عادة طويلة فسيحة عالية سقفها ، وقد سقف بخشب الاثل ، قائم على اعمدة من الحجر مطلية بالجص ، لها نوافذ مزدوجة ، النافذةُ فوق الاخرى ، العالية للدخان يخرج منها والواطئة للهواء ، وعلى جدرانها رسوم هندسية نقشت بالجص فوق ارضية من الطين ، فتبدو في لونيها الابيض والحنطي كانها خرج افرنسي على قميص عربية . وفي الصدر مجوّف مستطيل لا يزيد اذا كبر على الثلاثة الاذرع هو الموقد ، يجلس عنده رب البيت ويجلس الى جنبه ابنه او اخوه او احد من اهله ، فيمشي الواحد يعمل القهوة والآخر يدق البن في جرن من الحجر كبير شبيه بجرن

(١) مثل آل سليم وآل بسام وآل ذكير وآل عماص وآل قاضي .

الكبة في لبنان ، الا ان قطر ثقبه لا يزيد كثيراً عن قطر الهاون . وعند رأس الموقد خزانتان واحدة للحطب واخرى للمواعين هما قيد يد الجالس هناك ، فلا يضطر ان يقف ليتناول شيئاً منها . واهم من كل ما ذكر الاباريق ، وهي محور الدعوة وركن الضيافة المادي ، اباريق النحاس الوهاجة كأنها وصلت تلك الساعة من المعمل في دمشق ، وقد صفت امام المضيف صفاً متناسقاً من الاول الصغير الذي يكفي ضيفين الى العاشر الذي يسقي مئة ضيف ويزيد . هذه هي القهوة عندهم وهي في شكلها ورسومها ، ولوني جدرانها ، وسقفها العالي ، ونورها اللطيف الذي قلما يمازجه نور الشمس ، تعيد الى ذهنك صورة معبدٍ من معابد الاقدمين فتحدثك بجلال العتق والقدم .

قال هنري دَوْطي في كلامه عن عبدالله البسام : « وكان لجرنه صوت شجي كأنه جرس الضيافة يدعو الناس للقهوة ». الا انهم لا يقفون في الضيافة عندها ، فهم يقدمون بعدها ، في كؤوس من الزجاج ، شيئاً من الشاي جزءاه الاكبران الحليب والسكر . في بعض الاقطار العربية يسمى هذا الشاي القهوة الحلوة ويقدم للضيف دائماً بعد القهوة المرة . وهم في الضيافة لا يسرعون ولا يلحون ، اللهم اذا كانت الدعوة للقهوة فقط . اما اذا دعيت للغداء او العشاء فبعد الاكل الآية : واذا طُعمتم فانتشروا . ولا استئناس . لذلك كنت افضل الدعوات للقهوة رغبة في الحديث ، وما اكثر الفوائد والدهشات فيه خصوصاً اذا كان مضيفك بساماً او سليما .

هذا سيدي عبدالعزيز بن عبدالله آل سليم وقد اضافنا مرات عديدة بين الصلاتين وبعدها اصيلاً ومساء ، لا لنسمعنا حديثه ، وما احلاه ، بل ليسمع حديثنا . وكنت من باب حب الذات والاستفادة اباريه في السؤالات ، فننتقل من الجغرافية الى الزراعة ، ومن أمريكة ، كما كان يلفظها ، الى بلاد طي ، ومن الاطباء الى الشعراء . كان يكثر ، عافاه الله ، من ذكر الاطباء ،

خصوصاً «طبيب السنون»، ويشكو خلو عنيزة منهم. — قيل لنا يا افندي ان امهر اطباء الاسنان هم في امريكه. أصحيح هذا؟ قد نسافر الى امريكه فنشاهد بناياتها العالية ونصلح اسناننا.

وهذا عبدالله بن خالد آل سليم امير عنيزة وقد انزلنا في القصر الجديد الذي شُيد حديثاً لعظمة السلطان عبدالعزيز، ومد لنا في بيته سماطاً ازدحمت فيه الالوان، وانارته من شيم الاماجد البشاشة والوقار. ثم ادهشنا صباح يوم السفر باكلة جمعت بين الحبيص[1] والعبيط، جيء بها في جفنة كبيرة على كانون من النار لتؤكل حامية. هي الخُبَيْنة بنت الحبيص والعبيط، وقد عُملت قرصاً كقرص العيد وغُمست بالسمن والسكر.

والامير عبدالله مثل عمه عبدالعزيز مزارع كبير يشتغل ساعات الفراغ في بساتينه. غير انه مثل كل عربي لا يزال، على شغفه بالزراعة، اسير تقاليدها القديمة. سألنا عن الآلات البخارية لرفع المياه والري، ثم قال: سمعنا ان السلطان عبدالعزيز يبغي استخدامها في الحسا. فمتى فعل نتبعه ان شاء الله. الناس على دين ملوكهم — وعلى طريقتهم في الزراعة ايضاً.

وهذا عبدالله بن محمد آل بسام يثبت ما اقول. فهو على علمه وادبه وروحه العصرية في كثير من امور الحياة، لا يتقدم طويل العمر في الرياض. لعبدالله ارض خارج المدينة حفر فيها قليباً عمقه ثمانون قدماً وعرضه خمسة وعشرون بعشرين، يشتغل في رفع المياه منه عشرة جمال، وهو مطوي بالحجارة محكم البناء. كلفه اربعمئة ليرة انكليزية، ويكلفه رفع المياه

(١) الحبيص في نجد هو غير العبيط. الحبيص يعمل من الطحين والماء والسكر. ضع الطحين في القدر وحركه فوق النار حتى تفوح رائحته، ثم ضع الماء والسمن والسكر فوقه وحركه حتى تفوح رائحته ثانية، فصب عليه السمن وحركه حتى تفوح الرائحة الثالثة. فارفعه اذ ذاك عن النار ودعه يبرد ويشتد، ثم مد يدك باسم الله الى القدر ولا تكن جشعاً. اما العبيط فهو من التمر والسمن كما تقدم.

يومياً ليرة واحدة في الاقل . اما ثمن الآلة البخارية فلا يزيد على نصف كلف القليب ، وثمن البترول يومياً اقل من اجرة الجمال . وعبدالله البسام الذي ساح في مصر والعراق والهند يدرك ما في الاستعاضة بالبخار من الاقتصاد والتوفير والسرعة في العمل ، ولكنه عربي . والعرب في الزراعة على طريقة ملوكهم واجدادهم .

اما في التساهل الديني فبين اهل عنيزة اليوم واجدادهم بون شاسع . ليس في عنيزة اليوم من يضرب بالعصا من لا يصلي ، فيسوق الى المسجد كالانعام من لا يلبون دعوة المؤذن . وليس في القصيم كله من اولئك الوهابيين ، امثال الاخوان اليوم ، الذين اضطهدوا « النصراني الكافر » هنري دَوطي وطردوه من البلد . لم يجد الرحالة الانكليزي يومئذ غير بضعة رجال والوه ، واضافوه ، وساعدوه في محنته ، اهمهم ثلاثة هم امير عنيزة يومئذ وعبدالله القنيني وعبدالله البسّام . وقد ذكرهم دَوطي في كتابه بالخير . نعتهم بالفلاسفة واثنى عليهم ثناء طيباً .

حدثني صديقه عبدالله قال : كنت شاباً يوم جاء « خليل » الى عنيزة وكان القنيني اكبر اصدقائه ومساعديه . فاغضب سكان المدينة فسبوه وتجنبوه . قالوا انه كافر مثل الانكليزي وها قد مر خمس واربعون سنة وانا اشاهد التطور عندنا . نعم الفرق كبير . ثلاثة يومئذ والوا الغريب علناً واكرموه ، ثلاثة فقط . اما اليوم فلو عاد « خليل » الينا لما وجد ثلاثة يسيئون اليه فعلاً او قولاً . اهل عنيزة اليوم يغضبون لأقل اساءة تلحق بالغريب في بلدهم .

بين عنيزة وبريدة الوادي ، وادي الرُّمه ، والنفود . ولكن بين سكان المدينتين فرقاً يكاد يكون ابعد من الفرق بين البدو والحضر . اما بريدة مدينة تجارية وليس لاهلها وقت لغير الاتجار والصلاة . هي محط رحال البدو

من مطير وهتيم وعتيبه وحرب وغيرهم ، يجيئونها للبيع والشراء . هي بدوية مادية لا تهتم للادب ولا تسرف من تليد العقل والفؤاد ، فلا تكرم الغريب ولا تسيء اليه . على انه قلما يسمع فيها تلك الكلمة الطيبة ، تفضل نقهويك ، التي هي صلة التعارف والولاء . لذلك تسمى عنيزة باريس ، مع ان بريدة اوفر حظاً منها في التزول على النفود . ان الرمال تفسح لها ولا تناوئها . فلو كانت المدن في انبساطها وانقباضها تؤثر في الاخلاق لكانت بريدة في الضيافة ، في بسط يدها وقلبها الى الغريب ، المدينة الاولى في القصيم .

وهي لا تبعد عن عنيزة اكثر من عشرين ميلاً . مسير النفود بينهما ساعتين ، فنشرف ونحن في اخر ضعس منها على الجبوب التي تطوق بريدة كالقلادة — قلادة من الزمرد في خيط من الذهب لبدوية القصيم . ان الارض لتتضع امامها ، فتخضع لها ، وتقف بعيدة عنها مبسوطة اليدين . لا كثب حول بريدة قريبة ، ولا واحات عاليات الجبين — حولها الجبوب . والجب منخفض من الارض فيه ماء واثل ونخيل ومضارب واكواخ . الجبوب خنادق احتلتها جنود السلام اي المياه والايدي الزارعة .

اقمنا في بريدة اسبوعاً نجدد ما وهن من القوى وما نفد من الزاد . فقد اجترنا في رحلتنا قسماً من بلاد نجد تعددت فيه القرى والمدن ، وطابت المياه ، وبقي امامنا القسم الاكبر والاوعر ثلاثمئة ميل بين بريدة والكويت ، لا مدن فيها ولا قرى . ولا ماء الا في نصف الطريق . وهناك النفود الكبرى ، والدهناء ، ووادي الرُّمه ، والدبْديه ، كلها اقفار يضيع فيها حتى ابناء القفار .

نزلنا في القصر الذي اسمه ابن مهنّا وبنى جناحاً منه ابن الرشيد وآخر ابن سعود . هو قصر كبير ذو ابراج متعددة ، وأفنية رحبة ، وقلاع الدفاع الواحدة دون الاخرى . وفيه بيوت للضيافة وماء ، ومسجد ، وليس فيه في هذه الايام ، في عهد السلطان عبدالعزيز العادل ، غير حامية صغيرة لا يتجاوز

عددها المئة جندياً .

كان سوَيلم بن سوَيلم رئيس القصر وحاكم البلد في غياب الامير ابن مساعد جلوي[1] وسويلم بن سويلم من الرياض ولكنه ليس من «محلة الشيخ» فيها ، فلا اثر للتعصب الديني لا في اقواله ولا في اعماله . قد انتدبه عظمة السلطان مراراً لمهمات خارج نجد ، فسافر الى سوريا ومصر والاستانة ، وكان في اسفاره من الكاسبين . على ان الامطار لا تنفع غير الارض الطيبة . ما اجتمعت بعامل من عمال السلطان انعم صوتاً ، والطف حديثاً ، واجمل صبراً من ابن سويلم . كنت احضر مجلسه ساعة يقضي في الناس فيجيئه البدو ، واصواتهم كالاجراس ، غاضبين شاكين ، فيسمع ابن سويلم شكواهم هادئاً ، صابراً ، ويحكم فيهم ذاك الحكم العادل الشديد الذي امتاز به اكثر عمال ابن سعود . على اني لم اسمعه مرة ينتهر البدو او يغلظ لهم الكلام . ولا سمعته مرة رفع صوته في الحديث او في التوبيخ . كأنه صيني لا عربي .

— سرق البعير يالامير. ابدوي لص ! والله عاينته بعيني . ابدوي قواد!

فيسكته الامير قائلاً : اقصر الله يعافيك . فان لم يسكت يعيد الكلمة ولا يغير صوته او لهجته . بل يضرب الارض بعصاه مثل السلطان عبدالعزيز ويقول : اقصر الله يعافيك . ما اجملها كلمة تسكت بها الصيَّاح الشتام . ولكنها قلما تفيد اذا لم يكن عند صاحبها شيء من تلك القوة المعنوية الروحية التي تجعل كلماته الناعمة اشد وقعاً على البدو من السيف .

---

(١) هو عبدالعزيز بن مساعد آل جلوي عينه السلطان بعدئذ اميرًا في حايل وجعل المنطقة الشمالية كلها بما فيه القصيم والجوف وخيبر تحت امرته .

الفصل السادس عشر

الدهناء

الدليل واركان حربه – عين ثميد – الاسيام – لا ماء الا في الحفر – النفود الكبرى – جمال الضعوس في الشروق والغروب – الحمى والنفود والدلول الجمو – الدهناء – « كبر يابداح ! » – سكة زبيده – الابريقسه – بقعة خضراء – نرعى مع الابل – الفرق بين الدهناء والنفود – بعض النبات في الدهناء – مسفر ابو العجايب – دمير كريم – نُعب دكان – مرآة ومسواك وعود الطيب – مسفر يرد بوعده – ليلة راقصة – « حنا اهل العوجا » – هوسة الاخوان – لي لي لي لي لي لي ! فصل الحكايات – حدثنا هذلول – بداح يقص قصته – حكاية حمود – سالم والسند الذي معه على الملك حسين – ساعة من النوم ثم صوت هذلول : قوموا ! قوموا صلوا – هذلول يعلم بداحاً اصول التوحيد واركان الدين – بداح يعلم هذلولا اية العيون – شروط الصلاة – نواقض الوضوء – الحياء شعبة من الايمان – مسفر وبداح يتشاتمان .

ما احتجنا الى دليل في الطريق من الرياض الى بريدة مع اننا عبرنا ثلاثة ابجر من النفود . ولكنها بحيرات رمل اذا قسناها بالعروض التي لا يجتازها حتى العرب بدون دليل خبير . واذا كان هذا الدليل زكرتاً[1] فله بعد امير الحملة المقام الاول ولا يمشي الا ومعه اركان حربه . نفعنا الله بهم وبه . فقد اصحبنا سويلم بن سويلم برجل من مطير ساح في الامصار ، ورافق الكبار والصغار ، وحارب مع الترك في الحرب العظمى ، ثم مع الشريف ، ثم مع ابن سعود. رجل رهيب له صوت يرجف حتى البدو ، وخطوة كانت تذكرني ببيت للمتنبي :

يطأ الثرى مترفقاً في تيهه ... فكأنه آس يجس عليلا

. اما اركان حربه جعيثن[2] ومبارك وابرهيم فن العربان الشجعان ابناء الفر

(١) راجع شرح زكرت في صفحة ٨٤ من هذا الجزء .

(٢) جعيثن تصغير جعثن وجعثن في محيط المحيط اصول الصليان على وزن فعليان .

والطعان . على اني خشيت المنافسة بين الدليل والامير . ولولا حكمة هذلول واتضاعه ، ورغبته في راحتي قبل كل شيء ، لما استقام الامر يوماً واحداً .

كان يضحكني المطيري ، وشر البلية ما يضحك ، عندما ننيخ المراح. فيقف اذ ذاك جانباً وقد التف بعباءته وطرح احد طرفيها على كتفه ، كأنه يمثل على المسرح دور امير خطير . ثم يصدر اوامره :

— يا مبارك ساعد مسفر في الذبيحة . يا جعيثن هات الاوتاد . رح يا حمود ارع الركايب . وانت يا حمد ساعد في نصب الخيمة . القرب يا بداح . الحطب يا ابراهيم ...

وكنت ارى هذلولاً ، بارك الله فيه ، يشتغل وسالم في رفع الشراع ويساعد الجميع دون ان يصدر امراً واحداً . بذا يمتاز الرجال بعضهم عن بعض ، وبذا يفلح العاملون ، ويفشل ، بالرغم عن الجد والاقتدار ، اولي العجب والادعاء .

كانت طريقنا من العارض الى القصيم شمالاً بغرب ، فاستقبلنا الشمس في بريدة وسرنا منها مشرقين الى الكويت . ولا ماء الا في الحفر . ما ادركت خطر الطريق ووعورة المسلك الا بعد التأهب في بريدة ، اذ خرجت القافلة منها وقد ازدادت رجالاً وركائب . ناهيك باهتمام ابن السويلم وقد رافقنا الى خارج السور فوصى الدليل وألحّ على الامير بارسال كلمة اطمئنان بعد ان نجتاز الدهناء .

ملأنا القرب وبعض الاروية[1] من ماء عين تميد خارج المدينة ثم ملأناها

والصليان بقلة واحدها صليانة . ولكن جميثنا يخطىء القاموس . فقد اخبرنا ان امه ولدته عند جذع اثلة ، وان جذع الاثل يدعى جمثن ، وهو قوي سوي ، فسمي تيمناً به جميثن .

(١) القربة وطب من الجذع اي البهائم الصغيرة سناً يحملها الراكب معلقة بالرحل . ولكل راكب قربة . والاروية جمع روي في القاموس الشرب التام . والرواء

ثانية كلها في اليوم الثالث من عين فُوَيْد في الاسياح . واطللنا من الاسياح على العروض ، اي النفود الكبرى بين القصيم والكويت ، ووراءها الدهناء ، ودون الدهناء المفازات . وكلها على اتساعها اجف من الاسفنج في دكان العطار . لا ماء الا في الحفر ! حجب الله عليك يا سيد هاشم كم ذكرناك في العروض وغبطناك وانت في العارض . لا ماء الا في الحفر . ودوننا ودون الحفر جبال وبحار من الرمال ، بيد دونها بيد ، وسبعة ايام من السير ، والحمى تعود يوماً بعد يوم !

ان العروض اي النفود الكبرى بين الاسياح وقبه[1] هي عدة جبال من الرمل تمتد طولاً من الشمال الى الجنوب وعرضاً من الغرب الى الشرق . وهي تدعى دعوصاً ، علو الدعص يتراوح بين الخمسمئة والسبعمئة قدم ، وبين كل دعص وآخر نحو اربعة اميال نزولاً وصعوداً . احد عشر دعص هي ، بل احدى عشرة كربة ، كل واحدة اشد من الاخرى . هناك افقاً امامنا يعلوه افقان او رأسا دعصين بعيدين . وفي كل افق رسول من الذهب الوهاج يدعونا لنعيم الخيال بل لخيال النعيم .

ما اجمل ذهب النفود في الشروق وفي الغروب ، بل ما اجمل ارجوانه اذا مال الظل وتعرج في الاصيل . وما ابهج ليل النفود وقد افترشت رملاً ناعماً

الماء الكثير المروي . اما في نجد فالروي هو الوطب الكبير من جلد الابل او البقر يسع مقدار خمس قرب من الماء . وهم يحملون في الاروية غالباً ماء الطبخ والغسل وكل رويتين حمل جمل .

(١) قِبَة القاف تلفظ جيماً وفاء الاسم تسكن في نجد فيقولون آجْبه ، فيسمعها الرحالة الاوروبي فيكتبها كما يسمعها ، فينقلها الكاتب العربي عن الكاتب الاوروبي ، فتجيء مكتوبة جبه او جابه او جيبه . ومثلها الدهناء تلفظ ادَهَنا فكتبت في الخرائط الاوروبية دَهانا Dahana وغيرها من الاغلاط في كتابة الاسماء باللغات الاجنبية ثم في نقلها منهم الى اللغة العربية . اما حان لنا ان نصلح اغلاطنا دع اغلاط الاجانب في هذا الباب ؟

كالحرير ، وآخيت نجماً دانياً في نوره منك ، كأنه يهمس في اذنك كلمات السكينة والحب والسلام . وما اجمل اشكال الرمال وقد كونت اهراماً وقباباً وفيها امثلة الصراط وقد شحذتها الرياح فامست كحد السيف .

ما اجمل — ولكن — كانت ذلولي من العارض الى القصيم سهلة المراس ، لطيفة المزاج ، قصيرة الخطى ، خفيفة التوجج ، فيرتاح فوق سنامها من لم يألف ركوب الجمال . ولكنها انقلبت عليّ قبل ان تصل الى بريدة ، فشرس خلقها ، وثقلت خطواتها . او انها كانت خبيرة بطريق الكويت ففضلت الرجوع الى الرياض .

اما الذلول التي ابتاعها ابن سويلم في سوق الابل ببريدة ، وهي اكبر سوق لبيع البعارين بالمزاد في البلاد العربية ، ووسمها بالنار على رقبتها بوسم ابن سعود ٥١ وقدمها لي قائلاً : احسن ما في السوق ، فقد كانت حادة المزاج ، صعبة المراس ، طويلة الخطى ، سريعة السير . فيضطر الراكب ان يعالجها دائماً بالرسن والخيزران ، فلا يذهل هنيهة عنها حتى في نصف النهار ، في تلك الساعة ، ساعة الهاجرة ، حين يتسلل النعاس الى الجفون فتلقى الارسان على الغوارب ويستسلم الركب الى النوم . اما هذه العمانية فلا تؤمن اذا قيل لها : حبلك على غاربك . لم يكن ذلك ليروعني وقد تمرنت وتصلبت لولا امران . فا همني طول خطواتها في الارض المنبسطة اليابسة ، وما همني مزاجها في الايام التي انفردتُ بالرحل فكنت راكباً وحدي .

ولكن الحمى والنفود — لا اظن ان الاثنين يجتمعان لكثير من الناس حتى في البلاد العربية . ومتى جاءت الحمى في الدرجة الرابعة من الخطر ، وكانت النفودُ العروضَ ، وكانت الذلول عمانية جوحاً ، فماذا ينفع الرسن باليد او على الغارب ، وماذا ينفع الخيزران . ان اصعب السير على الركب والركائب هو السير في النفود ، ولا اثر البتة لطريق فيها ، ولا مهرب من

امواج رمالها . تصعّد الذلول في الدعص الى رأسه وهي تريخ فتغوص حتى الرسغ ، فتجيء الخطوة الواحدة وفيها قد بُذل جهد عشر خطوات ، فتئن حتى الرحالُ من شدة الحال . اما في النزول ، فتنتقم من الدعص الذلول ، فتروح هاوية غاوية ، وهي تغوص في الرمل حتى الركاب ، فتجيء الخطوة مقدار خمس خطوات ، وفي كل منها للراكب خمس نكبات . زد على ذلك ان الدليل المطيري كان يعبر المنحدر في خط مستقيم دائماً ، فلا يهمه الرفيق المحموم ، فتتبعه الركائب غائرة متدهورة اذا لم يكبح جماحها . وكيف يقوى على كبح جماح ذلوله من كبحت جماحه الحمى ؟

لم تنفعني قوة الارادة في تلك الايام ، ولا ما كنت اتدرع به من الكينا صباح مساء . فقد رميت بنفسي على الرمل مرتين في العروض وانا انتفض من البرد ، فانتظر مجيء الحمى ، التي كانت تتبع البرد ، لنستأنف السير . نعم ، لنستأنف السير . فهل نقف لنجامل الحمى ورفيقنا الاكبر شبح الموت ؟

ليس في ما اكتب الان شيء من تأثير تلك الايام . انما الحقيقة كل الحقيقة في ما اقول . ولا اقول غير كلمة فيها البرهان القاطع : الماء معنا لا يكفي الا اياماً معدودة . فاذا انخنا كل مرة شرفتنا الحمى لنجاملها حتى تزول ، ينفد ماؤنا قبل ان نجتاز نصف الطريق . ولا ماء الا في الحفَر ! اركب يا رجل وتوكل على الله . لا اظنني توكلت في تلك المحنة الفريدة على غير الله . بل كنت احس ، استغفرك ربي ، انك ، وان كانت الحمى رديفي ، راكب امامي قابض على زمام الذلول وزمامي .

يا ذلولي حجيله ذلول ابن عيد قربتي قطرت والمعشى[1] بعيد

وما كان ابعده في ايام النفود ، في ذاك البحر الرملي الذي تعالت امواجه

---

(١) المعشى مكان المراح للعشي .

جبالا وهبطت جباله امواجاً ، فضاق في اجتيازه حتى صدر الدليل المطيري . ما كنت اظن ونحن نخوض عبابه ان له نهاية تنتهي عندها الشدة والعذاب . ولكن الدليل عندما اطللنا على الافق الاعلى ، فاه بكلمة كانت منه الكلمة الوحيدة التي ابهجتني : هناك ظهر العروض ومنه نعاين الدهناء .

ظهر العروض ، اخر ضلع من ضلوع الاسياح ، آخر دعص من النفود ، اخر درجة من سلم التعذيب — شكرنا الله ثم شكرنا الله . وعندما اطللنا على الدهناء تنفس الربع كلهم الصعداء وامر هذلول بالتكبير : كبر يابداح . فراح بداح يدرهم ويصيح : الله اكبر ! الله اكبر ! وكانت ساعة الغروب فأنخنا فوق السهل الذي يمتد بين العروض والدهناء . وكنا قد عثرنا في ذاك النهار على اثر من طريق قديمة هي سكة زبيدة ، اي الطريق التي امرت بفتحها وتعبيدها للحجاج زبيدة امرأة هرون الرشيد ، فتيمنا بها وكانت فاتحة الخير الى يومين .

اكرم الله مثواك يا ستي زبيدة وجعلك من المقربين — اذا كان لم يفعل حتى الان . ويا ليت في المسلمين اليوم اختا لك صغيرة تجدد في الاقل الطريق التي شُرفت باسمك . فما بركة من البرك العديدة التي بنيت في الصحراء في سبيل البر والتقوى ، لتروي الانسان والحيوان .

لم افهم من مبارك قوله : هذه البريْكَه[1] حتى وصلنا اليها ، فالفيتها بركة لماء المطر بل صهريجاً متهدماً مردوماً . واذا صح فيه التصغير اليوم فلا يصح ذلك في ما نبت هنالك من الاعشاب ومن شجر الطلح والسلم .

ان ابهج ما يشاهد الانسان في الصحراء بقعة ارض خضراء . ولكن الحيوان ، ذا السنام كان او ذا القرون ، يشارك الانسان في ذا الابتهاج .

---

(١) تصغير بركة والكاف تلفظ تس .

وقد تبارينا كلنا حول العريتسه التي يدوم اخضرارها طيلة السنة . ان احسانك يا ستي زبيده خالد البركات ولو في زاوية من النفر ، خالد هو ما دامت الارض خالدة انخا الركائب لترعى في ظلال احسانك . وكنت انا الحيوان الناطق المفكر اول من فاه باسمك شكراً واعجاباً . كيف لا وقد لقيت في ذلك المرعى كما لقيت ذلولي ما ألفته العين والمعدة .

جاءني مبارك وهو نباتي الحملة ببضع وريقات خضراء يقول : هذا الحنبصيص . هي عشبة صغيرة فيها حموضة يأكلها اهل نجد ويجعلونها في الاقط . وكنت قد سئمت اللحم لانه في الثلاثة الاشهر التي مضت كان يصبحني ويمسيني كل يوم دون سواه ، فجعلني احن الى ورقة خضراء حنين البعير الى العرفج والارطى . ثم جاءني مبارك ، بارك الله فيه ، بعشبة اخرى سال لمرآها اللعاب ، وهاج في القلب ذكر الوطن والاحباب . فياما احيلاها نبتة تزرع في لبنان حول البيوت ، وتسيج من غزوات الدجاج بالشوك . الرشاد ! جاءني مبارك بالرشاد . وهو في بادية نجد نفسه في لبنان لا يتغير اسماً ولا طعماً .

تبعت مباركاً الى مواطن المرعى الطيبة ، ورحت ارعى فيها كالبعير ، بل رحت ادب على الاربع مثل نبوكدنصر ، آكل الحشيش ، واشكر الله ثم الست زبيدة ، فانتعشت وابتهجت حواسي كلها ، فصرت اظن ان الرشاد والحنبصيص فعلا بالحمى ما عجزت دونه الكينا . على انني ، في رجوعي الى الاصل ولو ساعة ، اصلحت ليومين ما افسده الوقوف على الاثنين .

وهاكم الدهناء تبسط لنا النارق البيضاء وترحب بنا فينبغي للقارىء ان يعرف بعض الشيء عنها قبل ان نصل اليها . تختلف الدهناء عن النفود باربعة اشياء ١ً — بطولها وهي تمتد من الشمال الغربي فتنساب كالحية او تتعرج كالنهر شرقاً بجنوب حتى تصل الى الربع الخالي ٢ً — بلون رمالها وهو ابيض

الا في اطرافها ٣ً – بقلة كثبها وتجوفاتها فلا يتجاوز اعلى كثيب فيها المئة قدماً ٤ً – بتنوع اعشابها وغزارة المرعى فيها . زد على ذلك انها قليلة العرض جداً بالنسبة الى طولها ، والعرب لا يقطعونها الا في الاماكن التي هي اقل عرضاً من سواها . لذلك هي اسهل سيراً وايئس مشهداً من النفود . .

يمرون بالدهنا خفافاً عيابهم ويخرجن من دارين بجر الحقائب

مررنا بها خفاف القلوب في الاقل فقطعناها من الغرب شرقاً الى الكويت بعد ان قطعناها من الشرق غرباً الى الرياض . وكان يومئذٍ بداح رفيقنا ودليلنا فصاح ثانية يمثل البدو عندما يصلون اليها طالبين الحيا[1] : وابيك حنا براس الدَّهنا ! واطلق مبارك صوته في بيته المحبوب :

يا موفقين الخير يا اهل الأشدَّه معكم وزين (عديل) الروح الله يردَّه

سرنا في سكة زبيدة سير الهون اكراماً للركائب . وكيف لا نكرمها والارطى في هذا المكان من الدهناء اخضر جديد ، اشرأبت اليه الاعناق ، ووقفت عند كل شجرة منه تتفكه به بعد ان كادت تتخم من العرفج والعُلقة والثمام[2] . ثلاث ساعات كل ساعة منها عيد لذوي الاربع وذوي الاثنين معاً . ثم انخنا فصلى الربع المغرب ومدوا السماط للعشاء . ثم جلسنا في حلقة حول النار وطالبنا مسفراً بما وعدنا به مراراً .

---

(١) الحيا اي المرعى . وفي القاموس الخصب والمطر . والعرب تسمي النبات حيا لانه يتسبب عن المطر .

(٢) الأرطى شجر ثمره كالعناب ويسمى ايضاً في نجد عَبلًا لان ورقه كورق الصنوبر مفتول غير منبسط . وهم يستخرجون منه ومن قشره صباغاً اصفر . العلقة شجرة غصنها ابيض وورقها دقيق تبقى في الشتاء فيعلف بها الابل حتى تدرك الربيع . الثمام نبت ضعيف ورقه شبيه بورق النخل . ومن نبات الدهناء العرفج وهو للابل كالباقية للخيل وقيل هو القتاد لشوكٍ فيه . العكندى الذي يشبه في ساقه الوزّال .

ومن هو مسفر وما وعده؟ لا اظنك ايها القارئ. تأبى التعرف الى الرجل وقد تشاركني في حبه. مسفر هو مدير الحملة[1]، ورئيس الخدم، والعين الكالئة للزاد، واليد الذابحة العاملة في سبيل البقاء. مسفر هو النفاخ الطباخ، راعي الفأس والفراخ، حامل الخناجر والسياخ. وهو في شكله نكتة مضحكة جداً قد لا تليق في مجالس المتمدنين، وهو في وجهه اقرب الى الرباح منه الى يوسف الحسن. وجه مسفر هو ما يصفون في نجد بالعفن فيقولون: وجهٌ عفن وهو يظل عفناً حتى لو غسله بالحامض الفينيك ثم بماء الورد صباح مساء. فهل يصلح الماء والكيمياء انفاً تسطح على خديه، وفماً تطاول الى اذنيه، وجبيناً داس بشعره حاجبيه، وعيناً جاءت من القرد اليه؟

اما في لبسه فهو آية في البلاغة والابداع لا يُعرف انجدي هو ام حجازي، أيماني ام عراقي. بل لم يكن عربياً في غير الفطرة والعقال. اضف الى ذلك حذاء مرقعاً تخض رجله فيه، وسروالاً كان ابيض، لا نظنه غُسل في عهده او في عهد ابيه، فوقه معطف كذلك من الخام مفصل مثل الفراك التركي، وفوق المعطف زنار تلمع فيه الخناجر والسياخ. الا انه عندما يركب على بعيره الاسود، فوق احماله، يبدو ككيس من الاكياس.

هاك الرجل في ظاهره. اما في باطنه فسبحان رب الكائنات، النافخ من روحه حتى في عجائب مخلوقاته. ان في ذاك الوجه العفن مبسماً ولا مبسم الحسان في جاذبه، مبسماً يوقفك ويغريك، ويضحكك ويلهيك، مبسماً ينسيك الفم منه والانف والجبين، بل ينسيك الرباح، وضاوع الاسياخ.

اي والله. ما كان في رجالنا، وقلما تجد في الرجال، من هو اخف روحاً.

---

(١) تقسم القافلة الى قسمين الحملة وهي الجمال التي تحمل الحقائب والزاد، والركائب التي تحمل المسافرين. وغالباً تسير الحملة قدام الركائب فتسبقها بساعة او اكثر لانه لا يؤذن لاصحابها بالدرهام خوف التكسير في ما يحملون، فنلحق بها ونجتمع كلنا في المضحى وفي المراح.

وادمث خلقاً ، والطف ذوقاً ، وارق شعوراً ، واسرع الى الخدمة يداً من هذا الدميم الكريم . فقل : تبارك رب العالمين الرحمن الرحيم ، فهو اذا مسخ الانسان قرداً يهبه من الجمال الروحي والخلقي ما يندر في يوسف الحسن وزين العابدين .

ان للمعطف الذي كان يلبسه مسفر جيوباً هي دكان با حوت . اتبغي خيطاً وابرة وزراً ؟ اتبغي ملحاً او بهاراً او شيئاً من مسحوق الليمون الحامض ؟ اتبغي رقعة تمسح بها فنجاناً او تضمد بها جرحاً ؟ أتبغي قلماً وورقاً للكتابة ؟ اتبغي مسواكاً من الاراك او شيئاً من الكحل ؟ سمعاً وطاعة . لم يدهشني عندما رأيته اول مرة يكتحل لان اكثر رجال العرب يكتحلون وقاية للعيون . ولكنه ادهشني ذات يوم اذ كنا حول النار نشرب القهوة ، فتناول مسفر حجراً وضع عليه بضع جمرات ، ثم مد يده الى كيس في « دكانه » فاخرج علبة صغيرة ، ففتحها واخذ منها باطراف اناملة ، ورشه على النار . البخور ، عود الند ، الطيب ! هو وحده كان يحمل هذه النفيسة من نفائس الحياة ونوافلها ، فيطيبنا دائماً بعد الطعام .

على اني دهشت الدهشة الكبرى ولم اتمالك ان ضحكت عندما اشار بالسبابة الى رأسه كأنه يقول : مسفر لا ينسى شيئاً . ثم اخرج من عبه مرآة صغيرة قدمها لي لارى وجهي وازين — احكم وضع — عقالي قبل الرحيل هوذا حقاً اقبح خلق الله صورة واجملهم نفساً وذوقاً . ولا اظن انه كان يحرص على شيء في كل ما يحمله حرصه على المرآة ، فكان يتسلى بها وهو راكب فيتأمل طويلاً ذاك الوجه الذي وصفت .

ما السر في ذلك ؟ هل هو مشغوف ام ملهوف ؟ هل يرى في وجهه ما يراه الناس يا ترى ام ما يراه الله وقد تساوت في نظره المخلوقات جمعاء ؟ أو هل هو الرباح ، ذاك المخلوق الاولي فيه ، وقد اعجب بهذا الشيء الذي يعكس

وجهه فكان مسحوراً ! ما اقول سادتنا العلماء . علماء الجسد والروح ؟ أفلا يأخذهم العجب من الرجل الدميم ، الدميم الى حد يضحك ويبكي معاً ، الذي يحمل السكاكين والخناجر ولا يضع واحدة منها في قلبه عندما يرى وجهه في المرآة ؟ ولكنه على ما اظن حب الذات يقينا ويقيه شر النفس اذا ما رأت العين منكرات التكوين الظاهرة . اجل ، لو لا حب الذات ، ذاك الغرس المبارك الذي غرسه الله في كل حيوان صامت وناطق، لكان الانتحار بسبب التشويه الخلقي وحده اكثر شيوعاً من لعب القمار .

استغفرك ايها القارىء فقد اسهبت . ولكن غيري الفوا روايات ابطالها اشخاص مثل مسفر اختلقوها . ولا اظن ان « كاليبان »[1] و« غونيبلاين »[2] يتسابقان الى الصدر اذا جمعتها ومسفراً المجالس . بيد ان « كاليبان » واخاه خيالان من خيالات شكسبير وهوغو . اما مسفر فحقيقة هو من حقائق هذه الرحلة ، كان يطبخ لنا دجاجة كل يوم ، ويطيبنا بعود الند بعد الطعام ، ويحدثنا عن امرأته وعياله في سدوس[3] هاك الرجل ، وها كه مهراً بوعده . وما الوعد ؟

عندما كنا في شقرا رحنا ذات ليلة نتفقد مسفرا و« خوياه » في منزلهم ، فسمعنا ونحن داخلون الى البيت صوتاً شجياً ينشد نشيد الاخوان ، فاطللنا من الشباك فاذا مسفر داخل والسيف بيده يصحب « الهوسة » برقصة رائعة . سألناه بعدئذ مراراً ان يرقص ويغني فابى واعتذر . وعندما خرجنا من بريدة كنا نعيد سؤالنا كل يوم فيتذرع بالشغل او بالتقاليد التي تحرّم الغناء في نجد . على انه وعدنا برقصة الاخوان عندما نصل الى الدهناء . — وها قد اجتزنا

---

(١) « كاليبان » احد اشخاص رواية « العاصفة » تأليف وليم شكسبير .
(٢) « غونيبلاين » بطل رواية « الرجل الضاحك » تأليف فكتور هوغو .
(٣) سدوس مدينة قديمة من مدن العارض بنجد .

الدهناء بأمان الله ، والحمد لله ، وكان الحبور رفيقنا طيلة النهار . فهلا استغويته يا مسفر بصوتك وسيفك ، فيظل معنا ليحل محل القمر في ذا السمر ؟

كنا حلقة حول النار امام الشراع ، وكانت الركائب باركة في حلقة اخرى حولنا تجتر قائمة مطمئنة ، وكانت السماء سافرة صافية الجبين فتلألأت كواكبها سروراً لتغيب سيدها القمر ، فزاد الكلام كذلك في نور نهارنا .
— الحطب يا ابراهيم . وكان ابراهيم معاون مسفر الاول في النفخ والطبخ جالساً عند ركمة من حطب العرفج والارطى ، فيمد يده وراءه ثم يبسطها فوق النار ، فتقهقه طرباً وتزداد تأججاً . وكان حمد العبد وهو يقلب في حضنه مقلاة البن ، وهذلول الذي اتخذ صحناً من النحاس دفاً ، وبداح وقد صفق كفاً على كف ، ينادون مسفراً ويحرضونه . — قم يا مسفر . اسفر يا مسيفر . وكان كوكب السمر قد دخل الخيمة فخرج منها والسيف يلمع بيمينه والخنجر بيسراه . فوثب وثبة ثم اخرى الى وسط الحلقة ، وطفق ينشد نشيد اهل العوجا اي اهل الرياض ، وهو ينتقل نقلة خفيفة بطيئة ، ويتلوى من وسطه الى اليمين والى اليسار كالثعبان .

تارَا تَتاآته تَتُم تُم — تارَا تَتاآته تَتُم تُم
حنّا اهـل العوجا مروية السنين (نروي سنان الرماح)
عاداتنا سهج العدو بنحورنا (ان نهجم على العدو ليلاً)

كان يقف عند كل بيت بينا حمد وهذلول يردان عليه بالنحاس ، وهو يهز السيف والخنجر هزة بطيئة خفيفة ، فيها ربض الهول كأنه يتأهب للوثوب . ثم عند البيت الاخير يثب فوق النار وهو يصيح : لحي لحي لحي لحي لحي! فيجيب الربع : حي على ! حي على ! وحمد وهذلول يدقان على النحاس :

تارَا تَتاآته تَتُم تُم — تارَا تَتاآته تَتُم تُم

وما هذا كله الا التمهيد لهوسة الاخوان : هبت هبوب الجنه اين انت يا باغيها . غيَّر مسفر نقلة رجله خفةً واسراعاً ، ورمى السيف والخنجر في الهواء ، فتناول باليسرى الاول والثاني باليمين . — حطب يا ابراهيم . كفَّ يا اخوان .

هبت هبوب الجنه
تارَا تاته تاتُم تُمْ
اين انت يا باغيها
تارَا تاته تاتُم تُم

لعب الهوس بالرجال ، ووثب الهول من النصال . — هبت هبوب الجنة ! فتغير الوزن من السريع الخفيف الى الاخف والاسرع حتى امسى كرقص الدراويش . فاغمد مسفر اذ ذاك الخنجر ونزع الغطرة والعقال عن رأسه ، فرمى بهما في النار ، فصاح الجميع : اين انت يا باغيها !

ثم اعتزوا مرددين : اهل التوحيد ، اهل التوحيد ! حتى خمدت النار ، وقد ذهل ابراهيم في هوسه عن وظيفته ، فكان الختام الدخان والظلام .

حطب يا ابرهيم . وكان الفصل الثاني فصل الحكايات ، فقص هذلول خبر وقعة كانت له مع الجن في وادي الدواسر ، فقتل منهم اثنين وجرح كثيرين . وقص بداح قصة غرام هو بطلها ، وهو الفاسق الاكبر بشهادة نفسه ، فاخبرنا كيف اخبأته الحبيبة في الصندوق عندما عاد زوجها الى البيت وكان قد خامره منها الريب فسبها ، فسبته ، فطلقها ، فشكرت الله ، ونادت الخادم حالًا ليحمل صندوقها وهي تبغي العزوبة . — « فحمله وانا فيه ، والله بالله ، وهي وراءنا تضحك » — وبعد ذلك يا بداح ؟ — لا تسل يا هذلول .

وحدثنا حمود قال : كنت حاملًا كتاباً من الشيوخ الى امير عنيزة فنوخت في شعيب بوادي حنيفة لأتعشى . كنت وحدي وكانت الليلة مظلمة . عقلت الذلول ، وجمعت الحطب ، وشبيت النار ، فسمعت في الحال صوت امرأة تولول وتصيح : احجب علينا حجب الله عليك . فتافت فماينت تحت

الشجرة وجهاً كالشمس ، وحياة الله ، وشعرها طويل واسود كالليل . ظهر الوجه في النور لمحة بصر واختفى . فعدت الى النار اشبها ، فعادت تصيح : لا تشب النار الله يحيك من النار . احجب علينا استرنا . هي عروس الجن ، وقد كانت لطيفة كريمة ، فدنت من حمود وقبلته وهي ترجوه ان يسير في سبيله ويتركها وشأنها في ظلمات الليل . فاستجاب حمود طلبتها واسرى تلك الليلة كلها وهو يشكو من حرق في وجهه . — والله بالله يا استاذ حبتني (قبلتني) هنا وكان فمها كالجمرة . وحياة الله اقول الصدق .

ثم حدثنا مسفر فقص خبر غزوة من الغزوات التي كان فيها وختمها قائلاً : والله ذبحت اربعة عشر ومنهم ابن طواله حي موجود . فضحك الربع وكانت ضحكة بداح طويلة مستنكرة وقرت في نفس مسفر ، فصاح وقد استل سكيناً من سكاكينه ! اسكت او اذبحك بالله . فقال بداح وهو لا يزال يضحك : مثلما ذبحت ابن طواله . فوثب مسفر فوق النار يبغي دم العجماني ، فصده هذلول وسكن روعه ، ثم امر بداحاً ان يقدم له بيده فنجان القهوة .

جاء دور راعي المعاميل القهوجي سالم ، سالم الرزين السكوت ، وليد حايل وربيب الامصار ، سالم الطواف الذي طاف في الحرب العظمى البلاد العربية كلها من اقصى الاقطار الى اقصاها ، من اليمن الى شرق الاردن ومن البصرة الى الشام . — هات حكايتك يا سالم .

والله يا استاذ ما عندي حكايات . عندي كمبيالة على الملك حسين بمئة وخمسين ليرة انكليزية ابيعك اياها بعشر روبيات .

— وكيف تقول ما عندك حكايات ؟ هات حكاية الكمبيالة . فاخبرنا سالم بانه كان في جيش الامير عبدالله جمالاً يحمل الماء عندما زحف بعد الهدنة من المدينة على تربة . وعندما وصلوا اليها ودخلها الامير صباح ذاك اليوم

منتصراً سأل سالم سموه ان يأمر بالاجازة والحساب لانه يبغي الرجوع الى بيته وعياله. فاعطاه الامير حوالة على جلالة الملك ابيه بحسابه اي بثة وخمسين ليرة فأخذ الحوالة سالم وراح ينحو الطائف ليزور صاحباً له فيها . فاعترضه بداح يصلح الكلمة فأنثها . هي صويحبة يا استاذ . انا اعرفها . لم يأبه له سالم فاستمر في قصته . اقام بضعة ايام في الطائف ثم نزل الى مكة . وكان ان الاخوان انتصروا على الامير ليلة يوم النصر ، وافنوا جيشه كما هو معلوم، وحمل النجاب خبر النكبة الى جلالة الملك . فلما وصل سالم يحمل الحوالة قال له صاحب الجلالة : الله يعوض عليك وعلينا يا ابني ، خسرنا كل شيء .

انتصف الليل ونحن لا نزال في فصل الحكايات، والابل حولنا لا تزال تجتر قانعة مطمئنة ، وسالم يعمل القهوة ثم الشاي ، الابريق تلو الابريق ، فأرقنا وما مللنا ، ولا كنا من القانتين . ثم نهضنا باكراً قبل الفجر الكاذب وكنت اول من سمع هذلولا ينادي على عادته : قوموا — قوموا صلوا . بدّاح ، سالم ، حمود ، مبارك ، جعيش ، قوموا ، قوموا صلوا . . . اذن يا مسفر .

— الله اكبر . الله اكبر . . . حيوا على الصلاة . . . الصلاة خير من النوم.

ثم تقهونا وسرنا في سحر برده شديد يصل الى العظم ، فأنخنا بعد ساعة لنشب النار وندفىء ارجلنا ، وكنت انا في جزمتي اسرع منهم ، وهم في النعال شبه حفاة الى ذلك . ليس في البلاد العربية من هم اصبر على الشدة واثبت في المشقات من اهل نجد .

استأنفنا السير وهذلول اميرنا وامامنا يعلمنا دين التوحيد . — يجب على كل مسلم ان يكون عالماً بثلاثة اصول . اولاً : ان الله خلقنا ورزقنا وهدانا برسول ارسله الينا . فمن اطاع الرسول دخل الجنة ومن عصاه دخل النار . واستدل على ذلك بقوله تعالى — وذكر الآية . ثانياً : ان الله لا يرضى ان نشرك معه في عبادته احد لا ملك مقرب ولا نبي مرسل . والدليل قوله تعالى

— ذكر الآية . ثالثاً : ان من اطاع الرسول ووحد الله لا يجوز له موالاة من حادّ الله ورسوله . وذكر الاية دليلاً على ذلك . فاذا قيل لك ما الاصول الثلاثة ؟ فقل : معرفة العبد ربه ودينه ونبيه محمداً صلى الله عليه وسلم . واذا قيل لك من ربك ؟ فقل ربي الله الذي رباني وربى جميع العالمين وهو معبودي ليس لي معبود سواه . واذا قيل لك بمَ عرفت ربك ؟ فقل : باياته ومخلوقاته . ومن اياته الليل والنهار والشمس والقمر . ثم سأل بداحاً : ما هي اركان الاسلام ؟ فاجاب بدّاح البجاح : اني اعرفها يا هذلول . اذكرها انت فارددها . فقال هذلول الطيب القلب الورع التقي : اركان الاسلام خمسة : شهادة ان لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله . فنشأ بداح يعد فقال : واحد . واقامة الصلاة . — اثنين . وايتاء الزكاة . — ثلاثة . وصوم رمضان . — اربعة . وحج بيت الله الحرام . — تمام ، تعرفها والله .

ثم قال بداح : وانا اسألك اتعرف آية العيون ؟ فاجابه الامير : وما هي ؟ فنطق بداح بالاية التي كنت قد سمعتها مراراً من فيه ولا اظنه يعرف سواها .

— كل عين باكية يوم الحشر الا ثلاثاً . عيناً صدت عن محارم الله ، وعيناً دمعت من خشية الله ، وعيناً باتت تحرس في سبيل الله .

— علمتني يا عجماني . جزاك الله خيراً . وما هي شروط الصلاة ؟

— اعرفها . اولها الاسلام .

— الاسلام . وثانيها ؟

كلها يا لأمام[1] فاجاب هذلول : الاسلام والعقل والتمييز — وكان بداح يرددها وراءه — ورفع الحدث ، وازالة النجاسة ، وستر العورة ، ودخول الوقت ، واستقبال القبلة ، والنية . فشكره بداح ثم قال : وما هي شروط الوضوء ؟

---

(١) راجع الشرح في صفحة ٨٣ من هذا الجزء .

– غسل الوجه ومنه المضمضة والاستنشاق ، وغسل اليدين الى المرفقين ، وغسل الرجلين الى الكعبين .. الخ . ثم قال : وما هي نواقض الوضوء ؟ فاجاب العجماني : انا اعرفها . علمها المربع يا لأمام . فنشأ هذلول يعددها . هي ثمانية : الخارج من السبيلين ، والخارج الفاحش النجس من الجسد ، وزوال العقل ، ومس المرأة بشهوة ، ومس الفرج باليد ، واكل لحم الجزور ، وتغسيل الميت ، والردة عن الاسلام اعاذنا الله منها . – والله يا هذلول الشرط الرابع ينقض وضوئي دائماً . قل لنا ما هي شروط الايمان ؟

– اركان الايمان يا بداح ستة . ان تؤمن بالله وملائكته و كتبه ورسله واليوم الاخر وتؤمن بالقدر خيره وشره . والايمان يا بداح هو بضع وسبعون شعبة ، اعلاها قول لا اله الا الله وادناها اماطة الاذى عن الطريق . والحياء شعبة من الايمان .

– هذه الشعبة من الايمان لا يعرفها بداح . الحياء عدوٌّ له .

الصوت الذي نطق بهذه الكلمة صوت مسفر .

فقال بداح : صدقت يا مسيفر السدوسي . ولكن عندي اول الايمان واخره ، اعلاه وادناه . ولولا حرمة الاستاذ لبرهنت لك اني مؤمن فازيلك يا نتانة العجوز ، يا شر الاذى ، عن الطريق .

– بررر والله بالله ! واستال مسفر خنجره وساق بعيره على بداح . فوكز هذلول ذلوله وكرّ فاستوى بين الاثنين .

– وهل هذا من الايمان ؟ الله يغربلك يا مسفر . سلط الله عليك يا بداح .

– ومتى كان ابن العجمان يشتم ابن الدواسر ؟

– انا اؤدب العجماني . دونك والحملة . امش . فراح مسفر يهدر ويسب العجمان . فخاطبني بداح قائلاً : مسفر لا يحب النكتة . وحنا نحب نغيظه للتسليك .

الفصل السابع عشر

الحفر

الباطن – « ديرة » بني هلال – الحفر وآباره – حروب القبائل – من يحمي الماء ؟ – سائح يرقص عند وصوله الى الحفر وسائح يبكي – الرياح الاربع تحارب في الحفر – جاء مسفر بقدر من الماء يقول : تبغي تسبح ؟ – التراب في الماء وفي الطبخ – هربنا من الحفر فلحقت بنا الرياح – زهرة تبشر بوجوه الحياة – والورقاء والخطاف لا يكذبان – قصة ام سالم والاعرابي – البدو يستطاعون « علومنا » – « وايش لون خذ الشعيب ؟ » – الدبدبة – اربعة ايام طيبة ثم العمى – نشرف على البحر – الجهرة – ريح الشمال وهبوب الجنة – العاصفة – الصلاة والعشاء في الخيمة – الادلاج في ضوء القمر – الربع يلبسون ثيابهم الجديدة – شيء من شعر حذاول – الوداع .

بعد ان خرجنا من الدهناء دخلنا في الباطن ، وهو القسم الشرقي الشمالي من وادي الرُّمه ، وفيه كما يقول اهل نجد ديرة بني هلال . ها هنا كانت قديماً منازلهم ، وها هنا اماكن حروبهم . ولكنه لم يبق من المنازل حتى ما شبهه الشاعر بباقي الوشم في ظاهر اليد . لم يبق ظل من الديرة فوق الارض . اما تحتها فالآبار العميقة ، المطوية بالحجارة ، والمحفورة في الصخور ، تدل على همة في اولئك الاقوام عالية . ولا يزال في هذه القلبان ما لم يقوَ عليه من الاقدار غير غضب الامطار . فقد تحولت من الوادي المياه ، وجفت منذ قرون قلبان بني هلال ، فكانت الطبيعة عوناً لهم اذ اجهزت على من تبقى منهم وهم يتفانون في الحروب . حتى النبات هجر المكان فقلما تجد في الارض التي رويت بدمائهم غير تلك الدالية التي تدب وتنساب كالحية وتثمر ثمراً شبيهاً بالليمون . هو الحنظل يمثل مُرّ القضاء في « ديرة » الفناء .

في الباطن بعض الرمث ايضاً وهو – في القاموس – مرعى للابل من الحمض . غير ان الابل لا تدنو منه الا اذا كانت في ارض فيها ماء . لانه يولد

الظما ، وهي لا ترعاه الا قليلاً . قال بداح : الرمث للإبل مثل السكر للانسان - يطلب الماء ولكنه للنار زين . ومع ذلك فان ناقة المتنبي فضلت دخان العنبر على دخانه .

تركتْ دخان الرمث في اوطانها طلباً لقوم يوقدون العنبرا

ترى الباطن يضيق في اماكن فلا يتجاوز خمسة عشر ذراعاً ، والى جانبيه جدار عالٍ من الطبقتين الرملية والكلسية . هوذا عقيق للنهر الذي كان يجري في وادي الرُّمه . وقيل انه لا يزال يجري ويفيض مرة واحدة كل اربعين او خمسين سنة .

عندما نصل الى مكان يدعى ام الهشيم يأخذ الوادي بالاتساع فتزول تدريجاً جوانبه ، فلا يبقى حولنا وامامنا غير رحب القفر وما في فراغه وامتداده من دواعي الغم ، بل من الهول . ان النفس لتنقبض من عقمه العميم ، فتنقلب العين عنه خاسئة . هو القفر السبسب بالذات ، لا حد له ولا ظل فيه . وليس في هذه الكلمات ظل من المبالغة .

ان فيه مع ذلك النعيم المنتظر . هو القفر المختبئ في تضاعيفه ، وراء افاقه ، الخَبَر - الحفر ، الماء ، النعيم ! وكنا نعد انفسنا بواحة مع الماء ورياحين ، بنخيل وظلال طيبة . فوا اسفاه ! ان الحفر حفرة دفنت فيها كل امالنا واحلامنا . هو القفر السبسب يقيناً ، تربة رملية ولكنها سوداء ، لا ظل فيها ولا ورقة عشب خضراء او يابسة . وانه ليحزن الفلاح خصوصاً اذا علم بان هذه الارض حول الابار على مسير ساعة في الجهات الاربع هي سوداء من السماد فيها لكثرة ورود المواشي على مائها .

الماء والسماد والتربة الطيبة ، ولا وريقة خضراء فيها . لمَ ذلك ؟ ان الحفر ايها القارىء العزيز ميدانٌ اقتتلت وتفانت فيه القبائل . فكان يوماً في يد الضفير ، ويوماً في يد شمّر ، وتارة في حوزة ابن الصباح ، وطوراً تحت

امرة ابن الرشيد . كم وقعة ها هنا ، حول هذا الماء ، روت التربة الطيبة بدم ربيعة ومضر ، روتها بدم ابنائك يا عدنان ، فلا تنبت اليوم حتى الحنظل ، ولا تظلل حتى الجنادب .

في الحفر ثمانية ابار كلها متهدمة الجوانب ، ولا عدة لرفع الماء الا فوق اثنين منها . فمن يرد الماء وليس معه حبل ولا اناء يعود منه ظمآن ، الا اذا وجد هناك من يعيره حبلاً وقربة . قد تكون الحروب في الماضي اوجبت هذا الاهمال بل هذا الظلم . الماء لي اليوم وقد يكون غداً لعدوي ، فلا اصلحه واجهزه بما قد يكون فيه هلاكي وهلاك عشيرتي . انما هي عاطفة البدو وقاعدتهم في الحياة . وهم لا يدركون من سر التعاون والتضامن غير الغزو ثم الغنائم .

اما اليوم وسيادة سلطان نجد تمتد الى الحفر وما دونه شرقاً وشمالاً ، والامن والسلام سائدان في بلاده كلها ، والبدو بعنايته الابوية آخذون بالتحضير ، والارطاوية اكبر الهجر[1] واهمها هي على يومين جنوباً من هذا المكان ، ومطير فيها تستطيع حماية الماء والمحافظة عليه ، فمن العار اذن ان يبقى الحفر كما كان في ايام الضغير وشمّر ، في حروب القبائل والامراء .

قال بداح : المستر فلبي[2] عندما وصلنا الى الحفر راح يرقص من شدة الفرح .

ولا عجب اذا كان كل من سافر في هذه الطريق من القصيم الى الكويت، فقطع النفود والدهناء ، يبتهج ويرقص عندما يصل الى هذا الماء . لا عجب اذا كان الرحالة على الخصوص اجنبياً لا ناقة له في البلاد ولا جمل . ومع اني

---

(١) راجع الشرح في صفحة ٩٩ من هذا الجزء .

(٢) هو سان جان فلبي مؤلف كتاب « قلب البلاد العربية » ومستشار حكومة شرقي الاردن سابقاً .

احق من المستتر فلبي بالرقص، اذ قد نجوت من خطرين، خطر الطريق وخطر الحمى في الطريق، فقد كاد قلبي يتفطر من شدة الحزن عندما انخنا في الحفر.

احتللناه يوماً واحداً فشاركتنا في الاحتلال الرياح الاربع. وقد قيل لي ان اثنتين منها في الاقل وكلها غالباً تحتل هذا المكان على الدوام. ذلك لان آفاقه مكشوفة مبسوطة كآفاق البحر. فتجيئه الشمال مدرهمة، والجنوب غائرة، والشرقية صافرة، والغربية مصفقة مولولة، فتلتقي كلها وتحتارب في ذا المكان. دخلت خيمتي واقفلت الباب وجلست استمع دوي المعركة، واحسست غير مرة ان بيت يومي واقع لا محالة على رأسي.

جاءني مسفر بعد الظهر يسألني اذا كنتُ ابغي ان اسبح. فظننته يمزح وقلت ضاحكاً: نعم. ثم انتبهت الى الجد في امره لانهم في نجد يعبرون عن الحمام بالسباحة. فجاء بعد ساعة بالمرجل الذي يطبخ فيه وقد ملأه ماء حاراً. فقلت: بارك الله فيك يا مسفر. سنسبح في القدر. فقال مستدركاً وهو جاد في كل امره: قد غسلته بالرمل ثم بالماء الحار.

ثم بعد نصف ساعة عاد يحمل في صحن من النحاس الجمر وعود الند وهو يقول: تطيب. ثم مد يده الى عبه واخرج كنزه الاكبر المرآة. وساعدني في لبس الجزمة، واحكام العقال، وخرج من الخيمة يقول للربع: باركوا للاستاذ بالسباحة. فقال هذلول فرُددت كلماته: نعيم دائم ان شاء الله. وقالت الرياح: ستأكل عشاك مطبوخاً بالتراب.

صدقت الرياح. فكيف يستطيع مسفر او غيره من الطهاة العظام ان يرد عن القدر التراب ما دامت الاربعة الاهوية تثيره وتغربه على الدوام؟ وكيف يستطيع بداح ومبارك وجعيثن او غيرهم من العربان الاقوياء الاخفاء ان يرفعوا الماء ليملأوا القرب والاروية دون ان تعترضهم الرياح فتبعدهم مراراً عن القليب وتخلط حتى بمائنا التراب؟ ولكن ماء الحفر، وان كان ذا لون،

فلا رائحة ولا طعم له . حمدنا الله على ذلك . وسرحنا باكراً كما مرحنا تحت قسطل من العجاج وبين امواج من دوي الاهوية تصم . اني اذكر الان اننا كنا وقتئذ في اخر شهر شباط ، في ما يسمى بلبنان المستقرضات .

قلت سرحنا ولو كان في الامكان لرحنا غارة من ذلك المكان نبغي السكينة والاطمئنان في الشعبان . ولكن الركائب نفسها كانت تمشي كأنها مصعدة في النفود ، فتاوي الرقاب وتصك الركاب ، من شدة صدمات العدو المحيق بنا . وعندما انخنا للضحى كانت لا تزال سرياته تعج حولنا وتثج ، فاخذ كل منا شيئاً من الخبز والطعام بيده ، وجلس على الرمل فرفع العباءة على رأسه كالخيمة وشد اطرافها تحت رجليه .

كذلك جلست . وكان الرمل مع ذلك يسبق اللقمة الى فمي . وجاءت الحمى في ذاك اليوم العصيب تجهز علي لولا رحمة الله . على ان الرياح هدأت في اليوم التالي وكنا قد بعدنا من الحفر ، عن القفر اليباب والموت ، فلاح في الارض حولنا شيء من الحياة . هي ذي الرَوْثة ، روثة العام الماضي وهي شبيهة بالرمث الا ان الحموضة قليلة فيها فتقبل عليها الابل . وهوذا نبت اخضر ، من طلائع الحيا في هذا العام ، ولكنه ليس من الحيا بشيء ، لان الانعام لا تدنوا منه . اما مرآه فقرت به العين وانتعش منه الفؤاد . قيل لي انه يدعى بُعَيثران وهو شبيه بالشيّر ، زهره اصفر ، ورائحته قارصة .

وهاك في الجو جناحاً صغيراً يسف فيؤنس ، ويزلج امام الهواء كأنه ورقة خضراء سوداء ، جناحاً اسود فيه اخضرار يرفرف حولنا فيبشرنا بالحياة ، ثم ينسل في وهج من خيوط الشمس . هو الخطّاف الذي يسميه اهل نجد الرقيعي . وجاءت معه الورقاء — أم سالم — تتيم زهر البعيثران وتجر تيهاً ذيلها ، ذنبها الطويل ، على الرمل . قال الاعرابي وقد عرفه رفيقه الى ام سالم : اي بالله واين هو ابو سالم ؟ فاشار الرفيق الى الخطاف فقال :

وابيك حتى في الطيور تهوى البيض العبيد . وايش قولك يَسالم ؟ اولاد العبيد منا كيد .

وكان الخد ، كما يقال في نجد ، اي وجه الارض ، يتغير كلما بعدنا عن الحفر ، فتكثر المفالي[1] ويكثر البدو ، وقد خرجوا بمواشيهم ينتجعون . فيلاقوننا ليستطلعوا اخبارنا ويسألوا عن المرعى في الارض التي مررنا بها . كان الاعرابي يرانا ، وهو على مسير نصف ساعة منا ، فيركض حتى يلحق بنا . واذا تعب يومي، بردنه او بطرف قميصه ان قفوا ، فنقف امتثالاً لامر هذلول .

– السلام عليكم يالاخوان . حي الله المسلمين . . وتسايف انت ؟ وتسايف حالك ؟ الله يزين حالك . . . وابو تركي[2] تسايف حاله ؟ . . وايش علومكم ؟ (اخباركم) وايش لون خد الشعيب ؟ (اي ما هو لون الارض ، المرعى ، في الشعب الذي مررتم به) .

في اليوم الثاني بعد سفرنا من الحفر خرجنا من الباطن اي وادي الرُمه عند مكان يدعى الرقعي ، وسرنا جنوباً بشرق نازلين الى الدِبْدِبَة ، فوصلنا اليها بعد ان اجتزنا بضعة تلال او شعبان ضل فيها الدليل المطيري . وقد كان في ضلاله مشكوراً لانه اقصر بدل ان يطيل الطريق .

الدبدبة سهل فسيح كبير لا يقل عن العشرين الف ميل مربع ، يمتد شرقاً بجنوب وشمال من وادي الرمة ، فيحده غرباً الحفر وشرقاً الشق وتشطره شطرين الدرجة الثانية والعشرون من العرض الشمالي . قد كانت

---

(١) المفالي الارض التي فيها مرعى . ومن كلمات البدو اذا نزل المطر : اللهم اجعلها في مفالي ارتسابنا ولا تبل ثيابنا . اي اجعل الشتاء في الاماكن التي هي مرعى لركائبنا ولا تجعلها علينا فتبل ثيابنا . البدو مثل السياسيين يفنون النعمة دائماً صافية ومقيدة بشروط .

(٢) تركي ابن السلطان عبدالعزيز البكر وقد توفي في الوافدة الاسبنيولية بعد الحرب

الدبدبة ولا تزال تابعة لمن يملك الحفر . الا ان قسماً صغيراً منها دخل اليوم في حدود العراق .

والدبدبة كثيرة المفالي ، مخضرة الجوانب ، رقيقة الاديم ، منبسطة الارجاء . تمحى غالباً اثر الطريق فيها فيسير من كان ناحراً الكويت وظله امامه او وراءه ، واذا اسرى فجرج الجدي الدليل الذي لا يضل . وفي الدبدبة من القنص الحبارى والقطا والارانب والغزلان . على ان الماء قليل ، وهو غير موجود في الطريقين من الحفر الى الكويت . اي الطريق الشرقية في خط مستقيم الى خَبرة الدويش وطولها مئة ميل والطريق التي اتخذناها الى الجهرة شمالاً وهي مئة واربعون ميلاً . فلا ماء بين الحفر والخَبرة ولا ماء بين الجهرة والحفر .

ومع ذلك فقد ظفرنا في الدبدبة باربعة ايام طيبة سرنا فيها سير الهون اكراماً للركائب ولانفسنا . وقد كان لنا ما كان لها من الخير واللذة في تغير الهواء والمناظر والمرعى ! فالابل تستلذ العرفج والارطى الخضراء وكانت في الدبدبة وافرة من نعمة الله . ونحن نستلذ الحبارى والكمأ ، وكان مبارك وجعيثن يقنصان بينما ابرهيم ومسفر وحمود يبحثون في الارض فيجيئوننا كلهم في المساء بما يندر في باريس ولندن من نعمة الله ، الا اذا بُذل في سبيلها كثير من المال . لا اظن ان في الشمال كمأة تفوق خصباً ولذة كمأة الدبدبة ، اربعة ايام طيبة ، ثم الحمى !

لله ما ابلاك وما اشد الحق فيك ، ايتها العجوز البصرية ، اذا كنت تظنين انك تجيئين في اليوم الخامس لتفسدي علينا هذه الاربعة المباركة فتنسينا حسنات الدبدبة كلها . جئت ، لا اكرم الله مسواك ، ونزلت ضيفاً علينا ، فأكلت ما تبقى عندي من الكينا وملح الاثمار ، وعدت بخفي حنين . العفو ، يا حنين . هي اول مرة في حياتي الجأ الى خفيك لاطرد بهما عجوزاً

شمطاء . ولو لم تكن عربية الاصل ومن البصرة ، هذه الحمى ، ولو لم اكن الان في البلاد العربية لما ازعجتك يا حنين ، ولما اتخذت لامرضي نعلك القديم الجليل .

راحت المسكينة تعرج ، ونهضنا في اليوم السادس بعد نصف الليل منشطين ، فاسرينا في ضوء القمر لنصل الى الجهرة صباحاً . وما ابهجها ساعة اطللنا فيها على البحر ! البحر بعد اربعة اشهر في قلب البلاد العربية ، ما اجمله وجهاً وما اكرمه يداً ، وما ابلغه رمزاً . القفار ابعدتني عن العالم والبحر يعيدني اليه . القفار قربتني من الله ، والبحر يقربني من الاهل والخلان . وانه ليلذ لي ، وانا من الناس ، ما يلذ لعامة الناس . فلا اكتم القارئ ان العشرة الالهية الدائمة تضايق من لم يتنصر ولا حاول مرة ان ينتصر على الجسد . انني اعجب بالقديس انطونيوس وبسمان العمودي . ولكني بعد اشهر اقمتها في ظله تعالى ، واحسست مرة ان الظل تجسم قدامي على ظهر الذلول ليساعدني على الحمى ، بعد هذه الاشهر المباركة ابغي الرجوع الى ما فيه شيء من الحب البسيط الفاني ، ابغي الرجوع الى توافه المدنية ومبتذلات الحياة البشرية .

الجهرة بلدة عند جبل الزور على ساعد من الخليج يمتد غرباً من الجون وراء مدينة الكويت ، والمسافة بينها وبين العاصمة لا تتجاوز خمسة عشر ميلاً . وهي مشهورة بكثرة ابارها ، وبقصر فيها لشيخ الكويت ، وبتلك الوقعة بين اهلها والاخوان التي سيجيء ذكرها .

انخنا خارج السور على كثيب من الرمل وارسلنا بداحاً بكتاب الى سمو الشيخ احمد الجابر آل صباح نعلمه بوصولنا ونستأذنه بالدخول الى المدينة . كنت قد كتبت اليه من الرياض وجاءني منه الجواب مرحباً بي . ولكن هذا اولاً ، وهو ولي الامر ، حريص على الرسميات فلا يدخل مدينة قبل ان يسبق منه علم بذلك الى اميرها .

ما كدنا ننصب الخيام حتى جاء بعض افاضل الجهرة وفي مقدمتهم امير

القصر يزوروننا ويدعوننا للقهوة في بيوتهم . فذكرونا باهل القصيم في ترحيبهم بالغريب . قضينا بضع ساعات من يوم رحلتنا الاخير نشرب القهوة والشاي ونسمع ما يتسرب من العاصمة الى هذه القرية من اخبار العالم . على ان اهلها يهتمون لما في البادية ، على ما ظهر لي ، ولأخبار نجد والاخوان اكثر من سواها . اخبروني بان الجهرة مجلبة للرياح مثل الحفر ، وان الهبوب التي مهبها الشمال مسلطة عليها . على انهم لا يخافونها بقدر ما يخافون « هبوب الجنة » التي مهبها الجنوب .

وانا اكره الهبوب سواء اكانت جنوبية ام شمالية ، فشكرت الله ان مسرحها في الجهرة يوم نزلنا فيها كان خاليا هادئاً . شكرت الله . وبينا كنت عائداً من البلدة رددت آية لحمد فسمعني هذلول فقال : والحمدلله في كل حال ولكن هذا المهب[1] .

لم ار له اثراً حيث كنا ، غير انه كان يجمع جيوشه فوق جبل الزور ودونه في الافق الغربي . وكانت طلائعه كالغيوم السوداء الماطرة وحركتها ظاهراً بطيئة .

اسرعنا الى المناخ فالفينا الربع حول نار سالم يشربون القهوة ويتحادثون وهم لاهون عما هو حادث هناك . فصاح بهم هذلول وامرهم بان يرفعوا الشراع ويطووه ، ويوطدوا اوتاد الخيمة خيمتي . فما كادوا يتممون العمل حتى وصلت الينا سريات هبوب الشمال .

امر الامير الخدم بان يرزموا العفش ويتأهبوا للرحيل . ولكن سريات من الغرب والجنوب احاطت بهم فاوقفتهم ، وشتتتهم ، وكادت تذهب بقمصانهم . لجأوا الى الجهة الشرقية من الخيمة فهوت وكادت تقع عليهم .

---

(١) هم يعبرون عن الهبوب او الريح المثيرة للغبار بالمهب .

– اقضبوا[1] الحبال . حمود وحمد وجعيش اقضبوا الحبال ولا تهجروا الخيمة . مكانكم .

فتمسك الثلاثة بحبالها والرياح من النواحي الثلاث تذري الرمال عليها وعليهم .

وكانت ساعة المغرب والعشاء والصلاة . الصلاة اولاً . وكيف يصلون، وهم اذا استقبلوا القبلة التي هي غرب ذاك المكان يستقبلون الهبوب – هبوباً ولا « هبوب الجنة » .

دعوتهم الى الخيمة فدخلوا كلهم الا الثلاثة القابضين على الاطناب فأذن مسفر ثم صلوا ، وصليت معهم وانا جالس على السرير . أو َلا يحلق بي ، وهي آخر ليلة مع « خوياي » ، ان اشاركهم في الصلاة وفي العشاء .

جاء مسفر وابراهيم يحملان المرجل الكبير الى الخيمة فرفعا الغطاء ، فاذا على وجهه قطيفة من الرمل ، فكشطها مسفر بالمغرفة وصب ما فيه من الارز واللحم . نحرنا الزاد ونحن جالسون القرفصاء . ولكن الرياح وهي تصفر وتنفخ من خلال فرج الخيمة ومن تحتها كانت تسابقنا اليه ، فيجيء الرمل، في كل سفة من الارز ، كالبذر في الصبير . وما كنت تسمع مقطعاً او حرفاً واحداً من الشكوى الا اذا كانت باطناً مني . بيد اني كظمت وتجلدت خجلاً من ابطال نجد ، وشكرت الله معهم على عشاء من الارز والرمل .

بتنا كلنا في الخيمة نقص القصص ، والرجال يتناوبون حراستها ، والرياح تولول حولها وتحاول عبثاً اقتلاعها . كنت قد سألت هذلولاً غير مرة ان يملي علي شيئاً من شعره فأبى اتضاعاً ، فالححت عليه – هي آخر ليالينا يا هذلول – فاكرمني .

---

(١) قضب لغة اهل نجد في قبض .

وكان قد انتصف الليل فطلع القمر وسكنت الرياح . فقمنا نتأهب للرحيل . أسرينا من الجهرة مكرهين ، وبعد ساعتين انخنا ليتم الربع عملاً لا بد منه . يجب ان يغيروا ثياب السفر قبل ان يدخلوا الكويت .

شببنا النار وفرشنا بعض الفرش فحاولت ان انام ساعةً بينا « خوياي » يلبسون اثوابهم الرسمية ويزينون انفسهم . ولكني وجدت شرب القهوة ورعي النجوم اسهل من النوم .

لبس كل من الربع الكسوة الجديدة التي انعم بها السلطان عبدالعزيز قبل السفر من الرياض . ولبس هذلول ورجاله النجاد الجلد فوقها ، وتمنطقوا بمناطق الفشق ، واخرجوا البنادق من بيوتها ، والقطرات الجديدة من الاخراج . وكانت مرآة مسفر الصغيرة تقوم بفضل القمر بواجبها ، فتداولتها الايدي وبسمت لها الوجوه .

وكنت انا ، ويا للعجب من امري ، اسيرَ اكتئاب حاولت ان اظهر عليه او اخفيه . هي اول مرة ادركت وتيقنت اننا في المرحلة الاخيرة بل في الساعة الاخيرة من رحلتنا . وكم مرة وددت النهاية وتقت وحننت اليها . على انه في تلك الساعة ، وانا مدرك ان القمر لا يطلع مرة اخرى علينا ، علي وعلى هؤلاء الاخوان الحقيقيين ، المحبين المخلصين ، في تلك الساعة ، ساعة الفراق ، اعتراني الغم ووددت من الزمان يوماً اخر نسير فيه الى واحة من الواحات ، وليلة اخرى نسمر فيها حول نار سالم ، فيرقص مسفر رقصة الاخوان ، ويطعم ابراهيم النار الى ان يتخلل دخانها خيوط الشمس الذهبية .

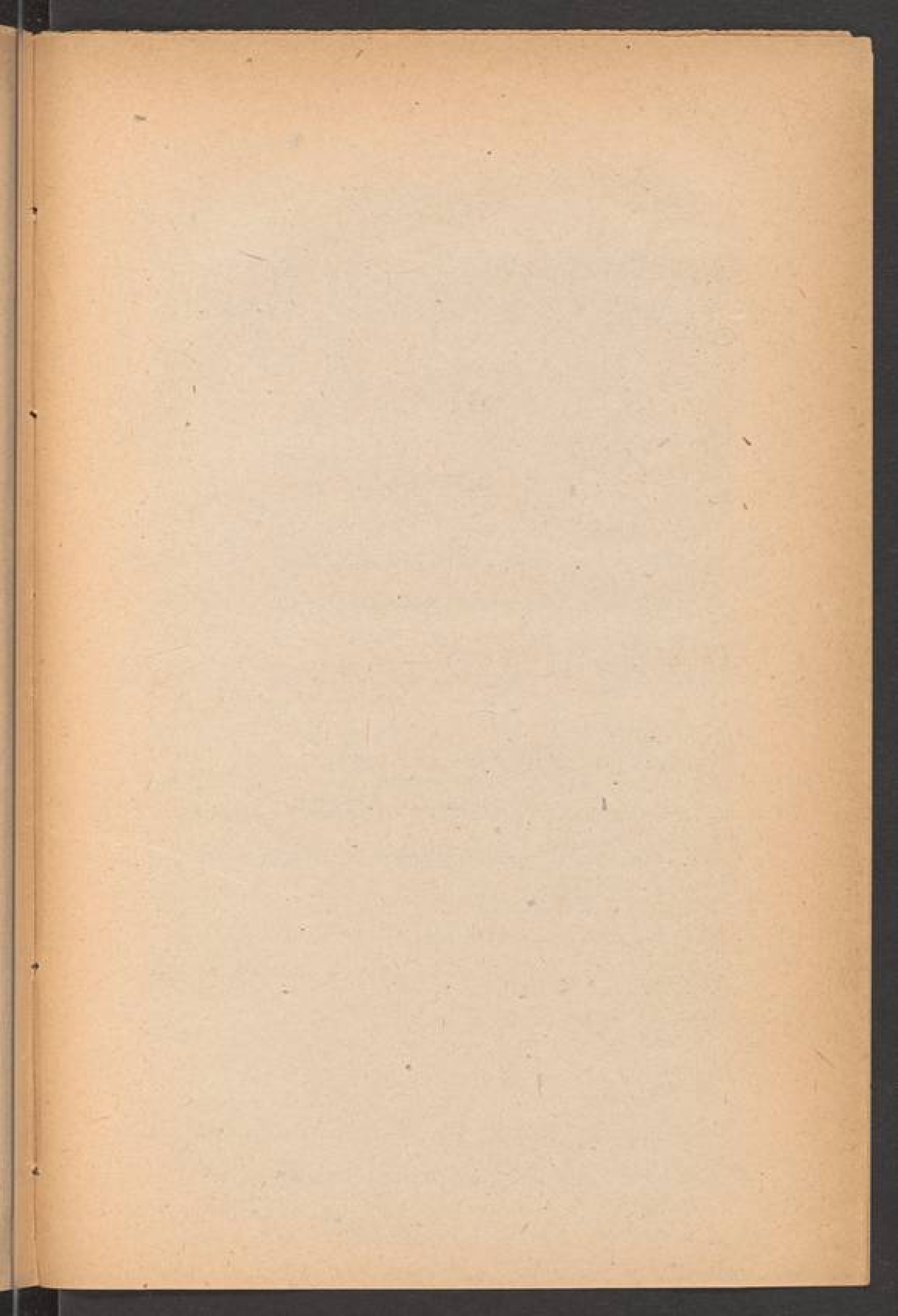
« حنّا اهل العوجا — مروية السنين »

ولكن شعر هذلول النبطي الذي املاه علي منذ ساعة — وستظل بالرغم من الايام والليالي منذ ساعة — لا يزال يرن في الاذن والفؤاد . وما احسن

اختيارك ايها الدوسري الكريم ، وما اجمل العاطفة في تلك الابيات التي بعثتَ بها الى احد خلانك . فهي تنطق بلسان حالي اذا ما ذكرتك وذكرت « خويانا » كلهم اجمعين .

يا علي يوم السبت وِنيت وِنّه (أنّ ونّ)
يوم ارتحلتوا فوق عوص النجايب (الهجن الحره)
يا ليتني معكم على كوارهنّ (اكوارهن)
مع ربعي اللي هرجهم لي عجايب (حديثهم)
بالله يا خلاق نارٍ وجنه
نسألك يا منشي صفوف السحايب (الغيوم التي تجود بالامطار)
تسيِّر يام الدين لديارهن
حتى نشوف صويحبي والحبايب
صويحبي اللي مني وانا كنت منه
منساه (لا انساه) لو رزّت علي النصايب (حجارة القبر)

ادلجنا من ذاك المكان . وما هي الا ساعة حتى انبلج الفجر وبانت من وراء حجابه الفضي الشفاف مدينة الكويت .





سمو الشيخ احمد الجابر آل صباح

القسم السادس

آل صباح

شيوخ الكويت

الكويت

سنة ١٩٢٢ م ١٣٤٠ هـ

•

حدودها : شرقاً خليج العجم . شمالاً وغرباً وجنوباً خط يبتدىء عند ملتقى الخطين الثلاثين من العرض الشمالي والثامن والاربعين من الطول الشرقي فيمتد في شكل نصف دائرة ويمر بالشق غرباً والشُقيق جنوباً وبين جبلي بُرقان والقرين الى رأس القلّيَّة على الخليج . اما منطقة الحياد بين الكويت ونجد فهي من رأس القلية الى خبرة الدويش ومنها في خط يمتد جنوباً بشرق الى قرب الخط الثامن والاربعين من الطول الشرقي ومن هذه النقطة الى عين العبد فرأس المشعاب على الخليج .

مساحتها : اربعة الاف ميل مربع .

عدد سكانها : نحو مئة وعشرين الف نفس منهم ثمانون الف في مدينة الكويت . والباقي من العشائر خارجها .

اهم بلدانها : الجهرة وجزيرة فيلكه والدمنة والفنطاس وابو حليفة والشعيبة . وفي برها اماكن باسماء معروفة كالوبرة عند الحدود الشمالية والصَبِيحية في الجنوب وخبرة وام الروس وغيرها . وهذه كلها اماكن مياه يرتادها عرب العشائر .

مذاهبها : اهمها السنة ثم الشيعة ، وقليل من الفرس والمسيحيين واليهود .

الفصل الاول

في الكويت

القافلة في البادية – اهمية الانسان في القفار – وهم لذيذ – دهشة الله – العود الى البصرة – الصالحية جنة – السماط والسف – الكمال غاية الحياة القصوى – فشلت في الفحص – عدت من نجد استاذاً – سور الكويت – المأدبة الملكية في الفلاة – سمو الشيخ احمد الصباح – القصر والانتنة فيه – مفاجئات الترف – البترولات – بندورة الكويت – الاجادة لدى السماط والشهادة – عرسي في الكفر بالله – جحيم يتبع النعيم – الهواء الاصفر – طبيب من بيروت – خبر الشيخ خزعل والعافية .

كنت قد عاهدت « خوياي » انْ ادخلَ وإياهم الى الكويت راكباً الذلول ، ولكننا قبل انْ نصلَ الى المدينة رأينا سيارة قادمة منها فوقفتْ اذ دنت منا ، فقال هذلول يخاطبني : من الشيخ احمد . نوِّخ ، نوخ .

أنخت آسفاً لاني ادركت في الحال ان لا بد من الركوب في السيارة فأخلفُ بوعدي ، وأُحرَمُ لذةً كنت أعلل النفس بها . ليست القافلة في البادية غير قافلة مهما كان عددها ، وليس الراكب فيها ايا كان غيرَ واحد من المسافرين . لا اهميةَ للانسان والحيوان في القِفار . او ان الاثنين واحد في فسيح مهالكها .

ولكنَّ القافلة ساعةَ تدنو من العمران ، من الحضارة ، تتغيرُ في نفسيتها فيعظمُ شأنها ، فتدخلُ بوابة السور وقد اختلط في قلبها الكبرُ والسرور ، وتسيرُ في اسواق المدينة كأنها موكبٌ من مواكب النصر والفخار ، وكأنَّ كلَّ واحدٍ من الركب امير على عرشه العالي او قائد عائد من ساحة الوغى . هو وهم في عجب ولا براء . ولكنه وهم جميل كان يستوقف العقل مني كل مرة نصلُ الى مدينةٍ كما تستوقف العينَ صورةٌ جميلة . بل كان يلذ لي ولا غروَ اكثرَ من سواي لاني حديثُ العهد به .

لذلك اسفت عندما انخت ذلولي خارج الكويت . ولكني دهشت وسررت ، فنسيت ما كنت أعلل به النفس ، اذ رأيت صديقي القديم يوسف السالم جلبي آل بدر ومعه الشيخ عبدالله خليفه آل صباح ، وقد جاءا من قبل سمو الشيخ احمد يحملان الي كتاب السلام والترحيب .

كان آخر عهدي بيوسف جلبي في البصرة عند صديقنا الاديب الفاضل الشيخ محمد امين عالي باش اعيان العباسي يوم أدب لنا مأدبة فاخرة في بيته « الصالحية » على نهر الصالحية هناك . فقلت متصرفاً بالبيت المأثور :

والصالحيـة جنـة والصالحون اليها أموا[1]

كنا يومئذ عشرين ونيفاً من الصالحين — الصالحين للنزال والطعان . وكان يوسف قد شحذ سلاحه جالساً الى جنبي يسف الارز سفاً عجيباً . وانا الطالب في هذه الطريقة اعجب به واتمنى ان يكون لي جزء مما له من المهارة والاقتدار . سألته عما اذا كنت استحق الشهادة في السف البسيط وهو ان تأخذ شيئاً من الارز فتعجنه بين اصابعك وتدفعه بالابهام الى فمك فاستعرض سفي ثم قال : لايزال ينقصك شيء من العلم والاتقان . عينك قال هذا ومد يده الى الارز فادارها فيه . كأنه يحدد دائرة هي بلكه ، وقبض على كتلة منه كبيرة قد ملكها ، ثم رفعها وجعلها ، وهو يعصر منها السمن ، أكرة متماسكة شديدة فقذف بها اذ ذاك الى فمه دون ان يسقط منها او يتبقى بين أنامله بذرة واحدة . فقلت : سبحان الله الذي جعل الكمال غاية الحياة القصوى . فلا شيء اجمل في الحياة من اتقان في صناعة او كمال في فن .

قلت ليوسف جلبي ، بعدان شاهدت منه هذه البراعة ، اني مسافر الى

---

(١) أستغفرك ياسيدي الاستاذ إني اعلم ان أم تتعدى بذاتها ولكن النكتة الشعرية تعتذر « اليها » .

نجد فاتمرن هناك ، وساعود ان شاء الله اليه ليعطيني الشهادة . وما كان في الحسبان ان ستجمعنا التقادير ثانية ، فتصير النكتة بعد اربعة اشهر حقيقة مضحكة . قال يوسف ونحن سائرون في السيارة نعيد تلك الذكرى : سنفحصك اليوم في القصر ونعطيك الشهادة باذن الله .

اول ما يسترعي النظر في الكويت اذ يصل المسافر من البر اليها ذلك السور الكبير الذي بناه اهلها بعد وقعة الجهرة ليصدوا هجمات الاخوان . وهو سور يحيط بالمدينة من جهات البر كلها ، طوله خمسة اميال وعلوه نحو اربعة امتار وسمكه في بعض الاماكن متر ويزيد ، فيه المعاقل والكوى للرمي والدفاع ، وله بوابات ثلاث يقيم الحرس عندها ، وتقفل في الليل لم تنفق الحكومة روبية واحدة على بناء هذا السور ، فقد تبرع اهل الكويت كل بما يستطيع من عمل او مال واتموا البناء في مدة شهرين . إنه لمن الاعمال المدنية العامة المدهشة خصوصاً في البلاد العربية .

دخلنا المدينة في الساعة الاولى من ذاك النهار ، فوقفت السيارة في الساحة الكبرى ، فترجلنا ومشينا تجاه صف من الناس جالسين في الفلاة على مجالس من الحجارة والطين الى حائط بيت صغير . فوقف اذ وصلنا من كان جالساً في الوسط ووقف على اثره الجميع . هو سمو الشيخ احمد الجابر آل صباح حاكم الكويت . خرج من قصره بحاشيته وبعض أسرته يستقبلنا في المكان الذي يجلس فيه للناس . ليس احب الى السائح وليس اقرب الى الديمقراطية الحقة والمساواة من هذه المقابلات الملكية في الفلاة .

الشيخ احمد في العقد الرابع من العمر ، ربع القامة ، دقيق الملامح ، حسن الخلق والبزة ، لطيف الاشارة والحديث . وهو اقرب في هيأته الى الشكل الآري منه الى السامي . فلو كان في غير النعل والثياب العربية لظننته هندياً من البنجاب او اوروبياً من بلاد الاسبان .

هنأني بوصولي وأعربَ عن دهشتِهِ لسفري في البلاد العربية هذه السفرةَ الطويلة . ثم قال : « العرب انفسهم يكبّرون هذه الطريق ويخافونها . ومنهم مَن لا يقوى على تحمّلِ مشقاتها . وكيف تحمّلتم ركوب الذلول كل هذه الايام ؟ نهنّئكم يا استاذ ونرحّب بكم » ولم يشأ انْ يطيلَ الجلسة الاولى رغبة في راحتي . فبعد ان تناولنا القهوة أمر مَن لاقاني ان يرافقوني الى القصر .

وكانت هناك الفتنة الكبرى . لا أريد بالفتنة ما فيه نسوةٌ او دينٌ او سياسة ، وقد كنت بعيداً عنها كلها . ولكني فُتِنت . أجلْ ، فُتِنتُ بمفاجآتِ الترف والرفاه ، انا الذي اقمت عشرين سنة في مدينة تزدحم وتتبذل في نُزُلها نوافلُ العيش ونفائس الصناعة والفنون ، تلك التي كانت تنحصرُ في الماضي خصوصاً باوروبا في قصور الاشراف والاعيان ، وهي اليوم هناك لكلِ مَن يستطيع من الناس بذل بعض المال .

تالله ما تفعل البيداء وخشونة العيش . دخلتُ القصر في الكويت كأني بدوي لم يرَ في حياته قصراً جميلاً ، تزينه الاعمدة والقناطر ، ولم يجلس مرة في قاعةٍ مفروشة بالفاخرِ من الرياش . وعندما جاء الخدمُ الواحدُ بعد الآخر يحملون الاطباق ، فوضعوها على السجادة ، وجلست انا ورفيقي اليها فُتِنتُ بما احاط صحفة الارز من الالوان المطبوخة بالبقولات .

البقولات ! بعد الارز والرمل واللحم والتراب التي كان يطبخها لنا مسفرٌ ومعاوناته الرياح ، انها من النعم التي يغتفر فيها الابتهاج والاسراف . نحرتُ الالوانَ نحرَ العاشقِ المشتاقَ ، وخُصِصت بالاسراف بندورة الكويت التي يشحنون منها الى البصرة ، وهي صغيرة مدملكة ، يطبخونها بقشرها دون ان تمسها السكين . ثم سمك الكويت المشهور الذي يشبه سمك المشط في طبرية ، ولكنه ارقُ وادسم . ثم اصناف الحلوى وما اشدّ حلوها واكثر مما واسرارها . وعندما نهضنا نغسل ايدينا وقف امامي يوسف السالم آل بدر ،

وهو كما اشرت من رجال السماط المشهورين في البصرة والكويت ، فصافحني وقال : اهنئك بما احرزت . فقد صرت منا ليس في سف الارز فقط بل في سف السماط .

وبعد ان ودعني في تلك الليلة خرجت الى الايوان ذي العمد ، المشرف على الخليج ، ففتنت بمشهد البحر والسفن المسربلة بضوء القمر ، وظللت حتى نصف الليل جالساً في كرسي هندي[1] ، وانا في ثوب النوم ، جلسة اميركية — وما اخلق ذاك الكرسي بها — رافعاً للقمر رجلي ، مطلقاً العنان للذيذ الاحلام . فما احسست بهواء البحر البارد الرطب الا بعد ساعة ، فدخلت وانا ارتعش الى غرفة النوم .

نمت قليلاً واستفقت أئن من شدة الالم . عاد السماط في بطني ناراً ، واستحال النعيم جحيماً . فكنت منذ تلك الساعة حتى الفجر احس بشيء يتعقد فيّ ثم ينحل ، ثم يتقطع ، ثم يذوب ، فاذوب معه واكاد من شدة الوجع اموت . بل عاينت الموت في تلك الهيضة التي تندر في غير الوباء . الله! يا رب المسرفين والمقترين ، يا ارحم الراحمين ، افي الهواء الاصفر نهاية هذه الرحلة ونهايتي . او انها بندورة الكويت تفعل ما لا تفعله الادوية والاملاح .

جاءني في الصباح يوسف جلبي فحزن لحالي وبادر الى الطبيب . وجاء بعد ساعة الطبيب فاثبت الجرم على البندورة وقال : ان لها شريكة هي الحمى . — وللاثنين عدوة هاكها . غير ان الطبيب نفسه نفعني اكثر من عقاقيره . فقد استأنست به ايما استئناس لانه من سوريا واسمه شبيه باسمي . هو الدكتور ريحان من بيروت . وما الذي قذف به الى الكويت ؟ اخبرني

---

(١) اذا كنت تبغي كرسياً تستريح فيه ، وتنام فيه ، وتنسى الادب فيه ، فليس اصلح من ذاك الكرسي الهندي وقد جعل لظهره درجات فتبسطه قدر ما تشاء ، ولجانبيه عضادتان ترفع عليها ساقيك ، فتنسى انك انسان وتكفر بالله .

انه في معية السردار اقدس الشيخ خزعل خان الذي جاء يقضي بعض الشتاء في قصره خارج المدينة . فكان الخبر هذا كالوردة الحمراء في ضمة من الريحان. لاني كنت عازماً على زيارة الشيخ خزعل في المحمّرة فسررت جداً بقربه مني، وعادتْ في ذاك النهار العافيةُ مثلما ولّت ، وهي تحمل باحدى يديها ادوات العمل وبالاخرى مصباح الامال .

الفصل الثاني

آل صباح[1]

اقسام العرب – ربيعة وعنزة آل صباح – تاريخ الكويت – اول من حكمها من آل صباح سنة ١١٩٠ ﻫ – اولاد صباح – حكم عبدالله – حكم محمد – شقاق في بيت آل سعود – تدخل الدولة – فتح الحسا – مساعدة آل صباح للدولة – الشيخ مبارك – الفرق بينه وبين اخويه – الخلاف – الفاجعة – ذبحة محمد وجراح – التجاء اولاد المقتولين الى والي البصرة – التجاء مبارك الى والي بغداد – تدخل الحكومة البريطانية – قيام يوسف آل ابراهيم على مبارك – هجومه على الكويت – سفره الى الحجاز – ما عرضته الدولة على مبارك – رفضه والتجاؤه الى الانكليز – مدرعة من ابي شهر – انتصار مبارك – يوسف آل ابراهيم في جبل شمر – الحرب بين مبارك وبين ابن الرشيد – وقعة الطرفية – ظهور ابن سعود – وفاة ابن الرشيد وابن آل ابراهيم – الجو ينجلي – مبارك الحاكم بامره – اتفاقه مع الانكليز – حكم الشيخ جابر – حكم الشيخ سالم – اخلاقه – سوء سياسته – وقعة الجهرة – طريقة انتخاب الحاكم .

ليس من يجهل ان العرب كلها تُقسم الى قسمين ، قحطان اي العرب العرباء وعدنان اي العرب المتعربة ، وان عدنان تقسم الى فرعين مُضَر ورَبيعة . اما مضر فسكنتْ الحجاز وكانت لها الرئاسة في مكة ، واما ربيعة فكانت منازلها في نجد اي بين اليامه والبحرين والعراق .

وهي اي ربيعة تقسم الى عمارتين ، بني كلب وبني اسد ، ويتفرع بنو اسد الى فرعين او بطنين هما جديلة وعنزى . ومن عنزى يتحدّر بكر بن وائل الذي تنتسبُ اليه البيوت الثلاثة الحاكمة اليوم في نجد والبحرين والكويت ، اي آل سعود وآل خليفه وآل صباح .

كانت عنزى تقطن اولا عين التمر في بر العراق على مسيرة ثلاثة ايام

---

(١) للشيخ يوسف آل عيسى وللسيد عبد الرحمن النقيب من الكويت الفضل علي بعض المعلومات في هذا الفصل والفصل الذي يليه .

من الانبار . ثم انتقلت منها الى نواحي خيبر فاقامت هناك ومعها احياء من طيء ، فصارت تنتجع وتشتي معهم في نجد . انها من اكبر قبائل العرب وهي تقسم الى افخاذ كثيرة منها جميلة ، وتقسم جميلة الى فروع كثيرة منها الشملان ، وتقسم الشملان الى عشائر اكبرها واشهرها آل صباح.

اما الكويت فتاريخها القديم غامض مجهول . وقد لايكون لها ما يهم منه قبل ان هجر اليها آل صباح قادمين من خيبر منذ نحو مئتين واربعين سنة . والكويت تصغير كوت والكوت في اصطلاح اهل تلك النواحي هو بيت محاط ببيوت صغيرة . كانت هذه الناحية يومئذ لبني خالد يجمعون فيها زادهم اذا ربعوا في الحجره ، فجاء آل صباح ، كما هو منقول ، وسكنوها باذن منهم .

ثم انتخب صباح حاكماً على العشائر فيها وكان ذلك في النصف الثاني من القرن الثاني عشر للهجرة ، لان المرجح هو انه توفي سنة ١١٩٠ فخلفه ابنه عبدالله الذي توفي سنة ١٢٢٩ هـ .

كان الشيخ عبدالله الصباح اول من حكموا الكويت من هذا البيت. حكمها نحو اربعين سنة ، فاتسعت في عهده وشاع ذكرها في الخليج . ثم خلفه ابنه جابر عام ١٢٢٩ هـ وخلف جابراً ابنه صباح عام ١٢٧٦ هـ .

اما نوع الحكم فقد كان قبل صباح شورَوياً يشترك فيه رؤساء العشائر ، فلا يُقدمُ الحاكمُ على امرٍ مهمٍ قبل ان يستشيرهم وهم يستشيرون الجماعات . ولكن هذه الشورى بدأت تضعف في عهد صباح الثاني اي ابن جابر حتى تقلص ظلها تماماً في ايام ابنه مبارك الذي حكم بامره ، وخصوصاً في العقد الثاني من حكمه .

من اولاد صباح الثاني ثلاثة تولوا الحكم بعده . الاول عبدالله الثاني الذي حكم ستاً وعشرين سنة ، ثم محمد الذي حكم اربع سنوات ، ثم مبارك

الذي استمر حكمه احدى وعشرين سنة . ولكن مباركاً ، وهو على عسفه وشذوذه حاكم الكويت الاكبر ، حاز قبل ان تولى الحكم شهرة في القيادة تقدمت شهرته السياسية .

ففي سنة ١٢٨٧ ﻫ — ١٨٧٠ م حدث شقاق بين ابني فيصل آل سعود عمي السلطان عبدالعزيز ففاوض احدهما الدولة العثمانية بواسطة واليها في بغداد يومئذ مدحت باشا ، فاغتنم مدحت الفرصة وارسل جيشاً الى القطيب ففتحها، ثم الى الاحساء فحاصرها واستولى بعدئذ عليها .

وقد كان لمشايخ الكويت الفضل الاكبر في فتح الاحساء . فقاد الشيخ مبارك الذي كان يومئذ في ريعان الشباب جيشاً كبيراً من العشائر في طريق البر ، ورافق الشيخ عبدالله القائد العثماني بحراً . ومنذ ذاك الحين وقبله الى حين الفاجعة التي اولت مباركاً الحكم كانت العلائق بين حكام الكويت والدولة العثمانية شبيهة بغيرها مع العشائر الموالية لها . فقبلت بان يكون لها سيادة اسمية في الكويت وان يعترف آل صباح بهذه السيادة .

بعد وفاة الشيخ عبدالله تولى الحكم اخوه محمد وكان مبارك واخوه جراح طامعين به . على ان جراحاً والى محمداً وكان فعلاً لا رسمياً شريكه في الحكم . فاشتدت المنافسة بين مبارك واخويه وكان لها من غير السياسة اسباب اخرى . اما مبارك فقد كان ولا شك ابعد الاخوين طموحاً، واشدهما بأساً ، واحدهما طبعاً ، وامضاهما عزماً . بيد انه كان متهوساً متسرعاً في اعماله . وكان جراح صاحب النفوذ الاكبر في الحكم يحب المال بقدر ما يحب مبارك المجد والشهرة . بل كان الاول بخيلاً والثاني مبذراً . الا ان النفوذ الاكبر في العشائر كان لمبارك ، فنزع الى الغزوات ، فغدا في حاجة الى المال دائماً . وكان الاخوان محمد وجراح ينعيان عليه دائماً آراءه واعماله ، ويسيئان معاملته ، ويمسكان عنه احياناً ما تقتضيه نفقاته الخصوصية . فصبر

مبارك بضع سنين على هذه المعاملة وابى ان يصبر على الدوام . وكان يرى
فوق ذلك ان اخويه هما عثرة في سبيل المجد الذي يبغيه للكويت وآل صباح.
فعندما فرغت كأس الصبر ، وامتلأت كأس التغيظ والنقمة ، عزم على ان
يريح نفسه وآل صباح والكويت من ذينك الاخوين ، فنهض ذات ليلة
للامر ونهض معه ابنه ، وكلٌّ منهما يحمل بندقيته ، فقتل مبارك اخاه محمداً وقتل
ابن مبارك عمه جراحاً . وكان ذلك في شهر ذي القعدة سنة ١٣١٣ للهجرة

ضجت الكويت لهذه الفاجعة ثم اذعنت للشيخ مبارك صاحب الحكم
فيها . اذعنت الكويت الا ابناء القتيلين واشياعهم ورجلاً اخر سيجيء
ذكره . فرّ ابناء جراح ومحمد هاربين الى البصرة فشكوا امرهم الى واليها
الفريق حمدي باشا . وكان يومئذ رجب باشا والي بغداد فسبق مبارك ابناء
اخويه الى ذاك المقام الاعلى ، فتمكن بواسطة بعض رجاله من استمالته اليه ،
فكتب رجب الى الاستانة يقول إن الحادث هو من الحوادث العادية المألوفة
بين البدو ، وخيرٌ للدولة ان لا تتدخل في الامر لان ذلك يؤدي الى تدخل
الانكليز .

ولكن الانكليز لم ينتظروا احداً ليتقدمهم في عمل هم دائماً متأهبون له .
فكان ان ابناء جراح ومحمد قد لجأوا ايضاً الى قنصل انكلترا في البصرة
فنصرهم على مبارك ، وسعى في سبيلهم وسبيل السياسة الانكليزية في
الخليج سعياً عجيباً اثمر ذاك الأمر النهائي الذي اصدرته الدولة العلية . فخيّر
ابن صباح الكبير بواحد من ثلاثة امور : إمّا ان يحضر الى الاستانة فيعينه
المابين عضواً في مجلس شورى الدولة ، واما ان يسافر الى البلد الذي يريده
فتخصه الحكومة بمعاش دائم ، واما القوة تستخدمها عليه اذا رفض ان
يعمل باحد الامرين . مما لا ريب فيه ان الدولة العلية اصدرت هذا الحكم
ارضاء لدولة بريطانيا العظمى . ومما هو في دائرة اليقين ايضاً ان الشيخ

مبارك كان قد بدأ يفاوضُ رئيسَ الخليج الوكيل السياسي لبريطانيا العظمى في اي شهر ، فسمع هذا قصته وشكواه متجاهلاً ما كان من زميله في البصرة .

انها لرواية محزنةٌ مضحكة معاً . لجأ اولاد القتيلين اولاً الى حمدي باشا والي البصرة ، فلجأ القاتل الى رجب باشا والي بغداد . ثم لجأ طالبو الثأر الى قنصل انكلترا في البصرة ، فلجأ مبارك الى وكيلها السياسي على شاطئ العجم . وكانت دولةُ بريطانيا العظمى تمثّل بواسطة ممثليها دورين معاً ، دور المدّعي العمومي ودور المحامي عن المدّعى عليه .

ضغطت الدولةُ العثمانية على مبارك فطلب الحماية الانكليزية دفاعاً عن نفسه ، فلبت بريطانيا العظمى طلبه حباً وكرامةً . لا تدعْ يسراك تعلم بما تفعله يمناك . عندما وصل المركب الحربي العثماني الى الكويت يقلُّ نقيب البصرة وبعض موظفي الدولة وهم يحملون الى الشيخ مبارك امرها العالي ويبغون تنفيذه ، جاء مركب حربي اخر ينقذ الشيخ مبارك ويطرد المركب العثماني من مياه الكويت .

اقف عند هذا الحد في المأساة لاعودَ الى اولها . قلت انَّ رجلاً اخر غير ابناء القتيلين خرج على الشيخ مبارك وقام ينصر اولادهما . هذا الرجل هو الشيخ يوسف آل ابرهيم من كِبار تجار الكويت واغنائهم . قد كان يوسف بنفسه ثورةً ، ودولةً ، وحرباً على مبارك ، استمرت عشر سنين . فوقف ثروتَه ، ووقتَه ، وحياته للاخذ بالثأر . اجل ، قد كان هو الباذل للمال ، وهو القائد للرجال ، وهو رسول قضيته الى الدولة العلية والى امراء العرب .

اول ما باشره حرباً هو انه جهز اسطولاً من السفن المشحونة بالرجال المسلّحين وتولى قيادته في الهجوم بغتةً على الكويت . ولكنْ ليلةً دنا من الاسكلة رآه احد النوتيين ، فحمل الخبر الى الشيخ مبارك ، فاستعد لملاقاته

وكانت المدينة معه . فلما علم يوسف بان المدينة مستعدة كذلك لمحاربته قفل راجعاً ، ولجأ بعد ذلك الى الجدعة .

جاء ببعض قاطعي الطرق واوعز اليهم ان يأخذوا سفينةً من اسطوله ويدخلوا بها الكويت ، فيظنهم الشيخ مبارك من اعداء يوسف آل ابراهيم ، فيقربهم منه فيقتلوه . تمت المؤامرة على هذا الوجه ودخل المتآمرون الكويت بسفينة من سفن يوسف آل ابراهيم يدّعون انهم غنموها بالمحاربة ، فانطلت الحيلة على الشيخ مبارك ، فقرّب الرجال منه وجعلهم من حرسه الخاص . ولكنْ واحد منهم تاب الى ربه قبل الاغتيال وراح يطلع الشيخ مبارك على الدسيسة . فامر الشيخ بالقبض على الرجال هؤلاء وبنفيهم من البلاد .

لجأ بعد ذلك يوسف آل ابراهيم الى الدولة العلية فسافر الى الحجاز يستعين بشريف مكة ، وكان في مساعيه السياسية عوناً لسياسة انكلترا في المسئلة ، او بالاحرى كانت سياسة انكلترا عوناً له . فصدر ذاك الامر الذي حمل الشيخ مبارك على ان يطلب الحماية الانكليزية ، فأسقط ابن آل ابراهيم في يده المرة الثالثة .

ولكن الفشل وان تعدد لم يكن ليثنيه عن قصده ومرامه . فقد سعى لدى امير الجبل الامير عبدالعزيز بن الرشيد فاغراه بعدوه في الكويت ، فشن ابن الرشيد الغارة على عشائرها ، فبادر الشيخ مبارك الى الدفاع بما عنده من الجيوش . وكانت هذه فاتحة الخير لآل سعود الذين كانوا مقيمين يومئذ في الكويت ، فتطوّعوا في حرب اعدائهم بيت الرشيد . جهز الشيخ مبارك جيشاً اولاً لعبد العزيز سلطان نجد الحالي ، ثم جيشاً اخر برئاسة اخيه حمود بن صباح ، ثم خرج مبارك بنفسه يقود الجيش الثالث ومعه الامام عبدالرحمن آل فيصل والد السلطان عبدالعزيز . فالتقى الفريقان واحتربا احتراباً شديداً في اخر ذي القعدة سنة ١٣١٨ هـ (١٩٠٠ م) في مكان يسمّى الصريف ،

فقُتل خلقٌ كثيرٌ من الفريقين وكان النصر لابن الرشيد[1].

بعد وقعة الصريف خرج ابن سعود عبد العزيز في نفرٍ قليل من الرجال يبغي استرجاع الرياض عاصمة اجداده التي كانت يومئذ في حوزة ابن الرشيد فذبح عامله فيها واستولى عليها[2]. وكانت هذه الغزوة فاتحة غزوات وحروب ادهشت العرب في شبه الجزيرة وخارجها، فاعجب العدو والصديق ببزوغ ابن سعود، بشجاعته واقدامه، وبحكمته وحلمه.

وعندما بُشر مبارك بفتح الرياض خاف ان يعيد ابن الرشيد الكرة عليه فبعث بنجدة الى عبد العزيز الذي كان قد فاز ايضاً بنصرة اهل الرياض، فخرج منها بجيش كبير، وشرع يحارب ليسترجع ملك اجداده. فقُتل الامير عبد العزيز الرشيد في وقعة «روضة مهنّا» في سنة ١٣٢٤ هـ[3].

وكان قد توفي في السنة السابقة اي سنة ١٣٢٣ هـ الشيخ يوسف آل ابراهيم فاستراح مبارك من عدويه، واخذ نفوذه يمتد بعد ذلك الى البادية ونجد.

كان الشيخ مبارك في سياسته مثله في حروبه موفقاً منتصراً. فامتد نفوذه الى البصرة والمحمرة وكانت كلمته مسموعة في ابي شهر. على انه مع تلك السياسة وذاك النفوذ لم يكن في اعماله شيء يذكر من النفع العام. فقد بنى مسجداً واحداً وقصوراً عديدة، ولكنه لم يهتم بالتعليم ولا ساعد في بناء مدرسة واحدة. اضف الى ذلك انه كان يرهق بالضرائب الرعية والتجار.

اما اتفاقه مع دولة بريطانيا العظمى فخلاصته ان الشيخ مبارك تعهد بان لا يكون للكويت علائق مع حكومة اجنبية غيرها اية كانت، وهي تعهدت ان تحمي الكويت من كل اعتداء خارجي من البحر وليس من البر فلا تتدخل في شؤون العشائر ورؤسائها.

(١) راجع تاريخ نجد الحديث، الفصل الاول: وقعة الصريف.
(٢) » » » » الفصل الثاني: الاستيلاء على الرياض.
(٣) » » » » الفصل الثامن: ذبحة ابن الرشيد.

وقد تبع هذا الاتفاق في اب ١٩١٣ م . اتفاقُ بين الدولتين البريطانية والعثمانية بخصوص الكويت وقطر والبحرين ومسقط وعمان . فتنازلت الدولة العثمانية عن حقوقها في هذه الاساكل كلها ، واخذت الدولة البريطانية على عاتقها إنارة الخليج وخفارته . اما الكويت فظلت علاقتها مع انكلترا على حالها السابق حتى سنة ١٩٢٥ عندما تقرر ان يُحاكم الاجانب فيها في دار الوكالة البريطانية .

توفي الشيخ مبارك في محرم سنة ١٣٣٤ هـ . نوفمبر سنة ١٩١٥ م . فخلفه ابنه جابر الذي لم يحكم غير سنة وشهرين . وكان جابر كريم السجايا يحبه الناس . فقد ألغى من ضرائب ابيه المتعددة ، التي يُستغرب مثلها حتى في ايام الحرب في تركيا ، ما يتعلق منها بالاملاك . اذ ان مباركاً كان قد فرض ضريبتين باهظتين الواحدة على كل عقار يباع وهي ثلث الثمن ، والثانية على كل عقار يؤجر وهي ثلث الاجرة . وكانت تتكرر الضريبتان كل مرة يتكرر الاجار او البيع .

اما إمارة سالم (الذي تولى الحكم بعد وفاة اخيه سنة ١٣٣٥ هـ وحكم مدة الحرب العظمى كلها) فقد اشتهرت بامرين هما اتساع تجارة الكويت ونكبة الجهرة . فجاء في الاول البرهان على مقدرته التجارية ، وجاء في الثاني الدليل على ضعفه في سياسة البلاد .

اما التجارة فقد كان الشيخ سالم رغم الاتفاقِ بين انكلترا والكويت ، يسمح بدخول البضائع التي كانت تصدر من بلاده الى الاتراك في العراق وفي سوريا . فاتسعت لذلك التجارة برغم إرادة مأمور الحصار الذي عينته الحكومة البريطانية للمراقبة في الكويت ، وبرغم المال الذي كانت تدفعه لرؤساء العشائر مثل ضاري بن طواله وغيره ليصادروا القوافل في بادية العراق والشام

كان الشيخ سالم خشن البادرة ، صعب المِراس ، متصلب الرأي ، فلا

يتصبح ولا يعتدل . وكان فوق ذلك شديد النزعة في الدين اي انه كان يكره الوهابيين والاخوان ولا يتقي . فأدت هذه الخصال فيه الى خلاف بينه وبين سلطان نجد . وكان الخلاف سبب النكبة التي أشرتُ اليها . ذلك ان بضعة الاف من الاخوان هجموا على الجهرة ، فذبحوا مئات من اهلها وقُتل منهم مئات ، وحاصروا الشيخ سالماً في قصره هناك فلم ينجُ الا بحيلةٍ احتال عليهم بها[1] .

تدخَّلَ الانكليز فردوا الاخوان عن الكويت . ثم تدخل الشيخ خزعل فارسلَ احد انجاله مع الشيخ احمد الجابر الذي انتُدِبَ ليفاوضَ السلطان عبدالعزيز بالصلح فساعدتهم بالمفاوضات الاقدار ، اذ بينما كانوا في الرياض في شتاء ١٣٣٩ هـ ١٩٢١ م توفي الشيخ سالم وانتخب الشيخ احمد الجابر خلفاً له .

ان الوراثة او الانتخاب في آل صباح يكون غالباً باتفاق بين الاسرة والحكومة البريطانية . على ان مباركاً رشّح ابنه جابراً لولاية العهد دون انْ يستشيرَ الانكليز . ثم تولى سالم الحكم لانه يلي جابراً في السن ، ولم يخلُ انتخابه من تدخلِ الوكيل السياسي ولو في سبيل التحقيق . فقد سأل اعضاء الاسرة والمتوجهين من الاهالي اذا كانوا راضين بالشيخ سالم فاجابوا بالايجاب .

اما اذا كان تدخلُ الوكيل السياسي في الكويت لا يتجاوز المراقبة والاستشارة فهو في غيره من الاقطار العربية ، كما ستوى ايها القارىء في البحرين ، يتجاوزُها ، اذا اقتضت السياسة والمصلحة ، الى ما فيه الامر والارهاب .

(١) راجع تاريخ نجد الحديث ، الفصل الثلاثين : الاخوان في الكويت .

امراء الكويت من آل صباح

١ — صباح الاول . حكم في القرن الثاني عشر للهجرة والمرجح انه توفي سنة ١١٩٠

٢ — عبدالله الاول خلف صباحاً .	توفي		سنة ١٢٢٩ هـ .
٣ — جابر بن عبدالله (جابر الاول)	تولى	الحكم	سنة ١٢٢٩ هـ .
٤ — صباح بن جابر (صباح الثاني)	〃	〃	سنة ١٢٧٦ هـ .
٥ — عبدالله بن صباح (عبدالله الثاني)	〃	〃	سنة ١٢٨٣ هـ .
٦ — محمد بن صباح	〃	〃	سنة ١٣٠٩ هـ .
٧ — مبارك بن صباح	〃	〃	سنة ١٣١٣ هـ .
٨ — جابر بن مبارك (جابر الثاني)	〃	〃	سنة ١٣٣٤ هـ .
٩ — سالم بن مبارك	〃	〃	سنة ١٣٣٥ هـ .
١٠ — احمد بن جابر الحاكم الحالي	〃	〃	سنة ١٣٣٩ هـ .

الفصل الثالث

مشكل الكويت

معمل الشراع – مصنع السفن – العمال والنوتيون يشتغلون – سفن التجارة والغوص – اللؤلؤ – مدينة تجارية – المسابلة – اهل نجد – التجار والبدو – امالة الاعرابي – المسابلة في نظر السلطان عبدالعزيز – جمارك نجد – اهل نجد يمتنعون عن المسابلة – المسابلة في نظر المسابلين – طلب سلطان نجد يرفضه حاكم الكويت – الحق مع الكويت – كتاب الى السلطان عبدالعزيز اقترح فيه طريقة للتسوية – وفد الكويت في الرياض – كتاب من السلطان : « مسئلة الكويت تحل قريباً حسب رغائب الجميع » .

من رواق القصر نشرف على مشهدٍ من مشاهد العمل في الكويت . فان في ساحته الفسيحة المرتكز بها العَلَم الاحمر وقد كتب عليه « الكويت » تجد دائماً عدداً من الناس جالسين على الارض حول شراعٍ مبسوط . وغالباً تجد ثلاثة او اربعة اشرعةٍ كبيرة والى كل منها عشرة ونيف من النوتيين يشتغلون فيها ، يخيطون جديداً او يصلحون قديماً منها . هوذا معمل الشراع الذي يعيش في ظله اكثر ابناء الكويت .

ودون الساحة اذا ما سرحنا النظر في السِيف امامنا نرى السفن والادقال وقد اكتظّ واشتبك بعضها ببعض ، وفيها العمال يصلحون قديماً او يدقون[1] سفينة جديدة . هناك مصنع السفن التي تبحر في الخليج وتوصل حبل التجارة بين الهند والعراق ، وبين الاساكل العربية والفارسية ، فترسو حيث لا تستطيع المراكب التجارية ، وتحمل الصادرات والوردات من شاطئ الى آخر بأجور لا يستطيع البخار ان يجاري الشراع بها .

إن سفن الكويت ومراكبها مشهورة بحسن شكلها وجودة صنعها

(١) دق السفينة بناها في اصطلاحهم او استأجر من يبنيها .

وهي على انواع ، منها للعبور والتنزه ، ومنها للحمولة ، ومنها للغوص . الكبيرة مثل البوم والجلبوت تصنع بالخشب المقلفط[1] المطلي بالقار ، ثم تغشى بالواح من الساج ، وتنقش عرشتها من الخارج نقشاً انيقاً لطيفاً . اما البوم التي تدعى ايضاً البغلة فهي اكبر السفن واجلها وابعدها ابحاراً ، فلا يقل طولها عن الثلاثين ذراعاً وعرضها الاعلى يتراوح بين الثمانية والعشرة الاذرع ، ومحمولها مئتا طن ، وهي تصل في اسفارها حتى الى جزائر مدغسكر وزنجبار .

بيد ان اكثر السفن والمراكب التي تراها في الكويت تستخدم لإستخراج اللؤلؤ في موسم الغوص ، وللتجارة بين الهند والعراق . فتخرج من الكويت غالباً فارغة وتعود ملأى اليها . ذلك لان الكويت مدينة من مدن اللؤلؤ على الخليج ، وقلما يقرن اللؤلؤ بمصدر آخر من مصادر الثروة . هذا مالها تشتري به ما يلزمها من ضرورات المعيشة ونوافلها . ليس في بر الكويت غير المقالي ، وليس فيها او في جوارها شيء يذكر من النخيل ، فهي تضطر ان تجلب حتى التمر من البصرة او من القطيف .

ولكن عندها كما قلت اللؤلؤ الذي تزيد قيمته على قيمة ما تحتاج اليه من مأكول وملبوس ، فتشتري بالزيادة للاتجار وعندها السفن تحمل الى تجارها ما يشاؤون من البنادر القصية ، فضلاً عن البواخر التي تجيئهم بالاحمال الكبيرة من الهند .

الكويت إذن مدينة تجارية . بل هي مثل جيزان او ميدي على البحر الاحمر ، وان كانت تزيد عليها في عدد السكان عشرة اضعاف ، اذ لا تقوم تجارتها وتنمو بمن فيها فقط . فلو اتكلت الكويت على سكانها وعلى العشائر في باديتها لما كانت تجارتها ربع ما هي او بالحري ربع ما كانت منذ

(١) قلفط السفينة او جلفطها هو ان يدخل بين مسامير الالواح وخروزها مشاقة الكتان وقد غمست بالزيت والقار .

سنتين . اما السبب في سوء حالها في السنتين الاخيرتين[1] فاذا سألتَ عنه التجار هناك يجيبونك بكلمة واحدة : المسابلة .

وما هي المسابلة ؟ سأكفيك مؤونة التفتيش في القاموس فقد لا تجدها فيه . المسابلة هي أن يجيء العرب الى المدينة فيسابلون تجارها اي يشترون منهم نسيئةً ما يحتاجون اليه من ملبوس ومأكول . وغالباً يجيئون في الصيف فيشترون ما يلزمهم في فصل الشتاء كله ، ويدفعون ثمنه بعد ان « يُصلحوا » مواشيهم اي يربعوها ويستثمروها في اواخر الربيع .

اما اكثر من يجيئون الى الكويت للمسابلة فهم من نجد من رعايا ابن سعود . يجيئونها ويفضلونها على البصرة والزبير لاسباب ثلاثة . اولاً لانها اقرب . ثانياً لانهم يجدون في اسواقها دائماً ما يحتاجون اليه . ثالثاً لان تجارها يتساهلون معهم فلا يتقاضونهم دفع ما عليهم ولو مر على الدين سنتان وثلاث . وهم مع ذلك قلما يخسرون .

واية ضمانة يقدمها البدوي للتاجر ؟ قسمه بالله . فهو اذا غاب عشر سنين وعاد الى الكويت ، وليس معه غير جمله ، يجيء به الى التاجر قائلاً : هذا حلالك . واذا مات الاعرابي قبل ان يفيَ ما عليه ، وكان قد نما ماله اي مواشيه ، يجيء احدُ ابنائه او انسبائه بما يكفي منها لتسديد الدين او بعضه ، فيقدمه للتاجر قائلاً : هذا حلالك من فلان . ترحّم عليه . هي ذمة الاعرابي !

انّ رغبة تجار الكويت في المسابلة اذن لمثل رغبة اهل نجد بل هي اشدُّ لانّ عرب نجد كما اشرت هم مصدر تجارتهم الأهم . وهم يستطيعون ان يتساهلوا بدفع المال اكثر من سواهم لان رأسمالهم اكبر ، بسبب مدخول الكويت الاخر من تجارة اللؤلؤ .

---

(١) كانت الواردات والصادرات في السنين الماضية تتراوح بين الخمسمئة والستمئة الف روبية كل سنة . اما في السنتين الاخيرتين فهي تقدر بثلاثمئة الف روبية سنوياً .

هذه هي احدى وجهات المسابلة . وهناك وجهة اخرى هي وجهة السلطان عبدالعزيز . انّ لسلطنة نجد جمارك ثلاثة في العقير والقطيف وجبيل، فهو لذلك يفضل ان يجلب اهل نجد بضائعهم من احدى هذه الاساكل النجدية في الاحساء او ان يسابلوا فيها خصوصاً في القطيف . على انه ليس في القطيف تجار ذوو يسار فيستطيعون ان يعاملوا النجدي كما يعامله تاجر الكويت . والسلطان عبدالعزيز يدرك ذلك .

ومع ذلك فقد نهى رعاياه منذ سنتين عن المسابلة في الكويت فانتهوا، فتأثر التجار من ذلك وشرع الشيخ احمد يفاوض في القضية الرياض . اما موقف عظمة السلطان فهو ان رعاياه يشترون من الكويت ويعودون بما يشترون الى نجد دون ان يدفعوا عليه رسماً ما . فكأنهم في هذه الطريقة يهرّبون الابضعة ليتخلصوا من دفع الرسوم الجمركية . وبما انه لا يستطيع ان يؤسس الجمارك في البادية على حدود نجد والكويت المترامية الاطراف ، وبما ان لسلطنة نجد ميناً فيها جمارك فقد اصدر امره ان تكون المسابلة في احدها وحقه في ذلك بيّن لا مقاطعة فيه . لان المقاطعة تكون بين شعبين متعاديين ولا عداء اليوم بين الكويت ونجد .

ولكنّ هناك وجهة اخرى لهذه القضية وهي وجهة اهل نجد وخصوصاً البدو الذين لا يستطيعون ان يدفعوا نقداً ثمن ما يشترون كما هي الحال غالباً اذا جاؤوا القطيف للمسابلة . فهم مثل التجار متأثرون ، وبما ان السلطان عبدالعزيز يهتم بشؤون البدو اهتماماً خاصاً ويكره الجور والارهاق فقد اقترح اكراماً للفريقين المسابلين ، النجديين والتجار الكويتيين ، ان يعيّن في الكويت وكلاء له يجمعون رسماً على كل ما يشتريه اهل نجد فيدفعونه قبل ان يخرجوا بابضعتهم من المدينة . وطلب ان يكون هذا الرسم سبعة بالمئة . فرفض سمو الشيخ احمد الطلب محتجاً بحق السيادة التي لقطر الكويت المستقل،

اذ ان مثل هذا العمل مجحفٌ بها ، ولا يكون الا اذا أكرهت الكويت عليه فيُعد اذ ذاك ضرباً من الاحتلال . هو مصيب في احتجاجه محق برفضه. ولحسن الحظ ان السلطان عبدالعزيز والشيخ احمد متحابان متواليان فلا يتخذ الواحد منهما خطة تؤدي الى تراخي العلائق الولائية وانقطاعها .

لذلك بعث السلطانُ الى الشيخ يقولُ : نحن لا نُقيم احداً من قِبلنا عندكم ولكنا نوكِّلكم في الامر ، فتعيِّنون من قبلكم مَن يجمعُ الرسمَ المطلوب من اهل نجد المسابلين ، فترسلونهُ الينا كلَّ ثلاثة اشهر او كل ستة اشهر او كل سنة مرة كما تشاؤون . ولكن الاكثرية في آل صباح لا يَقبلون حتى بمثل هذه التسوية لانهم كما قال احدهم ليسوا جُباةَ خراج لسلطان نجد .

كانت المفاوضات قد وصلت الى هذا الحد عندما وَصلتُ الى الكويت، وكان سمو الشيخ احمد على شيء من القَلق لتعقُّد القضية ثانيةً بينما هو يعالجها بالتؤدة والحكمة . فخطر لي بعد ان مررت بقسم من الارض في تلك النواحي وعرفت الحقيقة الاولى التي تتعلق بالاسفار هناك ، وبعد ان درست المسئلة ورأيت انَّ ما يطلبه عظمة السلطان عبدالعزيز من حكومة الكويت هو في الحقيقة مجحفٌ باستقلالها ، ان اكتبَ اليه كتاباً أقترح فيه حلاً للمشكل قد يُرضي الطرفين .

اما الحقيقة التي تتعلق بالاسفار والتي لا يُنكرها العارفون بتلك البلاد فهي ان القوافل الخارجة من الكويت لا تسيرُ الا في طرق معلومة ، غرباً كانت أم جنوباً ، فتمر بماء معلوم لتستقي قبل ان تدخل المَفازات . فإما انْ تسيرَ من طريق الجهرة مثلاً اذا كانت مسافرة الى القصيم ، واما عن طريق الصُبيحية اذا كانت وجهتها الحسا . وهناك طريق اخرى تمرّ بجهة الدَويش . إنّ حدود الكويت ونجد تنتهي الى هذه الاماكن الثلاثة او في جوارها .

فكتبتُ الى عظمة السلطان أفصحُ من رأيي في المسئلة واطلب منه ان

يتنازلَ لا عن الطلب بالرسوم بل بجمع الرسوم في نفس مدينة الكويت واقترحتُ عليه ، حباً بحفظ الصداقة بينه وبين آل صباح ، ان يقيمَ ثلاث نُقط جمركية في الاماكن المذكورة اعلاه او قربها فيتمكن ولا شك من تحصيل الرسوم على البضاعة التي تدخل من الكويت الى سلطنة نجد . ان هذا العمل لا يكلفُ غيرَ الخيام ورواتب ستة موظفين وبعض النجابة .

ويظهر ان المسألة دخلت بعدئذٍ في طورٍ جديدٍ لان سمو الشيخ احمد باتفاق مع الاهالي بعث ابنَ عمه حضرة الشيخ عبدالله السالم الى السلطان عبدالعزيز يحمل منه كتاباً يفصحُ عن خالص الولاء والاكرام ومعه هدايا كبيرة من الارز والسكر والبن . فخرج السلطان بحاشيته لاستقبال الشيخ عبدالله خارج الرياض واركبه معه في السيارة وانزله في القصر ضيفاً كريماً مبجلاً . فاقام هناك بضعةَ ايام وعاد الى الكويت مسروراً جداً ، يحملُ الهدايا الثمينة وشيئاً مما اشتهر به عظمة السلطان من تلك الصراحة المقرونة باللطف والاكرام .

وقد جاءني من عظمته كتابٌ يقول فيه جواباً على اقتراحي : اما مسئلتنا مع الكويت فهذه تحلَ قريباً حسبَ رغائب الجميع وعلى احسن ما يكون ان شاء الله .

الفصل الرابع

الشيخ احمد الجابر آل صباح

الرجل المسالم – القوة المدخرة في اللين – الشيخ احمد في انكلترا – اعجابه بالمدنية الغربية . اما رجال حكومتها ! – مداراته للانكليز – استشارة لا امتثال – امتياز البترول – الشركة التي يفضلها – يحترم رأي الغير – حكمة كل يوم – الكويت بين شاقوفين – اصاب الدساسين – الحاضر الحكيم – خطة اللين والمسالمة – ثروة الكويت الحقيقة – المدارس – النهضة الادبية – ادباء الكويت وسفنها – رسل العلم والتهذيب .

لو كان غير الشيخ احمد حاكماً في الازمة الاقتصادية التي سبق الكلام عليها لمَا سلِم الامرُ من حادثٍ عدائي بين البلادين نجد والكويت . ولو حدث هذا الحادث لما اختلف اثنان في نتيجته . فالفضلُ اذاً في سلامة الكويت وان كان على ضيقٍ وشدة هو للشيخ احمد ، ذاك الرجل المسالم ، اللين الجانب ، الدمث الاخلاق . ولكنه في لينه بل في المعروف والحسنى يصل الى حد يُساء في الحاكم فهمُهُ . فهو اذا مال الى السّلم والولاء ، او الى المهاودة والوفاق لا يشفعُ ميلهُ بتلك الكلمة التي فيها العزم الرابض او القوة المدّخرة . وقد يألفُ العزمُ الربوض فيتعسّرُ انهاضهُ ، وقد تهنُ القوة من الادخار الدائم . الحكيم إذنْ مَنْ مرّنَ قواه كلها حتى الحيوانية المحضة واستخدمها من حينٍ الى حين . وما يصح في الرجل الحكيم يصح في الحكومات .

الشيخ احمد مثلُ الشيخ خزعل ومثل الملك فيصل مُعجبٌ بالمدنية الغربية وبرجالها . وهو من امراءِ العرب الذين لبّوا دعوةَ جلالة الملك جورج الخامس بعد الحرب العظمى ليزوروا انكلترا ، فنزل هناك ضيفاً على الحكومة ، وساح في تلك البلاد ، وشاهد من مظاهر الرقيّ والعمران المادّية والادبية ، من مناجم الفحم الى المتحف البريطاني ، ما لا يزال يلهج بذكره ويودّ لو كان

للعرب جزءٌ يسيرٌ منه . ولو لم يكن حاكمَ الكويت وكانت تلك الرحلةَ دليله الوحيد الى المدنية الغربية لأخذ منه الإعجابُ كل مأخذٍ فتغيبَ عنه الحقيقة كلها او القسم الاهم فيها .

ولكنه ، وهو حاكمٌ عربيٌ ، يُشاهِد احياناً في رجالِ تلك المدنية ، خصوصاً رجالِ الحكومة منهم ، ما لا تُجيزه أحكامها ولا تجيزه دائماً مبادئها . فالوكيلُ السياسيُ الانكليزي مثلاً صاحبُ مَصلحة مثل غيره من الناس شرقيين كانوا او غربيين . هو لا يختلفُ عنهم بغيرِ الواسطة ، والاساليب ، والعُدة العقلية او المادية . ومتى كان قريباً من اميرٍ عربي، وله بالدنو منه ومن شؤونه بعضُ الحق ، يودّ الاميرُ احياناً لو لم يكن الرجلُ متمدناً او من امة متمدنة فيعامله اذ ذاك كما يعامل البدو ، بالحسنى اولا والا فبالصميل .

الشيخ احمد الجابر آل صباح يُداري الانكليز ولا يُمَلِّكهم منه . يَلين لوكيل بريطانيا العظمى في الكويت ولا ينكسر . قد يستشيره ويقبل رأيه في ما يراه نافعاً لبلاده او معززاً لسياسته ، ولكنه لا يأتمر بامره . مثال ذلك ان حكومةَ بريطانيا العظمى رغبت الى الشيخ احمد ان يمنح شركةَ الزيت في عبادان امتيازاً في الكويت فابى ذلك لانه يُفضّل ان يمنح الامتيازَ شركةً اخرى انكليزيةً مستقلة عن الحكومة ولا دخلَ لها بالسياسة ، وشروطها احسنُ جداً من شروط شركة عبادان .

وهو في سلوكه مع رعاياه واسرته مثله في سلوكه مع الانكليز . يستشيرُهم ويتفاوضُ معهم ، ولا يتبعُ دائماً الرأي العامَ . ولكنه لا يُزيفُ ما لا يريدُ ولا ينعي على الناس اراءهم . لكل كلام مقامٌ ، اي ان حِكمةَ كل يوم هي حكمتهُ . وكثيراً ما يكونُ الرجلُ العادي في كرسي الحكم انفع لأمتهِ وبلاده من الرجلِ الشاذ الشديد المِراس .

لا يُنتظرُ من الشيخ احمد وخصوصاً في هذه الايام ان يخرجَ بعشائره

فيحارب مثل جده مبارك أمراء العرب ويدخل البلدان فاتحاً منصوراً . واليك الاسباب . اولاً لان الشيخ احمد وان كان يحمل السيف هو اميل الى اليراع واحب شيء اليه السلم والاداب . ثانياً لان عشائره وهي قليلة لا تمكنه (لو قال : السيف) من ان يقول كذلك : النصر قد تلبيه فتغلب فتنقلب عليه. ثالثاً لان الاحوال اليوم هي غيرها منذ خمس عشرة سنة ، فالكويت التي لعبت بولاة الدولة في الشمال ، وحاربت امراء العرب ومشايخ القبائل في القصيم والاحساء ، اصبحت اليوم بين امتين متحدتين ، وقوتين قاهرتين ، وحكومتين طامعتين بالاستيلاء . ان الكويت بين نجد والعراق لمثل فتاة بين عاشقين ، وكلاهما يبغيها .

حدثني احد رجال الحكومة في بغداد قال : الكويت جزء من العراق واهلها يفضلون الانضمام الينا . أراد بذلك ان الكويت تفضل العراق على نجد اذا كان من ضم وانضمام . وان لم يكن الشيخ احمد كما وصفت ، لكان ظفر اصحاب الدسائس بما يبغون ، لان الذين يغرون العشائر خارج هذا القطر فيهجمون عليه او على عشائره ، لا يرومون من ذلك غير احداث ذاك الحادث الذي قد يكون فيه خاتمة استقلال الكويت الاداري .

والشيخ احمد مدرك ذلك ، فلا يذهب مع التيار ولا يستسلم الى الهياج العام . فهو اذا هجمت عربان نجد او العراق على عشيرة من عشائر الكويت او على المدينة ، وقام الاهالي يستنفرون بعضهم بعضاً ، وقد تسلح بالحكمة والعزم في وجوههم فيصدهم ويسكن روعهم . مثال ذلك هجوم ابن حثلين شيخ مشايخ العجمان في هذه السنة فبادر اهل الكويت الى السلاح فصدهم الشيخ احمد وردهم قائلاً : لنفاوض اولاً ابن سعود هو صديقنا . والذي اظنه انه غير راض عن هذا الاعتداء . فاذعن الناس له وفاوض السلطان عبدالعزيز فجاء منه الجواب يقول انه متأسف جداً لما حدث وانه مستعد ان يعوض على الكويت كل ضرر .

قد يختلف الناس في هذه الخطة السياسية ، خطة اللين والمسالمة . وفي الكويت مَن لا يستحسنها . بيد انهم يتيقنون اذا ما ذكروا سياسة سلف الشيخ احمد ونكبة الجهرة ، ان في دار الحكم اليوم رجلاً اقل ما يقال فيه انه محافظ على سلامة الكويت واستقلالها .

ومهما كان من امر الكويت ومشاكلها التجارية والسياسية فان فيها غير التجارة ثروةً وغير اللؤلؤ كنزاً . فيها ذكاء وجرأة وادب شاهدت منه نماذج جميلة في الحفلات التي أقيمت هناك وفي المجالس .

ومهما كان من منزلة الشيخ احمد في السياسة فانه في المساعي الادبية مذكورٌ وان لم يكن من الجميع مشكوراً . وسيعرف عهده بعهد النهضة الادبية التي تشرف العاملين في سبيلها . اجل إنَّ في الكويت نهضةً ادبية لها ركنان ، المكتبة الاهلية هناك والمدارس اليومية والليلية ، وهي تتغذى فوق ذلك بما تنشر الاداب العصرية والعلوم الكونية في سوريا ومصر . ثم تبث روحها في الربوع التي لا تصل اليها الجريدة والمجلة ، ولا ينفع فيها الكتاب لانْ ليس فيها اليوم مدارس .

اجل ، كما ان سفن الكويت الشراعية تصل الى الاساكل التي لا تدنو منها البواخر الكبيرة ، فكذلك أدباء الكويت في اختلاطهم مع البدو واسفارهم في داخل البلاد العربية يستطيعون ان ينشروا روح العلم والتهذيب ، وروح القومية السليمة العامة ، في العشائر والبوادي وفي المدن الكبيرة دون الدهناء والنفود .

الفصل الخامس

الشيخ خزعل

قل مَن لا يعرفه – قل مَن يعرفه – ثروته وكرمه وادبه – ذوقه الشامل – الغواني – الشعراء – الاحبار – اجمل لزاهر الكرم فيه – الكنيسة ومحفل الماسون والراقصة – التساهل في هدير القبيح الذميم – ولا يأنف من اللعب – ولا يروعه تعدد النساء في الحريم – «من هي امك يا وليد» – الزواج السياسي – جاء في الكامل للمبرد – نياشين من الملوك – ومن بابا رومه – ومن الفيلسوف ابيكوروس والصوفي ابن العربي – لماذا ترددت في زيارته – كتابي اليه – جوابه – اجتماعنا – حديث عن اطباء الاسنان – وعن الاخوان – القهوة في مجالس آل صباح – نهاية العالم – الرجوع الى الارض بعد الموت – متى يجب ان يرجع الشيخ خزعل .

هو سمو السردار اقدس ، معز السلطنة ، الشيخ خزعل خان بن نصرت الملك الحاج جابر خان الجاسبي المحيسني الكعبي العامري ، امير نويان وسردار عربستان ، ومؤلف كتاب الرياض الخزعلية في السياسة الانسانية . قل من لا يعرفه من قراء الصحف العربية باسمه ولقبه الاولين في الاقل . وقل مَن يعرفه معرفة حقيقية . فهو من امراء العرب وان كان يحكم ولاية من ولايات الدولة الايرانية . بل هو اكبرهم بعد الملك حسين سناً ، واسبقهم الى الشهرة ، وقرين اعظمهم في الكرم . هذا ما يعرفه اكثر العارفين ببعض البلاد العربية وامرائها .

اما ما يجهله اكثر الناس خارج الكويت والبصرة فهو ان هـذا الامير العربي من طراز الامراء في عهد العباسيين . اعني بذلك انه غني حكيم كريم معاً . فهو برمكي في كرمه ، وفي ذوقه ، وفي ادبه . يحب اللهو والغناء حبه الادب والشعراء . بل يميل الى كل ما فيه شيء من اسباب السرور كلها ، العقلية والاجتماعية والجسدية . وان كلمة قالها معاوية : الدنيا بحذافيرها ، الخفض والدعه . لتصح ان تكون من كلماته .

اجل ، ان للشيخ خزعل ذوقاً انسانياً شاملاً فلا ينفر من غير القبيح والذميم في الحياة ، ولا يعرف في مكارمه التفضيل والتمييز . تجيء المغنية من حلب او من الشام الى المحمرة وهي لا تملك غير خلخالها فتقيم عدة اشهر في القصر وتعود غنية مثقلة بالحلي . ويجيء الادباء الشعراء وفي جيوبهم قصائد المديح فيعودون من المحمرة وفي جيوبهم اكياس من المال . ويجيء حبر من احبار المسيحيين فينزل على سمو السردار ضيفاً كريماً محترماً ويعود مصحوباً بالهدايا الثمينة . ثم يجيء المبشر بالماسونية فيحل محل الاسقف في القصر الخزعلي ويعود بعد اقامة سعيدة كما عاد المحترم قبله .

ان من اجمل ازاهر الكرم في هذا العربي تساهله وهو شيعي المذهب . فهو يساعد في بناء كنيسة في بلاده لمنكوبي الكلدان ، ويساعد في تأسيس محفل للماسون ويفتح خزانته لراقصة او مغنية كما يفتحها لاولي العلم والاحسان من الطوائف كلها جمعاء . وهو على مقامه بل بالرغم من مقامه يميل دائماً الى ما فيه لهو او تسلية او فكاهة . فاذا ما انتابه الضجر في القصر ، وكان قصر الضيافة فارغاً ، ولم يكن ليرغب في زيارة البصرة ليشرف طاولة « البوكر » فيها ، ينادي اولاده قائلاً : يا ولد الخير تعالوا . الا تلعبون . فيجيء السردار ارفع او السردار اجلّ او السردار جاسم او نصرة الملك او كلهم اجمعون ، فيجلسون مع عظمة الوالد الى تلك الطاولة الخضراء العزيزة الشأن حتى في المحمرة والبصرة .

والشيخ خزعل من امراء العرب المحافظين على تقاليد الاجداد في التعريس ، ولاسيا شريعة المتعة عند الشيعة تساعده في ذلك . فقد قيل لي ان له اكثر من ستين امرأة وانه قلما يعرف اولادهن . كثيراً ما يجيئه احد اولئك الصغار فيسأله قائلاً : ومن هي امك يا وليد ؟ ثم اذا ناوأه احد مشايخ القبايل وهمّ بالخروج عليه ، وكانت له بنت صالحة للنكاح ، يزوره السردار اقدس ويشرفه بالمصاهرة ، فتخمد فيه في الحال جذوة التمرد والعصيان . سألت عن سمو

الشيخ وانا في البصرة فقيل لي هو متغيب اليوم . فقلت : واين هو ؟ فقال محدثي : راح يتزوج وهو لا يزال على سنه الذي يتجاوز الستين اهلاً لمثل هذه المهمات .

جاء في الكامل للمبرد ان انعم الناس عيشاً من عاش غيره في عيشه . ولا اظن الشيخ خزعل يحتاج الى شهادة المبرّد وشهادتي في انه يعتقد بهذه الحكمة ويعمل بها . فهو اذا لبس ثوبه الرسمي في صفته السياسية يحمل على صدره شهادات من ملوك الارض وفيها وسام القديس غريغوريوس من البابا بناديكتوس الخامس عشر بابا رومه وبين تلك الاوسمة والنياشين كلها ارى وسامين لا يراهما كل الناس بل لا يراهما غير من نظر الى هذا الرجل بعين الشعر والفلسفة . فهو في صفته الانسانية يحمل وساماً من الفيلسوف اليوناني ابيكوريوس واخر من الحكيم الالهي الصوفي محيي الدين ابن العربي .

ادين بدين الحب كيف توجهت ركائبه فالحب ديني وايماني [1]

هوذا الامير العربي الذي كنت متردداً في زيارته بالمحمرة . وقد ترددت لسببين ، اولهما لان المتأدبين يؤمون تلك السدة الشريفة وفي جيوبهم قصائد

---

(١) جاء خطأ في الطبعة الاولى ان هذا البيت للشريف الرضي ، وكنت قد نقلت في الجزء الاول بيتاً له مغلوطاً . فصحح العالم النجفي البيتين باللهجة التي صحح بها ما كتبته من صاحب الزمان . (راجع الجزء الاول صفحة ١٦١) قال نفعنا بعلمه وتسخطه

« لعل السائح العربي لما أحس بجنايته على الشريف الرضي ما رضي الا ان يتداركها فنسب اليه في مقام آخر شعرًا ليس هو من شعره ، فصارت الجناية بالثنتين والسيئة سيئتين » .

فهل تظن ان الشريف الرضي يرضى ، من الوجهة البيانية ، بان تجيء السيئة بعد الجناية . وهلا تظنه يعفو ، من الوجهة الاخلاقية ، عن الجاني عليه اذا كان ذلك في سبيل الحب . واني في هذا السبيل كذلك اشكر للعالم النجفي اهتمامه بكتاب « الملوك » وصاحبه .

المديح الطنانة ، ولست اسوء الحظ بمن يحسنون النظم ولا المديح الرمحي .
وثانيها انه حاكم بلادٍ اطلق عليها العرب في الماضي اسم الاهواز وهي اليوم عربستان من اعمال فارس . على ان رغبتي في الاجتماع باميرٍ عرفته من اخباره انه فيلسوف الامراء ، بل فيلسوف الحياة العملية ، كادت تتغلب على اسباب التردد كلها ، فوطنت النفس على ان اعرج على المحمرة في عودتي الى البصرة . ولكن تقادير الخير امرضتني فجمعتني بالدكتور ريحان الذي بشرني بوجود سمو الشيخ في الكويت[1] .

فبادرت الى القلم والورق اكتب اليه كلمة استأذنه بالزيارة ، فوقف القلم في رأس الصفحة البيضاء جامحاً . كيف احيي هذا الامير وهو كثير الالقاب والرتب والاوسمة ? بل كيف احيي من يتحدث الناس من عرب وعجم وافرنج عن مكارم اخلاقه وغرر اياديه ? هل احذو حذو الادباء فانظم الاسجاع ، في من كرمه كالمسك ضواع ، ومتفق عليه بالاجماع ? قد يظنها قصيدة مدح مني فيعاملني بما يوجبه شرع المحمرة . لذلك طرحت الرسميات جانباً وكتبت الى مولاي الشيخ خزعل كلمة سلام مقرون بالاجلال والاكرام ، فجاءني منه الجواب الاتي :

اسعد الله اوقاتك

ايها الفيلسوف المكرم ، حياك الله وابقاك ، وحفظك ونجاك ، واني مشتاق الى لقياك . فيجب ان ازورك قبل ان تذورني لان لكل قادم

---

(١) كان الشيخ مبارك آل صباح والشيخ خزعل صديقين حميمين يتزاوران دائماً فتوفقا الى فكرة جميلة يخلدان بها تلك الصداقة الجميلة . وكان في وسعهما تحقيقها فحققاها ، فبنى الشيخ خزعل للشيخ مبارك قصراً في المحمرة وبنى الشيخ مبارك للشيخ خزعل قصراً في الكويت . ولكنه كان الى جانب قصره في المدينة فبنى بعدئذ الشيخ خزعل قصراً خارج السور يقيم فيه بعض اشهر الشتاء . وهنالك اليوم قصراً للشيخ احمد آل صباح مجهز بالكهرباء والتلفون ومفروش بالفاخر من الرياش .

حق الزيارة وقد سبقتني بالجميل في كتابك الكريم ، فاشكر ذاك الذوق السليم واني صباحاً ان شاء الله ازورك في محل الجميع واحظى بنور تلك الطلعة واختم كتابي بالدعاء لكم بالتوفيق والسلام عليكم .

المحب لكم

خزعل

وكان اجتماعنا الاول في « محل الجميع » اي عند سمو شيخ احمد في الجناح الجنوبي من القصر في الصاعة المفروشة بالفرش الاوروبي .

الشيخ خزعل في العقد السادس من العمر وهو ، بالرغم عن الطبيبين في معيته ، على جانب متين من الصحة والعافية . الا انه كان يشكو يومئذ من اسنانه ومن الطبيبين معاً .

— سمعت الناس يشكرون اطباء الاسنان في اميركا . وقد قال لنا احد افاضل الاميركيين ان اطباء الاسنان هناك وباعة الخيل وسماسرة البورص من طبقة واحدة . فلم نفهم كلامه فهل لك ان تشرحه لنا .

فقلت : اما باعة الخيل فالمشهور من امرهم يا مولاي هو انهم مثل ما يبيعون المعاليق في حماة فينفخونها قبل ان يزنوها . اما سماسرة البورص فلهم اسم آخر في اميركا فيه اظن الشرح الذي تبغيه . فهم كما يدعونهم هناك اصحاب الدلو الفارغ . اي انهم يتاجرون بلا شيء ، بالهواء . فيبيعون زبائنهم ما لا يملكون من الاسهم . وكذلك الزبائن يبيعون ويشترون . هو ضرب من لعب القمار ، يكثر فيه ما هو محض شرّ من الاسرار .

— واين وجه الشبه بينهم وبين طبيب الاسنان .

— وجه الشبه في المبدأ يا مولاي — المبدأ واحد هو الوهم والاحتراف به هو الهواء في المعاليق ، وهو الدلو الفارغ او الهواء في الدلو . فاذا رحت الى

طبيب اسنان تشكو من وجع في ضرس واحد يقول لك بعد الفحص انك جبار لانك لا تشكو الا من ضرس واحد ، وان بقية اضراسك في حالة مفجعة ، فيقنعك بما أوتي من علم ان معالجتها كلها لازمة ولو اقتضى ذلك شهراً من العمل . والا فتمسي بعد اشهر وليس في فمك سن واحدة .

فقال الشيخ خزعل : قد اخطأ الاميركيون اذن . فلو كان هذا الرجل عندنا لعددناه من النشالين ؟ فضحك الشيخ احمد وقال : ينشل ما في الفم وما في الكيس . فقال الشيخ خزعل : والحمد لله ان اطباءنا سوريون .

قد كان في معية سمو الشيخ طبيب آخر سوري هو الدكتور رامي . ولكن الطبيين على ما علمت قلما يصفان من العقاقير غير المنادمة . وهما الصيدليان كذلك، فيمزجونها لسيدهم في السمر وحول الغطاء الاخضر المشهور

جاء الخادم بالقهوة . فعلمت ان مجلس حاكم الكويت الرسمي يختلف عن مجلسه العام بامرين . الاول ان المجلس الرسمي المفروش بالرياش الفاخر لا يحضره غير افراد من حاشيته واسرته . والمجلس العام المفروش بالوسائد والمساند يحضره من يشاء من الناس ، فيجلس في المكان الذي يليق به ولا يتعداه . اما الفرق الآخر فهو في تقديم القهوة . في المجلس الرسمي لا يصيح الخدم ويردد بعضهم صدى بعض . وفي المجلس العام بل في مجالس آل صباح اجمالاً اذا ما امر الشيخ بالقهوة يصيح الخادم في الباب : أقهوَه . فيهتف الخادم الواقف في الفناء : اي والله اقهوَه ! فيسمعه الخادم الجالس عند باب المطبخ فيصيح كذلك : اقهوه ! فيؤمن راعي المعاميل على الصياحين اجمعين مردداً كلمة السر : اي والله اقهوَه . فتجيء القهوة في الحال ، وان كان المطبخ على نصف ساعة من المجلس .

انتقلنا في الحديث من الاسنان الى الاخوان فقال الشيخ احمد : التعصب بلية العرب .

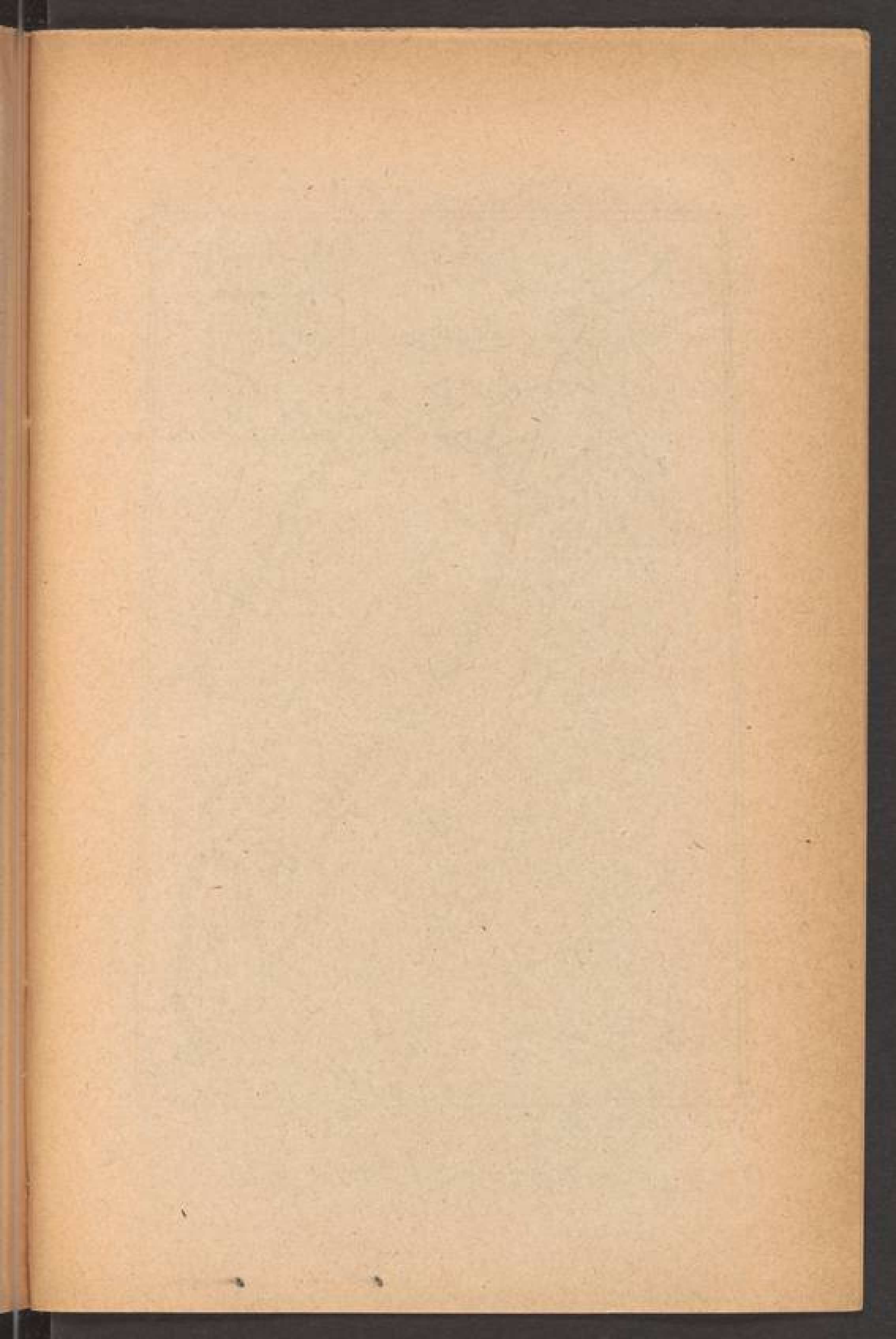
وقال الشيخ خزعل : بل بلية العالم . ولو كان لي ان ارجع بعد الموت الى هذه الارض لما احببت ان يكون ذلك الا عندما تصبح ولا اثر فيها للتعصب الديني . الانسان اخو الانسان احب ام كره .[1]

---

(١) اسلفت القول ان المحمرة وما يليها اي عربستان هي من اعمال فارس ، كان الشيخ خزعل يحكمها حكماً مطلقاً وقلما كان يؤدي الى الحكومة الايرانية السابقة حساباً . اما بعد الانقلاب ، او بالحري عندما كان رضا خان مسيطراً على الجيش والامة وقبل ان تُوِّج شاهاً ، قامت الحكومة الجديدة تحاسب الشيخ خزعل فكانت نتيجة الحساب انه اعتقل وأخذ اسيراً الى طهران حيث هو الان .



المقياس انش ٤٨٠١ ميل





الشيخ حمد بن عيسى آل خليفه حاكم البحرين وابنه

القسم السابع

آل خليفة
شيوخ البحرين

البحرين

سنة ١٩٢٢ م ١٣٤٠ هـ

•

حدودها : هي جزيرة مستطيلة في خليج فارس وبضع جزر صغيرة اهمها اثنتان الواحدة شرقاً من المنامة وهي المحرق والثانية غرباً منها وهي البديّع وهذه الجزر قريبة من الخط الواحد والخمسين من العرض الشرقي ويشطرها الخط السادس والعشرين من الطول الشمالي .

مساحتها : اربعمئة وخمسون ميلاً مربعاً .

عدد سكانها : مئتا الف نفس .

اهم بلدانها : المنامة والمحرّق والرفاع والخد والبديّع .

مذاهبها : السنة من المذاهب الاربعة ، والشيعة من الجعفريين والاسماعيليين ، ثم الوهابية . وفيها عدد كبير من الهندوس والفرس وبعض اليهود والنصارى .

الفصل الاول

سلسلة من المدهشات

جهلي البحرين – قصور المنامة – الاشرعة والالوان – اسواق المنامة – تجارها وتجارتها – النهضة الادبية – الرسالة الاميركية – المستشفى الاميركي – التبشير لا يفيد – حمير الحسا واتن البحرين – «ما السبب في جمالها ؟ . تطعمها السمك والتمر » – دبابة المستر ذورد لا تستطيع ان تباري الحمير – ساعة الزجر هي ساعة التشمير – في مجلس الشيخ عيسى في المحرق – ذنبي في تناول القهوة – ذنبي في الحديث – في بيت الشيخ ابراهيم بن محمد آل خليفة شيخ الادباء والشعراء في البحرين – حدثنا الشيخ ابراهيم عن جمال الدين الافغاني – ومجلة سركيس والمقتطف – اداب السلوك عند العرب – الأدبة والحفلة – كتاب من الشيخ ابراهيم – بعض اقوال الادباء – نهضة البحرين السياسية .

ما اخطأت الظن مرة ببلاد عربية مثل خطأي بالبحرين . وما دهشت في قطر من الاقطار التي زرتها دهشتي اول يوم في هـذه الجزيرة في خليج فارس . ولا غرو فالجهل يجسم الدهشات . قال احد الاصدقاء في الحجاز ، وهو يصف لي الطريق الى نجد : ستسافر من بمباي الى البحرين ومنها في مركب شراعي الى العقير . فظننت البحرين جزيرة صغيرة حقيرة يأوي اليها الصيادون ، وظننت شيوخها من العرب الذين يسكنون الخيام . بل كنت حتى عند وصولي اظنها معبراً الى الاحساء . وماذا ينفع التظاهر بالعلم اذا فضحتك اول كلمة منك بعد السلام ؟ اما واني امقت الادعاء فلا احاول اخفاء جهلي وهو جهل عام يكاد يشمل كل ادباء العرب خارج شبه الجزيرة . اني اعترف عني وعنهم اذن ، وها اني بعد ان تعلمت وكنت في ما تعلمت سعيداً اشاركهم في النعمتين .

اول ما يدهش الغريب عند وصوله الى البحرين ، خصوصاً اذا كان قادماً من البحر الاحمر ، عمرانُ مدينة المنامة وقصورها المشرفة على البحر .

ثم المراكب الشراعية « الجلابيت »[1] التي تشق من مياه الخليج ازرقاقاً لا صفاء بعد صفائه . ولا حفيف الطف من حفيف هواء الخليج وهو يداعب الشراع ويهمس في اذن الصباح كلمات الامان والترحيب . انه لينطبع في تلك الاونة من اللونين ، لون الشراع ولون الماء ، صورة في الذهن هي كلوحة السينما في تغيرها المستمر وحركتها الدائمة . ذلك لان مياه البحرين قلما تخلو من « الجلابيت » السارحة المارحة فيها على الدوام . اما البواخر فهي ترسو على اربعة او خمسة اميال من البر .

واذا ما السائح وطىء ارض الجزيرة وجال في اسواقها تأخذه دهشة اخرى اذ يرى فيها للتجارة حركة لا ينبىء حتى ظاهرها بكل ما هناك . فهو يشاهد في المخازن من الملبوس والمأكول والمشروب ومن اسباب الزينة والترف ما يندر الا في المدن الكبيرة مثل بمباي والقاهرة . اما اذا دخل احد بيوتات التجارة فيستوقف نظره لاول وهلة الدفاتر الضخمة والكتاب . ها هنا وربك ادارة ونظام ، ودواوين يجلس عليها الزائرون لا الزبائن ، فيشربون القهوة ويدخنون . هو الشرق في مظهريه القديم والحديث . وفي هذه البيوتات التجارية صناديق من حديد ، واكياس من النقود ، ذهباً وفضة ، وبريد تراعى اوقات سفره وقدومه ، وحسابات ومراسلات ، وليس فيها شيء من البضاعة ، وقلما يشاهد فيها غير حركة الكتاب وحركة الزائرين . اما السبب في ذلك فهو بعد ان تعلمه بسيط .

ان البحرين مثل الكويت محطة للتجارة بين الشرق وبين الشطر الشرقي من شبه الجزيرة . ويصح ان يقال فيها من هذا القبيل انها سوق من اسواق نجد ، لان قسماً كبيراً مما يدخل اليها من الهند وايران والعراق ومن اوروبا واميركا عن طريق الهند يباع في الاحساء وفي نجد . وانك لترى منه ايضاً

---

(١) جمع جلبوت راجع الشرح في صفحة ٣٣ من هذا الجزء .

في اسواق بريدة وعنيزة وحايل . بل يصل منه حتى الى اليمن وعسير والحجاز لان القوافل من تلك الاقطار العربية تجيء عن طرق نجران وقلعة بيشه والُحرمة الى الرياض والاحساء . تجيء بين اليمن وجبوبه وتعود حاملة من البضائع ما يدخل الى نجد عن طريق البحرين والكويت .

ولا نزال في سلسلة المدهشات . فان رابع ما يدهشك ، اذا كنت ممن يهمهم الادب والشعر ، نهضة في البحرين ادبية اجتماعية مباركة . اجل ، ان في هذه الجزيرة من الادباء والشعراء عدداً ليس بقليل ، وذكاء ليس بضئيل . ان فيها نهضة تقارن اخواتها في الكويت وفي العراق ، وتقارنها روحاً وطموحاً على الاقل في سوريا ومصر . وكيف لا وهذا ناديها الادبي وفيه من المجلات العربية اكثرها واحسنها ، وهذه غرف القراءة وفيها من الكتب الحديثة والقديمة انفسها ، وهذه المدرسة الابتدائية وفيها يُعلم بعض العلوم التي لا تزال تُعد في اليمن مثلاً من بواعث الكفر والضلال وفيها من المعلمين المصري والعراقي والنجدي . ان البحرين الا معبراً الى نجد ! حبذا المعبر وما فيه من مدهشات التهذيب والعمران .

واليك بخامسة منها . لست كما قد يعلم القارىء ممن يعجبون بالمرسلين ويستحسنون التبشير بالاديان . ولكن في البحرين معهداً اميركياً ديني الاصل طبي وتهذيبي العمل[1] وهو مؤلف من كنيسة يخدمها قسيس ، ومدرسة كانت يوم زرت الجزيرة مقفلة ، ومستشفى وصيدلية يديرهما طبيب فاضل وبعض السيدات اللواتي يساعدنه ويبثثن عملاً لا قولاً روح التهذيب والارتقاء في زيارتهن اسيرات الحجاب والحريم .

ولكن هذه الرسالة الاميركية المؤسسة في البحرين والكويت والبصرة

---

(١) اي الرسالة العربية The Arabian Mission وهي تحت ادارة الرسالة الاجنبية للكنيسة البروتستانية الهولندية في اميركا of Foreign Mission of the Dutch Reformed Church of America .

تستطيع ان تضاعف خيرها وتعممه لو اقلعت عن التبشير بالدين المسيحي وحصرت ما لديها من اسباب البر والحجى في الطبابة وفي التعليم المجرد من حب الهداية الروحية ذلك لان المسلمين وخصوصاً العرب منهم راضون رضى عجيباً بدينهم ولا يرغبون في سواه بديلاً . واكثرهم لذلك يبتعدون عن المدارس التي يديرها المرسلون. فلو فرضنا ان في مدرسة الكويت او البحرين، وهي تجعل من دروسها التوراة ، عشرين تلميذاً فان هذا العدد يزداد اضعافاً اذا الغي التعليم الديني او قرئت التوراة في المدرسة كما يقرأ التاريخ . ان المرسلين انفسهم ليعلمون ذلك ، وهم في مدة خمسين سنة لم يتمكنوا من هداية خمسة من المسلمين[1] فما الفائدة من التبشير اذن ؟ حبذا مدارس اميركية لا معززات دينية فيها تهرّب المسلمين منها .

عفواً ايها القارىء.. ليس ما يدهش في الانتقاد، ولكن المرسلين في ثباتهم العقيم مدهشون فلا نزال اذاً في الموضوع . ومما ادهشني في اليوم الاول من اقامتي في البحرين — وليس فيما اقول غير الجد والاعجاب — تلك الاتن البيضاء التي تفوق حسناً ونشاطاً حمير الحساء . ومعلوم — عند العرب — ان حمير الحسا احسن ما في العالم على الاطلاق . حمير الحسا ملوك الحمير . واتن البحرين اميرات الاتن . اما السبب في حسنها وسمنها وتدملك ربلاتها ، وفي نشاطها المقرون بالحكمة ، فهو ان اهل البحرين يطعمونها السمك ثم يفكهونها بالتمر . وهوذا مخزن السمك . لا تبادر الى التصليح ، ايها الاستاذ ، فالساحة لا تفيد المعنى . انما المخزن بعينه اريد . وكأنه مخزن قمح او شعير ، ترى فيه السمك

---

(١) « وكان الشيخ ينهض ويخرج من المجلس عندما أفتح موضوع الدين . فسألت السبب في ذلك فقيل لي انه خرج ليدخن . . . اما شيخ صور (صور بلدة على شاطىء عمان) فلم يكن ليسمح بالمباحثات الدينية ولا الحديث عن الدين . وقد قال لي : هذه المباحث لا تفيد ، فلا العرب يغيرون دينهم ولا انتم تغيرون دينكم » .

الدكتور فان بورسم في مجلة « البلاد العربية المنسية » عدد ١٢٢ سنة ١٩٢٢

الصغير الذي يصنعون منه السردين في اوروبا مركوماً كركام الرمل . فهم يجففونه ويبيعونه مثل القمح او الشعير بالاكياس .

اما « دبابة » المستر فورد الاميركاني التي ترعج السياح حتى في البادية وفي اقصى زوايا الارض الموحشة ، فهي اليوم من الكماليات في البحرين . ولكنها غداً تصبح من المبتذلات الجلجلات شأنها في كل مكان . فيلحق شرها بتلك الاتن الطاهرة العجيبة . الّا ان في البحرين صعوبات في السفر لا يصلح لها آلة او انسان . جاءني ذات يوم بعض الادباء يدعونني لزيارة الشيوخ في المحرّق[1] وكانت ساعة الجزر فلم نستطع الوصول الى الجلبوت الذي كان في البحر الا اذا اخترقنا السبخة حفاة وخضنا المياه حتى الركاب . فركبنا الاتن الى الجلبوت وشكرنا الله ان في هذا المضمار لا تباري « الدبابة » الحمار .

ليس كل من يبحرون من المنامة والمحرق او اليهما يركبون الاتن ساعة الجزر ، بل ان اكثرهم رجالاً ونساء ، وقد شمروا عن السيقان وعما فوقها في بعض الاحيان ، يخوضون المياه بين الشاطىء والجلابيت وهم يمزحون ويضحكون كأنهم يسبحون ويلعبون . لا اظن ان مشهداً من مشاهد الرقص في باريس او من مشاهد السباحة في مياه بيارتز في الصيف يضاهي في العري والبهاء هذا المشهد البحراني وقد رُفع ستاره للشمس والسماء . بيد ان مسرحه مسرح الفطرة والسذاجة ، فلا سبيل للهمس ، ولا باب لما ساء من الفكر والايماء . واغرب ما فيه ان النساء المحجبات يشمرن كالرجال . لم اتمالك مرة ان اظهرت دهشتي ، وبيدي آلة التصوير ، اذ رأيت احدى النسوة تنزل من الجلبوت الى المياه وقد شمرت بكرم فضاح ، فقال رفيقي : شيء مألوف . خذ صورتها ولا بأس ، فصورت آية النشور ، اما الوجه فمحذور .

نزلنا في المحرّق وسرنا الى قصر الحاكم صاحب السمو الشيخ عيسى بن علي

---

(١) اي شيوخ آل خليفة وفي البحرين والكويت كما في نجد يطلقون الجمع على الحاكم .

آل خليفة ، فاذا في الزقاق الى اصل الحائط عدد من الاعراب عاقدون الحبوة ، واذا في الفناء الكبير جمهور آخر لا يقل عن المئة جالسون في مجالس من اللبن والحجر كل يحمل سيفه او عصاه ، وقد خيم عليهم السكوت كأنهم الاصنام. مشيت في الفناء. لا ادري أفي مجلس الحاكم انا ام في معبد آخر اليه. ولما وصلت الى وسط تلك الساحة الرهيبة وقف احد الجالسين في الصدر ، وهو شيخ صغير القامة ، قصير اللحية ، طاعن في السن ، فتقدمت اليه وسلمت عليه ، فاجلسني في مجلس من الحجر الى يمينه . هو الشيخ عيسى بعينه . رحب بي ولامني لاني نزلت في المنامة ولم انزل في المحرّق ضيفاً عليه .

ثم امر بالقهوة فجاءت في ابريق من النحاس كبير جميل ، يحمله رجل اسود عمليق ، لابس معطفاً احمر مزركشاً بالقصب ، يتبعه ولد في ثوب رسمي كذلك يحمل الفنجانين . وقف الاثنان امام سمو الشيخ وقوف الجندي امام القائد العام فسلما واليد على الرأس ، ثم اخذ صاحب الابريق فنجاناً من الولد فصب فيه وقدمه لمولاه ، ثم صب ثانية وقدم الفنجان للضيف فتناولته باليد اليسرى دون ان ادرك وقتئذ خطأي . لست ادري ما حل بي تلك الساعة فكنت في حديثي كما كنت في عملي متعثراً . قل هي سلسلة من المدهشات. وقد كنت هذه المرة مصدرها لا موضوع تأثيرها .

دُهش الشيخ عيسى ولا ريبَ من فعلتي الاولى . وعندما شرعت احدثه امام ذاك الجمع الصامت الساكن في موضوع رحلتي نظر الي وفيه شيء اشد من الدهش . وما كدت اذكر امراء العرب وحاجتهم الى التعارف والتفاهم حتى وثب من المجلس ، فوقف الحضور كلهم مثله بغتة ، وتقدم مني يشير ان اتبعه . مشيت وراءه يصحبنا بعض حاشيته وانا بينهم مثل مذنب يساق الى السجن . على ان سمو الشيخ ، عندما صرنا في الشارع ، التفت الي وقال : « هؤلاء العُربان لا يفهمون ، ونحن لا نتكلم في السياسة امامهم . نمشي الى البيت فنتحدث هناك » .

مشينا الى بيته الخاص فصعدنا الى غرفة فيه على السطح لا يدنو منها « العربان » ولا يصل اليها من الرقباء اذن او عين . وكان معنا حفيده الشيخ محمد بن عبدالله واثنان اخران من الاسرة الشريفة . جلسنا وانا لا ازال الوم نفسي على ما بدا مني فقال سموه دون ان يُقصر اللطف في لهجته : تكلم الان. فجمعت شَتات الفكر وافضت في الموضوع وهو منصت يهز برأسه . ثم قال : العرب لا يتحدون . فقلت : وهل تلبون دعوة الملك حسين الى اجتماع يعقد في مكة من اجل البحث في شؤون العرب والاسلام ؟ فاجاب قائلاً : اذا لبى سلطان نجد الدعوة فنحن نلبيها .

وقفنا عند هذا الحد في السياسة ورحنا بعد ان ودعنا سموه نزور ابن عمه الشيخ ابراهيم بن محمد المشهور الذي حكم الجزيرة عدة سنين وكان له والانكليز مواقع سياسية انتهت بنفيه وبوفاته في المنفى كما ساذكر فيما بعد . اما ابنه الشيخ ابراهيم فهو اشد ميلاً الى الادب والشعر منه الى السياسة . بل هو شيخ الادباء والشعراء في البحرين ، ومن خيرة رجالها . تلقى العلم في الحجاز من كبار العلماء وله المام بجُل الفنون. هو رجل عصري في ارائه واحكامه ، يطالع المجلات العربية ، ويتبع الحركة الفكرية والادبية في العالم ، ويسعى ، وهو الرئيس الثاني لمجلس المدارس ، في تمهيد السبيل في البحرين الى بعض خيرها .

حدثنا الشيخ ابراهيم في مجلسه عن جمال الدين الافغاني الذي عرج مرة على البحرين قال : لم يكن في تلك الايام من يعرف لجمال الدين مقاماً ولا من يكترث به . حتى انه لم يجد في هذا البلد من يضيفه . هذا منذ ثلاثين سنة. اما اليوم فالفرق كبير بيننا وبينهم في ذاك الزمان . ترانا اليوم نرحب بالعلم ورجاله . وان ادباء البحرين يفتخرون بزيارة الاديب اللبناني الذي قال فيه سركيس ...

ثم انتقل محدثي من مجلة سركيس الى مجلة المقتطف والهلال ، فسرني ثناؤه على اصدقائي البعيدين كما سرني ما خصني به لانه خلو من المبالغة والمجاملة . وما كدت اقول لنفسي ما احلاه حتى جاءت القهوة وجاءت معها كلمة استفهام طيها التأنيب . قال الشيخ ابراهيم وانا امد يدي الى الساقي : وما السبب في تناولك فنجان القهوة في مجلس الشيوخ باليد اليسرى ؟ قد انتقدوا عليك ذلك . فقلت وانا صادق في عذري : ان في يدي اليمنى وجعاً عصبياً يضطرني في بعض الاحيان الى استعمال اليد اليسرى . فقال فضيلة الشيخ : عذر مقبول وسننشره في البلد دفاعاً عنك ودفعاً في ما بعد للانتقاد. فقلت وعسى ان يُعلن العذر بسرعة اعلان الذنب . فضحك فضيلته ومن في المجلس .

قد يدهش القارىء اهتمام عالم لمثل هذه الامور التافهة . ولكنها ليست بتافهة عند العرب ، وهم اشد شعوب الارض شغفاً بالرسميات . فانهم على اختلاف طبقاتهم يواظبون على اداب الجلوس في المجالس ، وعلى المائدة او الى السماط ، مواظبة الطبقة العالية من الاوروبيين . فترى البدوي في مضربه مثل الامير في قصره يحافظ على المقامات ويرعى حقوقها ، كما انه يحافظ على العادات والتقاليد ويحسن التمييز في ادق خصائصها .

اما امتناع الشيخ ابراهيم عن مشاركة ادباء البحرين في الحفلة التي اقاموها للاديب اللبناني فلا اظنه من هذا الباب . فلو كان المقام السبب في الاحجام لما ترأس الحفلة الشيخ محمد حفيد الشيخ عيسى ولما حضرها غيره من الاسرة الشريفة . انما الحقيقة هي ان الشبان الذين اقاموا الحفلة ارادوا ان تنحصر بهم فلم يدعوا لها الشيوخ . وكنا قد اجتمعنا حلقة حول السماط في دار الشيخ ابراهيم العامرة كان هو فكرها اللامع ، فحدثنا في احوال البحرين وتاريخها حديثاً فيه لذة وفائدة . ثم شرفني بكلمة تفصح عن وطنية جلبابها الحكمة وتاجها العلم انقلها الى القارىء مثالاً من نثره وفضله :

حضرة الاستاذ الكريم .

دعاني لكتابة هذه السطور ، والدواعي جمة ، ما يدعو المشتاق لبث اشواق، والرفيق للتحدث مع رفاق . ومجال القول في الشؤون الانسانية واسع كل يأخذ فيه بحسب امياله ، ومقتضى حاله . واهم ما يتحدث به الاخوان وان تناءت بينهم الاوطان ، هو ما يتواصون به من رفع شأن امتهم بين الامم وتنبيه اذهان خاصتهم الى مطالب عصرهم . واذا نظرنا الى ذلك بعين الاستحسان من وجه عام فلا شك اننا ننظر اليه بعين الوجوب من وجه خاص على من رزق من الاقتدار على الكتابة حظاً وافراً ، وتفرغ لها بعد ان خاض البحار والقفار ، وفاز بصحبته الكبار والصغار ، وحاز مزية الاختيار . وقدر له قبل ذلك ان يعيش في العالمين القديم والحديث، ويرى مظاهر الحياة من الفريقين . فلاريب ان يكون لكلامه التأثير التام في بني امته . فعسى ان لا يحرم ابناء الامة العربية من اخيهم الامين ما يقوي نهضتهم من اختباراته الثمينة ونصائحه المفيدة . فالرائد لا يكذب اهله ، والفاضل لا يمنع فضله .

من المخلص

ابراهيم بن محمد آل خليفة

الرائد لا يكذب اهله . ما اجملها كلمة من شيخ ادباء البحرين . وقد ردد صداها الشبان نثراً ونظماً واضافوا اليها كلمات فيها من الحماسة والصراحة ما يجدر بالشباب . اني لا ازال اذكر من كلام الشيخ محمد رئيس النادي الادبي قوله : احمل سلامنا الى جميع اخواننا الناطقين بالضاد وبلغهم اننا قد اخذنا على عاتقنا السعي في تحقيق امنيتنا وهو رفع شأن امتنا عن طريق العلم . . . واننا مستعدون لمصافحة كل من يمد يده الينا للتعاون والتعاضد والتعارف والتواد .

والشيخ محمد هو ابن الشيخ عبدالله كبير انجال امير البحرين ، كبيرهم عقلاً ووطنية وعزماً ، فلا يخلو كلامه من اشارة سياسية .

اما الصراحة كل الصراحة فها كها . ان بين ادباء تلك الجزيرة العربية الجميلة شاباً ورد ادبه بواسطة المجلات العربية «الغرب» و«الشرق» فاستقى من الموردين ، فصفت روحه واشتدت لهجته ، وما كان في الاثنتين غير صراحة رائدها الصدق ودليلها الحصافة . هو عبدالله بن علي آل زايد، سلك الكهرباء بين الادباء . وكأني به يكمل كلام الرئيس في خطبته تلك الليلة اذ قال :

– قل للغربيين اني زرت مصر والحجاز واليمن والعراق ونجد والبحرين فرأيت في هاته الامصار شعوباً نفضت عنها غبار الكسل واستعدت للعمل ، شعوباً تتوق الى مصافحتكم وانتم الاصدقاء والى مصادقتكم وانتم الزملاء . ولكنها لا ترضى بحال من الاحوال ان تكونوا لها بمثابة السادة . . . قل لهم ان الشعب العربي هو استاذكم الاول ، ومعلمكم القديم ، فلا تقابلوا الاحسان بالاساءة وتجعلوا ثواب ارشاده اطالة استعباده . . . قوموا لهم بمقام الناصح المحرر ، لا الجبار المسيطر . دعوا الزمان الذي كيفكم يكيفه ، والعوامل التي اعدتكم تعده . . .

هذا من عبدالله بن علي نثر فيه صراحة ، فيها حقيقة ، فيها جرأة واخلاص . وقد عم ذلك كله بقصيدة جاء فيها وهو يصف اهل الشرق :

غنيهم بخيل والمداوي عليل والاجانب اولياء

نعم غنيهم بخيل في المشاريع العامة التهذيبية والصحية ، والمداوي عليل بما في خرجه من عقاقير الخزعبلات والتقاليد السقيمة . فاذا ما اصبح الغني في ما ذكرت كريماً ، والمداوي سليماً من سموم الخرافات ، فتيقن يا اخي عبدالله بن علي بان الاجانب يصبحون اصدقاء وزملاء .

في البحرين اذن نهضة سياسية هي قرينة النهضة الادبية . اجل ، ان في البحرين من ينشدون الوحدة العربية ، وفي نادي البحرين من يرفعون النهضتين الى مستوى الفلسفة العالي ، ومستوى الانسانية الاعلى . فقد ادهشني ايضاً تلك الليلة اديب من ادباء الفرس ، والفرس مهد الفلسفة والحرية الروحية ، في ذكره الشاعرين الصنوين عمر الخيام وابي العلاء المعري . قال محمد صالح الخنجي : اني احب المعري والخيام واني شغف باشعارهما . وقد سرني بنوع خاص ما بلغني من ميلك اليهما وغرامك بافكارهما . . . ان البشر لم يزالوا كما كانوا في ما سلف من الزمان وكما وصفهم المعري والخيام . . . ان الاديان الحنيفة روحها واحد وانما تختلف الشرائع التي تتضمن احكام المرافعات وفصل الخصومات . . . فالاديان بروحها ومغزاها تدعو للاجتماع والاتحاد . . . الشرقيون كلهم عائلة واحدة . . . خلاصهم وسعاداتهم في ان يسود النظام بينهم والوفاق والتضامن .

مرحى ، مرحى .

وها قد اطلعت القارىء بالقرائن والامثال على بعض ما يدهش في البحرين — وهناك مدهشات تاريخية وطبيعية سيجيء ذكرها — واسمعته في اصوات الادب والشعر شيئاً من الشكوى والانين . فينبغي لي ان اطلعه اذن على الاسباب . على ان البحث في احوال البحرين يجيء ناقصاً اذا لم تتقدمه نبذة في تاريخ هذه الجزيرة وفي حالتيها الطبيعية والاقتصادية .

الفصل الثاني

مهد الحضارة والشراع

اصل الفينيقيين – شهادة التاريخ – مدافن البحرين – اثار فينيقية – قائد من قواد الاسكندر يزور بلدا فينيقيا في خليج العجم – صور وجبيل هناك – العرب والفينيقيون من اصل واحد – « عشاق البحر واسياد الشراع » – التجارة الجديدة – لؤلؤ البحرين – كمية ما يستخرج من الخليج – ما هي اللؤلؤة – كيف تنشأ في المحار – راي العلماء ورأي القزويني – الغوص والغيص – اصطلاحات هذه الحرفة – كيف يقسم محصول اللؤلؤ بعد الغوص – تجار اللؤلؤ – اخطار الغوص – الدول – السبب في حسن لؤلؤ البحرين – عجائب الطبيعة وعجائب القزويني – الماء العذب تحت الماء المالح – تحدر الارض من نجد الى الاحساء – اهل البحرين يشربون من مياه العارض واليمامة .

قال بعض المؤرخين ان خليج العجم هو مهد الحضارة بل مهد الجنس البشري وان سكانه الاقدمين اي سكان الجزر فيه هم اول من رفعوا شراعاً في البحار ، واقتحموا اخطار الاسفار ، فارسوا الملاحة واتقنوا علمها ، وكانوا الصلة العاملة بين الشرق والغرب . وقال آخرون ان الفينيقيين هم من هذه الديار العربية . فقد جاء في بعض كتابات المصريين القديمة ذكر البُنط Pount وهو اسم الفينيقيين قبل ان يحتلوا بلاد الشام . « والظاهر انهم من اصل عربي فقد نقلت التقاليد القديمة انهم ظعنوا من الديار المجاورة لخليج فارس الى سواحل البحر المتوسط »[1]

وجاء في التاريخ القديم تأليف رولنسون الانكليزي الذي يسند كلامه الى اصح الثقات مثل هيرودوط واسترابون : ان اقدم الدول الاسيوية تأسست عند فم الخليج العجمي[2] ناهيك بالاثريين الذين يقولون ان القرنة اي البلدة

---

(١) لغة العرب الجزء الثاني صفحة ٢٧٠

(٢) موجز التاريخ القديم تأليف جورج رولنسون صفحة ٢٨ و٣٨ Ancient History by George Rawlinson

الكائنة على ملتقى دجلة والفرات اليوم هي المكان السعيد العالي الذي سقط منه الابوان الكريمان – هي جنة عدن، او كانت . ولا تزال شجرة الخير والشر قائمة فيها – ومثمرة – حتى اليوم .

ان علماء التاريخ وعلماء الآثار اذن متفقون مع الانبياء . على انه مهما كان امر الاساطير وبعدها عن الحقائق الطبيعية والتاريخية، او قربها من تلك الحقائق، فمن المعقول ان الفينيقيين، وهم من الشعوب الشرقية السامية ومن رجال البحار الاولين، نشأوا في جوار الخليج او فيه، وكانت اسفارهم في البداءة بين الهند والشام ومصر، ثم ظعنوا الى سواحل سوريا وخاضوا البحر الابيض، فوصلوا الى قادش وبلاد الغال، واصبحوا في تلك الايام الصلة التجارية الوحيدة بين الشرق والغرب الاقصى .

ومما قاله رولنسون انهم كانوا يسافرون من ارواد بيلوس براً الى الخليج العجمي فيبحرون منه الى الهند وسيلان، ثم يعودون وهم يحملون الذهب من اوفير[1] كأنهم بعد ظعنهم غرباً الى سوريا كانوا يعودون الى بلاد هي بلادهم وقد توارثوا علومها مع علم الملاحة بعضهم عن بعض . ولا عجب اذا كان الخليج وجواره منشأ الفينيقيين ومطلع انوار المدنية الاولى، فان ابناء هذه الربوع هم الذين مصروا ارض الكلدانيين وشيدوا قصور بابل وآشور .

من المؤرخين من يقول ان الصينيين كذلك نشأوا في جوار الخليج وظعنوا شرقاً الى البلاد التي هي اليوم بلادهم . ولكننا وان عدنا مع علماء التاريخ خمسة آلاف سنة فلا يلزم، وموضوعنا البحرين، ان نعود الى الاساطير قبل ذاك العهد او بعده . ان في جزيرة البحرين نفسها ما يثبت رأي رولنسون،

(١) اوفير هي البلاد الشرقية التي اشتهرت قديماً بكثرة نضارها . وقد اختلف المؤرخون في موقعها فمنهم من قال انها كانت على الشاطىء الهندي قبال عمان ومنهم من قال انها في افريقية الشرقية .

بل رأي هرودوط واسترابون، في اصل الفينيقيين. ان في الجزيرة اثراً تاريخياً قديماً لم يُكشف بعد كل سره.

ركبنا ذات يوم السيارة وسرنا من المنامة جنوباً فمررنا بارض ظِلُّ نخيلها ظليل ومياهها الجارية في القنى غزيرة، ثم بخرائب قديمة عربية، ثم بغابات وآكام افضت بنا الى ارض تقفر تارة وطوراً تردهي اخضراراً، حتى اذا ابتعدنا بضعة اميال وصلنا الى قرية علي، فانكشف امامنا مشهد غريب عجيب خصوصاً وهو في جزيرة صغيرة مجهولة كالبحرين. تلال او اطلال تظنها لاول وهلة اثار مدينة قديمة. ولكنها آكام هرمية اصطناعية قائمة في سهل فسيح بل في قفر سَبْسَب بين المنامة والرفاع يدعى المراقيب.

هي مدافن البحرين وقد نبت فيها العوسج والقيصوم. هي مدينة الاموات في كنف الزمان، وفيها احياء كالمدينة متفرقة متعددة. وفي كل حي مئات من القبور. مدينة دارسة لا يعرف لها تاريخ. كأن سكانها خلقوا وماتوا قبل ان يستكشف الانسان للقراءة سُلّماً وللكتابة مسماراً.

صعدنا الى رأس اكمة علوها زُهاء خمسين قدماً ثم نزلنا الى جهة منها فيها اثر البناء — باب كبير وعضادة ونصف عضادة وعتبة امست أسكفة تحت الاقدام. دخلنا فاذا نحن في بيت فيه غرفتان بنيتا بالحجارة الضخمة الواحدة فوق الاخرى. ويظهر ان الاموات كانوا يدفنون في هذه الغرف واقفين او جالسين. او ان هذه القبور العالية كانت لامراء الجزيرة واعيانها. هي تختلف علواً ولكنها لا تنقص عن الثلاثين ولا تزيد على الخمسين قدماً. ولكن شكل الغرف والمعابر فيها واحد لا يتغير وكلها في جوار قرية علي. اما المقبرة الفسيحة الارجاء، المقبرة العامة على ما اظن، فهي تمتد بعيداً في جهتي الشرق والجنوب، وفيها من القبور ما يزيد على الستة الاف قبر يُراوح علوها بين الخمسة والعشرة الاقدام. هي من اكبر مدافن الشرق ولا يبعد ان تكون أقدمها عهداً.

ومع ذلك لم يهتم لها علماء الاثار والتاريخ اهتمامهم لغيرها . وقد يكون السبب في ذلك خمول ذكر الجزيرة عند عامة الناس وبعدها عن جادات السياح المألوفة بيد ان رجلاً انكليزياً اسمه دوران[1] جاء الى البحرين سنة ١٨٧٩م وكان اول من فتح مدفناً من تلك المدافن على ما اعلم وباشر الحفر والتنقيب ، فوجد هناك مع عظام الانسان قطعاً من عظام الخيل ، وشقفاً من الفخار ، وآنية من العاج ، وسُجفاً وستائر بالية ، واخشاباً ناخرةً من السوس والديدان . الا انه لم يذكر انه عثر على كتابة او صورة محفورة في تلك القبور .

ثم جاء في سنة ١٨٨٩ سائح انكليزي اخر هوتيودور بنت[2] وامعن في التحري والتنقيب ، فعثر على اثار صناعية بعث بشيء منها الى المتحف البريطاني ، فدرستها لجنة المتحف وقالت انها فينيقية الاصل . فاثبتت في ذلك رأي المؤرخ رَولنسون الذي مرّ ذكره ، واثبتت ضمناً ان هذه القبور قديمة جداً لان هجرة الفينيقيين من هذه الجزيرة الى البحر المتوسط هو منذ خمسة الاف سنة كما يرتئي المؤرخ رولنسون . ان هناك دليلاً آخر على قدم عهد هذه المدافن وهو ان لا اثر فيها على اهميتها للكتابة او للتصوير الرمزي

ان في التاريخ القديم برهاناً آخر على فينيقية البحرين . فقد كتب احد القواد المقدونيين عندما جاء الى خليج العجم من قبل الاسكندر مستقصياً طريق الهند انه زار مدينة فينيقية على الساحل الغربي من الخليج ، ثم جزيرة تدعى نيرين، وهي على ما يظهر دارين العرب، ولا تزال قربها اليوم اسكلة بحرية تدعى جبيل . وادهش من ذلك ان على شاطئ عمان الشرقي بلدة كبيرة اسمها صور ، سكانها عشرة الاف واكثرهم نوتيون ، عندهم مئة سفينة كبيرة والفان من السفن الصغيرة تسافر الى الهند والبصرة وبورت سعيد . وصور هذه من المدن القديمة ، وقد كانت في الماضي ، مثل صور الشهيرة على

---

(١) Capt. Durand (٢) Theodore Bent

البحر المتوسط ، محطة تجارية بين الهند وبلاد بابل .

هاك ادلة التاريخ والآثار والديار التي لا تزال عامرة على ان الفينيقيين ظعنوا من خليج العجم بل من بلاد العرب الشرقية الى البحر المتوسط. واذا كان يريب القارىء شيء من ذلك فلا مجال على ما اظن للريب في احد امرين : اما ان الفينيقيين من اصل عربي ، وهم مثل العرب ساميون ، واما ان العرب من اصل فينيقي . فاذا صحت رواية رولنسون ثبتت القضية الاولى واذا صحت رواية قائد الاسكندر ثبتت القضية الثانية . اما اذا كان لا ريب في الروايتين فمنشأ الفينيقيين ومعاهدهم كلاهما في هذه الجزر وهذا الساحل العربي من الخليج .

ولا فرق عندي في كل حال اذا كان العرب الاصل او الفرع . فاذا كانوا الاصل فمرحباً بالفينيقيين ابنائهم ، واذا كانوا الفرع فمرحباً بالمتحدرين من الفينيقيين . لست من الذين يتلذذون بتعليل النور ، وتحليل روائح البخور وان ما اتيقنه هو ان بين الشعبين العربي والفينيقي صلة جوهرية قد لا ترى ولكنها لا تنكر بل هي ترى في سنة الوراثة وادلة الحياة في الحال . اليها اذن اعود بالقارىء .

ان اهل البحرين مثل اهل الكويت بل مثل كل العرب الساكنين على سواحل الخليج لا يزالون من عشاق اليم وسادة الشراع بل هم اليوم الملاحون السائدون في الخليج وفي البحر الاحمر ، هذا اذا استثنينا السفن البخارية . اجل ، ان العرب اليوم مثل الفينيقيين قديماً قابضون على زمام الملاحة ، رافعون فوق ساري الجد علم الشجاعة والاقدام . الا انهم اكتشفوا من مصادر الرزق والثروة غير نقل الابضعة والمتاجرة في الامصار البعيدة . فقد اعتاضوا عن التنك والزجاج بالخفيف النفيس ، باثمن ما يستخرج من اعماق البحار .

لا اعرف من تاريخ اللؤلؤ غير شيء من حياته الطبيعية . اما اكتشافه

واول من تاجر به من الرجال ، واول من خدع به امرأة ، واول من تحلى به من النساء. فتلك امور اجهلها . وقد يكون فاتني ما قاله المؤرخون في اول من فتح صدفة واستخرج الدرة منها ، وما قاله الاثريون والروائيون في اول من صاغها واستغوى الغواني بها . قد جاء في التاريخ القديم ذكر ذهب اوفير ولم يُذكر على حد علمي لؤلؤ خليج العجم الذي هو مهد الحضارة والشراع ومهد تلك الصدفة التي يكمن فيها المال والجمال .

ان اللؤلؤ مصدر الثروة الاكبر في البحرين واشهر ما اشتهرت به الجزيرة فقد قدر ما يخرج منها سنوياً بثلاثين مليون روبية اي مليونين ليرة انكليزية[1] وقد اجمع الاخصائيون ان مغاص البحرين هو اكبر مغاص في العالم مثلما اجمع الصاغة ان لؤلؤ البحرين يفوق صفاء وحسناً سائر اللآلي . لا بأس اذن ونحن في الموضوع من الالمام بسيرة هذه المخلوقة العزيزة الغالية . وان ما اورده الآن هو من كتب العلم والخبراء لا من دواوين الشعر والشعراء .

اللؤلؤة بنت المحار ، بيتها الصدفة ، وبيت الصدفة البحر على الدوام لولا يد الانسان . اما المحار فعرب البحر الاحمر يقسمونه الى قسمين ، الصدف وهو الكبير الذي يندر اللؤلؤ فيه والبَلبيل اي صغير الصدف منبت اللآلي . فاذا ما استخرجوا الدرة من البلبيل يرمون بصدفتها ولكنهم يحتفظون بالصدف الكبير فيتجرون به . وقد قيل لي ان قيمة ما يصدَّر من الصدف

---

(١) وقدّر ما يخرج من الكويت بقيمة ثمانية ملايين روبية ، ومن القطيف باربعة ملايين ، ومن جبيل بستمئة الف روبية ، ومن عمان بخمسة عشر مليون، ومن لنجه وقيس بمليون ونصف فيكون المجموع من الخليج سبعين مليون روبية منها مليون ونصف من جزيرتي لنجه وقيس وهما قرب الساحل العجمي الجنوبي . قد يكون في هذه الارقام بعض المبالغة ولكنها لا تقل عن ثلاثة ارباع القيمة المذكورة . وقد اخبرني العارفون بان مغاص اللؤلؤ يمتد من دُبي في عمان الى راس المشعاب جنوبي الكويت وكله في الجانب الغربي اي العربي من الخليج .

واللؤلؤ من البحر الاحمر لا تتجاوز المليون روبية لان مغاص اللؤلؤ فيه قليلة صغيرة .

اما قصة الصدفة فها كها بالايجاز . هي في يوم الولادة تلقي بيضها الاصفر على وجه الارض في قعر البحر ، وهو مثل حب الخشخاش يتجمع حفنا فيتلون منه القعر . ثم تنشأ البيضة فتغدو كحبة العدس ، فينبت لها عروق خضراء براقة مائلة الى الازرقاق ، فتنمو العروق حتى تصير كالانامل طولاً وهي دقيقة كالشعر ، شديدة كحبل من مسد . وعندما تنمو عروق الصدفة ترسب فتثبت في مكان صلب من القعر . ومنها ما تطفو فتتحرك بحركة البحر وتتفرق بعضها عن بعض ، بل تظل تتدحرج حتى تلقى صخراً او شجرة او مكاناً صلباً من القعر تدق اوتادها فيه ، تمكن عروقها منه . وهي لا تأخذ بالنمو الا بعد ان تنتهي من الدوران ، وتثبت في مكان فتفتح اذ ذاك فمها اي صدفتها للغذاء وجله من الطين . اما ما قيل بان المحار يصعد الى سطح البحر وقت الشتاء ليشرب الماء القراح فالخطأ فيه لا يحتاج الى برهان ، وقد اتضح مما تقدم انه يعيش ملتصقاً بالصخور او بالارض الصلبة .

كأني بالقارىء يقول : وعدتنا بترجمة اللؤلؤة فجئتنا بقصة المحار . على اني قلت ان اللؤلؤة بنت المحار ، وفي القول من الشعر اكثر ما فيه من العلم ، اما الحقيقة العارية الباردة المؤلمة فهي ان اللؤلؤة بنت مرض يصيب المحار ، او بالحري نتيجة خلل يعتري نظام الافراز فيه والذي يظنه علماء الحيوان هو ان حبة رمل او بيضة او حشرة تدخل مع الغذاء فتتهيج منها اغشية المحار ، فينتج عن ذلك افراز غير طبيعي يتكون منه كتلة كلسية لماعة هي اللؤلؤة[1] .

---

(١) اما رأي علماء العرب فصاحب كتاب عجائب المخلوقات اجدرهم بالذكر . قال القزويني في الجزء الاول من كتابه صفحتي ١٩٩ و ٢٠٠ على هامش كتاب حياة الحيوان للدميري : ان الرياح وقت الربيع تحمل الى بحر فارس رشاشات من بحر اوقاس وفيه ماء شبيه بالزئبق لزج مثل الغراء فيتولد منه الدر بأن تقع تلك الرشاشات

فاذا جاءت الكتلة هذه متوسطة في اللحم كانت نفيسة ، واذا لامست او قاربت الصدف كانت رديئة .

وفي سبيل هذه الكتلة الكلسية يفادي الكثيرون من رجال الغوص بصحتهم وبارواحهم . فاكثرهم يرعفون حينما يُرفعون الى وجه البحر، ومنهم من يصابون بداء الرئة . ذلك لان الغوص يلزمه مع الجرأة والخفة نفس طويل . والنفس اذا طال تعبت به الرئتان ، واذا طال تحت الماء جاء فوق الامساك ضغط تتفجر منه في بعض الناس الشرايين .

اما موسم الغوص فهو « من اول برج الثور الى اوائل برج الميزان »[1] كما يقول الشيخ النبهاني[2] الذي يعود الى الافلاك مثل كل اعرابي ليحدد الازمنة . وقد اخبرنا في كتابه انه « اورد صفة الغوص » وان كانت معلومة لانه اطلع على رحلة ابن بطوطه فرآه يصف مغاص الجواهر بخلاف ما يشاهد في هذا الزمان .

السفن التي تستخدم اليوم للغوص هي على نوعين السنبوك والجلبوت[3] اما في الماضي فقد كانت على انواع شتى منها البغلة والبقّارة وكلها شراعية . واهل الغوص يعبرون عن مجموع السفن بالخشب ويسمون ابتداء الموسم الرُكبة وانتهاءه القُفّال وهم يدعون اللؤلؤ قماشاً والجواهر دانات .

في محل الصدف فيلقمه الصدف كما يلقم الرحم المنى . فربما وقعت فيه قطرة كبيرة فتنعقد درًا كبيرًا ، وربما تقع رشاشات تنعقد منها اجزاء صغار كما ترى في اكثر الاصداف . هذا رأي القزويني وليس فيه شيء من العلم .

(١) برج الثور وبرج الميزان يشتملان في دورتيهما على الاشهر التي تعرف عندنا باشهر الربيع والصيف ، اي من ايار الى ايلول .

(٢) قد قرأت في وصف الغوص ما كتبه الشيخ خليفة بن محمد النبهان وهو ينطبق على ما سمعته من الثقات فلخصت بعضه لا في الموضوع حقه .

(٣) راجع الشرح في صفحة ٣٣ من هذا الجزء .

في البحرين يباشر صغار الغاصة العمل قبل ابتداء الموسم فيجيئون في فصل الشتاء الى ساحل البحر ويغوصون في عمق ذراع او يزيد يلتقطون ما يجدونه من الصدف . وهؤلاء يُسمَون « المجنّى » . فاذا ابحروا وغابوا يومين او ثلاثة يسمون « العزاب » لعزوبهم اي بعدهم عن المدينة . وهناك صنف اخر هم « الخانجية » اي الذين يتجهزون لغيبة اسبوعين في الغوص او ثلاثة اسابيع . ثم يتأهب اهل البحرين للغوص العام اذا مضى النصف الاول من برج الثور ، ويقفلون راجعين اذا دخل برج الميزان ، فيبيعون ما يغنمون من البحر ويتقاسمون .

لكل من يشتغل في الغوص اسم يعرف به . فيدعى كبير السفينة « ناخوذاه » والذي يغوص « الغيص » والذي يجر حبال الغَيص « السيب » والمساعد لهم « الرّظيف » ثم الخادم التلميذ هو « التبّاب » . هؤلاء والبحرية يخرجون في جلبوت مزود بالزاد والماء الى مكان من امكنة الغوص المعروفة التي يبعد ابعدها ثلاثين ميلاً عن البر ، ويتراوح العمق الذي يغوصون فيه بين ثلاثة ابواع واربعة عشر باعاً . يسيرون الى موارد الخطر والثروة وهم يغنون او يرددون بعض الايات انغاماً ساحرة . يسيرون في ظل الشراع مطمئنين ، واذا اشتدت الريح فيجاهدونها في سبيل الدر والحياة . — توكلنا على الله . . . صلّ على النبي . . .

ها هم في مكان الغوص ، وقد طوي الشراع ورسا الجلبوت . هات الحبال يا سيب . هات الحديد[1] يا رظيف . هات الدّيين[2] يا تباب . وهوذا الغيص وقد وضع الفطام[3] في انفه ، والحديد في رجله ، والدّيين في عنقه ، ثم يمسك

(١) وقد يكون حجراً او رصاصاً يتراوح وزنه بين الاثني عشر والخمسة عشر رطلاً يحمله الغيص في احدى رجليه ليسرع به الى قعر البحر .

(٢) الدّيين زنبيل من حبال الليف مشبكاً مثل الغربال الا انه واسع الخروق .

(٣) الفِطام مثل الملقاط مصنوع من قرن الوعل او من عظم السلحفاة يحمله الغيص في انفه ليمنع النفس .

نفسه وقد حجب وجهه بكفيه ويطيح . توكلنا على الله ! صوت موجة تتقلقل فتتكون حلقات ، فتكبر ، فتتفكك ، فتتلاشى . راح تحتها الغيص يبغي الجواهر في المحار .

وهو حالما يصل الى القعر يفتح عينيه وينزع من رجله الحديد او الحجر فيرفعه السيب بالزَّيبَل[1] الى السفينة . ومنهم من يلبس قفازاً من جلد ثم يشرع يمشي على يديه ، ورجلاه مرفوعتان والجدا[2] بين ابهاميها ، وهو يلتقط الصدف ويضعها في الزنبيل . فاذا ضاق ذرعه او امتلأ زنبيله جذب الجدا اي حبل الزنبيل فيصيح السيب : نَبَر[3] بين هو يسحب الحبل والغيص متمسك به . فاذا صار على وجه الماء نزع الفطام من انفه وتنفس ، ويأخذ السيب الزنبيل فيفرغه في وسط السفينة ويدفعه اليه فيعود الى الغوص . وهكذا الى ان ينتهي النهار . وهم يسمون المرة الواحدة من النزول والصعود « تبّه » وهي لا تقل عن الدقيقة ولا تزيد على الثلاث دقائق اي مقدار ما يستطيع ان يستمر الغيص تحت المياه . بعد انتهاء الغوص كل يوم عند الغروب او قبله يفلقون الصدف ويخرجون ما يجدونه من اللؤلؤ فيها . اما اذا فرغ زادهم او ماؤهم فيأتون الى البر ليتزودوا ويعودون الى العمل حتى انتهاء فصل الصيف .

الناخوذاه هو مدير العمل فيجمع اللؤلؤ كله ويتولى بيعه ، فيأخذ من مجموع قيمته الخمس ويقسم الاربعة اخماس بين رجاله بعد ان يحسم من قسمة كل واحد قيمة زاده ، فيعطي الغيص نصف قيمة الاربعة اخماس ، والرظيف ثلثا الباقي ، والسيب الثلث الآخر . اما التبّاب فليس له غير اكله وفائدة التمرين على الغوص . هؤلاء هم الغاصة اي الذين يستخرجون اللؤلؤ بانفسهم

(١) الزَّيبل حبل مربوط به الحجر ومتصل بالسفينة .

(٢) الجدا حبل آخر مربوط به الزنبيل . والاثنان يتولاهما السيب .

(٣) « نَبَر » كلمة يرددونها عندما يجذب الغيص الحبل برجله اي يطلب من رفاقه بهذه الاشارة ان يرجعوه الى وجه الماء .

وعلى حسابهم .

اما الذين يغوصون لحساب غيرهم فهم يستأجرون السفن ومنهم من يستدين المال . والذي يكري السفن ويقرض المال يأخذ خمس قيمة اللؤلؤ الذي يجمعونه ، ثم نصف الخمس اجرة السفينة ، ثم نصف خمس اخر فائدة المال . وهم اي الغاصه يتقاسمون الثلاثة اخماس الباقية بحسب القاعدة التي مر ذكرها . اما اولئك الذين يكترون السفن فقط فلا يدفعون غير نصف خمس اللؤلؤ اجرة السفينة . الا ان الغالب في الطريقتين الطريقة الاولى اي التي ينال بها صاحب السفن والمال خمسي قيمة اللؤلؤ المجموع .

وهناك تجار اللؤلؤ واكبرهم في البحرين . فهم يبيعون ما لديهم منه في الجزيرة الى تجار اوروبيين والى البنيان الذين يجيئونها في الموسم لهذه الغاية . او انهم يسافرون به الى بمباي فيبيعونه هناك . ومن هؤلاء التجار من يسمون « بالطواويش » وهم الذين يخرجون الى محل الغوص ويشترون من النواخذة بعض الجواهر ، فيدفعون ثمنها اما نقداً واما تمراً وزاداً . والنواخذة يفضلون الزاد في بعض الاحايين لانه يكفيهم مؤونة الرجوع الى البر للتموين .

اشرت في ما اسلفت الى اخطار الغوص والى صفاء لؤلؤ البحرين وحسنه . فعلي اذن ، قبل ان انتقل من الموضوع ، ان الحق الاشارة بكلمة ايضاح وجيزة . قلت ان من الغواصين من يصابون بداء الرئتين واكثرهم حينما يخرجون من الغوص يرعفون . وقلما يهمهم ذلك . فهم لا يخافون الا من الدول عدوهم الاكبر . وما هو الدول ؟ عدت الى الدميري والقزويني فلم اعثر في بحر علومهما على الدول . ولا جاء ذكره عرضاً حتى في الكلام على اعجب المخلوقات . في كل حال اني ، وان ذكرت ما قاله القزويني في الصدف وتكوين الدر ، اميل الى سواه من الثقات وخصوصاً اذا كانوا من هذا الزمان . لذلك افسح للشيخ خليفة بن محمد النبهاني الذي خبر الغوص بنفسه ورأى بام عينه الدول . قال وقاه الله شره :

الدول حيوان هلامي لا يهتدي في سيره لجهة ، وانما تقذفه الامواج على وجه البحر . وهو بقدر الكف فاصغر ، مدور له خيوط طوال نحو ذراع فاطول ، كانه حرير مشتبك . فاذا لامس هذا الحيوان جسم ابن آدم احرقه حرقاً مبرحاً . وربما اعاب الموضع الذي لامسه . ولو رفع هذا الحيوان من الماء واصابته حرارة الشمس مقدار خمس دقائق لذاب وتحلل ماء ولم يبق له اثر ...

اهل الغوص يلبسون ثياباً ضيقة ملامسة للجسم اتقاء شره . ويوجد كذلك نوع اخر يسمى اللوَيتي ، وهو مثل الدول هلامي ، ولكنه احمر اللون وضرره اخف من ذاك فاذا لامس الجسم احرقه بدون تهييج فيحم اللحم فيبقى اثره والمه نحو ساعتين . اما اذا سخن الجسم الملدوع على النار فالالم يزول منه .[1]

بقي ان اذكر السبب في تفوق لؤلؤ البحرين وهو من عجائب الطبيعة في هذه الجزيرة . قد اجمع العارفون بان الماء الحلو يحسن اللؤلؤ ، فاستُنتج من ذلك ان المطر هو سبب ذاك الحسن ، وان الصدف يصعد الى وجه البحر ليشرب من ماء السماء . غير ان الحقيقة العلمية في التصاق المحار بالصخور قبل نموه تفسد هذا القول . ولو صح ان المطر هو سبب الحسن لكان لؤلؤ جزيرة سيلان ، لكثرة الامطار فيها ، احسن ما في العالم . وقد فاتت هذه الحقيقة القزويني الذي نقل من البحرانيين كلمة نصفها صحيح ونصفها خطأ[2] . قال :

(١) تاريخ البحرين صفحة ٣٦

(٢) لصاحب كتاب عجائب المخلوقات اراء اخرى مضحكة في الموضوع منها : « ان الصدفة اذا ابتغت المطر خرجت من قعر الماء الى ظاهره عند هبوب الشمال وطلوع الشمس وغروبها . ولا تخرج في وسط النهار لان شدة حرارة الشمس ووهجها يفسد الدر (كأن الصدفة مدركة عملها وطالبة الكمال فيه) فاذا خرجت فتحت فاها ليقع الشمال على الدر فينعقد من اثر الشمال وحرارة الشمس ويتكون في الصدف

ان صدف الدر لا يوجد الا في بحر تصب فيه الانهار العذبة . والحقيقة هي خلاف ذلك . فلو قال ان احسن صدف الدر الخ لجاء بالصواب .

الماء الحلو اذن يحسن الدر ولكنه اذا صب في البحر فقد صفاته . اما الانهار فليس منها في البحرين ، وانما هناك ينابيع من المياه العذبة هي من عجائب الطبيعة . ينابيع في وسط البحر تحت المياه المالحة . ومنها ما هي قريبة من السواحل .

في البحرين نحو خمسة وعشرين نبعاً مشهوراً يبعد بعضها عشرين ميلاً عن البر ويعلوها البحر من الثلاثة الى السبعة ابواع . مياه عذبة تحت المياه المالحة تفور من الارض على الدوام . وتلك التي تقرب من الساحل تظهر ساعة الجزر للعيان فيستقي اهل المحلة منها . على ان البحارنة يغوصون للبعيدة العميقة كانها اللؤلؤ فيملأون منها القرب بان يجعلوا القربة او الاناء فوق الفوارة الى ان يمتلئ . ومن هذه الينابيع التي يشرب منها اكثر اهل البحرين القريبين من السواحل تشرب كذلك المحار ، فتتحسن فيه تلك الكتلة الكلسية البراقة . هي السبب ولا مراء في جمال لؤلؤ الجزيرة ذاك الجمال الممتاز .

واغرب من كل ذلك ان تلك المياه العذبة تصل الى سواحل القطيف والاحساء وتجيء البحرين من مرتفعات نجد ، من وراء الدهناء . فقد تتبع

كما يتكون الجنين في الرحم . واذا تم الدر في الصدف ينتقل الصدف الى موضع صلب ويثبت عروقه فيه . انتهى كلام القزويني .

اما الحقيقة فعكس ذلك كما تقدم . ولا يستغرب هذا الخطأ في كتاب جله عجائب واوهام . هاك انموذجاً آخر منه . قال القزويني : بارض اليمن نهر عند طلوع الشمس يجري من المشرق الى المغرب وعند خروجها يجري من المغرب الى المشرق

وليس هذا باعجب من جبل هرمز بطبرستان (الجزء الاول : صفحة ٢٧٩) الذي ينزل منه الماء وينصب الى وهدة فاذا صاح الانسان صيحة يقف ! واذا صاح اخرى يسيل !

علماء الجغرافية الذين ساحوا في البلاد مجاري مياهها ومصب انهرها الغائرة . من المعلوم مثلاً ان الرياض تعلو عن البحر الف وثمانمئة قدم وان جبال العارض هي فوق الرياض وهي كلسية تمتص جل ما يتبخر من المياه فتجري تحت الارض وتصب في وادي حنيفة . بل ان مياه العارض ووادي حنيفة تجتاز الدهناء والنفود فتصل الى الخليج .

قال المستر هوغارس[1] : لا شك ان قسماً من هذه المياه (اي مياه العارض واليامة) عملاً بتحدر الارض ترشح تحت ما يعترضها من ظهور الجبال فتجري خلال الطبقات الحصوية وتظهر على الساحل فتسقي واحات الاحساء والقطيف ، وتتكون منها الينابيع العذبة في مياه البحرين .

---

(١) D. G. Hogarth, Penetration of Arabia. P. 342
في كتابه « التوغل في البلاد العربية » صفحة ٣٤٢

الفصل الثالث

البحرين

البحرين في قديم الزمان – بلاد عربية لم يبق منها غير الاسم – جزيرة صغيرة كبيرة – جوهرة في جيب الخليج – مركز للتجارة والحرب – سكان البحرين وسكان نجد – اربعمئة وخمسون نفس في كل ميل مربع – مدن البحرين – المنامة ميناء الجزيرة – الرفاع مدينة الامراء – الصخير حمى الصحة والسكينة – جبل الدخان ولا دخان فيه – البديع عش الدواسر – جو وكان فيها قصور شامخة الى الجو – المحرق عاصمة البحرين – الحد وفيها السادة العلويون – غزارة المياه والابار – طريقة عبد الملك بن مروان في الاستيلاء والاستعمار – علي وعليهم يا رب – دواليب الهواء – اليابان تحذو حذو المحار .

ان البلاد الواقعة على الساحل العربي الشرقي كله ، من البصرة الى عمان ، كانت تدعى في قديم الزمان البحرين ، وقد اطلق العرب الاسم عليها لانها على ما اظن على شاطئ البحرين ، بحر عمان وبحر فارس ، وجعلوا عاصمتها هجر . ثم خص هذا الاسم بقسم منها بين القطر والقطيف وهو الاحساء . لان الطامعين بالسيادة من امراء العرب تنازعوها فتقاسموها ، فاستمرت تتجزأ وتصغر حتى كاد الاسم يمسي بلا مسمى . ولكن الذين نزحوا الى اقرب الجزر الكبيرة من الساحل الشرقي ، او بالحري هربوا من الجور طالبين الاستقلال والاطمئنان ، احتفظوا بالاسم فاطلقوه عليها .

كانت قبلئذ تدعى أوال ، ذكرها ياقوت في معجم البلدان قال : انها جزيرة يحيط بها البحر في ناحية البحرين . وأوال صنم لبكر بن وائل واخيه تغلب ، فسميت الجزيرة باسمه لان بني وائل مع عبد قيس كانوا يسكنونها في ذلك الزمان . ساجيء في ملخص تاريخها في الفصل التالي على ذكر من استولى عليها بعدهم من الامم والشعوب .

اما الان فموضوعي الجزيرة نفسها الحاملة اسم تلك المقاطعة التي تكبرها

مئة ضعف . هي جزيرة صغيرة ومع ذلك كبيرة . صغيرة في مساحتها التي لا تتجاوز الاربعمئة وخمسين ميلاً مربعاً ، كبيرة في غرائب تاريخها الطبيعي والسياسي . وهي على صغرها عامرة بمئتي الف من العرب والاعاجم من الشرق والغرب . بيد انها لا تزال عربية الاصل والحكم ، وعربية اللغة والروح ، لان اكثر سكانها من العرب الاصليين ، عرب نجد ، وفيهم من المذاهب الاسلامية المالكي والشافعي والحنبلي والحنفي والجعفري . اما الجعفريون فهم مثل الهنود يُعدون من الاجانب لانهم ايرانيون او ايرانيو التبعة .

ليس بين مسقط والبصرة اجمل من مركز هذه الجزيرة . وليس اصلح منه للتجارة او للحرب . فهي تتوسط الخليج في زاوية حصينة منه ، كأنها بارجة راسية في جون متسع بين قطر والقطيف . او كأنها باخرة دنت من الساحل الذهبي المحيط بها ترفع علم السلم والتجارة . بل كأنها ، وهي عند مهد اللؤلؤ ، جوهرة كبيرة في جيب الخليج . فلا عجب اذا تسابق اليها الفاتحون في قديم الزمان ، وتنازعها من الامم ذاوت الصولة والعرفان وهي لا تزال محط رحال التجار يجيئونها من الهند وفارس ، ومحط رحال الطامعين بالسيادة المطلقة على خليج العجم .

ان البحرين لمثل مدينة كبيرة في ازدحام سكانها . ولولا موارد الثروة من اللؤلؤ فيها ، ولو لم يكن مجال التجارة فيها متسعاً ، لانتزح عنها نصف سكانها . اذ قلما تجد في العالم خارج المدن بقعة من الارض معدل سكانها في كل ميل مربع اربعمئة وخمسون نفساً . قابل بين البحرين ونجد مثلاً فتدهشك المقابلة . في مملكة ابن سعود اليوم مليونان ونصف مليون من العرب على الاكثر يعيشون في ارض مساحتها اربعمئة الف ميل مربع في الاقل . فيكون معدل سكان الميل الواحد المربع ستة انفس لا غير . ولكن نصف هؤلاء من البدو ، اي الرعاة واصحاب المواشي ، ونصف ارضهم من

الرمال والمفاوز التي لا ماء فيها ولا كلأ . فالميل المربع قليل اذن على اعرابي واحد مع عياله وانعامه ، كما ان الميل المربع في البحرين ، على كثرة مياهها وخصب تربتها ، قليل جداً على اربعمئة وخمسين من عباد الله – لولا اللؤلؤ كما قلت ولولا اسواق نجد والحسا .

جاء في التاريخ ان هذه الجزيرة كانت عامرة بالسكان في قديم الزمان . فقد كان فيها من المدن ثلاثون مدينة ومعها ثلاثمئة من القرى . ولكنها ، وهي دائماً مطمح الفاتحين والمستعمرين ، ابتليت بما يتقدمهم ويوافقهم ويتبعهم من الفتن والحروب ، فتداعى قسم من عمرانها واضمحل ، ولم يبق فيها اليوم سوى ثماني مدن وبعض القرى التابعة لها . اما سكانها الذين لا يغوصون ولا يركبون لرزقهم البحار ، فهم يزرعون الارض . والذين لا يزرعون يتاجرون .

اكبر مدن البحرين المنامة[1] وهي على الطرف الشمالي الشرقي من الجزيرة . عدد سكانها اربعون الفاً من العرب والايرانيين والهنود والاوروبيين ، وفيهم المسلم والمسيحي واليهودي والفارسي[2] والهندوس . هي الميناء العام للبحرين ومركز احد فرعي حكومتها المزدوجة ، الفرع الانكليزي ، ومحور التجارة ، فيها بيت البريد والبرق ، والمحجر الصحي ، ومرفأ ومخازن كبيرة للجمرك امر ببنائها الشيخ عيسى آل خليفة . وفيها ايضاً « قلعة الديوان » التي بناها احد ملوك العجم ، وكثير من البيوت الفخمة الهندسة والبناء . الا ان ارضها سبخة يفسد منها الهواء فتكثر فيها الحميات . وعلى مسافة نصف ساعة من المنامة غرباً بجنوب اثر تاريخي قائم في ساحة تدعى سوق الخميس لان هناك تقام كل اسبوع سوق للبيع والشراء . ذاك الاثر التاريخي هو من عهد عمر بن عبدالعزيز الاموي ، وهو بقية مسجد قديم ومنارتين متقابلتين طول الواحدة

---

(١) كانت تسمى المنعمه فحرفها الاعاجم الذين استولوا عليها . ومن قائل انه كان فيها قصر لمنام احد ملوكها السابقين فسميت به .

(٢) أي المجوسي من اتباع ازدرشت . وهو يعرف اليوم بالفارسي . Parsi

نحو خمسين ذراعاً . وهناك بالقرب منه عين تسمى ابا زيدان وفي جوارها ما هو اهم من الاثار القديمة اي اثر ينابيع من زيت البترول .

اذا سرنا شرقاً بجنوب من هذا المكان واجتزنا المراقيب ، حيث مدافن البحرين القديمة التي مر ذكرها ، نصل بعد ساعة الى الرفاع ، مدينة الامراء السابقين من آل خليفة ، وفيها بقية قلعة قديمة تبدو في اساس القلعة الجديدة التي شيدها الشيخ سليمان بن احمد . وحول الرفاع رياض مشهورة اهمها الصُخَير تكثر فيها العيون والآبار والنخيل . اما الصُخَير فهي على ربوة الى جانب الرفاع الغربي اسسها الشيخ حمد الحاكم الحالي ، وهي لطيفة الهواء ، عذبة الماء ، فسيحة الفناء . - الصخير هي حمى الشيخ حمد ، وحمى الصحة والسكينة .

من الصخير نشرف على جبل الدخان ، ولا دخان فيه اليوم لا لبركان ولا لانسان . هو جبل مستطيل ، فيه غار كبير ، داخله بيت بقباب منحوتة كأنه من بناء الانسان ، وفي رأس الجبل برج قديم متهدم . واذا استمر السائح شرقاً من الرفاع يصل الى سُترة او كما يقول البحارنة « حالة سترة » هم يسمون « حالة » كل قرية تحيط بها الماء فتجعلها شبه جزيرة . وهي مقيظ الشيخ خالد اخي الشيخ عيسى ، وفيها وفي القرى التابعة لها عيون كثيرة ونخيل وبساتين .

هذه من المدن والقرى في الجهة الشرقية . اما في الغربية فالبديِّع قبالة الرفاع وعلى ساعتين من المنامة هي مسكن الدواسر وغيرهم من العرب الاشاوس . ومن قراها قرية جَو نزلها في قديم الزمان احد مشايخ العرب المشهورين بالهمة والاقدام يدعى الشيخ احمد رزق فعمرها وبنى فيها المساجد والبرك الكبيرة لحفظ المياه ، فقال احد المؤرخين فيه : سكن الشيخ رزق بلدة الجو ، وبنى قصوراً شاهقة الى الجو . ثم ظعن ونزل الزُبارة في رأس بر قطر . وكان في نيته ان يفصل هذه البلدة عن قطر بخليج يحفره بينها وبين

البر طوله ثلاثون ميلاً . ولكن قومه ، وهم من اهل البادية ، لم يرضوا بذلك لاحتياجهم الى الفالي في بر قطر يجعلونها مرعى لانعامهم .

اما عاصمة البحرين الرسمية العربية اي المدينة التي يسكنها الشيوخ فهي المحرّق الكائنة في جزيرة صغيرة شرقي المنامة على مسافة نصف ساعة منها في الجلبوت . وهي تفضل المنامة بطيب هوائها لبعدها كما يزعم العرب هناك عن النخيل . فهم يظنون ان الاوبئة تكمن في ظلاله . والاصح انها تكمن في المستنقعات التي يسببها نقص او اهمال في ري النخيل . المحرق مركز النهضة الادبية اليوم وفيها المدارس والنادي الادبي والشبان الغواة بالادب والعلم . وفي جزيرة المحرّق مدينة اخرى اسمها الحَدّ يسكنها السادة العلويون وبعض آل ابن علي المشهورين في تاريخ البحرين . ويتبع كل من هاتين المدينتين خمس قرى يشرب اهلها من ينابيع البحر العذبة .

ان الماء القراح غزير في البحرين لو انهم يحفرون له الابار والقنى فيجمعونه في عيون يستقي منها اهل المدن والذين يسكنون داخل الجزيرة . اما اليوم فالينابيع كلها هي قرب البحر لذلك يقصدها سكان المدن في الصيف فيقيمون حولها بيوتاً من جريد النخل موقتة يتفننون في بنائها لتقيهم حر الشمس ولا تمنع عنهم الهواء . وقد قيل ان مياه هذه الجزيرة معما ردم من ابارها تزيد على ما يلزم ارضها وتحتاج اليه سكانها .

نعم ، قد ردم في الماضي كثير من ابارها . والقصة كما يرويها العارفون من اهل البحرين وبعض المؤرخين هي ان عبد الملك بن مروان الاموي لما رأى من اهل الجزيرة بطراً في غناهم وتمرداً على خلفاء بني امية ، امر بردم العيون ليقل زرعهم واموالهم فيفتقروا ويخضعوا للامراء . هو من اغرب ما دونه التاريخ من اساليب الحماقة في الاستيلاء — والاستعمار . وان من يقارن بينه وبين سياسة الامويين في الاندلس ، وما اوجدوه واتقنوه من اسباب

الزراعة هناك ، يستغرب جداً هذا الامر ويكاد ينكره . على اني شاهدت في رحلتي ما يثبت ان العرب في احقادهم وثاراتهم وحروبهم ينكلون مثل هذا التنكيل باعدائهم وبأنفسهم . قد رأيت عيوناً في نجد كانت سبب الشقاق بين القبائل ، فلما استولت عليها القبيلة القاهرة دمرتها وردمتها لكي لا يشرب منها العدو اذا خرجت بعدئذ من حوزتها . عليّ وعليهم يا رب . فلا تُستغرب اذن فعلة الاموي عبد الملك مروان الذي امر بردم عيون البحرين ليفتقر اهلها فيطيعوا امراءهم .

ومع ذلك فالجزيرة لا تزال غزيرة المياه كثيرة النخيل والبساتين . فيها من انواع التمر مئة نوع ويزيد حتى انه كان يضرب بها المثل فيقولون : كناقل التمر الى أوال .. وقد شاهدت في الجزيرة عدداً من دواليب الهواء مجلوبة من الولايات المتحدة ، فتضاعفت مياه البساتين التي يكثر فيها انواع الثمار كالليمون والموز والخوخ والكمثري والعنب والرمان .

كاني باهل البحرين ، وقد ادركوا الضرر الذي سيلحق بتجارة اللؤلؤ من الاختراع الياباني اي توليد اللؤلؤ بالطريقة الصناعية ، بادروا الى اميركا يستنجدونها بما عندها من اسباب الزراعة والري الحديثة . فاذا كانت اليابان تحذو حذو المحار وتباريها فتحط من قدرها ، فالبحارنة يشمرون عن ساعد الجد ليضاعفوا في الجزيرة مواردها الزراعية .

الفصل الرابع

البحرين في التاريخ الاسلامي[1]

مستعمرة فارسية حاكمها وسكانها من العرب – النبي يبعث العلاء الحضرمي ليدعوهم للاسلام – عبد قيس ووائل وتميم يسلمون – الردة – رجوع العلاء – خالد بن الوليد – تأديب اهل البحرين – فتح قطر وبلاد فارس – البحرين في حكم الامويين – في حكم العباسيين – صاحب الزنج – القرامطة – ابو طاهر في الكعبة – الامارة العيونية في البحرين – جنكيزخان وتيمورلنك – فسكو دي غاما والفونسو البوكركه – البرتغاليون في البحرين – الاتراك يخرجون البرتغاليين من البلاد العربية – الانكليز يساعدون الاتراك – الفرس في البحرين – مستعمرة فارسية – فساد الحكم الفارسي وتلاشيه – آخر عامل من عمال الشاه .

كانت البحرين ، اي البلاد التي على الساحل من البصرة الى عمان ، مستعمرة فارسية قبل الاسلام وفي السنين الاولى من البعثة النبوية . ولكن عمالها كانوا غالباً من امراء العرب ، وكان سكانها من المجوس واليهود والنصارى ومن عرب نجد واكثر هؤلاء من عبد قيس ووائل وتميم . وفي السنة الثامنة للهجرة ارسل النبي محمد احد الصحابة العلاء الحضرمي[2] ليدعوا اهل هذه البلاد للاسلام او للجزية . كان المنذر بن ساوي التميمي يحكمها يومئذٍ من قبل ملك الفرس ، فلم يتردد في التفضيل بين الوثنية ودين التوحيد بل بين حكم قريش وحكم الاعاجم .

جاء العلاء الحضرمي ، وقد كان من رجال الصحابة وصاحب كرامات ، يدعو المنذر واهل البحرين للاسلام ، ولكنه لم يتمكن من هدايتهم كلهم .

---

(١) قد اعتمدت في كتابة هذا الفصل والفصل الذي يليه على تاريخ البحرين تأليف الشيخ خليفة بن محمد النبهان المطبوع في مطبعة الاداب ببغداد سنة ١٣٣٢ ه .

(٢) هو عبدالله بن عماد بن بكر بن ربيعة بن مالك بن اكبر بن عوف بن الخزرج بن إباد الحضرمي .

قبل الدعوة المنذر وعربانه حباً بالجنة ورجاء التخلص من ملوك الفرس، ورفضها الآخرون . فتركهم العلاء في ضلالهم يعمهون بشرط ان يقاسموه غلاتهم من الحب والتمر . فقبلوا بذلك . وعاد الصحابي الحضرمي الى مكه يحمل الى النبي بشرى النصر المبين وكثيراً من الغنائم والاموال .

بيد ان اهل البحرين بعد موت النبي ارتدوا قائلين : لو كان نبياً لما مات . فجاءهم العلاء ثانية ومعه جيش من المسلمين، فاذب اهل الردة وقتل كثيرين منهم ، ولكنه لم ينتصر كل النصر . فكتب الى ابي بكر يستمده ، فكتب ابو بكر الى خالد بن الوليد ، وهو يومئذ في اليامة ، ليتوجه الى البحرين ينجد فيها العلاء . جاء خالد فزعاً ، كما يقول العرب حتى اليوم ، وكان قد فرّ كثيرون من اهل الردة الى الجزيرة وتحصنوا فيها فامر العلاء رجاله بالزحف عليها .

كان هذا الصحابي كما قلت صاحب كرامات مُجاب الدعوة وهاك منها اثنتين . بينما كان رجاله يجتازون مفازة لا ماء فيها خلصهم من الموت عطشاً بان صلى ركعتين ثم قال : يا حليم يا عليم يا علي يا عظيم اسقنا . فجاءت سحابة كانها جناح طائر فقعقعت عليهم وامطرت حتى ملأوا الآنية وسقوا الركائب . ثم جاؤوا الساحل فوصلوا الى الخليج فلم يجدوا سفناً فيه ، وكان المرتدون قد احرقوها ، فصلى العلاء ركعتين ثم قال : يا حليم يا عليم يا على يا عظيم أجزنا . واخذ بعنان فرسه وهو يقول : جوزوا باسم الله فمشى ومشى وراءه جيش عدده اربعة الاف ، فلم يبتل لهم قدم ولا خف ولا حافر[1] .

---

(١) في رواية اخرى انهم اجتازوا الى دارين لا الى أوال . وكانت يومئذ دارين جزيرة عامرة يؤمها عرب نجد للمسابلة . قال الشاعر :

يمرون بالدهنا خفافاً عياجم ويرجعن من دارين بُجر الحقائب

ودارين لا تبعد كثيراً عن بر القطيف حتى انه يستطيع الناس ساعة الجزر ان يمشوا من البر اليها . فالرواية الصحيحة اذن وان كانت تنفي كرامة العلاء الحضرمي ، هي انهم اجتازوا الى دارين لا الى اوال .

بعد ان ادّب العلاء اهل البحرين وردهم الى الصراط المستقيم حمل على الزُبارة في قطر وقتل فيها المكعبر عامل كسرى ، ثم عاد الى البحرين فأمر عليها ، اجابة لطلب اهلها . ثم خاض عباب الخليج فوصل الى الشاطىء العجمي ودخل بلاد فارس فاتحاً . وبعد ذلك دعاه الخليفة عمر الى المدينة وولاه على البصرة بدلًا من عتبة بن غزوان ، وولى على البحرين عثمان بن ابي العاص ثم الربيع بن زياد الحارثي . سافر العلاء صاحب الكرامات والفتوحات الى البصرة ، ولكن الله سبحانه وتعالى لم يشأ ان يصل اليها ، فاستدعاه اليه في الطريق وهو قريب منها . فلبى العلاء الدعوة ولا يزال قبره معروفاً هناك .

دالت البحرين للخلفاء الراشدين ثم لبني امية الى زمان عبد الملك بن مروان، ذاك الذي امر بردم عيون الجزيرة ليفقر اهلها فيلينوا للامراء . ولكن عبد الملك لم يكن من المفلحين . فقد سبقه الى استثمار الفقر رجل يدعى ابا فُدَيك الخارجي ، فاستولى على الجزيرة سنة كاملة ، وكانت جنود ابن مروان قادمة اليها فدخلتها منتصرة وقتلت ابا فديك وستة الاف من رجاله الخوارج ، فعادت اذ ذاك السيادة الى بني امية في الشاطئين العربي والعجمي من الخليج .

ولكنها لم تخلص من الاغتصابات . ففي سنة ١٠٥ هـ خرج على العامل الاموي في البحرين مسعود بن ابي زبينة العبدي فتغلب عليه ونصب الاشعث بن عبدالله الجارودي مكانه ، فحكم الجارودي الجزيرة تسع عشرة سنة . ثم عاد الامويون الكرة عليها ، فتم لهم الاستيلاء الذي لم يدم بعد ذلك طويلًا ، لان دولتهم كانت قد بدأت تتخلص وتضمحل ، فصار العباسيون يحلون محلهم في البلدان والامصار ، فاحتل عقبة بن سليم البحرين من قبل ابي جعفر المنصور ، وظل عمال الخلفاء ببغداد يحكمون في الجزيرة والاحساء حتى سنة ٢٤٩هـ عندما استولى عليها رجل يدعى صاحب الزنج [1] احد الانبياء الكاذبين .

(١) هو علي بن محمد بن عبدالرحيم بن عبد قيس .

كان صاحب الزنج شاعراً بل شويعراً في بغداد يحوم مستجدياً على مجلس المنتصر بن المتوكل وحول حاشيته . ثم جاء البحرين وهو يدعي انه من السادة العلويين فدعا القوم لطاعته فتبعه اناس وخالفه آخرون ، فادى الخلاف الى التحزب فالتعصب فالقتال . وكان اصحاب البحرين اول من آمنوا به ، فرفعوه الى مقام النبوءة ، وجمعوا له الخراج ، وقاتلوا من اجله الاعداء . وقد قضى صاحب الزنج فترة في البادية اقتداء بالانبياء يستنزل على نفسه الوحي ، فاوتي في تلك الايام — وهو الشاهد على ذلك — آيات من آيات النبوءة ظاهرة ، فطفق يسب الخلفاء الراشدين ومعهم عائشة والزبير . كأن النبوءة تبدأ بالمسبات !

قال ابن الاثير وابن خلدون ان صاحب الزنج كان يرى رأي الخوارج . وقد دُعي بهذا الاسم لانه في بادىء امره كان يدعو الغلمان من الزنج الذين يسكنون في نواحي البصرة فيعدهم بالعتق في الدنيا وبالجنة في الآخرة . بل كان يستغويهم بشيء من الجنة سلفاً . قيل انه كان يأمر بالقبض على النساء من ولد الحسن والحسين والعباس ويبيعهن في عسكره بيع الاماء والامتعة بدرهمين وثلاثة ، فيشتري الزنجي عدداً من الشريفات ببضعة دراهم .

لا عجب اذن في تلبيتهم دعوته للجهاد ، فطفق يشن الغارات الواحدة تلو الاخرى وله في اكثرها الغلبة والغنائم . وفي سنة ٢٥٥ هـ ادعى صاحب الزنج النبوءة وكتب على رايته الآية : ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة ، وراح وزنوجه يسلبون وينهبون باسم الله . ان الغريب في حكم اولئك العباسيين ان مثل هذا الطاغية يثبت اربع عشرة سنة في طغيانه ، فيحكم في هجر اليوم وفي البصرة غداً وتارة في الاحساء وطوراً في البحرين ، فاراً كاراً ، صائلاً طائلاً ، قبل ان يتمكنوا منه فيقتلوه .

قال احد المؤرخين ، وهم يبالغون في الكلام على حروب صاحب الزنج ،

انه قتل في يوم واحد بالبصرة ثلاثمئة الف شخص . ولم يقتل في اكبر مواقع الحرب العظمى هذا العدد او نصفه من الناس . فتأمل .

كأنه كتب لاهل البحرين مثلما كتب للعباسيين ان لا يدوم السلم والامن طويلاً في ملكهم السعيد . قُتل صاحب الزنج سنة ٢٧٠ هـ فتنفست بغداد الصعداء . ثم ظهر في سنة ٢٧٨ هـ ابو سعيد الارمطي . ويا لهول القرامطة .

جاء ابو سعيد حمدان من خورستان الى العراق فنزل في الكوفة فمرض ذات يوم فساعده رجل يدعى كرميتة لحمرة في عينه (اللفظة نبطية ومعناها حمرة العين) فلما شفي من مرضه سمي باسم ذلك الرجل ، فخُفف الاسم بعدئذ فقيل قرمطة . وكان ابو سعيد قرمطة من الزاهدين المتقشفين ومن تلامذة عبدالله القداح الاهوازي الاسماعيلي الذي اسس في يومه جمعية سرية باطنية من مقاصدها الظاهرة التوفيق بين العرب والعجم والتأليف بين الاديان كلها . اما مقاصدها السرية ، السياسية والدينية ، فقد ظهرت بواسطة القرامطة بافظع مظاهرها .

دعا ابو سعيد وهو في العراق الى امام من اهل البيت قيل انه محمد بن اسمعيل بن جعفر الصادق ، وقيل انه محمد بن الحنفية . كان القرامطة بعدئذ يدعون تارة لهذا وطوراً لذاك ، وفي كلتا الدعوتين فتنة على العباسيين . بل ان نهضة القرامطة ، اصلاً وفعلاً ، هي نهضة ايرانية دينية سياسية ضد الخلافة والعرب . وان ما ارتكبه الخلفاء العباسيون من المظالم وما اعترى ملكهم من الخلل والضعف والفساد ، خصوصاً في عهد المعتمد والمعتضد والمكتفي والمقتدر — القاب مملكة ! — كان ينفر منهم الناس ويساعد كل من قام عليهم من الاعداء .

لذلك اجتمع على ابي سعيد خلق كثير وجلهم من البادية لانه خفف عنهم اثقال العبادة ، فاختصر الصلاة وجعلها فرضين صباحاً ومساء ، واعفاهم

من صوم رمضان . فأحب البدو ابا سعيد واكبروه وعظموه ، وقالوا انه الامام المنتظر بعينه . فنشأ مذهبه ينتشر انتشاراً عجيباً ، فاشفقت دار السلام على اربابها منه ، فجندت عليه الجنود ، فصدها بعربانه وحاربها في اماكن عديدة وهزمها . ثم راح السيف ينشر في البلدان الدنية والقصية ما تأصل في قلوب القرامطة من عقيدة فيها نفي العقائد كلها . فاشتدت حروبهم على الخلفاء . وانتزع زعماؤهم الملك من عمال العباسيين في عمان والحسا والقطيف والبحرين . اما شمالاً فان جيوشهم اجتازت البادية والحماد فوصلت الى بعلبك ، ومنهم من غزى الحجاز واليمن .

وقد نظم الشاعر ابن مقرب العيوني تاريخهم فأشار في قصيدته الى ما كان من امرهم اولاً ودمارهم آخراً بواسطة جدوده . قال :

سل القرامط من شظّى جماجمهم ... فلقاً وغادرهم بعد العُلى خدما
من بعد ان جل بالبحرين شأنهم ... وأرجفوا الشام بالغارات والحرما
ولم تزل خيلهم تغشى سنابكها ... ارض العراق وتغشى تارة أوما[1]
وحرقوا عبد قيس في منازلهم ... وصيروا الغرّ من ساداتها حُمما
وابطلوا الصلوات الخمس وانتهكوا ... شهر الصيام ونصّوا[2] منهم صنما
وما بنوا مسجداً لله نعرفه ... بل كلما ادركوه قائماً هدما

وقال المؤرخ الانكليزي غبن : ان القرامطة هم احد الاسباب الاولى في سقوط الدولة العباسية . قد استمرت فتنتهم ستين سنة وتزيد وبلغ القتال بينهم وبين جيوش الخلفاء اشده في السنوات الوسطى منها اي منذ سنة ٢٨٩ هـ ٩٠٢ م الى ان دخلوا مكة بقيادة زعيمهم ابي طاهر سنة ٣١٧ هـ ٩٣٠ م فكان في ذلك الفتح ختمة المجد وختمة الفظائع والهول .

---

(١) اسم بلدة من بلدان عمان .

(٢) اي نصبوا صنماً .

دخل ابو طاهر سليمان بن حسن القرمطي بجيوشه راكبين خيلهم وأعملوا السيف بالحجاج، فقتلوا في المسجد الحرام وفي مكة وشعابها زهاء ثلاثين الف رجل والوف من النساء . ووقف ابو طاهر عند الكعبة وسيفه بيده وصفر لفرسه فبالت هناك، ثم صعد على باب الكعبة وشرع يقول، بينما كان رجاله يرمون رؤوس الشهداء في بئر زمزم :

أنا لله وبالله أنا يخلق الخلق وافنيهم أنا

بعد ذلك امر بقلع الحجر الاسود من محله فحمله القرامطة الى الحسا، ولكنهم بعد اثنتين وعشرين سنة اعادوه كما قيل الى مكة . اما ان الحجر الذي اعادوه هو ذاك الحجر بعينه فالله اعلم .

دخلت البحرين في حوزة القرامطة في عهد المكتفي بن المعتضد وظلت في حوزتهم الى ان ضعف امرهم وبدأت سيادتهم تتلاشى . فقام لقتالهم عندئذ ثلاثة من العرب هم الامير عبدالله بن علي العيوني في الاحساء، ويحيي بن العياش في القطيف، وابو البهلول محمد بن يوسف الزجاج في البحرين . ثم اقتتل هؤلاء على ما غنموا . وقد كان ابو البهلول ضامناً لخراج الجزيرة فعصى فيها فجهز عليه القرامطة جيشاً من عرب عبد قيس، فبرز لهم بجيش من البحارنة فكسرهم في اول وقعة وطرد عمالهم من الجزيرة . ثم خطب له فيها بالامارة فاستقام امره بضع سنين فظهر عليه اذ ذاك زكريا بن العياش الذي استولى ابوه يحيي على القطيف وكان يطمع بالاستيلاء ايضاً على البحرين .

وما عتم ان استولى ابنه زكريا عليها بعد ان كسر البهلول في وقعت شديدة، فطمع بضم الاحساء ايضاً الى ملكه، فقاد جيوشه من القطيف على الرجل الذي حارب القرامطة سبع سنوات وما انفك يحاربهم حتى انتزع الملك والسيادة منهم . هذا الرجل هو الامير عبدالله بن علي آل ابراهيم العيوني . جاءه العياش يبغي ما بيده في الاحساء، فلاقاه بجيش جرار في

الطريق فكسره في الوقعة الاولى وقتله في الثانية ، ثم استولى على القطيف والبحرين . وفي ذلك قال شاعرهم ابن مقرب :

وصار ملك ابن عياش وملك ابي الـ بهلول مع ملكنا عقداً لنا نظما

تم النصر للامير عبدالله فاسس الامارة العيونية التي استمر حكمها في البحرين نحو مئتين وخمسين سنة . ثم انتزع العجم الحكم ثانية من العرب. وذاك ان احد ملوك فارس الزنجيين[1] الذين استولوا على المملكة بعد انقراض الدولة السلجوقية ، وهو ابو بكر بن سعد الزنجي، حمل على العرب في جزيرة قيس فهزمهم واحتلها ، ثم اجتاز بجنوده البحر الى جزيرة البحرين ، فاخذها، واستولى بعدها على الاحساء والقطيف وغيرها من بلدان الخليج . واستمر حكم الزنجيين حتى بعد ان ظهر جنكيزخان[2] فشابه القرامطة بمدة دولته — ستين سنة — وباهوالها .

وبعد مئة سنة من عهد المغول الاول جادت الليالي، ليالي الدمار والبلاء، بابنها الثاني تيمورلنك[3] فكمل اعمال جده جنكيزخان الفظيعة واستولى على البحرين في ما استولى عليه من البلدان قبل دخوله بغداد . ثم خرجت الجزيرة بعد موته من حكم المغول ودخلت في حوزة شعب جاء من الغرب هذه المرة لا من الشرق ، شعب ينشد ولا شك التجارة ولكنه يسعى في طلبها سعي المعتبر لا المدمر .

فبينا كان المغول في الشرق حاملين على كل مظهر من مظاهر الحضارة والعمران ، يفتحون البلدان ويدمرونها ، ويذبحون العباد ، ويزرعون الويل والاحزان في كل مكان ، بينا كانت هذه الغيمة السوداء الكثيفة مخيمة

(١) لا علاقة لهؤلاء بصاحب الزنج .
(٢) ولد جنكيز خان سنة ١١٦٢ وتوفي سنة ١٢٢٧ م .
(٣) ولد تيمورلنك سنة ١٣٣٦ وتوفي سنة ١٤٠٥ م

على الشرق الادنى ، تحجب عنه النور ، وتفسد كل ما في الحياة من عوامل النشو والنمو ، كان قد راش الفكر البشري في اوروبا فشرع يجول في سماء العلم والبحث والاكتشاف . وكانت الملاحة التي هي يد التجارة اليمنى اول من انتفع بثمار الفكر والعلم ، فراحت ترفع علم الجد والاقدام وراء الاوقيانوس في البلدان الغربية القصية .

جاء زمن ابطال البحار . ومن اولئك الكشافين الربان البرتغالي فسكو دي غاما[1] الذي ابحر حول « رأس الرجاء الصالح » ومخر عباب الاوقيانوس الهندي فوصل الى سواحل تلك البلاد العجيبة ، ضالة الامم الغربية ، وكان اول من اسس لدولته ملكاً في الشرق . وجاء بعده زميله الفونسو البوكركه[2] فرفع علم دولته في مسقط ودخل المضيق ، مضيق هرمز ، فاستولى عليه وحصنه تحصيناً ، وتقدم في الخليج متفقداً الجزر والاساكل فيه وهو يبغي الوصول الى البصرة ، ليفتح طريقاً لمستعمرة بلاده في الهند . ثم استولى البرتقاليون على جزيرة البحرين وعلى القطيف فحصنوهما كما حصنوا هرمز ومسقط . الا انهم لم يستولوا على الاحساء لان العثمانيين كانوا قد سبقوهم اليها ، وبسطوا سيادتهم عليها ، فعدوها يومئذ جزءاً من اليمن الذي كانوا قد احتلوا بعض نواحيه .

كان خليج العجم في قديم الزمان كما هو اليوم مفتاح الطريق للتجارة بين الشرق والغرب . ولا تطمئن دولة غربية في الهند ولا يستقر امرها اذا لم تكن هي القابضة بيدها على هذا المفتاح . اما ان الخليج اسهل واصلح

(١) فسكو دي غاما Vasco de Gama ولد سنة ١٤٥٠ وتوفي سنة ١٥٢٤ م

(٢) الفونسو البوكركه Alfonso d'Albuquerque ولد سنة ١٤٥٣ وتوفي سنة ١٥١٥ اول سفراته الى الهند كانت في سنة ١٥١٣ وهو الذي حاول ان يأخذ عدن سنة ١٥١٣ فلم ينجح ، فتقدم باسطوله الى البحر الاحمر . واحتل فيه جزيرة قمران الغربية من الحديدة .

الطرق لتجارة الهند فغني عن البيان . هو اقل اخطاراً من البحر الهندي ، واقرب خطاً واسهل ، لانه في مأمن من العواصف والرياح . هو حصن اذا شئت وبابه مضيق هرمز حيث تكاد بلاد ايران تتصل ببلاد العرب . فضلاً عما في هذه الطريق من البلدان العامرة ، فمن سواحل الهند الى جزائر الخليج الى البصرة فبغداد فسوريا فمصر فاوروبا — هي طريق الكنوز .

ادرك ذلك اهل البرتقال قبل ان يدركه الانكليز . ولكن ابناء الجزر وان كانوا قد جاءوا الى الهند بعد مئة سنة من مجيء فسكو دي غاما ، فقد تغلبوا على البرتقاليين بعد جهاد طويل مستمر ، تخلله الجم من الحيف والتعسف ، فاخرجوهم كما اخرجوا الفرنسيس بعدهم من تلك البلاد .

اما حكم البرتقاليين في البحرين فلم يدم اكثر من اربعين سنة . يستدل على ذلك من كتابة على صخر في جزيرة صغيرة غربي المنامة تدعى جَبل جداً[1] اخذ للبحارنة حجارة منها لتجديد القلعة التي كان قد شيدها اهل البرتقال . وهذه القلعة التي تدعى قلعة عجاج جُددت بعد ان جلا البرتقاليون عن البحرين .

قال المؤرخ : شكا حاكم دلهي وهي عاصمة الهند الى العثمانيين ظلم البرتقال للمسلمين وطلب منهم المساعدة فجهز لهم السلطان سليمان القانوني اسطولاً وجاء به الى الهند فتحاربوا مع البرتقال حتى اخرجوهم منها . . . ثم جاء الاسطول العثماني الى مسقط والبحرين واخرج من كان فيهما من البرتقال كذلك[2]

---

(١) هذه صورة الكتابة التي على حجارة جبل جدا : نقل من هذه الجزيرة مئة الف حجر لتجديد قلعة البحرين على يد العبد فيروز في زمن وزارة جلال الدين شاه في شعبان سنة ٩٦٩ هـ و١٥٦٨ م تاريخ البحرين للشيخ خليفة بن النبهان

(٢) بعد ان تغلب السلطان سليم على المماليك سنة ١٥١٧ م فكر في احتلال عدن ليجعلها مركزاً الحملة على البرتقاليين في الهند فجاء ابنه سليمان في سنة ١٥٣٨ باسطول كبير يحقق رغبة ابيه فاحتل عدن واقام حامية فيها . ولكن العرب قاموا بعدئذ على الترك فذبحوا الحامية فيها وسلموا البلد الى البرتقاليين ، فجاء الاسطول العثماني

وقد كانت للانكليز في اخراجهم نهائياً من الهند يد قوية عاملة، عاملة في سبيل شركة الهند الشرقية لا في سبيل العثمانيين .

اما جلاء البرتغاليين عن البحرين فالمؤلف يزيدنا علماً بذلك . جاء في صفحة ٦٢ ما يلي : حصل اختلاف شديد بين امراء جزيرة البحرين وكان اكثرهم من الشيعة فرفعوا شكواهم الى الشاه عباس الاول الصفوي وطلبوا منه الحماية لقربه منهم موضعاً[1] ومذهبا .

فاجاب الشاه عباس طلبتهم وخلصهم من السيادة الغربية الاوروبية . ولكنه بسط عليهم حمايته الشاهانية ، فعادت البحرين الى حوزة من حكموها مراراً في سالف الزمان والاوان ، عادت مستعمرة فارسية كما كانت يوم جاءها الصحابي العلاء الحضرمي يدعو اهلها الوثنيين والمجوس للاسلام .

ولكن الحكم الفارسي في البحرين ، وقد تسرب اليه ما كان قد اعترى الملك في بلاد فارس من الخلل والفساد ، تخلله فترات من حكم العرب ، حتى ان اخر عامل عربي من عمالهم وهو الشيخ نصر آل مذكور استنجد حكومة ايران في حملته على آل خليفة في الزبارة فلم تنجده . وكانت الوقعة بينه وبينهم (سنة ١١٩٧ هـ ١٧٨٢ م) السبب في فراره الى ابي شهر وفي دخولهم الى البحرين منتصرين .

ثانية الى عدن فأخرج البرتغاليين منها واعاد الحكم العثماني فيها ، ثم استأنف السير الى الهند ليتم حملته على اهل البرتغال هناك .

(١) كانت اصفهان في تلك الايام عاصمة ملوك فارس .

الفصل الخامس

آل خليفة

من الافلاج الى الكويت الى الزبارة – تجارة اللؤلؤ – آل خليفة في الزبارة – فتح البحرين – ظهور ابن سعود عبدالعزيز الاول – سلطان مسقط – البحرين بين الاثنين – سلطان مسقط يستولي على البحرين – رجوع آل خليفة الى الزبارة ومفاوضتهم لابن سعود – النجدة من نجد – ابن عفيصان ينتصر ويؤمر نفسه – آل خليفة عند ابن سعود – وآل خليفة عند سلطان مسقط – الرجوع الى البحرين واخراج ابن عفيصان منها – العدو في قطر – ابن عفيصان وارحمه حليفان – الحرب بين اسطول الحليفين واسطول البحرين – ارحمه وابن عفيصان ينجوان على لوحة من خشب – ارحمه وسلطان مسقط حليفان – الهجوم على البحرين – ارحمه ينكسر ثانية – ارحمه يعيد الكرة على البحرين – البطل الضرير – « بيدي لا بيد عمرو » – الفتنة في بيت آل خليفة – حزب آل عبدالله وحزب آل سلمان – الشيخ محمد آل سلمان – آل عبدالله يستنجدون ابن سعود – الشيخ محمد ينتصر على اعدائه – اسطول البحرين وتدخل الانكليز – « احرقوا اسطولكم ولحن نحميكم » – النزاع بين الشيخ محمد واخيه علي – الفتنة – المدرعات الانكليزية في البحرين – نفي الاخوين – الشيخ عيسى بن علي .

كانت الزبارة[1] في الماضي من البلدان العربية العامرة ، تجارتها الكبرى اللؤلؤ ، وسكانها من آل ابن علي والجلاهمة ، وهم من عرب العتوب اي بني عِتبة ، وهؤلاء فصيلة من جمَيلة ، وجميلة فخذ من عنزى[2] . وكان آل خليفة ، وهم من اكبر عشائر بني عِتبة ، يسكنون بارض الهدّار من بلدان الافلاج بنجد . فنزح الشيخ خليفة واهله الى الكويت في اواخر القرن الحادي عشر للهجرة واقاموا هناك عدة سنين . وبعد وفاته هجر ابنه الشيخ محمد الكويت وجاء باهله الى الزبارة فنزلوا على ابناء عمهم الجلاهمة وآل ابن علي .

كان الشيخ محمد بن خليفة ورعاً تقياً ، حصيفاً حكيماً . جاء من الكويت

(١) بلدة في قطر على شاطئ البحر قبالة جزيرة البحرين .

(٢) راجع الفصل الثاني من القسم السادس صفحة ١٦٦ من هذا الجزء .

مغلوباً على امره وظاهر قصده شراء اللؤلؤ . جاء يبغي التجارة لا السيادة فكان حظه من الاثنين وافراً . احبه اهل الزبارة لورعه وبره وكرمه واصالة رأيه ، فرغبوا اليه والى قومه ان يقيموا بينهم ثم امروه عليهم .

وعندما توفي الشيخ محمد تاجر اللؤلؤ السياسي الابر خلفه ابنه الشيخ خليفه الذي لم يرث من ابيه غير شيء من البر والتقوى مزجهما بشيء من الشعر . وقد حج سنة ١١٩٧ ه وتوفي في مكة ، فناب عنه ثم خلفه في الحكم اخوه الشيخ احمد . وهو يدعى الفاتح – احمد الفاتح الذي احترب وآخر عامل من عمال الفرس في البحرين اي الشيخ نصر آل مذكور الذي سبق ذكره ، فغلبه واستولى على الجزيرة .

الدول اليوم تختلق الاعذار اذ شائت الاستيلاء ، والشيخ احمد لم يشأ غير ما شاءته التقادير . فلما استقر حكم آل خليفه في الزبارة ، عاد اهلها الى الاتجار ، فكانوا يجيئون الى البحرين لشراء اللؤلؤ الذي كانوا يبيعونه في الهند . وكان البحارنة من اهل الشيعة وهم يومئذ يكرهون اهل السنة ويضمرون لهم العداء . فحدث ذات يوم خلاف بين الفريقين افضى الى قتال قُتل فيه احد خدَم آل خليفه ، فثار له اهل الزبارة ، وحملوا على البحارنة فاستغاث هؤلاء بحاكمهم الشيخ نصر ، فجهز لهم اسطولاً من السفن مجهزة بالجنود وتولى بنفسه القيادة . ولما دنوا من الزبارة خرج عليهم اهلها بالسفن فحاربوهم وكسروهم شر كسرة ، فأقلعوا هاربين الى ابي شهر . اما البحرين فكانت قد خلت من الحامية ، فسار اليها الشيخ احمد بقومه واستولى عليها سنة ١١٩٧ ه ١٧٨٢ م وهي السنة التي توفي فيها اخوه الشاعر الورع في مكة . كانت تجارة اللؤلؤ كذلك من عوامل الفتح الاحمدي كما كانت سابقاً من دواعي الفلاح في امارة ابيه الشيخ محمد على الزبارة .

اقام الشيخ احمد عاملاً من قبله على البحرين ، وعاد الى عاصمته في قطر .

على انه لم يستمتع وقومه بثمار النصر غير بضع سنين . لان ابنه الشيخ سلمان الذي خلفه كان خواراً ضعيف الرأي والارادة . وكان قد نبغ في تلك الايام رجل في نجد فراح يكتسح البلدان والامصار ويستولي على القبائل الدانية والقاصية . هذا الرجل هو الامير عبدالعزيز آل سعود امام الوهابية الذي كان قد وصل بجيوشه الى الاحساء ، فخاف عرب الزبارة ان يستولي عليهم ، فظعنوا يتقدمهم الشيخ سلمان الى البحرين .

هربوا من الوهابية القاهرة ، من خطر البر ، فوقعوا في خطر ادهى واشد جاءهم من البحر يقوده ويدفعه السيد سلطان حاكم مسقط . وكان السيد سلطان ادرك اعوجاجاً في حكم البحرين الجديد فجاء يقوّمه ، باسطوله وسيفه . فبادر اليه الشيخ سلمان موالياً لا معادياً ، لانه لم يرغب باكراه البحارنة على القتال . وكان قد اطلع ، كما يقول المؤرخ ، على بعض مكاتباتهم الى حاكم مسقط يرغبونه في الاستيلاء على بلادهم . هذا من الشيخ سلمان انصاف في الحكم وعدل في الرعية . الارادة للشعب ! ولكن الصلح الذي عقده والسيد سلطان والذي بموجبه قدم احد اخوانه رهينة الى حاكم مسقط الظافر ، لا يُعد في عين عنزى وربيعة من شيم الرجال . وولى السيد سلطان ابنه السيد سعيداً على البحرين وعاد بالرهينة والغنائم الى مسقط .

اما العتوب فعادوا الى الزبارة بذلهم وهم لا يزالون موكلين امرهم الى الشيخ سلمان . ولكنهم نهضوا لاسترجاع البحرين ، بعد ان توفي اخوه الرهينة في مسقط ، وشرعوا يفاوضون امير نجد بذلك . طلبوا منه المساعدة فاجاب طلبهم حباً وكرامة . ولم يدركوا ما كان قد ظهر وشاع من مقاصد الرجل القومية والدينية ، مع انه كان قد استولى يومئذ على الحرمين .

ابشروا يا عتوب ! هذا ابراهيم بن عفيصان احد قواد ابن سعود الاباسل جاء بجيوشه يسترجع ملككم — يسترجعه يا بني عِتبة ليضمه الى ملك اهل

التوحيد وابن سعود . وكذلك كان . دخل جيش الزبارة ونجدة نجد الى البحرين فضربوا السيد سعيداً فهزموه واخرجوه من الجزيرة .

وكان الكلام اذ ذاك لابن عفيصان : البحارنة مشركون ولا يصلح المشركين الا اهل التوحيد . اما آل خليفة فاعفاهم القائد النجدي من الاصلاح ، فاعلاً او مفعولاً ، واذن لهم بالرجوع الى الزبارة . فعادوا ثانية مدحورين مغبونين ، وشرعوا يفكرون برفع امرهم الى حضرة الامام في الدرعية علّه يرسل من قبله من يؤدب ابن عفيصان ، او علّه في الاقل يأذن لهم بالرجوع الى البحرين . وبينما هم يفكرون والشيخ سلمان صدْرهم يفكر اكثر من الجميع ، اذ اقبلت عليهم سرية من سريات الفاتح الكبير فاستولت على الزبارة وامرت آل خليفة بالسفر الى نجد . وكان الامير سعود قد خلف وقتئذ اباه عبدالعزيز .

سافر في سنة ١٢٢٤ ه ثلاثة من آل خليفة ليقابلوا امام الوهابية في الدرعية . فلما وصلوا اليها اكرم الامير سعود وفادتهم ولم يأذن لغير اعيان الزبارة بالرجوع . اما آل خليفة فأنزلهم في القصر ضيوفاً عليه ، واسراء بين يديه . ولا اظن انه خطر في بال احد منهم قول الشاعر :

والمستغيث بعمرو يوم كربته　　كالمستغيث من الرمضاء بالنار

لانه لو خطر ذلك في بال احد منهم لما استبشروا بقدوم ابن عفيصان ولما استمروا يعالجون سياسته حتى اوصلتهم الى الاسد في عرينه .

ولكن هناك غير آل خليفة من العرب يلجأون الى مثل هذه السياسة زعم يظنون ان الرجل بين عدوين يخادع الاثنين ، فيستخدم اذا كان حكيا الواحد منهما على الآخر . وقلما يسير الفكر بهم الى ما دون ذلك من نتائج المساعدة . قد كانت سياسة آل خليفة مطردة في مثل هذه الحال .

اي انهم كانوا يستعينون بحاكم نجد اذا ضايقهم حاكم مسقط ، وبحاكم مسقط اذا كانوا في خطر من حاكم نجد .

فلا يستغرب اذن رجوعهم الى السيد سعيد بن سلطان الرجل الذي اخرجوه من البحرين ، يستنجدونه هذه المرة ليخرجوا ابن عفيصان منها . وكان الشيخ عبد الرحمن بن راشد آل فضل رسول اخواله آل خليفة الى حاكم مسقط . ولكنه ، على عزمه ودهائه ، لم يظفر من السيد سعيد بغير المال عوناً . اخذ الشيخ عبد الرحمن المال وسافر الى بلاد فارس او بالحري الى فرس المقاطعة الجنوبية وفيها مستعمرة عربية من عرب النصور فألف منهم جيشاً – بالمال تقوم الحروب – وارسل الى اخواله يخبرهم بذلك ويطلب منهم ان يتأهبوا للهجوم . فجاء آل خليفة برجالهم من الزبارة واتحدوا مع ابن اختهم عبد الرحمن وجنوده ، فتواقعوا مع جيش ابن عفيصان وكسروه واخرجوه من الجزيرة . اقلع النجدي هارباً الى قطر ونزل هناك على رجل يدعى ارحمة ابن جابر الجلاهمة . ولأرحمة هذا دور كبير مهم في تاريخ البحرين سأروي شيئاً منه .

بعد ان استولى عبد الرحمن آل فضل على البحرين ونقل آل خليفة اليها تبعهم قوم من العرب كثيرون . ولما علم الامام سعود بخروج ابن عفيصان مهزوماً حاول استرجاع الجزيرة من الشيخ عبد الرحمن بواسطة احد اخواله الاسراء في الدرعية . فأرسل الشيخ عبدالله بن احمد منهم يصحبه بعض رجاله ليستطلعوا خبر عبد الرحمن ويروا ما اذا كان استولى على البحرين لنفسه او ليعيد اليها سيادة آل خليفة . هي السذاجة في النوابغ وفي من لا يزالون على الفطرة الاولى .

لا نعلم ما اوصى به الامام سعود رجاله ، ولكن المؤرخ يقول انهم جاءوا الى الشيخ عبدالرحمن بالخشن من الكلام . – كيف يجرأ العيال ان

يستولوا على البحرين وآباؤهم في قبضة الامام ؟ فقال الشيخ عبد الرحمن : دونكم العيال ، فانهم حاضرون فتقدم اذ ذاك الشيخ خليفة بن الشيخ سلمان وقال : نحن اخذنا البحرين لانفسنا ولا حاجة لنا بآبائنا . وقد يئسنا منهم وسمينا باسمائهم[1] .

كفّر الولد الشجاع عن ضعف ابيه فاغضب رجال نجد ، فقالوا يهددون الشيخ عبدالرحمن : لو كان يمكن للخف والحافر ان يطأا البحرين لنثرناها حصاة حصاة . فاجابهم قائلاً : لو كان يمكن لِقُنَيت الجابري[2] ان يطل على الدرعية لجعلنا عاليها اسفلها .

ولكن الاقدار بعثت على الدرعية بغير «قُنيت الجابري» ليهدمها . ففي تلك السنة او بعدها بقليل جاء ابراهيم باشا المصري يحارب اهل نجد فشغل الامام ابن سعود عن الاجزاء الصغيرة مثل قطر والبحرين في ملكه المترامي الاطراف ، فاطلق سراح بني خليفة وتركهم وشأنهم ، فعادوا الى الجزيرة يتولون فيها زمام الاحكام .

لم يصفُ لهم الجو مع ذلك ، لان قطَر قريبة من البحرين ، وفي قطر ارحمة ، وعند ارحمة ابنُ عفيصان ابراهيم . وكان ارحمة بن جابر الجلاهمة عزيزاً في قومه جباراً عنيداً . فلم يدُن لآل خليفة ، بل كان يباريهم في السيادة ويسعى في انتزاع الامارة من ايديهم . ثم جاء ابن عفيصان يزيده غلاً ونفوراً فوُحدت النزعتان والثاران ، وكان يُنتظر من رجلَي قطَر مباشرة القتال . ولكن آل خليفة ، عندما استقر امرهم في البحرين ، جهزوا اسطولاً من السفن الشراعية وابحروا الى قطر . توكلنا على الله ! نحرقها ان شاء الله ! وكان ارحمة وابن عفيصان قد علما بذلك فتأهبا للحرب . توكلنا على الله !

(١) يقول العرب عندما يفقدون احدا من اهلهم : سمينا باسمه .

(٢) القنيت انف السفينة والجابري اسم سفينة المتكلم .

هي لنا ان شاء الله !.

خيم الليل فاوقف الخليفيون سفنهم امام المكان المقيم فيه ارحمة وابن عفيصان وهو يدعى الحوَير . وكان ارحمة ملاّحاً ماهراً وقائداً خبيراً . فلم تسره مناورة اسطول العدو اذ رأى انواره . — تعبئة هذه السفن يا ابراهيم تنبيء بوجود الشيخ عبدالله بن احمد فيها . فقال ابراهيم متهكماً : والشيخ عبدالله من المحبوسين في الدرعية . هات الدليل على نبوءتك يا ارحمة .

— تعبئتها تعبئة قائد خبير ، ولا يمكن ان يكون غير الشيخ عبدالله . ثم استدعى زورقاً واشعل فيه سراجاً وامر احد رجاله ان يقف به وراء السفن ، فلما رأى قائد الاسطول ذلك خشي ان يكون النور نور سفن ارحمة ، فامر سفنه ان تقف وراءه دفعاً لهجوم يجعله محصوراً بين العدو والبلد . فلما رأى ارحمة ذلك تيقن ان الشيخ عبدالله قائد الاسطول واعجب بدهائه وبقدرته الحربية .

لا تسرني هذه الحركة يا ابراهيم . هيا بنا الى البحر .

خرجوا بالسفن الى البحر ، وعند انبلاج الفجر تقابل الفريقان فادرك ارحمة ان من الحزم الا يقاتل القوم لان قوته لم تكن كافية . فاغتاظ ابن عفيصان عندما قال له ذلك وظنها جبانة منه ، فاوعز الى احد رجاله ان « يحورب »[1] .

لا خير في رجل يحمي جريرته   واذا تضايق دربه خلاها[2]

فغضب ارحمة واعترى قائلاً : لا بالله ما نخليها . ثم امر بنشر الشراع وبرز للقتال .

---

(١) حورب اي هزج وهي من اصطلاح اللبنانيين وعرب نجد .
(٢) هذا من الشعر الذي يدعى في نجد بالنبطي اي العامي .

اشتبكت السفن بعضها ببعض ، فطلاطمت الاشرعة ، وأنّت الاخشاب من الصدمات ، والصقت سفينة ارحمة بسفينة راشد بن عبدالله ، فجاء ابوه يدعمه بسفينة من الجنب الاخر كيما يمنعه ساعة الخطر الاشد من الفرار . وكأني بارحمة وقد عاين الشيخ عبدالله يقول لابن عفيصان : اتبغي الدليل على نبوءتي ؟ خذه يا ابراهيم .

حمي الوطيس بين الجمعين ، فدوت البنادق بالرصاص ، وابرقت خلال الدخان السيوف ، وسالت الدماء من المراكب فخضبت الامواج ، واشتعلت النيران في الخشب والاشرعة ، فتطايرت منها الشهب وتساقطت الشظايا الملتهبة . — تبغي الدليل على نبوءتي ؟ خذه يا ابن عفيصان . راحت القتلى تسابق الرصاص الى قعر البحر ، وفيهم راشد بن الشيخ عبدالله . ثم حجبت النيران والدخان سفينة أرحمة ، وقهقهت فوق عرشتها زبد الموج المخضب بدم الابطال ، فنجا سيد الجلاهمة وحليفه ابن عفيصان على لوحة من خشب . — هل رأيت حرب العتوب يا ابراهيم ؟ ولكن الهول أصمّ ابراهيم وعقل منه اللسان .

اما ارحمة فلم يكن ممن تسكتهم الهزيمة وتصمهم الاهوال . لم يوفق في شركته وابن عفيصان الى مراده ، فسافر بعد تلك الوقعة الى مسقط يخطب ود حاكمها سعيد بن سلطان .

— آل خليفة اعداؤك يا سعيد واعدائي . كسروك مرة وكسروني . ولست يا سعيد ممن ينامون على الضيم . لا بالله .

وحلف أرحمة بعز العُتوب ، وحلف سعيد برأس ابيه .

ثم ناصب صاحبُ مسقط الخليفيين العداء . وذلك انه قبض ذات يوم على تجار من البحارنة كانوا يقصدون الهند ، وفيهم الشيخ عبدالرحمن آل فضل عدوه الاكبر ، فعرجوا على مسقط فاعتقلهم في برج القلعة هناك . وكتب

الى اهل البحرين يطلب منهم الطاعة والخراج . فأجابه الحاكم الشيخ سلمان، وكانت منه حيلة من حيل السياسة والحرب : انا بغنى عن هؤلاء وقد نسيناهم وسمينا ابناءنا باسمائهم .

اما السيد سعيد فكان قد تأهب للحرب فجاء باسطوله الى البحرين يصحبه أرحمة الجلاهمة ، فنزلوا في رسترة[1] على شاطىء الجزيرة ، واقاموا هناك ثلاثة ايام فلم تظهر طلائع البحارنة . فتهكم سعيد قائلاً : عتوبك غابرا — اي ماتوا — فغضب ارحمة لانه عتوبي ، وعندما ظهرت اعلامهم خلال النخيل في صباح اليوم التالي صاح قائلاً : هم عتوبي ظهروا يا سعيد . توكل على الله .

ولم تكن ساعة بعد التحام الجيشين حتى اسفرت الوقعة عن هزيمة اهل مسقط وفرارهم الى البحر . فلما رجع السيد سعيد الى بلاده همّ بقتل تجار البحرين المعتقلين عنده . ولكن اخته مَوزة نهته عن ذلك وانبته قائلة : هم في جوارنا واسرى بيدك فأي فخر في قتلهم . دوّل على البحرين وخذ بثأر اخيك . اي جهز عليها مرة ثانية . واخوه كان قد قتل في وقعة رسترة .

اثرت في سعيد شهامة اخته موزه تأثيراً حسناً فعاد الى البحرين . ولكنه سالم اهلها هذه المرة فعقد معاهدة مع اميرهم الشيخ سلمان الذي سلم الجزيرة سابقاً الى ابي سعيد دون قتال ، ومن شروطها ان يدفع اهل البحرين قسماً من الخراج الى حاكم مسقط فيطلق سراح المعتقلين عنده .

وبعد وفاة الشيخ سلمان الرجل المسالم تولى الحكم اخوه الشيخ عبدالله، وهو الحاكم الثالث من آل خليفة في البحرين . وكان أرحمة لا يزال حياً يرزق وخصماً لا يموت الّا قتالاً . لكن الزمان والكروب أوهت منه العظم وذهبت بالبصر . اما القلب الذي تعشّق الاخطار في سبيل المجد فلم يعتره وهيٌ او

(١) راجع الفصل الثالث من هذا القسم صفحة ٢٢٣

تصب ، ولم يخمد فيه ذاك النور الذي لا يرى شرفاً في غير الشجاعة والثبات. قام أرحمة ومعه بعض قومه يعيد الكرة على البحرين ، ارحمة وحده هذه المرة لا حليف ولا شريك له . فدخل القطيف راكباً سفينته المشهورة «غطروشة» فجرّد عليه الشيخ عبدالله السفن وقد شحنها بالرجال وخرج يقودها بنفسه .

احاطوا بارحمة البطل الضرير في ميناء القطيف ، فأمر بنشر الشراع وطلب ميداناً متسعاً للقتال . فاجيب الى طلبه . أفسحوا لغطروشة فخرجت الى عرض البحر ، ثم انقضوا عليها من كل جانب . وكان ارحمة وهو جالس عند خزانة السفينة ومعه ابن له صغير الى جنبه وعبده طرار واقف فوق رأسه يسأل عن السفن الهاجمة عليه وعن قوادها فيخبرونه فيقول : هذا لا يجرأ على مقابلتنا — هذه لا تلحقنا . ثم يصدر الاوامر للنوتية بينما رجاله يبادلون العدو اطلاق الرصاص . وعندما دنت سفينة الشيخ احمد بن سلمان من « غطروشة » اخبروه بها فقال : هذا يطابقنا لا محالة ، لان جنبه لا يلامس ناعمات الابدان . اي انه لم يتزوج .

بعد قتال بالرصاص شديد تلاصقت السفينتان ، فتجالد الفريقان ، واشتد الضرب بينهما والطعان ، بينما ارحمة الضرير يحارب بلسانه وجنانه ، فيحرض رجاله ، ويصدر اوامره ، ويسأل تارة ابنه ، وطوراً يستخبر عبده طراراً .

— اين صاروا يا وليد .

— عند الدقل [1]

— جنبوا . جنبوا . . . والآن اين صاروا ؟

— صعدوا النيم [2]

سكت ارحمة سكوته الابدي ، اذ قرن كلمته الاخيرة بالعمل ، فاخذ

---

(١) الدقل الصاري .

(٢) النيم سطح مؤخر السفينة .

ابنه ووضعه في حجره، وعمد الى نار فالقاها في ذخيرة البارود التي كانت تحته. « بيدي لا بيد عمرو » . فدوى دوي غرقت فيه اصوات البنادق كلها وضحك الزبد المخضب بالدماء فوق عرشة الغطروشة .

تسمى هذه الوقعة في تاريخ البحرين « ذبحة أرحمة الجلاهمة » . قل هي مجده وتخليده . رحم الله كل من مات بطلاً في ساحة الوغى .

كان لأرحمة ابن اخر اسمه بشر حاول الاخذ بثأر ابيه فراح الى صاحب مسقط السيد سعيد يستنجده على آل خليفة. وبما انهم كانوا قد امتنعوا عن دفع الخراج جاء سعيد ، اكراماً لبشر ابن أرحمة ، يعلمهم حفظ العهود . فخرج له الشيخ عبدالله بجيشه وكسره في اول وقعة وقتل من رجاله ثلاثة الاف.

عجايب يا بني عتبه عجايب ثلاثة الاف ما فيهم شايب

وقد حارب في هذه الوقعة مع آل خليفه مزيد بن هذال وبعض قومه العمارات [1] .

اخذت نشوة النصر مأخذاً من الشيخ عبدالله فحببت اليه الفتح والاستعمار . وكان قد تجدد بينه وبين امير نجد الخلاف فجهز جيشاً بحرياً وسار به الى دارين ففتحها ، ثم الى تاروت فاستولى عليها ، ثم الى سيهات في القطيف فحاصرها . فجاءت جيوش نجد توقفه في فتوحاته ، وقامت تساعدهم الفتنة في بيته . بل افقدته تلك الفتنة ما كان قد استولى عليه في القطيف .

ان السبب في مثل هذه الفتن المألوفة في بيوت امراء العرب الحاكمين هو غالباً تعدد الزوجات التي ينشأ عنه ضغائن بين الاشقاء ، ومنافسات بين

---

(١) لا يزال بنو هذال وشيخهم اليوم فهد بك مؤمَّرين على هذا الفخذ من عنزه الذي يسمى العمارات . وهم من عشائر الشمال يقيمون في ارض عند وادي حوران بين سوريا والعراق .

الامهات خصوصاً اذا كن من قبائل مختلفة[1] .

كان للشيخ عبدالله عشرة اولاد منهم ثلاثة امهم من آل بني علي ، العشيرة التي مر ذكرها في الكلام على اهل الزبارة . فخرجوا على ابيهم يطالبون بالامارة وقصدوا الى الحويلة[2] يستنجدون اخوالهم فيها . فارسل الاب عليهم جيشاً بقيادة حفيد اخيه الشيخ محمد بن خليفة بن سلمان فهاجمهم في الحويلة وهزمهم في الوقعة الاولى ، فتابوا وقالوا لابيهم : اننا من الطائعين ، فعفا عنهم واذن لهم بالرجوع الى البحرين .

هذي هي البداءة والنهاية في معقة ابنائه . ولكن روح الفتنة التي خرجت منهم حلت بالرجل الذي حمل عليهم باسم ابيهم وظهرت قرونها بعد ثماني سنوات من وقعة الحويلة . ذلك ان الشيخ محمد ، حفيد الرجل المسالم الشيخ سلمان ، قام على الشيخ عبدالله كأن يتقاضاه اجرة تأديب اولاده ، فحاصره في المحرق . وكان ابنا اخيه سلمان الساكنان يومئذ في الرفاع[3] ميالان الى عمهما وهو يثق بهما . فاستنصرهما على ابن اخيهما الثائر عليه ، وجهز لكل منهما جيشاً كبيراً . فاحتربوا في وقعتين فاندحر في الثانية الشيخ محمد بن خليفة . وبعد ان وكل اخاه الشيخ علي بان يرعى الفتنة سراً راح يستنجد الاعداء على الاقرباء .

سافر اولاً الى نجد فصده اميرها ، فعاد الى قطر وارسل الى آل ابراهيم

---

(١) « ان تعدد زوجات الملك يزيد بعدد السابلة في البلاط ويوجب بناء القصور العديدة التي يقتضي لها نفقات طائلة ، ويقتل الشعور في الاسرة ، الشعور الابوي والبنوي والاخوي ، ويفسد الاخلاق ، ويضعف القوى الجسدية ، ويبعث على التخنث والترفه ، ويمكن من النفوذ والسيادة في الاحكام طبقة منحطة من الناس . »

جورج رولنسون في كتابه « موجز التاريخ القديم » صفحة ٢٧

Ancient History by George Rawlinson P. 27

(٢) الحويلة قرية في الطرف الشمالي من قطر .

(٣) راجع الفصل الثالث من هذا القسم صفحة ٢٢٣

الذين كانوا يومئذ في جزيرة قيس من اعمال فارس يدعوهم لقتال اعدائهم السابقين حكام البحرين . فلبوا الدعوة مسرعين ومعهم الجلاهمة يرأسهم بشر بن أرحمة . وكان الشيخ محمد في قطر والشيخ علي في البحرين يتعاونان في اضرام نار الفتنة وتجهيز الجيوش لها .

أزف يوم القتال ، فخرج الشيخ علي بجيش على الشيخ عبدالله فكسره وتقدم الى الرفاع فاستولى عليها . ثم جاء الشيخ محمد بجيشه فزحف على المنامة ودخلها منتصراً . وكان الشيخ عبدالله في المحرق فعبر اليها ووقع بينه وبين عم ابيه قتال كان عليه وبالاً . فلجأ وبعض رجاله الى القلعة فتحصنوا فيها ، وما كان الحصن حصيناً . فر الشيخ عبدالله من القلعة هارباً الى بلاد فارس ، ومنها جاء الى الكويت يستنجد حاكمها فلم ينجده ، فسار منها الى نجد وكان نصيبه هناك الفشل ايضاً ، فسافر بعدئذ الى مسقط فمرض فيها ، ومات بعد بضعة ايام حزيناً طريداً .

حكم الشيخ عبدالله بن احمد بن محمد بن خليفة في البحرين اثنتين وعشرين سنة ، قضى جلها في قمع الفتن ، وفي ما عقمت من الحروب . وخلفه محمد الثائر ، الشيخ محمد بن خليفة بن سلمان ، الذي كان السبب في انقسام آل خليفة الى حزبين حزب آل عبدالله وحزب آل سلمان . وهذا الشقاق بما نشأ عنه من الفتن والحروب أدى الى تدخل الانكليز ، فتح الثلمة التي يتعشقها « سفين » السياسة . سأقص قصة الانكليز في حينها ومكانها .

اما الآن فالحلقة التي نحن فيها من هذا التاريخ تتعلق بالشيخ محمد بن خليفة آل سلمان . وقد علم القارىء مما تقدم من سيرته انه كان شجاعاً عزوماً مقداماً ، ولكنه لم يعلم بانه كان ذا بداهة عجيبة تدنو من الرؤيا فتمكنه من تفسير الاحلام ، والتنبؤ بما تخبئه الايام . اما في السياسة فقد كانت الحرباء مثاله الاعلى . ولا غرو ، فالدولة العثمانية كانت قد بدأت ترمق

الكويت والاحساء والبحرين بنظر الام الرؤوم ، وكانت الدولة الايرانية لا تزال تحلم برجوع ابنتها الضالة فترأم حبل سيادتها في الخليج ، وكان الانكليز ، بعد ان ثبتت قدمهم في ابي شهر ، يسيرون في المضيق بين الدولتين الى مقاصدهم الكريمة . فهل يلام الشيخ محمد اذا قام بينهم كالبهلول يدهشهم تارة ، وطوراً يضحكهم ، ولا يرضي باطنا احداً منهم . قيل انه كان ينشر في القلعة علمين ، علماً عثمانياً فوق البرج الغربي منها وعلماً ايرانياً فوق البرج الشرقي ، حتى اذا حاولت احدى الدولتين التحكم بأموره ادعى النسبة الى الثانية . ولكن الانكليز ادركوا سر هذه السياسة وعلموا ان في العرب انفسهم من لا يسره نجاحها .

تولى الشيخ محمد الحكم سنة ١٢٥٨ هـ ١٨٤٢م فحكم مطمئن البال ست سنوات لم يخرج عليه اثناءها احد من اعدائه . ويظهر ان ابناء سلفه الشيخ عبدالله الذين هربوا بعد سقوط ابيهم الى الدمام في القطيف كانوا يتأهبون لذلك . فقد كان في القطيف يومئذ آل ابن علي وزعيمهم عيسى بن طريف الطامع بملك البحرين . فاتحد وآل عبدالله وجاءوا الى قطر يشهرون الحرب على الشيخ محمد . فبعث اخاه علياً على رأس جيش كبير نازلهم في أم سوية فقُتل في الوقعة عيسى بن طريف وقفل الشيخ مبارك بن عبدالله واخوانه هاربين الى الدمّام . . . — يازمنا يا اولاد بو بي حليف آخر . . . — دونك يا مبارك وابن سعود .

وكان امير نجد يومئذ فيصل بن تركي الذي نهض للحرب يسترجع ملك اجداده . فأجاب طلبتهم بأن بعث يمدهم بجيش في البحر وسار يقود بنفسه جيشاً برياً . وعندما ابحر آل عبدالله وانصارهم الى البحرين كان الشيخ محمد قد حشد الجيوش براً وبحراً لمقاومتهم . فغلبهم ثانية في وقعة بحرية قتل فيها الشيخ مبارك وابن عدو آل خليفة الالد بشر بن أرحمة . ثم حاول آل عبدالله

ثالثة ان يأخذوا بثأر ابيهم فلم يفلحوا . فبعد ان حاصرهم الشيخ علي اخو الشيخ محمد في الدمام احد عشر شهراً واضعف شوكتهم لجأوا الى ابن سعود ليكون هذه المرة واسطة الصلح بينهم وبين ابن عمهم ، فقام الامير فيصل بهذه المهمة المبرورة وكان من المفلحين . فعاد آل عبدالله الى البحرين فعفا الشيخ محمد عنهم واكرمهم غاية الاكرام .

ومع ذلك لم يصف الجو للشيخ محمد . فلم يكد يخمد نار الفتنة في القطيف حتى اشتعلت في قطر التي كانت يومئذ تابعة للبحرين ، فقام اهلها وعلى رأسهم الشيخ قاسم بن ثاني يخلعون نير الطاعة ويهددون آل خليفة بابن سعود .

فارسل الشيخ محمد اخاه عليا ليؤدب العصاة . فوصل الشيخ علي بجيشه الى الدَّوحة عاصمة قطر ، ودخلها بغتة ، فاعمل في اهلها السيف ثم دمرها تدميراً . جاء بعد ذلك الشيخ قاسم الى البحرين يلتمس العفو فالقاه الشيخ محمد في السجن ، فهاجت لذلك قبائل قطر باسرها وفي مقدمتهم عرب النَعيم وجاؤا باسطول من السفن يهاجمون البحرين فلما وصلوا اليها وجدوا جيشاً في البحر مستعداً للقتال ، فحدث في مكان اسمه دامسَة معركة شديدة ، تلاصقت فيها السفن فشُبكت بكلاليب الحديد ، وتجالد الفريقان فاحمر وجه الماء من دم القتلى وكان الفوز للبحارنة .

وكانت وقعة دامسة هذه — ١٢٨٤ هـ ١٨٦٧ م — السبب في التدخل الانكليزي بشؤون البحرين .

لست ممن يشكُون في ان الانكليز يبغون السلم ويسعون في توطيد الامن في الخليج العجمي . بل هم يبغون السلم ويسعون في توطيده في كل مكان يتخذونه طريقاً لتجارتهم وسبيلاً لتأييد سياستهم في الهند . وقد بان للقارىء في ما سردته من تاريخ البحرين ان الخليج ، وهو اهم هذه الطرق ، كان دائماً مسرحاً للفتن والحروب التي يسببها حب السيادة والاستعمار . جاء

الانكليز بعد اهل البرتقال وقصدهم الاستيلاء عليه ، والمحافظة فيه على الامن والسلامة . فبسطوا شيئاً من سيادتهم ونفوذهم على بعض الجزر والاساكل على الساحل العجمي ، منها ابو شهر التي هي اليوم مركز الحاكم العام .

وراحوا ينشدون الامن والسلام — والسيادة طبعاً — في الجهة العربية منه . نريد الخليج طريقاً آمنة للتجارة في ايام السلم ، ونريده في ايام الحرب وهو مفتاح الهند بيدنا وحدنا انما هذه هي غاية الانكليز الاولى والاخيرة . ولا ريب بذلك . اما الوسائل التي اتخذوها لتحقيق هذه الغاية والسياسة التي انتهجوها لتعزيز سيادتهم في الخليج ، فتلك قصة اخرى لا احرم القارىء طرفاً منها

قلت ان الشيخ محمد بن خليفة كان شاذاً في بداهته الى درجة تصبح البداهة فيها ضرباً من الرؤيا . ولكنه لم ير شيئاً واسفاه مما كنته الاقدار في تقرب الانكليز منه . جاءه الوكيل السياسي من ابي شهر يخطب وده ويدعوه لعقد معاهدة تضمن له سلامة بلاده ومساعدة بريطانيا العظمى[1] فمن يرفض هاتين النعمتين ؟ كان الشيخ محمد كما اوضحت محاطاً دائماً بالاعداء من القبائل ومن آل بيته ، تزعزع حكمه الفتن والحروب . فرأى الحكمة والمصلحة

---

(١) حدثني احد افاضل البحرين قال : كان للبحرين اسطول شراعي كبير مسلح بالمدافع والذخيرة استفحل امره . فاستولى حكام الجزيرة على قطر والقطيف فخشي الانكليز عاقبة ذلك لان مصلحتهم تقضي بان تبقى بلدان الخليج متنافرة متشاقة لكل منها امير مستقل فاخطروا امراء البحرين بان القتال في البحر ممنوع وان لبريطانيا العظمى حقاً بمنعه تعترف لها به الدول الكبرى . فلا يجوز اذن ان يخرج اسطولكم الى عرض البحر واذا خرج فالاسطول الانكليزي يقوم بواجبه . فاحتج الشيوخ الامراء ان بلادهم جزر مفتوحة ثغورها لا حصن لها الا الاسطول . فان لم ندفع به الاعداء ملكوا بلادنا ورقابنا . واذا لم نهاجم هوجمنا . فاجاب الانكليز : اذا كان الامر كذلك فان حكومة بريطانيا العظمى ، اذا امتنعتم عن الهجوم البحري، تتعهد برد الاعداء عن بلادكم .

في عقد المعاهدة ، وان كان من شروطها ان يتنازل حاكم البحرين عن حقوقه في تجهيز الجنود البحرية والسفن الحربية . فقد تعهدت بريطانيا العظمى في مقابلة ذلك ان ترد عن البحرين كل غارة بحرية . هذه خلاصة المعاهدة او الاتفاق .

فلما ثار اهل قطر على حكومة البحرين وجاؤا يهجمون على الجزيرة خشي الشيخ محمد من استيلائهم عليها بينا هو يفاوض الوكيل السياسي في ابي شهر[1] وينتظر النجدة منه . فكانت وقعة دامسة وكانت فاتحة المحنة الكبرى .

ركب الوكيل السياسي مركباً حربياً وجاء يحتج على الشيخ محمد بانه خرق المعاهدة بينه وبين بريطانيا العظمى . ولكن الشيخ محمدا وكل اخاه علياً بالامر وسافر الى قطر قبل ان يصل الوكيل الى البحرين . فعد الوكيل ذلك اعترافاً منه بنكث العهد وفراراً من التبعة والجزاء فامر باطلاق مدافع البارجة على القلعة التي كانت تزدهي بعلمي تركية وايران فهدمتها . ثم طلب من الشيخ علي ان يتولى الحكم بدل اخيه الذي سقطت امارته بخرقه المعاهدة . قبل الشيخ علي وكان في قبوله الشقاق بينه وبين اخيه . فقد اشار الى ذلك ابن اخيه شاعر البحرين اليوم الشيخ ابراهيم في القصيدة التي يرثي بها والده حيث قال :

فنازعك الشقيق وكان قدماً ... خساماك والامور لها انتزاع
واغرى الدهر بينكما وهاجت ... على الافساد بينكما الرعاع

كان الشقيقان متحابين يخلص احدهما للآخر ، ولم يبد في خلال ثلاثين سنة التي فيها حاربا وادارا الشؤون معاً اقل ميل في علي الى منازعة محمد الحكم والسيادة . كانا والحق يقال مثال الوداد والوفاء حتى مجيء الوكيل السياسي

(١) ابو شهر هي على الشاطئ الفارسي وتبعد نحو مئة وخمسين ميلاً عن البحرين شرقاً بشمال .

من اي شهر . فكان الاخلق به ان يكتفي بما فرضه على البحرين من المال، اي مئة الف روبية ، تعويضاً وتأديباً ، ولا يزرع في سياسة البلاد الداخلية تلك البذرة التي تأصلت في البيت المالك ولا تزال تنتج الفتنة والشقاق .

بعد ان تولى الشيخ علي الحكم سافر اخوه الشيخ محمد الى الكويت فتدخل آل صباح يصلحون بين الشقيقين . فكتب الحاكم يومئذ الشيخ عبدالله الى الشيخ علي يسأله ان يرجع الامر الى ما كان عليه ، فقبل الشيخ علي بذاك . فجاء اخوه الشيخ محمد يصحبه حاكم الكويت واخوه الى البحرين ولكنهم علموا قبل ان ينزلوا الى الجزيرة بان الشيخ علي عدل عن رأيه واصر على امره . ولا شك ان اليد التي كانت تؤيده هي اليد التي اقامته حاكماً .

لا يحكم الصياد اشباكه الا اذا عكر بطن الغدير

عاد الشيخ محمد، الذي لم يُقهر مرة في حياته، الى ما فيه من قوة ودهاء. فنزل في دارين وشرع يتأهب هناك للقتال . فحشد جيشاً من بني هاجر واعلن الحرب على اخيه . فخرج له الشيخ علي بجيشه فاقتتلوا قتالاً شديداً ذُبح فيه الشيخ علي وتفرق جيشه . فعاد الشيخ محمد الى الحكم الذي ما دامت الفتنة تشتد فيه والمحن تزداد يوماً فيوماً .

كان ابناء الشيخ عبدالله من الذين نصروا الشيخ محمد على اخيه ، وهم مسرورون بما حدث بين الاخوين المغتصبين الحكم من ابيهم . ثم بادروا الى الانتفاع بما اسلفوه من مساعدة فادعوا انهم كانوا السبب في انتصار الشيخ محمد وقاموا يناهضونه . ثم قبضوا عليه فسجنوه في القلعة التي كان يرفع فوقها العلمين التركي والايراني . وقد قال لهم الشيخ محمد عندما اعتقلوه وكان في نبوءته صادقاً : لن تطل مدة حكمكم اكثر من ثلاثة اشهر .

وصار الامر بعدكما[1] لقوم[2] له حبلوا ولكن لم يطاعوا

(١) اي بعد ابيه وعمه . (٢) اي ابناء الشيخ عبدالله .

وكان الامر كذلك، اذ قبل ان يتم الشهر الثالث جاء الوكيل السياسي من ابي شهر في مركبه الحربي وتولى امور البحرين المضطربة . « فاستشار » الاهالي ، بعد ان اطلق بضعة مدافع على سراي المنامة ، في من يختارون حاكماً عليهم فأجمع رأيهم على الشيخ عيسى بن الشيخ علي الذي قتل في الحرب الاخيرة . ثم طرد من البحرين بني هاجر وهم اتباع آل عبدالله ، وأخرج الشيخ محمد بن خليفة من القلعة فاصطحبه ومحمداً بن عبدالله في البارجة، فانزلا في جزيرة كانت منفى احد المحمدين ومحطة لمنفى الثاني اي محمد بن خليفة بن سلمان بن احمد الفاتح . فقد نُقل من تلك الجزيرة الى بمباي ، ثم الى عدن ، فأقام فيها عدة سنين اسيراً . بعد ذلك شفع فيه السلطان عبدالحميد الى الحكومة البريطانية فأذنت له بالسفر الى مكة ولكنه لم ينعم فيها ، فقد مات هناك سنة ١٣٠٧هـ كما مات الشيخ عبدالله في مسقط حزيناً طريداً ، فرثاه ابنه الشيخ ابراهيم بتلك القصيدة التي نقلت بعض ابياتها وفيها يقول :

واسلمك الزمان الى خطوب   تذل لبعض اصغرها السباع

الى ان قال :

فان مكارم الاخلاق عاق   نفيس لا يعار ولا يباع
الا يا نفس جدي واستعدي   فن الامر جد واضطلاع
ويا قطب المعالي انت قصدي   وهل يخشى مع القطب الضياع

الشيخ عيسى والانكليز

الفصل السادس

الطريقة المثلى في التاريخ – الشيخ عيسى في نظر السجاء – في نظر المؤرخ – سجاياه – كرمه – وفاءه – اخلاصه للانكليز – محافظته على القديم – مقاصد الانكليز الخفية – ثبات الشيخ عيسى على العهود – مدحت باشا والي بغداد يعرض عليه مساعدة الدولة – اعتراف الانكليز باستقلال البحرين – مساعي الانكليز في تقويض الاستقلال – الحوادث عدوة العهود – ثلاث حوادث خطيرة – وحالة سياسية بريطانية في البحرين – حرق الاسطول – عزل الشيخ عيسى .

عندما قُتل الشيخ علي آل سلمان آل خليفة، كما ذكر في الفصل السابق، سافر ابنه الشاب الشيخ عيسى مع اخوته وبني عمه الى قطر فنزلوا على قبيلة النعيم فيها . وعندما استفتى الوكيل السياسي الانكليزي اهل البحرين بعدئذ في حاكمها اجمع رأيهم على الشيخ عيسى[1] فكتب اليه الوكيل يخبره بذلك ويسأله ان يعود. فعاد بمن كان معه من عشيرته وقبيلة النعيم ونزلوا في المحرق. ثم نُصب حاكماً على البحرين في آخر شعبان سنة ١٢٨٦ هـ ١٨٧٠ م وهو في الواحد والعشرين من سنه[2] فعاد الحكم الى آل سلمان وكانت فيه خاتمة الفتن والحروب الاهلية .

قد انتهجت في كتابة هذه النبذة ما اظنها الطريقة المثلى في التاريخ . فغربلت الحوادث ، واخترت منها الاعم والاهم ، وعلقت عليها في بعض المواضع بالايجاز الذي يوجبه المقام ، وافضت ببعض المواقع تتميماً للصورة

---

(١) هو عيسى بن علي بن خليفة بن سلمان بن احمد الفاتح بن محمد ، تاجر اللؤلؤ ، ابن خليفة الذي نزح من الافلاج بنجد ونزل في الكويت. وآل خليفة من بني عتبة وهي فصيلة من جميلة وجميلة فخذ من عنزة ت الى بني اسد فريمة فعدنان .

(٢) ولد الشيخ عيسى في محرم سنة ١٢٦٥ هـ وامه ابنة عيسى بن طريف آل ابن علي الذي خرج على الشيخ محمد عم الشيخ عيسى لما كان حاكماً .

الذهنية ، صورة الزمان والمكان والاحوال ، واجتنبت اولاً واخراً الاطراء والاطناب ، فوصفت الرجال بما تمليه اعمالهم على المؤرخ .

ولو اني تمشيت على اسلوب التاريخ الذي بين يدي لكان ينبغي لي في الكلام على الشيخ عيسى بن علي ان اقول انه « استلم زمام الملك بيد الحزم والتدبير ، فدانت له القبائل والعربان ، ونشر رايات العدل والامان ، وقمع بسيفه البغاة والعدوان ، وشاد بعلمه وحلمه وتقواه ركن الدين ، واظل باغصان فضله الارامل والمساكين ، فالقى السعد عصا تسياره بقصره ، وخصه بين الانام بنصره . » الخ .

ولكن التاريخ هو غير السجع . يجب ان يكون للتاريخ عينان ، وعقل ووجدان . ولا بأس اذا كان له شيء من البداهة والتصور . اما القلب فلا حاجة له فيه ، ولا يجوز . ان التاريخ الصادق هو شاهد لا قلب له . وهو الان يشهد ويقول ان للبارجة الانكليزية التي كانت في ثغر البحرين يوم استفتي البحارنة ، يداً قوية في ذلك السعد الذي « القى عصا تسياره » في قصر الشيخ عيسى . ويقول ايضاً ان ملكه الذي استمر خمساً وخمسين سنة كان اكثر عدلاً وسلماً واصلاحاً من ملك من تقدمه من اجداده . ولذلك اسباب منها ما يتعلق بشخصه الكريم ، ومنها ما يتعلق بالانكليز ، ومنها ما هو ناشيء عن روح الزمان في المدنية والعمران .

كان الشيخ عيسى كريماً جواداً ، فقد انعم على القبائل التي كانت معه في قطر بمبالغ جسيمة من الاموال يوم تقلد الامارة . واعطى في جلسة واحدة اربعين رأساً من الخيل الاصائل ، ووصل بني عمه بالطرف النفيسة والجواهر والبساتين . هي السجية الاولى التي كان يسترسل اليها ويعتمد على ما فيها من قوة البرهان والاقتناع . حتى انه لم يكن ليرى غير الكرم في بعض الاحايين سبيلاً الى توطيد الحكم وتعزيزه . وقلما استبقى من واردات البلاد

شيئاً لنفسه . بل كان ينفقها كلها ، منذ كانت تعد بالالوف الى ان صارت تعد بالملايين ، على وفود العرب ، وافراد عشيرته ، ثم في الاصلاحات العامة.

اعتمد الشيخ عيسى على الكرم وقلما اعتمد على غيره من مزايا النفس . اريد بذلك انه لم يكن ليثق كثيراً بنفسه او يعتمد عليها . بل كان في جل اموره وكلا . فاذا جرب انساناً ولو تجربة طفيفة اعتمد عليه ووثق به على الدوام ، فيصم اذنه عن كل ما فيه ذكر مساوئه او الاشارة اليها . وقد نشأ من هذا الضعف خلل في الاحكام وفي جباية الخراج .

اما العدل فقد كان غالباً معززاً في عهده . والحق يقال ان الشيخ عيسى نفسه لم يظلم انساناً ، عرضاً او عمداً ، في مدة حكم استمر خمساً وخمسين سنة . فقد كان دائماً يتحرى العدل والانصاف . ولكن ذلك لا ينفي ما كان يحدث من المظالم في دوائر احكام البحرين ، وان سدل عليها استاذ من التمويه ، لان الرجل كما قلت كان وكلا فلا ينتبه الا بعد حين الى اعمال معتمديه .

ولم يكن الشيخ عيسى يميل الى الجديد والتجدد ، بل كان منذ حداثته محافظاً كل المحافظة على القديم ، فلا يغير شيئاً مما درج عليه ، ولا يرغب بشيء فيه بعض الخروج عن المألوف في التقاليد والعادات. وظل كذلك حتى اصابه في آخر ايامه سهم من روح الزفاة وحاقت به سنن الرقي والعمران، فقام يساعد في انشاء المدارس ويأمر ببناء المحاجر والمرافق العامة في بلاده . وقد وضع اول حجر في اول مدرسة بيده ، وخصصها براتب شهري بعد ان افتتح جريدة الاكتتاب بمبلغ وافر من المال .

ومن سجاياه الممتازة وفضلاً عن الكرم وحب العدل انه كان صادقاً في ولائه وفياً . فقد احسن الظن بالسياسة الانكليزية لاعتقاده ان انكلترا لا تريد الا نشر تجارتها وتعزيزها . ولكنه جهل كما يجهل الكثيرون حتى

من الانكليز انفسهم ما كان منطوياً من مقاصد تلك السياسة [١] ، فأمن مناوأتها . اجل ان اخلاص الشيخ عيسى للانكليز خمساً وخمسين سنة – للانكليز الذين ساعدوا في اقامته حاكماً ، ثم اذلوه وامتهنوا حرمة ملكه مراراً ، ثم اسقطوه عن العرش الذي رفعوه اليه – ان اخلاصه لهم ، وحسن ظنه بهم ، لمن الفضائل التي قلما نجدها في غير العرب من الشعوب الشرقية . وما كان ذلك الا لانهم ساعدوه في بداءة امره ، ولانه عاهدهم على اشياء منها الاعتراف بالاتفاق السابق بينهم وبين عمه الشيخ محمد ، ذلك الاتفاق الذي قضى على اسطول البحرين وجعل البلاد متكلة على بريطانيا العظمى في الدفاع عن نفسها .

مع ذلك لم يحنث الشيخ عيسى بعهده ، ولا عقد اتفاقاً سريا مع دولة اخرى من الدول . كتب اليه مدحت باشا عندما كان والي بغداد يعرض عليه مساعدة الدولة بعد اتفاق ودي بينه وبينها ، فدفع الكتاب الى اصدقائه الانكليز وكتب الى مدحت يقول : حسبي بريطانيا العظمى صديقة وحليفة . وقد فاوضته كذلك الحكومة الالمانية بواسطة معتمدها التجاري في البحرين فكان جوابه : لا اقدم على بريطانيا العظمى احداً ، ولا اعاون عليها عدواً . كثيراً ما اعترض بعض رجاله على هذه الثقة المطلقة ، وفيها التغاضي عن المساوىء ، فكان الشيخ يقول : ان بريطانيا العظمى اثبت الامم الاوروبية في المعاهدات ، فقد اعترفت باستقلال بلادي وحرية حكومتي ولا اريد اكثر من ذلك .

فهل قام الانكليز بما توجبه عليهم الصداقة بل العهود بينهم وبين شيوخ

---

(١) حدثني احد الذين كانوا موظفين في الوكالة السياسية الانكليزية بالبحرين قال : كان يجيئنا ويخرج من عندنا كثير من الرسائل والبلاغات السرية . ان في دار الوكالة منها ما يملأ بضعة صناديق ويدهش فحواها كثيرين حتى من رجال الحكومة بلندن .

البحرين ؟ قد اعترفت انكلترا باستقلالهم فهل احترمت هذا الاستقلال ؟ سنأخذ من تاريخ البحرين في عهد الشيخ عيسى بن علي ثلاث حوادث فيها الجواب على هذا السؤال ، وسأرويها بما يجيزه التحقيق من الايجاز .

اما اول هذه الحوادث فهو ضرب الزبارة سنة ١٣١١ هـ ١٨٩٣ م التي كانت اول ما حكم آل خليفة في قطر عندما جاؤوها من الكويت . وبعد ان نقلوا منها الى البحرين غدت عشاً للفتن والثورات . ذلك لان فيها الجلاهمة وآل ابن علي وبني هاجر[1] النازعين دائماً الى الفتن طمعاً بالسيادة والحكم . فقاموا سنة ١٣١١ هـ ينفخون في نار الفتنة فاضرمت في الزبارة ونواحيها ، فكثرت جموع الثائرين وقد تأهبوا للهجوم على الخليفيين في البحرين . فرأت الحكومة وجوب اخماد الفتنة ولم تر الى ذلك سبيلاً وواسطة غير الاسطول الذي كان لا يزال عندها قسم منه . فتشاور الشيوخ واقروا ذلك ، ثم بعثوا يعرضون الامر على الوكيل السياسي لبريطانيا العظمى في ابي شهر ويستأذنونه . فحذرهم الوكيل من نقض الاتفاق . فطلبوا منه الدفاع عن البلاد ، ذلك الدفاع الذي يوجبه الاتفاق . فتعلل الوكيل اولا ، ثم اشترط في مقابلة الدفاع شروطاً جديدة منها ان يكون لبريطانيا العظمى وكالة في البحرين ، ويكون للوكالة الحق بالمشارفة على قضايا الرعايا البريطانيين . فماذا يفعل شيوخ آل خليفة في مثل هذا الموقف الحرج ؟ ويلهم من الثائرين الزاحفين على بلادهم ، وويلهم من البوارج الانكليزية الراسية في الخليج اذا هم دافعوا عن البلاد . قبلوا بالشروط الجديدة ، فابحرت اذ ذاك البوارج الى الزبارة وفرقت بقنابلها الاقوام الثائرين .

والحادثة الثانية حدثت بعد عشر سنين سنة ١٩٠٣ وهي بنفسها طفيفة ،

---

(١) هم الذين كانوا في البحرين عندما تولى الشيخ عيسى الامارة فطردهم الوكيل الانكليزي منها لانهم كانوا موالين لآل عبد الله اعداء آل سلمان .

ولكنها خطيرة في نتائجها . خادم الماني اهان ابن اخ الشيخ عيسى فضربه ، فشكاه الخادم الى رئيسه ، فرفع الرئيس الدعوى الى الوكيل السياسي الانكليزي[1] والى حكومة المانيا . وبعد بضعة ايام اتفقت الحكومة المحلية والرئيس الالماني فاعتذرت عما فرط من ابن اخ الحاكم ، ودفعت الى الخادم ثلاثة الاف روبية . على ان هذه التسوية لم ترضِ ، على ما يظهر ، الوكيل السياسي في ابي شهر وكان يومئذ السربرسي كوكس ، فجاء بمراكبه الحربية فرست في مياه البحرين وانزلت بعض جنودها الى البر . ثم عرض الوكيل لائحة بما تطلبه الحكومة البريطانية جزاء ضرب الالماني ، فنفذت مادة مادة . حُرق ما تبقى من سفن البحرين الحربية ، وحُكم على ابن اخ الشيخ عيسى بالنفي خمس سنين قضاها في الهند ، وأُحيل الى الوكالة البريطانية بالبحرين النظر والفصل في دعاوي الاجانب كلها .

اما الحادث الثالث في سياسة الاستيلاء التدريجي فقد حدث في شهر ايار من سنة ١٩٢٣ . ولا بد قبل ان ارويه من تمهيد . قد علم القارىء مما تقدم في هذا الجزء شيئاً عن اهل نجد وشيئاً في ما تقدمه عن اهل الشيعة وخصوصاً الايرانيين منهم . فمهما كان من اسباب الوئام تجارة واجتماعاً بين الشعبين اذا جمعتهما مدينة واحدة ، فالخلاف الديني ، وقل الغلو في الدين ، فضلاً عن الخلاف الجنسي والسياسي ، كلها متأصلة في القلوب ، متأهبة في ساعة الشر للوثوب . وفي البحرين من التجار والعمال النجدي والايراني ، وقد علم

(١) ليس لانكلترا قناصل في الخليج العجمي لان وظيفة القنصل تجارية . ومصالحها في الخليج تقتضي ان يكون لها هناك ممثلون سياسيون . وهؤلاء في المنصب اثنان الموظف السياسي Political Officer والوكيل السياسي Political Agent وفي الخليج وكيل سياسي اول مركزه في ابي شهر يرجع اليه الوكلاء والموظفون السياسيون في الكويت والبحرين ولنجه وغيرها من الاساكل والجزر . اما مرجع الوكيل السياسي في ابي شهر فهو حكومة الهند . وبما ان في البحرين كثيرين من الهنود فقد اطلقوا على الوكيل السياسي فيها لقباً هندياً فهو يدعى هناك بَلْيوس .

القاري. ان الاثنين بموجب الاتفاق الاخير بين حكومة البحرين وحكومة بريطانيا العظمى به يعدّان من الاجانب ، فيجب ان تسمع دعاويهما في دار البليوس اي الوكيل السياسي الانكليزي بالمنامة .

وهذا البليوس ، ابتغاء حزب له من الايرانيين ، سعى في عزل رئيس بلدية المنامة ونصب مكانه احد تجارهم محمد شريف خان بهدور الذي اشتهر بكرهه للعرب . وقد كان لهذا الرئيس صنيعة البليوس نفوذ في الاحكام يدنو من نفوذ الحكومة الوطنية ويتجاوزه في بعض الاحايين . هذا هو التمهيد .

اما الحادث فهو انه في اوائل ايار من تلك السنة سُرقت ساعة من بيت تاجر نجدي ، فأتهم بالسرقة رجل فارسي فقام بعض اهل بلاده يدافعون عنه ، فأدى ذلك الى خلاف بينهم وبين اهل نجد ، فتحزب الفريقان واشتعلت في القلوب الاحقاد الكامنة ، فافضى النزاع الى القتال ثم الى السلاح . وكان خان بهدور محمد شريف رئيس البلدية يغري العجم في هذه الفتنة بقتل العرب[1]

اما الحكومة فبما ان المتقاتلين كلهم من الاجانب اكتفت بحفظ الامن ما استطاعت . ولا اظن مما شاهدته في البحرين يوم كنت هناك انها كانت تستطيع كثيراً .

أبرق البليوس خبر الفتنة الى الوكيل السياسي في ابي شهر فجاء مسرعاً تصحبه بارجتان . وكان اول ما طلبه من الحكومة ان يعتزل الشيخ عيسى الحكم . فأبى الشيخ ، فأصر الوكيل ، وجمع فريقاً من الناس فأعلن فيهم

---

(١) « فلما كان رمضان حدث خصام بين فارسي ونجدي فكانت النتيجة ان رئيس البلدية والبوليس ، تعصباً لجنسيتهم ، حضوا العجم على اطلاق الرصاص . . فتحول الخصام البسيط الى فتنة دموية » من عريضة قدمها وكلاء الامة البحرانية لرئيس الخليج في ابي شهر في ١٧ ربيع اول سنة ١٣٤٢ .

عزل الشيخ عيسى وتولية ابنه الشيخ حمد مكانه . وهذه البوارج في الثغر تلفت اليها نظر الوطنيين المشاغبين .

ثم تبع العزل والنصب سلسلة من الاجراءات خطا فيها التطور السياسي والاتكال الوطني خطوات كبيرة . فقد الغيت المحاكم الوطنية ، وعينت من واردات الجمرك وغيرها ، التي تحولت الى بنك انكليزي في المنامة ، رواتب شهرية للشيخ حمد ومن دونه من افراد الاسرة الحاكمة . وقد تأسس ديوان يدعى مركز الحكومة ليقوم مقام المحاكم الوطنية يحضره الشيخ حمد والبَلْيوس فينظران معاً في شؤون البلاد الداخلية .

هذه هي قصة البحرين والانكليز في عهد الشيخ عيسى بن علي . من حكومة مستقلة ذات اسطول حربي ، الى حكومة ولا اسطول ، الى حكومة يراقبها وكيل سياسي انكليزي ، الى حكومة تشارك في ادارة شؤونها الداخلية والاجنبية حكومة بريطانيا العظمى بواسطة بليوسها ووكيلها في الخليج ، الى – والليالي بالحادثات حبالى !

الفصل السابع

النهضة الوطنية

شكل الحكومة الماضية – انقلاب ايار – احتجاج سلطان نجد – عزل رئيس البلدية – حكومة مزدوجة – نكبة النهضة الوطنية – من المسؤول ؟ – حقيقتان جوهريتان في تاريخ البحرين – عبرة لامراء العرب – عبرة للانكليز والاوروبيين – حكومة انكلترا لا تعلم بكل ما يجري على يد وكلائها – الوكيل المضر بالموكل والموكل من اجله – اولئك الذين لا يفهمون العرب ولا يحبونهم – حكومة الخليج وسلسلة الاحالات فيها – اوامر الحكومة في لندن وتنفيذها – مطالب اهل البحرين الوطنية – القوة لا تحترم غير القوة – الوكيل يحتقر البحارنة – ما حق على العرب غير المفهم .

لم يكن للوكيل السياسي في البحرين قبل انقلاب ايار سنة ١٩٢٣ غير حق النظر في قضايا الاجانب . ولكنه كان يتدخل بشؤون البلاد على قدر ما تسمح به الاحوال وتمكنه منه السياسةُ التي تستمد قوتها من مصالح التبعات الاجنبية ومشاكلها ، ومن البوارج الراسية في الخليج . وكان هذا التدخل ينعم ويخشن ملمساً بالنسبة الى البليوس ، اي الوكيل ، وصفاته الشخصية . اذ ليس بين بريطانيا العظمى وحكومة البحرين معاهدة مسجلة ، بل هناك اتفاقات كما اتضح مما اسلفت تضمن للانكليز ما حازوه تدريجاً من نفوذ في البلاد ، وتضمن للبلاد حريتها واستقلالها .

سألت عن شكل الحكومة عندما كنت هناك فعلمت انها ثلاثة اشكال ، وطنية واجنبية ومختلطة . وكان سمو الشيخ عيسى يومئذ يدير الاولى ، والبليوس يدير الثانية ، ورئيس البلدية العجمي صاحب الكلمة النافذة في الثالثة . وقد انشأت هذه الحكومة المثلثة الزوايا اربعة انواع من المحاكم الاهلية ، اي الشرعية وهي التي تنظر وحدها في دعاوي الوطنيين ، والاجنبية اي دار الوكالة الانكليزية ، وهي تنظر وحدها في دعاوي الاجانب

كلهم . والمختلطة اي التي كان رئيس البلدية يومئذ عضواً من اعضائها للنظر في الدعاوي بين الوطنيين والاجانب . ثم محكمة الغوص ولها قانون خاص يتساوى به الاجانب والوطنيون .

ولكن انقلاب ايار ذهب بالشكل والشعار . فعزل الشيخ عيسى كما قلت ، والغيت المحاكم الوطنية ، ثم عزل خان بهدور شريف رئيس البلدية اجابة لطلب ابن سعود . اذ عندما وصلت اخبار الفتنة الى القصر بالرياض ، وعلم السلطان عبد العزيز بما كان لهذا الرجل في اثارتها واغراء قومه بعرب نجد ، طلب من الانكليز عزله فعزلوه حالاً . ثم ادغمت المحاكم على انواعها بالمجلس الذي يشترك في رئاسته الشيخ حمد بن الشيخ عيسى والبليوس ، فأمست الحكومة المثلثة حكومة مزدوجة ، وامسى الحاكم الوطني شريكاً للحاكم الانكليزي .

ها قد وصلت الى بعض السبب او كله في ما سمعته من الشكوى والانين هناك واشرت اليه في الفصل الاول من هذا القسم من الكتاب . قلت ان في البحرين نهضة وطنية ، ولكنها سياسياً مقيدة . كانت قبل ايار قانطة فأمست بعده منكوبة . وكان السبب في القنوط نفس السبب في النكبة ، لا يختلف الا في درجتي الشدة والاستمرار . ومن المسؤول ؟ اذا سألت البحارنة يجيبون : الانكليز واذا سألت الانكليز يجيبون : العرب البحارنة .

هناك حقيقتان في تاريخ البحرين وسياستها الخارجية لا اظن احداً من الفريقين ينكرهما . الحقيقة الاولى التي الفت اليها نظر البحارنة هي ان البحرين ، عندما كان لها اسطول حربي قبل عهد الشيخ عيسى بن علي ، كانت وجيرانها في احتراب دائم . وقد علمت مما شاهدته وتحققته في البلاد العربية كلها ان بلية العرب الاولى — كانت ولا تزال — هي النزوع في كل

قبيلة . بل في كل عشيرة ، الى الاعتزال والاستقلال . لا يعرف العرب من مبدأ التضامن غير ما توجبه القبيلة ، او يدعو اليه في بعض الاقطار المذهب الديني . لا يخضع العرب بعضهم لبعض الا كرهاً ، ثم ينزعون الى السيادة المستقلة اذا وجدوا الى ذلك سبيلا . الجهل ايها الادباء هو عدو التضامن ، والجهل المسلح ايها الامراء هو عدو الرقي والعمران . فالسلاح بيد العرب اليوم ، اللهم اذا كانوا لا يخرجون على روح البداوة فيهم اولاً فيجمعون شملهم تحت علم واحـد ، هو مضرّ بهم ، مضرّ جداً . لا يزال اكثر الامراء جاهلين ، او انهم من المحافظين على القديم البالي ، المقاومين لمبدأ النشوء والتجدد . فما الفائدة من القوة بايديهم ؟ اوجه هـذا السؤال الى الشبيبة الراقية . ما الفائدة من اسطول يمكننا من الاستيلاء على قطر والقطيف والاحساء اذا كنا لا نوسع في الملك غير القوة الغاشمة ، الجاهلة ما في روح الزمان من اسباب الرقي والعمران ؟ يلزم البلاد العربية في هذا الزمان عشرون سنة في الاقل من السلم الدائم المستمر ، فتؤسس المدارس اثناءها — تُفتح على الدوام — وتنفتح لابنائها الاذكياء ابواب العمل في الصناعة والزراعة وفي علوم الادارة والاقتصاد . هذي هي الحقيقة الاولى التي لا يجهلها احـد من ادباء وعقلاء البحرين .

اما الحقيقة الثانية التي الفت اليها نظر الانكليز فهي ان السياسة العربية التي تمشوا عليها في الماضي لا تصلح اليوم لا لهم ولا للعرب . هي تضر بمصالح بريطانيا العظمى ليس في البلاد العربية فقط بل في الشرق اجمع ، وتضر بالاسم الانكليزي وكل ما يرمز اليه من ادب وعلم وكرم اخلاق وثقافة . السياسة الانكليزية في البلاد العربية تتخبط في مضيق جانب منه مظلم ، وجانب براق فيه وشل من الماء خدع المحبين ، يخفيه سراب خدع الاعداء . مثل ذلك في البحرين وعدها الشيوخ بالدفاع عن البلاد اذا هم دمروا اسطولهم الحربي . على ان كل دفعة من ذاك الدفاع افقد البحرين كما بينت شيئاً من

حريتها واستقلالها . اجل ، قد كان الدفاع درجات الى الاستيلاء . فمن يثق بعد ذلك بوعود الانكليز وعهودهم ؟ اما اذا كانوا يبغون رفع العلم البريطاني فوق دار الحكم في الجزيرة فليس اسهل من ذلك . ان دولة من الدول الصغيرة التي لاتزيد قوة اسطولها على ربع قوة الاسطول البريطاني لتستطيع ذلك في يوم واحد . ولعمري ان مثل هذا الاحتلال خير من تلك السياسة التي هي كالبركان او الزلزال ، لايظهر شيء من قصدها الحقيقي الا مرة كل خمس او عشر سنوات .

حدثني احد ادباء البحرين قال : اذا كان هناك فرق بين الاستعمار الانكليزي واستعمار الدول الاخرى فهوان هذا كالجزار الذي يقتل شاته دفعة واحدة وذاك كمن يعذب الشاة وخزاً بالابر حتى الموت . فاية الميتتين اولى؟

ولو لم اكن شاهدت ما شاهدت، وسمعت ثم تحققت ما سمعت ، لكنت اقول ان محدثي انما هو شرقي يتكلم . ولكنها ويالاسف الحقيقة بعينها لا مبالغة فيها .

اما ان سياسة انكلترا في البحرين هي غير سياستها في الاقطار العربية الاخرى فما لا شك فيه . قد اوضحت مبدأها المرن في معالجة شؤونها الخارجية بحسب اختلاف المكان والزمان ، وشرحت ذاك المبدأ في سياستها العربية في كلامي على لحج والنواحي التسع المحمية . وبما ان وزارة المستعمرات تدير هذه السياسة بواسطة وزارة الهند بلندن ، ثم بواسطة حكومة الهند ببمباي او بسملا ، فلا اظن انها عالمة كل العلم بما يحدثه من المشاكل وكلاؤها السياسيون في البلاد العربية ولاسيما في خليج فارس . فضلاً عن ان الوكيل يموه في بعض الاحايين دفاعاً عن عمله وحفظاً لمركزه . قد توخيت الصراحة التامة في ما اكتبه بهذا الشأن غيرة على الاسم الانكليزي وحباً بتحسين وتعزيز العلائق الودية بين انكلترا والبلاد العربية . ومما ينبغي لي ان اذكره

أن كثيراً ما يسوّد صحيفتها احد ابنائها المقربين الذين لا يكونون في الشرق مؤمنين لولا نفوذ بعض اصدقائهم واقاربهم في الحكومة بلندن .

حدثني احد الموظفين في حكومة العراق عن ثورة ١٩٢٠ ، وعندما علم اني مسافر الى البحرين قال : ستجتمع هناك بواحد ممن وصفت . وكان قد افاض بالحديث في طبقة من الموظفين الذين يتخذون السر آرنلد ولسون مثالاً في الحكم ، فيحذون حذوه في سياسته ، وليس لهم شيء من حسناته ، هم من الضباط الذين لا يصلحون لغير الخدمة العسكرية ، فلا يفهمون العرب ، ولا يحبونهم ، ولا يعطفون اقل العطف على قضيتهم .

جئت البحرين وما تمكنت من الاجتماع بالوكيل الانكليزي[1] فيها . ولكني مما سمعته — وقد حدثني به الكبير والصغير والوطني والاجنبي — تحققت ما قاله زميله في حكومة العراق . فقد كان يقاوم كل فكرة اصلاح في الجزيرة غير التي يكون له فيها الكلمة الاولى والاخيرة ، ولا يرى حقاً في غير القوة ، ولا عدلاً في غير سياسة العسف والاستبداد . فهل هي يا ترى سياسة دَوْنِن ستريت بلندن او سياسة ابي شهر ؟ وما هي اذا كانت من الاثنتين سيئات الوكيل وسيئات الاصيل ؟

ان البليوس موظف له رئيس في ابي شهر ، وللوكيل في ابي شهر رئيس في سِمْلَه[2] ولولي الامر في سمله رئيس في دائرة حكومة الهند بلندن ، ولرئيس تلك الدائرة مستشاران او وزيران في الوزارة الخارجية ووزارة المستعمرات ، ولهاتين الوزارتين سياسة ثابتة قديمة التقليد غامضة المقاصد في الشرق وفي البلاد العربية تتمشى دائماً عليها . اضف الى ذلك ان كثيراً ما تصدر الاوامر

---

(١) بما ان الحكومة البريطانية عينت وكيلاً في البحرين بدله ، بعد الحوادث التي مرّ ذكرها ، فالغرض من تعريفه باسمه في الطبعة الاولى قد انقضى ولا لزوم للتكرار .

(٢) المركز الرئيسي للحكومة الانكليزية في الهند .

من احداهما مبنية على هذه الخطة لا على الجديد المهم من الاحوال في البلاد التي تختص بها ، فتجيء الاوامر وما فيها غير النزر من العدل والحكمة ، بل ما فيها شيء احياناً من الحكمة والعدل . فتصل الى رجل متصلف متعسف ، قصير النظر والاناة ، فينفذها بالحرف ويثير على امته غضب الاهالي وكوامن بغضائهم .

فلو كان الوكيل حصيفاً حكيماً ، مدركاً عوامل النشوء في البلاد التي هو فيها ، عطوفاً ولو بعض العطف على مساعي الوطنيين في سبيلها ، لكان يطلع حكومته على حقيقة الحال ويسألها التبصر بها والاسترشاد بشيء من حقائقها في تكييف الخطة السياسية وتلطيفها . ولو كان الوكيل رجلاً كبيراً ، مثله الاعلى العدل في كل الاحوال ، او لو كان في الاقل دمث الاخلاق ، لين الجانب ، محباً للعرب ، لكان يتمكن من خدمة بلاده بما فيه كذلك مصالح البلاد التي وكل بها . ليس هذا بالامر المستحيل ، وليس مثله بالرجل النادر في الحكومة او في الامة الانكليزية .

اعود الى الحادث الذي اوجب هذا البيان . طلب اهالي البحرين في الثلاث السنين الاخيرة ثلاثة مطالب من الحكومة كلها ولا شك عادلة . فوقفت السياسة الانكليزية تصدهم وتقاوم مساعيهم . طلبوا تشكيل جمعية تشريعية فاجاب الشيخ عيسى بالايجاب وابى البليوس . طلبوا تنظيم بوليس وطني فرضي الشيخ عيسى ورفض البليوس وأصر على الرفض . قدموا لائحة أصلاح استحسنها الشيخ عيسى وعزم على تنفيذها فقامت عليه وعلى الوطنيين قيامة الوكيل وبذل ما لديه من قوة ونفوذ في احباطها .

سمعت شكاوي الوطنيين في البحرين ، وسمعتها في ما اتصل بي من اخبارها بعدئذ في الفريكة ، فافسحت لها مجالاً في هذا الكتاب تستحقه ،[1]

---

(١) جاء في الطبعة الاولى بعض التفاصيل التي اصبحت ولا قيمة لها سياسية او تاريخية بعد تغيير « البليوس » وتقرير المصير الذي رضي به الاهالي مكرمين .

وكتبت الى احد الافاضل هناك كتابا اقتطف منه ما يلي :

« ان في الامر ما يضعف الامل بالانكليز . ولكن التاريخ لا ينبئنا بحادث من الحوادث كانت فيه احدى الامم القوية الاستعمارية متغلبة وحدها على امة اخرى صغيرة . بل نرى غالباً ان المغلوب يساعد على نفسه الغالب المنتصر . ماذا يحمله على ذلك ؟ الجهل يا سيدي والضعف والجبن والخنوع والمصلحة الخاصة والطاعة العمياء . — اما الطاعة العمياء فقد تفيد في سبيل وطنية عامة كبيرة كما لو كان العرب كلهم اليوم يطيعون ابن سعود مثلاً او الملك حسيناً او الامام يحيى بن حميد الدين ويمتثلون لاوامره . عندئذ يعز العرب وعندئذ يصلح الاوروبيون سياستهم في الشرق ، وعندئذ ، اذا طغى في البحرين او في قطر آخر طاغٍ اجنبي او وطني تذكرونه بكلمة ذاك العربي الى الخليفة الثاني وتقوّمون امره بحد السيف .

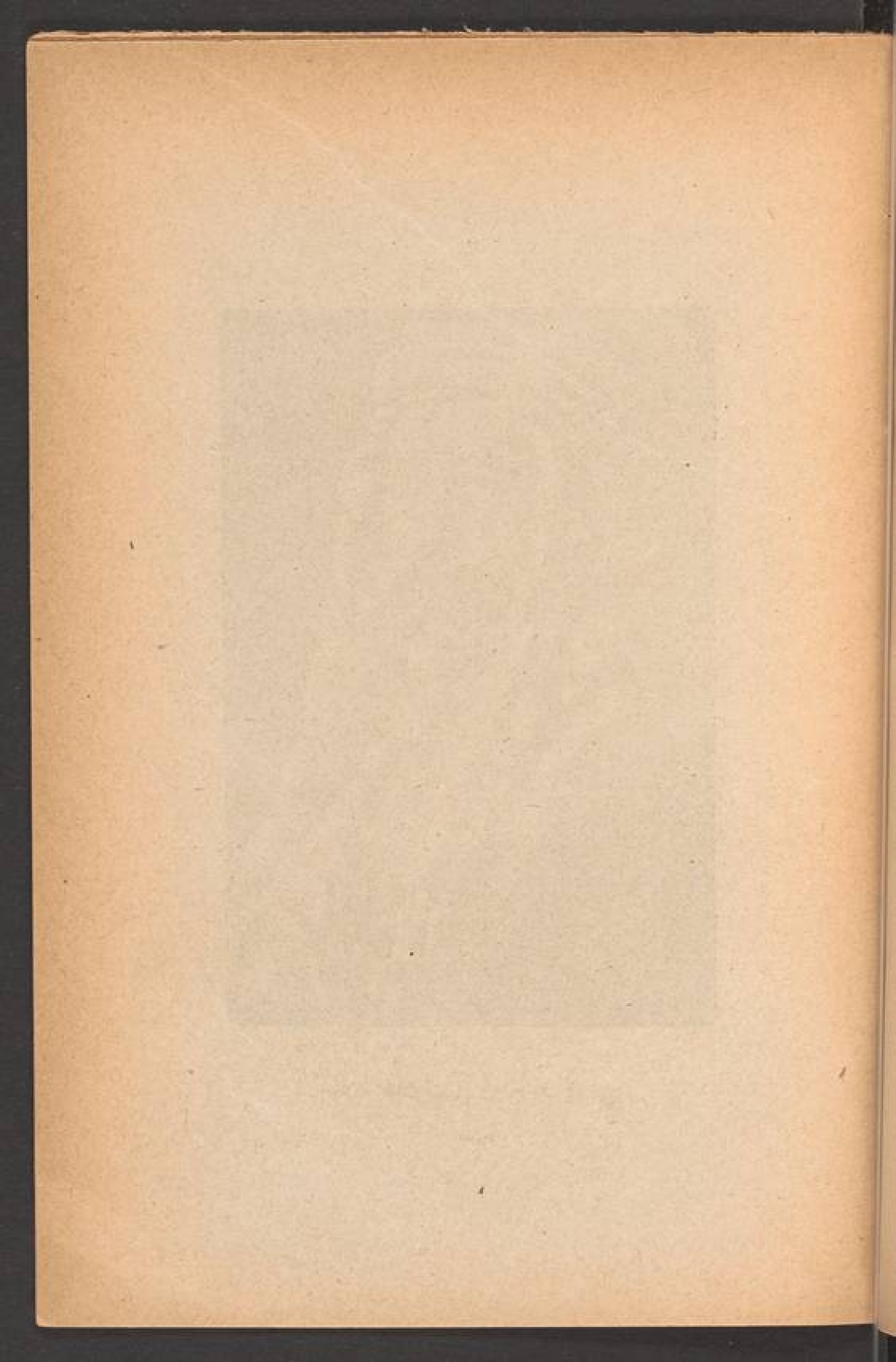
« اما الآن فعليكم ان تقتبسوا العلوم وتصبروا . واني اعتقد ان العلم بالاقتداء هو اسرع فعلاً واثبت . لذلك استحسن وجود الشركات الاجنبية المجردة من كل صبغة سياسية في البلاد . فانها تعلمنا الاقتصاد والنظام والادارة من حيث لا ندري او نشاء . والعرب في حاجة شديدة اليها كلها . . .

« ما جنى على العرب يا صديقي العزيز غيرانفسهم . كنا وكنا وكنا — حديث مبتذل . يوم اقفلت المدارس في البلاد فعم الجهل وتوارثه الابناء كنا الجانين على انفسنا ، المقيدين بالجهل ارواحنا ، وبالخرافات عقولنا . واليوم نرى العلم والمال بيد الاوروبيين . ويوم كان الاثنان بيد العرب اخذهما الاوروبيون عنهم . فهلا اقتدينا بهم في الماضي فنأخذ عنهم اليوم ثم نأخذ عنهم ؟ وزني في الوقت نفسه روح القومية الشاملة فينا . لو كنت في سوريا وعرفت سبب بليتها لقلت : اما نحن فعرب من صميم العرب وديننا الاسلام.

فلا سبيل اذن الى التفرقة جنساً ومذهباً . ولو كان لكم عشر سنوات من التعليم المدني العام لفقتم غيركم في الربوع الساحلية . وهذا ما ابغيه لكم . التعليم في المدارس ٠ التعليم بالاقتداء . الا ان العربي الكسلان اذا رأى ما هو مدفون في ارضه من الخيرات تتغير نفسيته وعقليته وكذلك اعصابه فلا تيأس يا صديقي ، ولا تظن ان الله يخص جيلاً واحداً من خلقه بالكمالات كلها .

« واذا شئت ان احدثك كطبيعي لا كالهي اقول : ان الناموس الطبيعي الذي يعمل في عالمي الحيوان والنبات يعمل كذلك في الانسان وفي الاجتماع البشري . ومن النادر ان يرى الانسان نشوءاً تاماً . بداءة ونهاية، في نوع واحد من النبات او جيل واحد من الناس . اما نحن الذين نقاسي ما نقاسيه في هذا الزمان فقسمتنا قسمة من يجيء في آخر دور النشوء او في اهم اطواره . فنرى بعين البصيرة نتيجة ما مضى وما هو كائن فنتألم لانها دنية منا وقصية ، دنية لاننا نراها ، وقصية لان اليد لا تصل اليها . لنحمد الله اننا نراها في الاقل فنقبل قسمتنا قانعين وعاملين في نفس الوقت في السبيل الذي هو روح الناموس والتطور .

« تلذ لي محادثتك وانت من المفكرين . فكل مفكر يتألم ، ولكن ليس كل من يتألمون واحداً . منهم من يقتلهم الالم ، ومنهم من يزيدهم قوة على العمل . الامة المتألمة اليائسة تموت — تساعد المتغلب عليها . والامة المتألمة الطويلة الامل الناهضة الثابتة في نهوضها ، انها لتحيا ، وانها لتساعد ابناءها على المتغلبين . »





جلالة الملك فيصل بن الحسين بن علي

القسم الثامن

الملك فيصل والعراق

العراق

سنة ١٩٢٢ م — ١٣٤٠ هـ

•

حدوده : شمالاً ، جبال ارمينية والاناضول . شرقاً ، بلاد ايران . جنوباً ، خليج فارس . جنوباً بغرب ، البادية وحدود نجد . غرباً ، البادية وحدود الشام .

الويته : ١ً الموصل ، ٢ً السليمانية ، ٣ً كركوك ، ٤ً شبه لواء اربل ، ٥ً ديالى ، ٦ً بغداد ، ٧ً الكوت ، ٨ً الدليم ، ٩ً الحلة ، ١٠ كربلاء ، ١١ العمارة ، ١٢ المنتفق ، ١٣ البصرة .

عدد سكانه : نحو مليونين وتسعمئة الف نفس ، منهم مليون ونصف مليون من الشيعة ، ومليون ومئة وخمسون الفاً من السنة . وثمانية وثمانون الفاً من اليهود ، وثمانون الفاً من النصارى ، واثنان واربعون الفاً من الاديان الاخرى .

مساحته : نحو مئتي الف ميل مربع

شعوبه : العرب والفرس والاكراد والاتراك والارمن والاشوريون .

اهم قبائله : المنتفق وبنو لام والبو محمد وربيعة وتميم والدليم وعنزى وشمّر والاقرع وعفك وما يتفرع عنها كلها من الافخاذ والبطون العديدة .

مذاهبه : الشيعة : جعفريون وبعض الزيديين والاسماعيليين .

السنة : حنفيون وشوافع وحنابلة .

المسيحية : يعاقبة ونساطرة وكلدان وسريان وكاثوليك وروم ارثوذكس وبروتستانيون . ثم اليهود والصابئة واليزيدية والفرس والهندوس والبهائيون .

الفصل الاول

من العُروبة الى التغرُّب

الاسلوب الغربي في المراسلة – الارقام والاسماء – اقتصاد قبيح – شرقي متحذلق – لهجة من البصرة وشتائم من لندن – مسيحي يتذوق ويتسكسك – شهم انكليزي – الفرق بين العرب والهنود – شرب الوسكي – رطانات البصرة – محطة سكة الحديد – قطار مستشرق – عربية اوردية خنشارية – الناطرة تكسر رجلها – النجدة من اور الكلدانيين – الاعرابي وعياله المسافرون الى بغداد – القطار ينتظرهم خمس ساعات – ضابط انكليزي يحمل على الرئيس ولسون – في محطة بغداد – واين انت يا بغداد؟ – رجل ينادي: بابو بابو! – الرطانات الاوردية – عربة الوتى – ركبتُ في جنازتي – سيارات النقل – جسر «مود» – من تل الى آخر – اين امين الكسباني؟ – الامينان يلتقيان – كاتب سر جلالة الملك المعظم يزين روحه في كوخ مُجم – الحرية والاخاء والتنازل عن المساواة عند كاتب السر الاول – في القصر – الملك فيصل.

ابحرت من عدن اقصد الى العراق. فلما وصلت الى بمباي التي لا بدمن التعريج عليها اذا كان السفر في احدى بواخر الهند، لقيت في قنصلية اميركا كتاباً من الديوان الملكي في بغداد كُتب على الآلة الكاتبة العربية هذا نصه:

بغداد – ١٠/٦/١٩٢٢

حضرة الفاضل امين افندي ريحاني المحترم

اما بعد التحية والاكرام. فقد تناول صاحب الجلالة الملك فيصل كتابكم الصادر من لحج في ٧ شعبان وامرني بالكتابة اليكم معرباً عن سروره بقدومكم العراق ومتمنياً لكم سلامة الحل والترحال في طريقكم اليه وتوفيقكم في ما تزعمتم بهذه الرحلة لاجله.

وقد ارسلت الكلمة الى بمباي لاجل تصديق جواز سفركم الى العراق.

واما توجهكم الى الرياض فقد أرسل السؤال به الى عظمة السلطان عبدالعزيز ومتى جاء جوابه بعثنا اليكم به والسلام . رستم حيدر

هوذا غير ما الفته في اليمن والحجاز . كتاب غربي الاسلوب حتى في تاريخه ، يخلو من الديباجة والتنسيق . وفيه الدليل على النفرة من تلك الطريقة القديمة التي تبدأ غالباً بالبسملة وتنتهي بـ ان شاء الله ، ويُخبأ الغرض من الكتابة فيها بين مدبجات التبجيل والتمجيد او يضمَّن قصاصة عنوانها « حاوي خير » . فتكون هي الكتاب يقينا ، ويكون الكتاب الرسمي ترهة من الترهات .

قد احسن الديوان الملكي لدولة العراق المتغربة . ولكن الاحسان في الاقتباس درجات تتجاوز الخروج من المألوف العربي الى المألوف الغربي . على اني وان كنت افضل الخط على هذه الاحرف العربية السمجة ، وأرى في الكلمة المخطوطة حساً لا تظهره بل تقتله احرف الآلة الكاتبة ، فقد استبشرت بهذا الكتاب لما يرمز اليه ، وان كان في اول سطر منه ما هو في نظري من قبيح المقتبسات الاوروبية . فان الاستعاضة عن اسماء الاشهر بالارقام في التاريخ لمن المبالغات الحديثة بالاقتصاد عند الغربيين . وما كل مظاهر الاقتصاد آية في الحكمة والجمال : اما اذا قيل ان المسألة ذوقية فجوابي هو ان ذوق الشرقيين فيها ارفع من ذوق الغربيين . وفي كل حال ان الالفاظ اجمل من الارقام نظراً وسمعاً ومعنى . اذا كُتبت زانها الخط ، واذا لُفظت زانها النطق . مثلاً : ايار وحزيران وتموز — ٥ و٦ و٧ او شعبان ورمضان وشوال — ٨ و٩ و١٠ . فأية الطريقتين اجمل ، بل اي الذوقين اصح؟

المسألة طفيفة ولكنها حرية بالاعتبار في ما تومىء اليه من عقلية مقلّدة . قد استبشرتُ مع ذلك بكتاب الديوان الملكي لما قرأت خلال سطوره من المقاصد الحميدة في دولة العراق الجديدة . ورأس هذه المقاصد انما هو فك

قيود التقاليد القديمة العقيمة وان كان في تاريخ الرسائل وانشائها . بيد انه يتبادر الى الذهن فكر في سؤال : هل يعد مجرد التقليد الخارجي من مظاهر الارتقاء ؟

سافرت من بمباي الى البصرة في باخرة انكليزية من بواخر الخليج . وكان حظي فيها اني شاهدت مثالا آخر من الرقي العراقي قبل ان اصل الى العراق . اجاب احد المسافرين سؤالي دون ان يدرك ذلك، ودون ان يحدثني . هو رجل ابيض الاديم ، اشقر الشعر ، ازرق العين ، دخل ورفيق له يتقدمان نفراً من الخدم يحملون امتعتهما وكان احد اولئك الخدامين اخطأ في ما فعل فانهال عليه المسافر الاشقر بالشتائم والمسبات بلغة انكليزية فيها الكنة قبيحة . اللهجة من البصرة والشتائم من حانات لندن .

عرفت بعدئذ ان رفيق المسافر ارمني وهو يعرف الانكليزية ايضاً ولا يحدث حتى رفيقه بسواها . . وما شككت بانهما عرفا اني عربي لاني كنت معلناً ذلك على رأسي بالكوفية والعقال . من اليوم الاول والثاني والثالث فاتفق ان التقينا على ظهر الباخرة صباحاً فسلمت باللغة العربية فرد سلامي باللغة الانكليزية . فقلت : انه ولا شك ارمني . ثم عرفت انه ورفيقه من تجار التمر في البصرة ، فلم يتنازلا لمحادثة غير بعض الانكليز في الباخرة . الا انه سألني ذات يوم عن الشهر الاسلامي الذي كنا يومئذ فيه ، فأجبته بكلمة فشكرني باخرى كانت الخاتمة .

بعد ثلاثة اشهر كنت وبعض الاصحاب نشاهد سباق الخيل خارج البصرة فرأيت هناك رفيق السفر الاشقر الامجد وهو يحمل ناظوره كالانكليز معلقاً في عنقه، فبسم لي ابتسام التزلف ثم دنا من احد رفاقي وسلم عليه باللغة العربية — التي لا لكنة فيها . فاستطلعت بعدئذ خبره اليقين فقال صديقي : هو من البصرة ، من مسيحي البصرة ، سمسار تمر . فقلت : يظهر ان عندكم في

العراق طبقة من الناس شبيهة بطبقة المتفرنجين في سوريا. المتحذلقين المتفوقين بين قومهم ، المتمسكين امام الاجانب . فقال : نعم ، وهم يتشبهون بالانكليز كما ترى بحمل الناظور ولبس القفازات في الصيف .

اعود الى سؤالي : هل يعد مجرد التقليد الخارجي مظهراً من مظاهر الارتقاء ؟ ان في رفيق السفر هذا جواباً واحداً لا أظن القارئ يرتاب بصحته. ولكن هناك رفيق سفر آخر وجواباً ثانياً . هناك طبيب انكليزي كان على عادة قومه الاماجد في السفر يعتزل الناس ، فيجلس في الزاوية او في كرسيه على ظهر الباخرة يدخن الغليون ويطالع كتاباً . وهو قلما يكترث بلبسه . بيد انه وان كان « بنطلونه » غير مكوي و « ساكوه » اشبه بالكيس منه بثوب مخيط ، فاذا وقف ومشى مشت المهابة في ظله وافصحت عن كريم محتده. دنا هذا الرجل يوماً مني فاعتذر وسلم وجلس الى جنبي قائلا : انت عربي . فقلت : نعم . فقال : وعلى ما اظن من العلماء . فقلت : سائح طالب علم . فقال : هذا تواضع منك . قد سمعت من حدث عنك في بمباي. ثم قدم بطاقته فبادلته الاكرام .

— اني مما اعرفه عن العرب وهو قليل احترم الامة العربية كل الاحترام اقمت زمناً في الهند ، في خدمة الهنود — وليس في الطب سياسة كما تعلم — فما لقيت جداء مما لقيته في بضعة اشهر في بلاد العرب على هذه السواحل — كرم الاخلاق ، الاخلاص ، الضيافة ، انك لاتجدها في الهنود . اما الشجاعة والرجولية فهما في المسلمين منهم فقط لا اظننا نقاسي في الهند ما نقاسيه لو كان في الهنود شيء من وفاء العربي واخلاصه اذا آخاك . قد تكون طالعت تاريخ الانكليز في تلك البلاد فتعرف كم من مرة طعننا الهنود في الظهر — خانونا وغدروا بنا — بعد ان عاهدونا على الولاء .

قال هذا ودعا الخادم فطلب كأساً من الوسكي والسودا وسألني متردداً

عما اذا كنت اشاركه . فأجبت بالايجاب فقال : اعرف من المسلمين من يشرب الخمر . فقلت : اني مسيحي واني آسف ان من المسلمين المصريين من يظنون التشبه بالانكليز منحصراً بشرب الوسكي . حبذا المسلم المواظب من هذا القبيل على دينه . فقال الحكيم : صدقت . نحن الانكليز نبالغ في الشرب ـ نشرب كثيراً . خذني مثلاً . اني اشرب الوسكي قبل الاكل واثناء الاكل ، وبعد الاكل ، واشرب بين الوجبات كما ترى . . . نعم ، الانكليزي في الهند ، و بالحري خارج انكلترا ، يشرب اكثر مما يشرب في بلاده . والسبب في ذلك البعد على ما اظن عن الوطن والاهل ، ثم ساعات الفراغ بين ساعات العمل وليس ما يملأها من الاجتماعات او الملاهي . ثم — وهو الخطأ الاكبر ـ ما نظنه منبهاً للحواس في ما يصحب كأس الوسكي . ويودي لو اقتدى الانكليز بالمسلمين . فقلت مميزاً : المسلمين الذين لا يقتدون بكم في شرب الوسكي . وكانت الضحكة مسك الختام .

عندما وصلنا الى البصرة صعد الى الباخرة موظفو الجمرك والصحة والشرطة واكثرهم من الهنود . وكنت قد ارسلت تلغرافاً من بمباي الى صديق لي في الديوان الملكي ببغداد عله يأمر في البصرة من يلاقيني ليهديني في الاقل الى محطة سكة الحديد . فوجدت نفسي ، ولا احد يسأل عني ، أغرب في هذا البلد العربي القديم مني في « كاركتي » الهندية . وانا العربي الذي قضى الايام والليالي يطالع الحريري والجاحظ ، ويطحن كريات دماغه في طواحين الكسائي وسيبويه ، ـ ولا اقول الرحالة الشهير القادم من اليمن ـ اراني قد نزلت من الباخرة بين قوم لا افهم لغتهم . فيكلمني الحوذي بعربية يضطر ان يترجمها الى شيء من الانكليزية يُفهم . هو ايضاً هندي . ساق جواده الاعرج يجر عربة مكسرة وفيها بقية آمال مبعثرة تدعى الريحاني .

رحنا في قفر سبسب خارج البصرة ، فاجتزنا معسكراً مهجوراً ، ثم آخر فيه بعض الجنود الهندية ، ووصلنا بعد ساعة الى محطة السكة بل الى بقعة

ينتهي عندها الخط. ولا محطة غير كوخ لبيع التذاكر وجدناه مقفلاً. ووجدنا خارج الكوخ ولداً عربياً، والحمد لله، تلطف فراح ملبياً طلبنا يبحث عن الموظف. فعاد بعد ساعة يتبعه رجل – هندي – هو مدير السكة ولكنه يحسن الانكليزية. فسألته سؤالا تعمدت فيه التعريف عله يكرمني في الاقل بان يخصني بشقة في العربة وحدي. وكان الرجل فهيماً كريماً، فكان لي ما شئت. اعطاني تذكرة واحلني في القطار محلاً فسيحاً فيه ماء وحمام. وكنت قد كتبت برقية الى الصديق امين الكسباني في الديوان الملكي بالعاصمة وهممت بالرجوع الى بيت العرق لارسلها فاخذها مني قائلاً: سأرسلها من هنا رأساً. ثم امر بمن يعتني بامتعتي وودعني قائلاً: اذكرني لدى نوري باشا. الوداع صاحب.

الوداع صاحب. انت وان كنت كريماً لمن اغلاط الانكليز في العراق. والمسيحي المتفرنج وان كان عالماً لمن اغلاط التاريخ في العراق. والمتغرب اليوم في القشور فقط، مسيحياً كان ام مسلماً ام اسرائيلياً، لمن اغلاط الاجتماع في العراق، بل في الشرق كله. حبذا مدنية جديدة تمتع الشعوب على السواء بثمارها اليانعة. والحق يقال ان ما ترمي اليه المدنية الحقة، غربية كانت ام شرقية، هو تعميم وتعزيز قياس واحد في اداب المعاملة واداب السياسة بين الامم. فلا يستشرق الغربي ولا تستشرق الصناعة الغربية اذا ما لفحتها شمس الشرق، ولا يتغرب الشرقي في سطحيات الحياة اذا ما بسم له خادم السيد الاوروبي.

صفرت القاطرة وجرت، فجرّت وراءها قطاراً مستشرقاً جيء به وبعماله من الهند – قطاراً عسكرياً من بقايا الحرب. لا اظن امة من الامم الاوروبية او الاميركية تستخدمه لغير الشحن، فتصلحه مع ذلك وتجدده. والقاطرات في اشد حاجة الى التصليح من العربات. بل قد تكون اجتازت زمن الخدمة فامست لا تصلح للعمل ولا يصلح فيها للبيع غير الحديد.

خرجنا من ضواحي البصرة مساء في قطار البريد «السريع» الذي يصل الى بغداد ساعة الغرب من اليوم التالي ، اللهم اذا سلمت القاطرة من عاديات الطريق. قد سلمت والحمد لله ليلاً. فنهضنا صباحاً فاذا نحن في أور الكلدانيين في الوقت المعين بلائحة السفر. وهذا خادم عربة الاكل جاءنا بفنجان من الشاي قدمه من النافذة اذ لا تماشي في هذه العربات تصل الواحدة بالاخرى.

سرنا من أور الى الدراجة فوقفنا فيها وقفة نفذت بالعظم صدمتها . وقفنا فجأة وثبتنا تجاه العاديات ثبات الابطال. نظرت الى لائحة السفر فاذا فيها : الفطور في سماوة . ولكن خادم المائدة جاء بعد ساعة يدعونا للاكل فخرجنا من منازلنا وسرنا نلبي دعوته ونستطلع خبر القاطرة . فعلمنا انها ، حرسك الله، كسرت رجلها، وانهم ارسلوا الى أور يستحضرون قاطرة اخرى.

وانثالت ساعات الصباح واشتد الهجير ، فصعد الزئبق في الميزان الانكليزي الى درجة المئة والست درجات ، فعمدنا الى المراوح في العربات فاذا هي مثل كل شيء في ذاك القفر نائمة ولا حياة فيها . ثم جاء الخادم يدعونا ثانية للاكل — الغداء . فوددنا لو ان ساعات الانتظار كلها ساعات اكل وشرب وحديث، فتنسينا مصيبة القاطرة ومصيبتنا في فيافي العراق وقيظه .

جاء ونحن في الدراجة اعرابي يركب حماراً يتبعه حريمه وعياله ماشين . جاءوا يبغون السفر الى بغداد في قطار البريد السريع ، وكان وصولهم الى المحطة بعد الميعاد بخمس ساعات فقط ، فقال الاعرابي يخاطب الحرمة ام عياله، ما قلت لك يا سعيدي ان القطار ينتظرنا . وقد انتظر غيره من البدو هذا القطار المستشرق اللطيف . ثم جاءت القاطرة الصالحة من أور بعد الظهر فخرجت بنا من الدراجة وراحت تشيل بذنبها ، بارك الله فيها ، فاوصلتنا الى السماوة ساعة الشاي . ثم الى الديوانية التي كان قد أُعِد لنا الغداء فيها فقُدِّم عشاء بارداً .

جلست الى المائدة واثنان من الانكليز منهما ضابط علمت من الشرائط الصفراء والحمراء والخضراء التي على صدره انه من ابطال الحرب ، وعلم ، والله اعلم ممن علم ، اني قادم من اميركا . فسدد توا الى الرئيس ولسون اسهم غضبه .

— قد نزع من يدنا السلاح الذي لا يصلح لضبط امور العراق سواه ، سلاح القوة ، العزم ، الشدة .

فقال رفيقه : لو لا تدخل اميركا لكنا اليوم نحكم العراق كما يجب . فكمل الضابط قائلاً : ولخير العراق ... وما الانتداب ؟ وما تقرير مصير الشعوب ؟ الفاظ هي ليس الا . قد حكم القوي الضعيف مئات من السنين قبل ان اخترع لنا رئيسكم ولسن هذه الكلمة — الانتداب . وحكمه حيناً بالعدل وحيناً بالعسف والشدة ، بما تسمونه ظلماً . وكان الظلم احياناً انفع له من العدل . وهل تظن ان هذه الكلمات الجديدة — الانتداب — تقرير مصير الشعوب — تصلح الشؤون وتحرر الامم ؟ ترانا مقيدين في هذه البلاد بارادة عصبة لا سيادة لها ، نعم ، عصبة الامم ، وباراء رجل نظري يحلم الاحلام هو رئيسكم المستر ولسون ، فلا نستطيع عملاً مفيداً لا لانفسنا ولا لاهل البلاد .

اعجبني من الرجل يقينه وصراحته ، فالجرأة الادبية مستحبة دائماً . وما هو بعسكري فقط بل من غواة الادب ايضاً . رأى معي كتاباً للمؤلف الشهير المستر ولس فاستعاره ولم يُعده الي . لعل التبعة في ذلك على القطار لاننا بعد ان دخلنا كل الى منزله لم يرَ بعضنا بعضاً . وعندما وصلنا الى بغداد الساعة الثانية بعد نصف الليل — اي بعد الميعاد بثماني ساعات — كان هو ممن خرجوا من القطار وانا ممن ناموا فيه . والسبب في ذلك ان ذاك الضابط ، وان كان غريباً ، كان له في البلد بيت يأوي اليه اية ساعة كانت اما انا فلم انتظر احداً

من اصدقائي ان يوافيني الى المحطة بعد نصف الليل ولم أجز لنفسي طرق ابوابهم او ابواب الفنادق في تلك الساعة . فنمت ، فلم يشأ على ما اظن ان يزعجني ، فغنم بلطفه الكتاب .

نمت ساعة فايقظني صوت ينادي : بابو ، بابو ! فتحت النافذة فاذا باحد الحمالين يبغي خدمتي ، فطردته وعدت الى النوم . ثم بعد دقائق سمعت طارقاً يطرق زجاج النافذة ، فنهضت فاذا بحمال آخر ينادي بالهندية بابو ، بابو ! فعمدت الى العصا وكلمته بها . أتتبعني لغات الهند الى العاصمة عاصمة العباسيين وقطب دائرة الشعراء المحدثين ؟ رح يا ملعون الوالدين ! وبعد هـذا السب والضرب نمت ثالثاً ونهضت باكراً ، فنظرت من النافذة يميناً ، ثم من النافذة يساراً ، فلم اجد لبغداد اثراً من الآثار ، ولا رأيت على الرصيف احداً من الناس . فساورني شيء من الغم ، كثير من الغم . فقلت في نفسي : الماء البارد للغم خير دواء ، وعندك الماء يا رجل . فاستحممت ولبست ثيابي هادىء البال متشبثاً بالآمال . علّ وجهاً من وجوه الاحباب يشرق على المحطة مع شروق الشمس .

جاءت الشمس وحدها ، ولم اجد عند المحطة حتى من ينقل امتعتي الى البلد . فبعثت الولد الذي ضربته بالعصا يستحضر عربة وبت انتظر ، واقفاً وحدي في ذاك القفر المفجع ، افتش في الآفاق الاربعة عن بغداد . وبعد نصف ساعة ظهر في جهة النخيل عربة لماعة ، يقودها جوادان مطهمان ، يزين رأسيهما الريش الاسود الكبير . فذكرني الريش بخيل عربات الاموات في جنازات النصارى . فقلت في نفسي : وانت في جنازة يا رجل — في جنازة آمالك ، وغرورك — في جنازة ما كنت تتمثله وتتصوره ببغداد .

ركبتُ في جنازتي ، فساق الحوذي خيله شرقاً الى النخيل فبدا لنا عند ما دخلنا على جانبيه شيء من حركة المقاهي في ظلال تخللتها اشعة الشمس .

ثم سمعت صوتاً يذبح ، وقرقعة توجرجت الارض منها . هي عربات النقل — سيارات الجيش الهائلة — يسوقها جنود الانكليز . والغريب ان غبارها وروائحها نفعتني تلك الساعة فأخرجتني من الجنازة . هي طلائع الحياة في بغداد اليوم . اما بغداد الامس ففي كتاب الف ليلة وليلة تجدها .

وصلنا الى الجسر ، جسر « مود »[1] وهو مثل الارجوحة معلق بشاطئي دجلة ، بيد انها ارجوحة من المراكب تنحني تحت ارجل المارين ، وتئن تحت دواليب العربات ، وتصفق تحت سنابك الخيل ، وتصرخ صرخات مزعجة تحت اثقال سيارات الجنود . وكان النهر في صباح يوم من ايلول صغير الموجة لطيفها ، يسير سيراً بطيئاً هادئاً ، ومجذاف البلام[2] يحرك اللجين فيه فيستحيل ذهباً في اشعة الشمس . وهناك في الجهة الشرقية تبدو بغداد بقبابها الزرقاء ومآذنها البيضاء ، وقصورها على الشاطىء . تعيد الى من كان شغفاً بمجد الزمان الغابر شيئاً من البهجة والانشراح . بيد ان تلك البهجة قصيرة الاجل ، فهي لا ترافقه الا في النهر او الشط بلغة اهل العراق .

عبرت الجسر فاذا انا في شارع مهشم حزين ، كأنه بحاناته ومقاهيه قد خاض عباب الحرب العظمى ، ووصلت الى نزل « مود » فوجدت العمال يشتغلون في الترميم ، فقصدت الى نزل آخر ، فاذا الخدم يغسلون الصحن وكان صاحب النزل لا يزال نائماً . فخاطبني احد الخدم يقول : ولا غرفة واحدة فارغة ولا سرير . ثم دلني على فندق في الجوار المبارك فبادرت اليه ، فاذا هو كالامل الضائع في صدر الجائع ، فانزلت مع ذلك امتعتي ودفعت الى الجوذي ما تبقى من ثروتي ، ودخلت الغرف واحدة بعد الاخرى ابغي

(١) Gen. C. F. Maude, K. C. B. C. M. G. D. S. O. هو قائد الجيوش البريطانية الجنرال ث ف مود الذي فتح بغداد في ٢٦ جمادي الاولى عام ١٣٣٥ — ٩ اذار سنة ١٩١٧ فسمي الجسر باسمه .

(٢) البوني صاحب البلم . والبلم — اللفظة هندية — زورق للعبور والترعة .

احسنها فاذا هي مثال المساواة الاعلى — كلها صغيرة مظلمة باردة عفنة . فقلت لا حول ولا ، قد يكشف الفطور البلا .

فطرت ثم سألت الخادم عن الهاتف فقال انه لا يزال نائماً . فقلت : التلفون اريد . فقال : تجده في « المذجستيك » فسددت خطوات اليأس الى النزل ذي الاسم الجليل ، فلقيت صاحبه في الباب يستنشق هواء الصباح ، فقلت : عندكم تلفون ؟ فقال : نعم .

— وهل تظن ان احداً في قصر الملك يجاوبني الآن اذا تكلمت ؟

— ومع من تريد ان تتكلم ؟ مع امين الكسباني ؟

بُهتُ حقاً ثم قلت : أساحرٌ انت ام نبي ؟ فقال : انا من تل كيف[1] وامين الكسباني عندي . ثم نادى الخادم وامره ان يدلني على غرفته .

كان الباب مفتوحاً اذ لا نوافذ للغرفة غير واحدة تفتح مثل الباب على الرواق . وكان الامين في ثوب النوم واقفاً امام المرآة يزين روحه ، وكانت ذقنه قد ابيضت بالصابون فلما رآني ابيض منه الوجه كذلك ، ووقعت الموسى من يده . ثم رشقني بالشتائم السوداء .

— متى وصلت ؟ وكيف تصل قبل الوقت المعين ؟ هذه قباحة منك . تشغل اصحابك بك فيستعدون للقائك ثم تباغتهم هذه المباغتة . وانت الاديب المشهور بالذوق والادب .

— ألا تسمح بكلمة ؟

— سامحك الله . ماذا اقول لمن ناموا باكراً البارح لينهضوا باكراً اليوم لملاقاتك ؟ القطار وصل قبل الوقت المضروب ؟ يقولون لي : ولماذا لم ينتظرنا

(١) تل كيف بلد في الموصل واهله موصوفون بالحذق والنشاط .

في المحطة . واذا قلت : انه رجل مثل القطار شاذ الطبع والسلوك ، فهم لا يفهمون ولا يعذرون .

– ألا تسمح بكلمة ؟

– سامحك الله . قد خاب ظني بذوقك وادبك .

فقلت وانا لا ازال واقفاً في الباب ، صابراً على ذي السباب : وانت الذي قضيت حياتك في انكلترا ، وكنت على العمل في الليل ادأب منك عليه في النهار ، ايزعجك الرواح الى المحطة نصف الليل او بعده ، وهب انك علمت ان القطار لا يصل قبل الصبح افما كان يجب عليك ان تحيي الليل ، اكراماً لصاحبك على الاقل ، لاعباً بـ « البريدج » ثم تخرج ساعة الفجر الى المحطة تستنشق الهواء ؟ الحق يقال يا امين ان سنة في بغداد اورثتك الكسل والخمول .

بعد هذه المشاتمة تصافحنا وسلمنا سلام الاحباب . وجلست اطالع آخر اعداد جريدة الـ « تيمس » الانكليزية التي كانت على الارض .

– نحن علمنا ان القطار تأخر ولكنه من عاداته ان يتأخر اثنتي عشرة ساعـة .

– مالنا والقطار . عسى ان يكون حالك احسن من حاله . يظهر انك الفت الظلمة في انكلترا فأحببت الاقامة في هذا النزل وفي مثل هذه الغرفة .

– هذه بغداد ، فنادقها شبيهة بعضها ببعض ، ولا فرق بينها في غير الاسماء والاجور .

– أحقاً ما تقول ؟ الا يوجد في هذا النزل غرفة ترمقها الشمس ولو بلحظة ؟
اجاب الامين متبرماً : هذا احسن نزل في بغداد وقد نجد لك غرفة فيه .
فقلت مصراً على المشاكسة : مثل هذه الغرفة ؟

– افلا تتنازل الى مساواتنا ؟

– اذكر ان للمساواة اقنومين آخرين هما الحرية والاخاء . وبما اني قد آخيت النجوم واقترنت ثانية بالحرية في بلاد العرب فسأتنازل عن المساواة وانام على السطح .

فسبني بالانكليزية ثم بالعربية ثم قال : جرحت ذقني – الا تخشى البرد ؟

– اخشى العفونة اكثر من البرد . اين قصر الملك ؟

– لا قصر لجلالته .

– واين هو نازل ؟

– خارج السور – خارج المدينة .

– اوَلا يؤذن لي ان انصب خيمتي خارج المدينة ؟ صدقني يا اخي اني امرض في مثل هذه الظلمات . قد صرت بدوياً فلا يطيب لي غير الفلاة . أليس عندكم بدو خارج المدينة انزل عندهم – معهم – عليهم ؟ . . . اذن تزورهم .

فقال الامين متهكماً : ولكنك تتنازل فتزور جلالة الملك اولاً. أليس كذلك ؟

– طبعاً ، طبعاً . لا تؤاخذني .

فضحك وفرح بغلبتي . فأخبرته اذ ذاك بما جرى لي منذ وصولي الى البصرة حتى وصولي الى محطة بغداد ، فرثى لحالي وغفر لي نزقاً انساني الواجب . وكنت قد علمت وانا في بمباي بالعملية الجراحية التي اجريت لجلالة الملك واخبرت في الطريق الى العاصمة انها نجحت وان جلالته قد تماثل الى الشفاء .

– أفلا ينبغي ان اكتب الى جلالته كتاباً اهنئه بصحته واعلمه بوصولي؟

سنكفيك مؤونة الكتابة .

وكان قد أتم صديقي تزيين روحه ، ولمَّ شعث طبعه ، فعادت اليه السكينة ، وتجلى فيه الحلم والوقار ، فصار اسلس من الماء ، كما يقال ، وألين

من اعطاف النسيم . ام الهاتف في النزل وعاد يقول : ستقابل جلالته اليوم. فسررت جداً بذلك .

وبعد ساعة ركبنا سيارة اميركية سارت بنا هائجة تثير النقع في شارع بغداد الجديد ، الطويل المستقيم الوحيد ، الذي يمتد من اول المدينة جنوباً الى اخرها شمالاً ، وخرجنا من البوابة عند نظارة الدفاع ، فررنا بثكنة الى اليمين وواصلنا السير الى طريق الاعظمية حتى وصلنا الى بستان على احدى حواشيه بيت صغير انبأت المواعين في فنائه بانه بيت فلاح يكثر عنده الحليب واللبن . بل هو بيت مدير الزراعة الخاص لجلالة الملك . ثم نزلنا عند بيت آخر صغير داخل البستان ، شبيه ببيوت الـ « اسبستوس » التي كانت تبنى في ايام الحرب بساعة وتنقل من مكان الى مكان ، فاذا هو مفروش بالفرش الاوروبي ببساطة افصحت عن ذوق لطيف ، وفيه خزانة كتب معلق فوقها صورة الملك فيصل مع الكاتب الافرنسي الشهير اناطول فرانس، ومنضدتان وراء الواحدة منها شاب عصري ، وضاح المحيا ، عالي الجبين ، حسن البزة ، بادر الى استقبالنا ، وكان في ترحيبه مثله في لبسه انيقاً دقيقاً — رسمياً . هو رستم بك حيدر السكرتير الاول لجلالة الملك ، وصاحب الكتاب الذي صدرت به هذا الفصل .

شربت القهوة في ديوانه ، وتلمست في محدثي بالرغم عن حجاب الرسميات نفساً هادئة كيسة ، وعقلية راقية ، وتمتعت بعدئذٍ اثناء اقامتي في بغداد بشيء منها وراء الحجاب ؛ سأشاركك ايها القارىء به . اما الان فهو الذي عجل، شكراً له ، بتحقيق ما جئت من اجله . عمد الى الهاتف على منضدته ثم قال : سيدنا يقابلكم الآن .

سرنا في ظلال النخيل الى بيت لا يعد في القاهرة او في بيروت فخماً ممتازاً . ولكنه مبني على شاطىء دجلة في بستان من النخيل · في جوار الامام

الاعظم ، وقبالة المكان الذي ازدهرت يوماً فيه المدينة المدوَّرة ، مدينة المنصور . دع عنك ذكر المنصور والامام الاعظم . البيت قصر حتى ولو كان مجرداً عن المحاسن الطبيعية والتاريخية والدينية كلها . هو قصر لان ملك العراق الاول مقيم فيه .

حيانا جنديان في الباب ، ثم استقبلنا احد الضباط فدعانا لغرفة فيها طاولة عليها سجل الزائرين ، ثم جاء احد الامناء يدعونا الى الطابق الاعلى فدخلنا وراءه ردهة للجلوس ، وبعد هنيهة فُتح باب افضى بي الى غرفة النوم . وكان الاسبوع الثالث من العملية الجراحية وكنت الاول الذي حاز شرف الاستقبال بعدها .

الامير فيصل بن حسين بن علي بن نُمَي ، ابن بنت الرسول ، قائد جيش الشمال العربي في الحرب العظمى ، ممثل العرب في مؤتمر فرساي ، حامل لواء الوحدة العربية في اوروبا ، حاكم الشام ، ملك سوريا ، ملك العراق ! قد تتبعت وانا في نيويورك هذه المراحل الباهرة في ذلك التاريخ ، تاريخه القصير المجيد ، وانا معجب به كل الاعجاب ، مكبراً منه الاعمال والاقوال والمقاصد العالية ، متأسفاً اني لم اجتمع به في باريس او في لندن او في الشام ، محتفظاً بكل شاردة من شوارد الشوق والأمل . ثم وفق الله فارتحلت شرقاً الى البلاد العربية فكانت عاصمة العباسيين ، خصوصاً لان فيها بطل احلامي ، نوراً من الانوار المقصودة ، ومحجة من المحجات المنشودة .

لم اشعر وانا داخل الى غرفة النوم ، على ما تقدمها من الرسميات الملكية الغربية ، باني داخل على ملك من ملوك العرب ، هو اكبرهم في اوروبا شأناً واصغرهم في البلاد العربية سناً . ذلك لان الخيال مني رافق فيصلاً في الخمس السنوات الاخيرة فادناني منه فاحسست تلك الساعة ان وراء الستار صديقاً لي واخاً في الجهاد الوطني . وما كان الحس ولا التصور خؤوناً .

دخلت فاذا بجلالة الملك جالس على الديوان مكشوف الرأس ملتفاً بعباءته . فوقف وتقدم يلاقيني وسلم عليَّ سلام الاخوان . وكان وجهه الذي شبهه احد كتاب الافرنج بوجه المسيح اشبه به يومئذٍ على ما اظن منه في الماضي . لان المرض اكسبه لوناً تخف فيه حدة الحياة وتكاد تضمحل ، فيمتزج امتزاجاً لطيفاً بالنور الناعم الجالس هادئاً في عينيه ، ثم جوّفه قليلاً تحت العظم الاعلى فصار يظهر ما فوقه اي الجبين اكثر اتساعاً ورفعة ، وما دونه مستطيلاً مسنماً . اما في صوته وابتسامه واشاراته فقد كان اشبه بجلالة الملك ابيه .

شكرته على جميل تعطفه في استقبالي يوم وصولي وهو لا يزال في حال النقه . فقال انه يشاركني في الشوق الى المشاهدة . ثم هنأته بصحته وبعيد جلوسه — العيد الاول لملك العراق الاول — فابتسم ابتسامة فيها بعض الغم وانتقل بالحديث الى رحلتي .

— انها رحلة عجيبة يا امين وسيكون فيها ولا شك فوائد كثيرة للعرب . كنا مرافقين لك معجبين بكل ما وصلنا من اخبارك وبما طالعناه في الجرائد .

ثم سألني بعض سؤالات عن البلدان التي زرتها وعن امرائها وحكامها . وكان لا يزال الضعف يمنعه عن الافاضة بالحديث .

— احب ان تخبرني كل شيء وسنجتمع في ما بعد اجتماعات عديدة .

فاستأذنت بالانصراف فوقف وهو يقول : سنجتمع في ما بعد . ثم اعتذر ، وكان ذلك من جميل التواضع فيه ، عن تقصير في القيام بواجب الاكرام والضيافة .

ولكنه بعد ان خرجت دعا الكسباني فحدثه بكلمة ، فعاد الصديق الي يقول : امش — الى النزل بامر جلالته . وقد امر ايضاً بسيارة اثناء اقامتك في بغداد .

الفصل الثاني

لا حكومة ولا انتداب

بركان الثورة – الملك في يد الاطباء – سقوط وزارة النقيب – عيد الجلوس غير المأنوس – اتحاد الاحزاب – مطالبها – ملحق من النهضة الوطنية العراقية – استعباد الف سنة واستعباد سنة واحدة – وفد الاحزاب في قصر الملك – الشيخ مهدي البصير يخطب في الجمع – رئيس الامناء يعقب على كلامه – وصول المندوب السامي مهنئاً بعيد الجلوس – الشعب يصيح : ليسقط الانتداب ! ليسقط الانكليز! – مطالب زعماء النجف – عريضة العشائر – عزل رئيس الامناء – الفرق بين السر ارنلد ولسون والسر برسي كوكس – اقفال الاحزاب الوطنية – نفي الزعماء الوطنيين – الامة ساكتة ساكنة – وحجج الاسلام لا يحتجون – تأسيس حزب وطني معتدل – سياسة الملك فيصل – لا حكومة ولا انتداب .

يوم وصلت الى العراق كان بركان السياسة قد انفجر من كل جانب ، فترامت من النجف الحمم ، واستعرت في بغداد النيران ، وتصاعد بين الرافدين اللهيب والدخان . في ذاك الحين قام الزعماء يطلبون رفض الانتداب ، وانتخاب المجلس النيابي ، واعلان الاستقلال التام ، وتأييد العرش . وسمع بين الاصوات صوت الشاعر الحكيم يقول :

« انا شاعر يبغي الوفاق موحد ... بين الشعوب سبيله الارشاد
ما الفرس والاعراب الا كفتا ... عدل وما الاتراك والاكراد
لم تكفنا هذي المطامع فرقة ... حتى تفرق بيننا الاحقاد »

وكانت الحركة قد اشتدت قبل عيد الجلوس بايام قلائل ، فأثرت بصحة الملك وزادت بآلامه التي كانت الزائدة المعوية سببها ، فاشار الاطباء بعملية جراحية فاجلها جلالته الى ما بعد العيد . اما الوطنيون ، المتطرفون منهم والمعتدلون ، فلم يؤجلوا مما سعوا اليه شيئاً . ويظهر ان صوت الشاعر اثر فيهم يومئذ تأثيراً حسناً فحملهم على توحيد المطالب والآمال .

وقد كان لحملاتهم ثلاثة اهداف، اي الوزارة والحكومة والملك نفسه، فاستخدموا لها ثلاثة انواع من السلاح سلاح الكلام . صوبوا مدفعيتهم على الوزارة التي كان يرأسها السيد عبدالرحمن النقيب فاستقالت ، وطاروا بطياراتهم الخطابية فوق دار الانتداب فأزعجت المندوب السامي فبات حائراً لا يدري ما يفعل ، ولاسيما ان الجيوش يومئذ لم تكن تكفي لاخماد فتنة صغيرة .

اما جلالة الملك فجاءته الوفود يوم العيد ، اول عيد لتاج العراق ، عيد الجلوس — غير — المأنوس — يهنئونه ويطالبونه والحكومة المشارفة بالوعود التي مر العام الاول عليها دون ان ينجز شيء منها . وكان في البلاد حزبان سياسيان ، الحزب الوطني العراقي وحزب النهضة العراقية ، فاتحدا بعد ان تشاقا واجتمعا اجتماعاً خصوصياً في اليوم السابق لعيد الجلوس قررا فيه بالاتفاق رفع احتجاج الى « اعتاب صاحب الجلالة المعظم » ونقطة الدائرة فيه ان الامة كانت تنتظر بعد التتويج حكومة دستورية نيابية ، فمرت السنة الاولى ، والحكومة لا تعرف أدستورية هي ام نيابية ام ملكية مطلقة . — ان الامة يا صاحب الجلالة تكابد انواع الاضرار الناتجة عن سوء الادارة « المتغلب عليها نفوذ البريطانيين المنافي لروح الاستقلال لانهم اتخذوا سياسة التفريق وغيرها من الاعمال غير المشروعة رائداً لهم » . وهذه الوزارة وزارتهم اسقطناها لانها كانت العامل الاعظم في مناهضة آمال الامة . وبما ان المجلس النيابي لم يتألف حتى الآن ، وبما ان خطر الانتداب يهدد استقلال البلاد وحرية العراقيين ، فقد اجتمعت هيئتا المركز العام للحزب الوطني العراقي والمركز العام لحزب النهضة العراقية وقررنا عرض الحالة على جلالتكم مسترحمين صدور الارادة الملكية في ما يلي :

اولاً — الكف عن الاعمال المار ذكرها لاسيا التدخل البريطاني في الامور الادارية .

ثانياً – تأليف وزارة من ذوي الجدارة المخلصين لكي تطمئن الامة باصلاح الحال .

ثالثاً – ان لا تعقد اية معاهدة ولا تجري اية مفاوضة بشأنها قبل تأليف المجلس النيابي .

ولم يكتف المركز العام لحزب النهضة العراقية بهذا الاحتجاج وهذه المطالب فأصدر مذكرة خصوصية من قلب البركان ، فيها لفتات الى الماضي وأنّات ، شكا الحزب سياسة الحكومة التي لم يرَ الشعب في خلال سنة منها فرقاً بينها وبين سياسة الحكومة الاحتلالية ، ورفع احتجاجه الى العالم المتمدن ، والى كل من يؤلمه صوت الشعب مهضوم الحقوق ، المنبعث من طيات افئدة مليئة بالآلام والاماني . – اننا نحتج على سياسة حكومة بريطانيا الاستعماريين ، وعلى الانتداب وانصاره الممقوتين في البلاد ، في هذه البلاد العراقية التي كانت تستعيد في مثل هذا اليوم من العام الماضي ذكرى المنصور والرشيد والمأمون ، « مؤملة ان يكون بلسماً للجروح البليغة التي احدثها الاستعباد السنة الماضية في جسمها النحيف . »[1]

وهذه الامة ذات الجسم النحيف والقلب المفعم بالآلام والآمال تعيد عيدها السعيد بتتويج جلالة مليكها وارتقائه عرش العراق الذي « شيد فوق جماجم الشهداء » وتبعث الوفود ليرفعوا الى جلالته اصدق عبارات التبريك والخطباء ليسمعوه انينها وشكواها .

جاء صباح اليوم الثالث والعشرين من شهر آب وفد الحزبين المذكورين ومعهم جمهور من الانصار احتشدوا في فناء القصر ، فطلب الزعماء من الملك

(١) والغريب العجيب ان امة استُعبدت الف سنة ظلت حية سليمة الحواس لتشكو استعباد سنة واحدة في هذا الزمان ، ولم يُسمع لها في الالف سنة مضت لا صوت ولا صدى .

ان يأمر بمن يمثل جلالته لسماع الخطب هناك . فأمر جلالته رئيس الامناء لينوب عنه . فخطب في الجمع خطيب الحزب الوطني العراقي ، الشاعر الضرير الشيخ مهدي البصير، فهيج في رئيس الامناء الشجون فانتصب خطيباً . وحق له الكلام اذ كان الملك انابه عنه وحق له ايضاً ان يبرهن على حماسة — وقيل حماقة — فيه أنسته انه موظف في البلاط ، وان المندوب السامي لبريطانيا العظمى قادم في تلك الساعة ليهنئ جلالة الملك بعيد الجلوس ، وان عليه هو واجب الاستقبال والترحيب . وقد اتفق انه بينا كان حضرة الاستاذ رئيس الامناء يخطب ضد الانتداب اقبل المندوب السامي السر برسي كوكس ورجال الوكالة البريطانية لاداء التبريك فاستقبلهم الجمع صارخاً : ليسقط الانتداب ! ليسقط الانكليز !

وكان قد وصل لسعادة المندوب في اليوم السابق برقية من زعماء النجف يؤكدون له فيها انهم لا ينكرون « صداقة حكومة بريطانيا العظمى ، صداقةً خالية من المحاباة » ويعلمونه برغائب الامة العراقية « التي لا يمكنها التنازل عنها مهما كلفها الامر » وهي المواد الآتية : اولاً — رفض الانتداب بتاتاً واعلان حكومة بريطانيا العظمى بالغائه رسمياً . ثانياً — مراجعة حكومة جلالة ملك العراق لوزارة الخارجية لا لوزير المستعمرات . ثالثاً — رفع تدخل ممثلي اية سلطة اجنبية لان في الامة نفسها الجدارة لادارة شؤونها .

هذا من علماء الشيعة وجلالة الملك يومئذٍ معهم . الا ان بعض العشائر لبوا الدعوة التي قيل ان دار الانتداب مصدرها ، فاجتمعوا يحتجون على العلماء ويعلنون ولاءهم للانكليز . ثم قدموا عريضة بذلك الى المندوب السامي ، فكانت بيده حجة على جلالة الملك . وقد اشار فخامته بان سيعلن العريضة اذا كان الملك يرفض المعاهدة . فلم يكن لينتظر والحال هذه مثل تلك المفاجأة القبيحة في القصر . اما اذا قيل ان من حقوق الشعب — واليوم يومه — ان يفاجئ السياسيين في اي وقت واي مكان كان فيجب ان يكونوا

متأهبين له دائماً ، فمن النادر ان يحدث في بلاط ملكي – في غير وقت الحرب او الثورة – مثل هـذا التظاهر الرسمي – رسمي هو بوجود مندوب الملك واشتراكه به – ضد دولة من الدول العظمى . بل هي اهانة اقتبلها السر برسي كوكس هادىء البادرة ساكناً . واظنه سُر بها . فقد كان متردداً كما قلت في اتخاذ خطة الشدة لقمع ما كان ينذر بثورة اخرى في العراق مثل ثورة سنة ١٩٢٠ ، فازالت حادثة البلاط التردد ، وشحذت فيه عزماً كان موضوع ريب الناس .

ولكنه انكليزي واكثر الانكليز في مثل هذا الموقف واحد . فلم يدع السر برسي الحادث المؤلم يحول دون واجبه تلك الساعة ، بل دخل على الملك وهنأه بعيده الاول . ثم اجتمع بعدئذٍ به فدار بينهما حديث كانت له نتيجتان ، الاولى في البلاط الملكي وهي عزل رئيس الامناء ، والثانية في دار الاعتماد وهي الخطة التي اخمدت النيران التي كانت تتصاعد من بركان السياسة المتفجر .

لا ريب ان الاقدار ساعدت السر برسي كوكس في عمل لم يكن من طبعه ومبادئه . لانه رأياً وخلقاً وسياسة نقيض سلفه السر آرنُلد ولسون الذي سبب او عجّل ثورة ١٩٢٠ فالسر آرنلد حاد المزاج ، سريعُ الغضب ، شديد البأس ، عالي الهمة ، قصير النظر ، يضرب ولا يحسب للعواقب حساباً . والسر برسي لين العريكة ، هادىء البادرة ، طويل الاناة ، يعالج الامور بالحنكة التي قلما تلجأ الى القوة . على انه ادرك ما في الحادث من الخطر على منصبه اذا كان لا يقف موقف كل انكليزي بل كل انسان اهين رسمياً واهينت حكومته وامته . قد يقال ان الملك في عزله رئيس الامناء اعتذر ضمناً وصراحة عما بدا . ولكن ذلك لا يكفي . بل قد يزيد الوطنيين شغباً وهياجاً . فاقدم على العمل الذي اقتبله العراق ساكناً ساكتاً .

قلت ان الاقدار ساعدته في سياسة الشدة ، لان جلالة الملك بعد عيد

الجلوس سلم نفسه الى الاطباء ، وكانت الوزارة قد استقالت فاصبحت الحكومة كلها بيده – خلا له الجو – فاصدر امره باقفال الحزبين ، الحزب الوطني العراقي وحزب النهضة العراقية ، وبتوقيف جرائدهما ، ثمّ نفي الى هنجام[1] الزعماء وفيهم الحاج جعفر ابو التمن وحمدي افندي الباجچي والشيخ مهدي البصير ، واخطر مجتهدي الكاظمين السيد حسن الصدر والشيخ مهدي الخالصي بتسفير نجليهما ، وهما ، من زعماء النهضة ، الى ايران ففعلا دون تردد او احتجاج .

وكان جلالة الملك رهين الاطباء وموضوع الاشاعات المتعددة ، منها اشاعة موته التي ضجت لها العاصمة واتخذها انصار المنفيين ومن تبقى من الاحزاب الوطنية حجة على سكوتهم واخلادهم الى السكينة . غير انه يستغرب سكوت ثلاث من « حجج الاسلام » المجتهدين وهم : السيد ابو الحسن الاصفهاني والسيد حسن الصدر[2] والشيخ مهدي الخالصي ، وقد كانوا

(١) جزيرة في الخليج الفارسي تجاه بندر عباس .

(٢) قد زرت السيد حسن صدر الدين في بيته بالكاظمية فألفيته رجلاً عظيم الخَلق والخُلق ، ذا جبين رفيع وضاح ، ولحية كثة بيضاء ، وكلمة نبوية . له عينان هما جمرتان فوق خدين هما وردتان . عريض الكتف ، طويل القامة ، مفتول الساعد . وهو يعتم بعمة سوداء كبيرة ويلبس قميصاً مكشوف الصدر رحب الاردان فيظهر ساعده عند الاشارة في الحديث . ما رأيت في رحلتي العربية كلها من اعاد الي ذكر الانبياء كما يصورهم التاريخ ويمثلهم الشعراء والفنانون مثل هذا الرجل الشيعي العاملي الكبير . وما اجمل ما يعيش فيه من البساطة والتقشف . ظننتني ، وانا داخل الى بيته ، اعبر بيت احد خدامه اليه . وعندما رأيته جالساً على حصير في غرفة ليس فيها غير الحصير وبضعة مساند ، وقد كنت علمت ان لفتواه اكثر من مليوني سميع مطيع ، وان ملايين من الروبيات تجيئه من المؤمنين في الهند وايران ليصرفها في سبيل البر والاحسان ، وانه مع ذلك يعيش زاهداً متقشفاً ولا يبذل مما يجيئه روبية واحدة في غير سبيلها ، اكبرت الرجل ايما اكبار ووددت لو ان في روسائنا الدينيين الذين يرفلون بالارجوان ، ولا يبذرون في اعمالهم غير الاحسان ، بضعة رجال مثله .

حاشية اخرى : قد اعترض العالم النجفي ابو الحارس المحترم على ما جاء في هذه

كلهم من زعماء النهضة واعلامها . على ان بعض العشائر الموالين للعلماء ، ممن لم يعلموا بسكوتهم ، ظلوا يطالبون بسقوط الانتداب ، فوجدت الحكومة الانكليزية صحيفتها في ارسالها الطيارات ترمي اكواخهم بالقذائف النارية . وقد كانت في غنى عن ذلك لان من ينادون مع المجتهدين يسكتون اذا هم سكتوا

اما اذا نظرنا في الامر نظرة اجمالية فقد افلح المندوب السامي وان كان قد اخمد في عمله ولو الى حين نار الوطنية التي رأى نفسه بعدئذ في حاجة اليها ليقاوم بها الاتراك ودسائسهم في الموصل وفي بلاد الاكراد . ولكنه في ذاك الحين لم يكن ليبغي غير امرين ، عقد المعاهدة الانكليزية العراقية وتأسيس مجلس نيابي يجيزها . وكان متيقناً ان الامر الاول لا يتم الا في ثبات الولاء والمؤازرة بين دار الانتداب وبيت النقيب . فسعى اولاً في تأسيس حزب سياسي معتدل دُعي بالحزب العراقي الحر يرأسه السيد محمود بن السيد عبدالرحمن النقيب ليكون عوناً للحكومة في انتخاب المجلس . ثم سعى في اعادة الوزارة المستعفية لانجاز المعاهدة . وكان جلالة الملك يؤثر غير النقيب رئيساً، والمندوب السامي للاسباب التي بسطتها لا يبغي سواه. وسترى بعدئذ كيف ان خُذل صديق الانكليز الاكبر في العراق بعد توقيعه المعاهدة المشهورة .

على ان هناك فترة مشؤومة مظلمة، قبل التوقيع وبعد رجوعه الى الرئاسة، كانت السيادة الانكليزية فيها مشلولة حقيقة ومعنى . فلم يكن في البلاد لا حكومة وطنية تذكر ولا انتداب. ذلك لان الملك فيصلا عمد بعد شفائه الى سياسة ازعجت دار الانتداب ، فقبل محوقلاً برئاسة النقيب ، وظل متمسكاً باهداب احزاب تلاشت ، ووطنية لجأت الى التقية واستشعرت السكون .

الحاشية من « الملايين » فقال ان مقلدي الصدر « في كافة مواطن الشيعة لا يبلغون الالوف فضلاً عن المليونين . وان جميع ما ورده من الرويات من اول عمره الى يومه هذا لا يبلغ المليونين فضلاً عن الملايين . »

اني من المعجبين بالسيد الصدر وان قلت « ملايينه » .

الفصل الثالث

مآدب القمر

حديث الملك – وعد المستر تشرشل – المعاهدة – الانتداب – فضل الحكومة الانكليزية في تتويج فيصل – الشيخ خزعل – السيد طالب النقيب – الملك بين جبلين – الملك محاط بالاعداء – الفرنسيس والاتراك والعجم وابن سعود – « ليدافع عن البلاد من يبغي احتلالها » – الكآبة والقمر – مأدبة ملكية – حديث الخواتين الانكليزيات – سكوت الملك – احد الاربعة الذين يحتقرونهم في العراق – مأدبة في الهويدر – الخاتون – الطيور والازهار وانواع الثمار والملك الكئيب – مائدة الملك الخاصة – سؤال في التطور والانقلاب – رأي السكرتير البلشفي – الشفقة والعمامة والطربوش – مصادر القمر ومآدبه .

سمعت الانكليز في العراق يقولون : هذا فيصل الذي اقمناه ملكاً ينقلب علينا في السنة الاولى . ولكن للمسئلة وجهة اخرى ، ولجلالته قصة غير قصة الانكليز قصها عليّ في المقابلة الثانية .

كان لابساً صباح ذاك اليوم ثوباً مدنياً وسدارة[1] من لونه . وكان لا يزال في وجهه اثر من العياء والضعف . بيد انه في حديثه كان شديد اللهجة صريحها . صوت ناعم فيه قوة اليقين ، وعين شهلاء يضطرم احياناً نورها الهادىء ولا يروع .

– يطلبون مني عقد المعاهدة وفيها نص صريح على الانتداب . وفي بعض موادها غموض ، فتحتمل التفاسير العديدة ، فيفسرها القوي في المستقبل لتوافق مصلحته وسياسته . وهذا لا يجوز . هذا غير ما عاهدوني عليه في لندن . قد صارحتهم هناك كما اصارحك الآن . قلت للمستر تشرشل اني لا اقبل ان اكون ملكاً على العراق الا بشرطين اولين ، وهما استقلال البلاد والغاء

---

(١) السدارة قبعة يلبسها جلالته وموظفو البلاط وهي شبيهة بالشبقة وقد جُردت من حرفها ، تختلف لوناً لتلائم الثوب تحتها ولا تختلف شكلاً .

الانتداب . فقبل المستر تشرشل بذلك ، ووعدني وعداً أيده بكلمة الشرف .
وهو ان الحكومة الانكليزية تعترف باستقلال العراق وتساعد العراقيين
بتأسيس حكومة وطنية ذات سيادة تامة وتلغي الانتداب . كل ذلك في
مقابلة معاهدة نعقدها والحكومة البريطانية تضمن لها الحق ان يكون المستشارون
والاخصائيون في حكومة العراق من الانكليز فقط وتضمن لها ايضاً بعض
الحقوق في اقتصاديات البلاد . . وهم اليوم يقولون اني انقلبت عليهم . وليس
في ما اقول وافعل غير الثبات على العهد والولاء . هذا وعد المستر تشرشل .
كلمة شرف بالغاء الانتداب . والآن يا اخي امين تجيئني حكومته بمعاهدة
تبتدىء بذكر الانتداب وعصبة الامم ثم تكرر هذه الالفاظ في اكثر
موادها . لا والله . لا اوقعها ولا آذن بتوقيعها . ولا تتألف وزارة جديدة[1]
قبل ان يجيئوني بخطة صريحة وكلمة صريحة بانهم سيبرون بالوعد .

هب ان هناك سوء تفاهم او ان المستر تشرشل وعد وعداً حالت بعد
ذلك السياسة الانكليزية دون تنفيذه ، فموقف الملك فيصل مع ذاك لا يُقدح
به واكثر العراقيين يرفضون الانتداب ويمقتونه . فهل يلام يا ترى اذا فضل
ان يكون ملك العراق على ان يكون فملاً مأمور الانتداب وفوق يده يد
المندوب السامي ؟ ولكن هناك امراً آخر لا يتغاضى عنه من أحب العدل
والانصاف . ان فضل الحكومة الانكليزية في تتويج الملك فيصل يوازي
في الاقل فضل العراقيين الذين بايعوه . فقد كان في البلاد يوم وصوله الى
العراق وقبله عدد من طلاب الملك منهم الشيخ خزعل خان حاكم عربستان
فانسحب بايعاز من الانكليز . ومنهم ذاك الداهية العراقي بلهوان الامة
السيد طالب النقيب الذي كان يطوف البلاد يومئذ بصفته وزير الداخلية
ساعياً في سبيل المجد الوهاج ، طالباً العرش والتاج ، فتعقبه الانكليز والقوا
القبض عليه بحيلة لا تليق بهم واجلوه عن البلاد . وكان نقيب بغداد السيد

(١) كانت حكومة الانتداب تحاول يومئذ اعادة تأليف وزارة النقيب .

عبدالرحمن عونهم الاكبر على ابن نقيب الموصل السيد طالب . لذلك قيل ان النقيب كان النصير الاعظم لفيصل . وهناك الامير عبدالله الذي كان يؤثره العراقيون على اخيه . اما طريقة الانتخاب فيكفي ان اقول ان الموظفين السياسيين في الالوية كانوا يديرونها .

ليس الملك فيصل ممن ينكرون الجميل . ولكنه بين جميلين، هما أحرق من نارين ، جميلٌ من سعى في سبيله وجميلٌ من بايعه . وفي الاثنين مبدآن لا يخطأ من يروم الحقيقة الوطنية في تفضيل مبدإ من بايع منهما على مبدإ من سعى . على انه من الخطل ان يعادي الملك الانكليز او ان تعادي الامة العراقية الحكومة البريطانية . قال جلالته بصراحة لا صراحة بعدها : — تراني اليوم محاطاً بالاعداء ولا صديق لي غير الانكليز . فمن اين لي بحليف لو شئت المحالفة . في الغرب في سوريا الافرنسيون وهم اعدائي . وفي الشمال الاتراك وهم يكرهونني . وفي الشرق الاكراد وقد تفلتوا من يدي . والعجم وهم يدسون الدسائس بواسطة الشيعة على حكومتي . وفي الجنوب ابن سعود وهو دائماً يهددنا بالاخوان . من لي اذاً غير الانكليز ؟ وهل يعقل اني انقلب عليهم ؟ بل هم المنقلبون يا اخي امين ، هم يعدون الوعود ولا يبرون بها .

عاد جلالته الى وعد المستر تشرشل فذكرني بجلالة ابيه يوم كان يضرب لي الامثال ويرمز بالرموز ليبرهن على انه من النادر ان يجد المرء من يفوق الانكليز في المراوغة والتلون ونقض العهود . — يطلبون مني التصديق على معاهدة لا تمكنني من تأسيس حكومة ثابتة قوية . — والحقيقة انه لو عقدنا هذه المعاهدة يستحيل علينا القيام بها . . . ترانا الان نعجز عن تأسيس جيش وطني لان العراقيين لا يلبون النداء ، لا لان الوطنية فيهم ضعيفة . لا . لا . ولكنهم يقولون : اذا كان الانكليز ينوون احتلال البلاد تحت طي الانتداب فليدافعوا هم عنها . أوَ لا ترى الحق يا اخي في هذا القول ؟

كان يتكلم جلالته بصوت هادىء وكان النور في عينيه ساكناً . مع ذلك كنت ارى في انامله دليل الاضطراب اذ كان يخرج الخاتم من بنصره فيلعب به كأنه سبحة ثم يعيده اليه . وعندما كان يتكلم عمن يحيط به من الاعداء رفع السدارة عن رأسه ووضعها على الديوان . فأنار جبينه العالي وجهه فما ارى فيه شيء من الحسن جليل ، ولاسيما ان لونه الحنطي كان لا يزال مائلاً الى الاصفرار . ان في الملك فيصل حسناً جذاباً ، وان في حديثه لهجة بليغة مقنعة . ولكن الغم الذي يكمن في قلبه يظهر مراراً في طرفي فمه وفي ابتسامه .

اني اعتقد ان في الملك فيصل مزية روحية تحبب اليه المثل الاعلى في الحياة على انه وان كان ملكاً يرى نفسه في هذا المضمار مثل كل من تعشق الكمالات ، وسعى اليها جاداً ، فرآها كقوس قُزَح بعيدة دائماً عنه . وهذا في نظري احد اسباب الغم ، رفيق جلالته الدائم ، وان توارى احياناً عن الابصار . هو الغم الروحي الذي يتضاعف في علو المناصب وخطورتها فيكون في الملوك ، وان ندر ، اشد منه في غير الناس .

قد تشرفت بمقابلة الملك فيصل ومجالسته ومحادثته في احوال شتى ، رسمياً وغير رسمي ، في البلاط وخارج البلاط ، على المائدة الملكية والى السماط البيتي ، فلم اره مرة وحده ناعم البال مطمئناً . بل كان الغم مثل الظل في اذار يظهر في مجلسه ويختفي اذا تكلم واذا سكت .

دُعيت الى مأدبة اعدها في القصر كان جالساً اليها في صفين متقابلين عشرون من كبار موظفي الحكومة العراقية والوجهاء . وعشرون من رجال حكومة الانتداب وبعض حريمهم . وكان جلالته جالساً في الوسط والى يمينه قرينة المندوب السامي اللادي كوكس والى شماله القائد العام للجيش الانكليزي في العراق . وكان قبالة الملك اخوه الامير زيد والى يمين الامير

المندوب السامي والى شماله آية النساء في العراق وشمعة سياسته الخاتون جرترود بل . وكان بيني وبين المندوب السامي سيدة انكليزية ، وقبالتي سيدة اخرى ، فعلمت من الواحدة انها حزينة جداً لانها تحب الموسيقى ولا تستطيع ان تقتني « بيانو » في بغداد ، واخبرتني الاخرى بان زوجها ، وهو احد المستشارين ، لا تهمه الازياء ولا قراءة الروايات . وكان القائد العام يحدث جارته بما صدر حديثاً من الروايات في لندن . ثم سمعت السر برسي كوكس ، وهو من غواة الصيد وله المام بعلم الحيوان ، يسأل ما اسم ال Badger في اللغة العربية . فساح السؤال حول المائدة شرقاً وغرباً ، جنوباً وشمالاً ، وعاد الى فخامة المندوب خائب الامل .

اما جلالة الملك فكان اثناء المأدبة ، منذ قدم الحساء الى ان جاء الخدم بالقهوة ، صورة من صور اليأس المحزنة ، وقد احاط نفسه بسيدة لا تحسن العربية وبقائد قاتم الجبين لا يحسن لا العربية ولا الافرنسية .

قد رأيته غير مرة يتثاءب وما سمعته والمندوب السامي يتحدثان ولو عن الطقس . وقلما هم ذلك الانكليز . فلا اظنهم ما عدا المس بل احسوا بواجب في مثل هذا المقام تفرضه عليهم في الاقل اداب المائدة فلا يتحدثون بامور خصوصية لا تهم جلالة الملك ولا تهم المدعوين من الوطنيين . فقد رأيت حتى جعفر باشا ، وهو يحسن الانكليزية ، يجتهد في محادثة جارته التي ابت ان تخرج من موضوع الرواية الانكليزية الاخيرة ، وماذا يهم العراقيين بل الشرقيين يا ترى من رواية انكليزية تبحث في احوال اجتماعية محلية وقتية في قرية من قرى انكلترا ؟

اما جاري الآخر مجيد بك الشاوي ، وهو احد الاربعة الذين يكفرونهم في العراق[1] والرجل الوحيد الذي تجاسر ان يلبي الدعوة الملكية في ثوب

(١) الثلاثة الاخرون هم : جميل صدقي الزهاوي ومعروف الرصافي وكاظم الدجيلي . وسيجيء الكلام عليهم ولهم .

عادي ، فلم يكن ليهتم بحديث الخواتين والمستشارين . بل كان يحسو الشمبانيا الكأس تلو الكأس ، ويضحك انكات جاره سكرتير مجلس النظار السيد حسين افنان . وقد كان لمجيد بك فضل على جلالة الملك تلك الليلة لانه في سلوكه فتح باباً للمجون . كان واقفاً عند الوداع الى جنبي فقال له الملك وهو يشير الى شربه الخمر . شفتك والله شفتك . فأجاب الشاوي وهو يشير الي ـ لم ادرك وجه الشبه في ذاك الحين — هذا صديقي لانه صديق المعري . ونحن يا مولانا لا نعرف غير المعري والخيام . فضحك الملك فيصل وكانت ضحكته الاولى في تلك الليلة الحافلة بكبار العراقيين والانكليز المشعشعة بنياشين الوزراء وحلي الخواتين .

اني اذكر مأدبة اخرى خارج القصر وخارج المدينة ، مأدبة ويوماً في البساتين وفي معزل عن الرسميات الغربية. هناك في شرقي بغداد على نهر ديالى ناحية بعقوبة وهي جنة العراق الشمالي، وبالقرب من بعقوبة بلدة على شاطىء النهر تدعى الهوَيدر ، فيها ملاك كريم هو فخري بك آل جميل دعا جلالة الملك وحاشيته لقضاء يوم في ضيافته . ودعا ايضاً بعض الانكليز ، منهم المس بل والمستر كورنواليس مستشار الداخلية، وصديقهم السيد محمود ابن النقيب.

نُصب السرادق بين اشجار الليمون والرمان ، وفُرش الطريق اليه بالسجاد ، ومدت المائدة تحت النخيل المزين بالذهب والياقوت من التمر ، وكان الهواء مفعماً بطيب الرياحين والازهار ، والطيور تغرد على الافنان وفي مخبئات الادغال ، والكروم مثقلة بافخر العنب المتعدد الانواع والالوان ، والمس بل تروح وتجيء حاملة غصناً من الرمان او عنقوداً كبيراً من العنب فتقدمه جاثية لجلالة الملك .

وجلالة الملك — لله من غم يأبى الحصر في القصور ، فيرافق صاحبه الى البساتين في اجمل بقعة من ارض الله . لله من غم يجلس فوق العرش ويلصق

بصاحب العرش حيثما حل وجال . فله من غم لا يحترم حتى الانكليز ، وقد يكون له في الانكليز ما يرويه ويغذّيه . اظن ان المس بل كانت تدرك ذلك فتحاول بما لها من فصاحة ولطافة ان تخفف وطأته ، وتبدد في الاقل ظلاله من بساتين آل جميل في ذاك اليوم الجميل . ولكنها والأسفاه لم تفلح. وقد تكون في ما اسرفت زادت الظلال قتاماً .

جلس الملك في الخيمة بعد ان جال في البستان يلعب بسبحته ويدخن السيكارة تلو السيكارة . وكان التعب بادياً في وجهه والحديث لا يجيء الا تكلفاً واجتهاداً . هي السياسة وهموم العرش . اضف اليها هماً جديداً جاء من الشمال . فقد كان لانتصار مصطفى كمال وقع في العراق لم يسر الملك ولا الحكومة . وكان بعض الموظفين في الموصل يفاوضون بطل الترك في الاناضول . وهؤلاء الانكليز لا يدعون جلالته ساعة وحده ، يلازمونه كالظل في كل مكان . حبذا الحكمة في سلوكهم وفي سلوك الوطنيين الذين يظنون ان المآدب لا تتم دون ان يدعى اليها احد من دار الانتداب.

ان الملك فيصلاً لاقرب ملوك العالم اليوم الى الديمقراطية ، الامر الذي لا يروق على ما اظن الانكليز الشغفين بابهة الملك . وقد يضر بجلالته سلوك لم يتعوده الموظف الانكليزي فيسيء فهمه او يعتمد الاساءة . لا احد ينكر ان يوماً في البساتين لجدير بان يكون عدو الرسميات . فلا بأس اذا جلس الملك على الديوان ، وهو في ثوب قائد الجيش العراقي ، ورفع خوذته . ولكن الموظف في الحكومة الذي يجلس قبالته على كرسي ويمد رجليه ، كما لو كان في بيته ، ولا ينزع قبعته عن رأسه ، يسيء الادب ويمتهن حرمة التاج . لا اظن ان موظفاً انكليزيا مهما علا منصبه يجلس كذلك في حضرة جلالة ملك بريطانيا العظمى . والملك فيصل دقيق الشعور شديد الحس ، لا يستطيع ان يقول الكلمة التي تؤلم او تسيء . ولا يتبسط في الحديث ويجيد اذا كان في حضرته من لا يرتاح اليه . خصوصاً اذا كانت

مجالسه كلها مثل التي حضرت خالية من الذكاء الحر او من الحرية المتشردة – البدوية .

اجل ان الملك فيصلاً لفي حاجة في بلاطه وفي مجالسه غير الرسمية الى من يحسن النكتة ، الى ظريف خفيف الروح ، الى نديم رسمي . قد عرفت اكثر من في القصر وما عرفت فيهم من يستطيع ان يقوم بهذه الوظيفة المهمة .

كنا ذات ليلة جالسين الى مائدته الخصوصية ولم يكن غيري وناجي بك السويدي وحسين افنان من خارج البلاط فسألني جلالته سؤالا ادهشني لاول وهلة ، ولكني علمت انه كثيراً ما يتباحث وكاتبا سره الفيلسوفان بمثل هذه المواضيع . قال جلالته : ما رأيك يا امين في التطور وفي الثورة ؟ اتعتقد ان عوامل العمران والتمدن الحقيقية هي اصح في التطور او في الانقلاب ؟ فقلت : اني ممن يعتقدون بالنشوء والارتقاء في الطبيعة وفي الاجتماع ، وان التطور معراج الانقلاب الحقيقي المفيد الثابت ، وان الطفرة محال ، وان للثورات دائماً رد فعل يعود بالناس الى ما كانوا فيه ، وغيرها في هذا الباب .

فعارضني كاتب سر جلالته رستم حيدر ، وهو شيعي سوري من بعلبك ، فشرع يتكلم بالثورات والانقلابات في السياسة وفي الدين كأنه دنتون او كأنه لوثيروس . النشوء بطيء . التطور ضرب من البلادة . والامة التي تنتظر وتتوكل عليه تفقد مثل الامة الانكليزية كثيراً من مزايا النفس الجميلة التي تظهر في الفنون والاجتماعات .

حانت مني اذ ذاك التفاتة الى الفيلسوف الآخر في الديوان الملكي ، الى ذاك الانكليزي في خلقه وعقله ، العربي في قلبه وشعوره ، الى امين الكسباني فرأيته يرفع بحاجبيه ويهز برأسه ، ثم سمعته يقول مخاطباً الملك : رستم يا سيدنا بلشيفي في آرائه .

فقال حسين افنان : والحمد لله انه كذلك في ارائه فقط . فضحك جلالته ضحكة كانت الاولى والاخيرة تلك الليلة . ثم سألني سؤالا آخر ظننته مضحكاً ولكنه لم يضحك احداً .

– ما رأيك يا امين في العمامة والجنيطة . واي شكل تظنه يصلح لنا في العراق ؟

فقلت : ان العرب في تهامة وفي اليمن يلبسون الشبقة اي الجنيطة وهي صنع ايديهم ليقوا رؤوسهم حر الشمس . وهم عرب مسلمون . فما ضر العرب في الاقطار العربية الاخرى وخصوصاً في التي يشتد فيها الحر مثل العراق لو اقتدوا بهم ؟

وكان ما قلت بخصوص الشبقة في اليمن جديداً عند كل الحضور ما عدا جلالته لانه قاد مرة حملة على الادريسي في تهامة . ولو علم بتلك الشبقات الكبيرة المصنوعة من القش . فدار الحديث على الخوذة وقبعة البلاط ، السدارة ، والطربوش ، ولم يجيء احد بكلمة تضحك اثناء البحث على اننا عندما صعدنا من غرفة المائدة الى ردهة الاستقبال وجلس الملك ورستم والسويدي والكسباني الى طاولة صغيرة يلعبون «بريدج» خرجت والباقون الى الرواق فاسمعنا هناك افنان نكات وددت من اجل جلالته لو انه اسمعنا بعضها على المائدة .

لا اظن ان ما يسود الملك فيصلاً من الغم ناتج عن همومه الحاضرة فقط . لا اظن ان تاج العراق وحده مصدر تلك الابتسامة الناعمة المحزنة وذاك السكوت الذي يسبق الكلام الى القلوب . ان فيصلاً ، في ما لمع من نجم سعده وهوى في السبع السنوات الاخيرة، لمن الامراء القليل عددهم في العالم اليوم . فقد دانت له ساعة قصيرة من الزمان ، فظلمته الحوادث في تسابقها حوله وعليه ، فلم يتمكن لسرعتها وتعددها من الانتفاع بها .

هوذا امير عربي كريم في دائرة خضراء من الشهرة، حولها دائرة حمراء من السياسة الوطنية، يمازجها اصفرار من دسائس السياسة الدولية. وهذه لعمري حقيقة مآدب الغم — مأدبة الشهرة التي يتلوها وجع الرأس، ومأدبة النصر في الحرب يتلوها فشل السياسة، ومأدبة الكرم العربي الممدودة فوق ضريح المطامع العربية.

اما وقد اشرت الى اسباب الغم في جلالة الملك، فينبغي لي، وانا من المعجبين بالبيت الهاشمي الذي نصر الاحلاف وجند الوفا من العرب على الاتراك والالمان في الحرب العظمى، ومن المحزونين لانه لم يفز بكل ما كان يبغيه ويحارب من اجله، ومن الطالبين الحقيقة قبل كل شيء، ينبغي لي ان اعيد النظر في تلك الحوادث التي كان الامير فيصل قطب دائرتها. هي جزء من سيرة حياته التي اصبحت جزءاً من التاريخ العام.

الفصل الرابع

الامير فيصل في الحرب

مختصر ترجمته حتى سنة ١٩١٦ – مع انور وجمال في المدينة – رجوعه الى الشام – الخطر والحيلة والنجاة – قائد جيش الشمال – مصادر التاريخ – تحامل كاتب افرنسي على العربان – شهادة التاريخ – أعتراف العرب لغيرهم بالفضل – الكرنل لورنس والعرب – الجيش النظامي – الزحف شمالاً – سقوط العقبة – شهادة الجنرال آلنبي بفضل العرب – جيش فيصل يتصل بجيش الجنرال آلنبي – حصر الاتراك في الطفيلة وفي البحر الميت – الزحف على الكرك – اعانة منكوبي الارمن هناك .

عندما زار انور باشا المدينة المنورة في طلائع سنة ١٩١٦ سافر في معيته من سوريا وفد من علماء وفيهم شاب عربي يناهز الثالثة والثلاثين من العمر خصه رئيس الوفد الشيخ اسعد الشقيري بالذكر لدى دولة الوزير قائلاً : مما يثبت لكم تعلق الموحدين ومكانتكم في قلوبهم انه بمناسبة هذه الزيارة وجد في معيتكم من آل الرسول، صلى الله عليه وسلم الامير فيصل نجل امير مكة المكرمة[1] .

---

(١) هو فيصل ثالث انجال الملك حسين بن علي بن محمد بن عبدالمعين بن عون بن محسن ابن عبدالله بن حسن بن محمد المعروف بابي نُمَيّ المتصل نسبه بالحسن ابن الامام علي بن ابي طالب . وُلد في الطائف سنة ١٣٠١ هـ ١٨٨٣ م فارسله والده عملاً بتقليد هاشمي قديم للرضاع في احدى العشائر المجاورة فنشأ في الفلاة بينهم وعلى طريقتهم . ثم اخذه والده مع اخوته الى الاستانة فقرأ هناك على اساتذة خصوصيين العربية والتركية وبعض العلوم . ولما عاد والده الى الحجاز سنة ١٩٠٩ عاد معه وتقلب في مناصب الحكومة، وتطوع مرات بصفة جندي بسيط لقتال العشائر المتمردة، ورافق اخاه الامير عبدالله في الحملة الاولى سنة ١٩١١ على الثائرين في عسير . ثم انتدبه والده ١٩١٣ لقيادة الحملة الثانية على الادريسي حليف ايطاليا على الترك فظفر بالقنفذة التي دخلت بعدئذ في ملك الحجاز . وبعد عقد الصلح مع ايطاليا أُنتخب مبعوثاً عن مدينة جده فذهب الى الاستانة وظل فيها الى ابتداء الحرب العظمى، فعاد الى مكة . ولم يطل عليه الوقت حتى كرّ راجعاً الى الاستانة للاطلاع على نيات الاتراك نحو

وكان الانكليز قد باشروا باسم الاحلاف مفاوضة امير مكة يومئذ ، الملك حسين اليوم ، لينهض بالحرب على الاتراك[1] فبعث جلالته يعتذر لانور على عدم تمكنه من زيارته في المدينة المنورة ، وارسل سيفين مرصعين بالحجارة الكريمة هدية منه اليه والى رفيقه جمال باشا .

وبينما كانت تقام الحفلات في المدينة لدولتي « الانور والجمال » وكان الوزيران الورعان ، وقد ظهرا في مظهر الدين وترديا برداء اليقين ، يقومان بالمراسيم الدينية ويرددان الصلوات ، ويجلسان كالتلاميذ في حضرة العلماء ومشايخ الطرق وهم يتكلمون في علم الجهاد ويفسرون الآيات التي لها تعلق بالعلوم الحربية[2] كان الامير فيصل بك ملازماً لهما مشاركاً في كل مظهر من مظاهر الحفاوة والاكرام . ولكنه لم يكن ليستوقف الانظار اذ كان ظله الصغير يومئذ يضيع بين ظلَّي بطلين من ابطال العثمانيين — وهادمي ملكهم .

بعد ثلاثة اشهر من هذه الزيارة المباركة كان فيصل ايضاً من المشتغلين في التهديم . ولم يكن ليخطر في بال الوزيرين او احد من حاشيتهما انه سيكون كذلك ، وانه سيبدأ في البلد الطيب الذي هم فيه فيهدم الركن العربي من ملك بني عثمان . اما ان الامر كان يجول في صدر الامير نفسه فما يحتمل الريب . لانه لو ادرك ان اباه سينفر قريباً في النفير لما كان رافق الوزيرين في

العرب وامانيهم . ثم استقدمه والده الى مكة للمفاوضة بشؤون البلاد العربية ، وانفذه بعدئذ الى دمشق ليسأل جمال باشا الرفق بالعرب ، فاقام هناك بقية سنة ١٩١٥ وكان الصلة بين جلالة ابيه وجمال فيما يختص بتجنيد جيش عربي يزحف مع الجيش التركي على ترعة السويس . وقدم يومئذ انور باشا من الاستانة فرافقه — ها قد وصلنا الى بداءة هذا الفصل — الى المدينة .

(١) راجع الفصل السابع من القسم الاول صفحة ٦٧ : الجزء الاول .

(٢) كقوله تعالى : واعدوا لهم ما استطعتم من قوة . وقوله : ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص . وقوله : لا يقاتلونكم جميعاً الا في قرى محصنة او من وراء جدر .

عردتها الى الشام ، وكاد يقع هناك في قبضة جمال لولا حيلة دبرها ابوه[1] .

عاد الامير فيصل من الشام في صيف تلك السنة باربعة الاف بندقية وعشرة الاف ليرة ليجهز حملة من العرب تشترك في الزحف مع الترك والالمان على ترعة السويس . فلما وصل الى المدينة سمع النفير يستنفر من ظلال الكعبة القبائل لمحاربة الاتراك « اعداء العرب والاسلام » . فاطاع طبعاً اباه الذي كان قد بدأ بتأليف جيش من القبائل تحت قيادة نجله الامير عبدالله فانتظم الامير فيصل في هـذا الجيش . ثم أسندت اليه قيادة جيش الشمال المشهور . فباشر عمله في حصار المدينة وتخريب قسم من سكة الحديد قرب العلا ليؤخر في الاقل وصول النجدات من الشام الى العدو .

وصلت اخبار النهضة الى سوريا فرددت صداها الاستانة . ولكن اولياء الامر هناك لم يهتموا في البدء لها[2] فادركوا خطأهم عندما صدرت الاوامر بالزحف ثانية على ترعة السويس ، اذ وجدوا العرب الذين كانوا قد اتكلوا عليهم يحاربون مع الاحلاف . بيد انهم لم يأتوا في بداءة الامر بعمل في الشمال يُذكر . اي انهم لم يؤثروا لا سلباً ولا ايجاباً في حملة السويس الثانية .

اني في كتابة هذه النبذة ارجع الى اربعة مصادر طالباً الحقيقة المجردة من الاهواء والتعصب . ومع ذلك اراني في بعض الاحايين حائراً بين الشهود الاربعة . هذا يبالغ ، وذاك يجامل ، وواحد يزيف الاعمال ، وآخر يزخرفها .

---

(١) راجع الجزء الاول صفحة ٦٨

(٢) دليل ذلك ما جاء في تقرير اركان الحرب العامة في الاستانة المؤرخ في ٢٥ ت١ سنة ١٩١٦ اي بعد اعلان الثورة باربعة اشهر : « قد حمل العرب على الاتراك في خط طوله ستون كيلو متراً جنوباً بغرب من المدينة . والثورة تمتد بسرعة توجب الاهتمام فلا يجب ان نصدق الاخبار التي تصورها لنا انها حركة بسيطة لا اهمية لها » . خمس سنوات في تركية تأليف ليمان فن سندرس صفحه ١٦٥ Cinq Ans en Turquie, par Liman von Sanders. Payot, Paris. P. 165

فقد جاء في كتاب افرنسي طبع في السنة الماضية في باريس [1] ان الفضل كل الفضل في انتصار العرب في شرقي الاردن هو لشرذمة من الجنود الانكليزية وطابور من الفرنسيس الابابسل . وقد قال المؤرخ الانكليزي : ان العرب في الحرب خفيفو الحركة ، سريعون ، مرنون ، لا يحملون الثقيل من العدة . وهم في القتال شجعان اشداء. [2] اما شهادة العرب انفسهم فاسجل منها ما فيه الاعتراف بفضل غيرهم . فقد اجمع من حدثتهم ممن شاركوا في تلك الحملة وسمو الامير فيصل في مقدمتهم ، على ان الفضل الجم في جمع شمل العربان في بداءة النهضة والتأليف بينهم انما هو لشاب انكليزي يحسن اللغة العربية كأهلها ويحسن كذلك التخلق دون تكلف باخلاقهم ، هو الكرنل لورنس . وقد اخبرني بعض من حاربوا تحت قيادة الامير زيد انه لم يكن ليأمر جنوده مرة بالهجوم الا وكان هو في الصف الاول . فاذا فات ذلك الكونت دي غنطو بيرون المتحامل على العرب والانكليز تحاملاً لا يليق بافرنسي كريم ، فكيف يفوته ذكر الكرنل لورنس ولو بكلمة في كتابه ؟

اني اسجل الحقيقة كلها ، فلا انسى من له الفضل الاكبر في نجاح النهضة ، وهو « الخيال » الانكليزي ، الذي لبى دعوته كثيرون من العربان وفيهم من عشائر القصيم ونجد . قد ينكر جلالة الملك حسين ان احداً من نجد اشترك في جهاد الاتراك ولكني اجتمعت ببعض اولئك المتطوعين فاخبروني بصراحة عرف العربي بها انهم كانوا يحاربون اولاً مع الاتراك فزاد الملك حسين الراتب فانحازوا اليه .

---

(١) « كيف استقرت فرنسا في سوريا » صفحة ٤٥ Comment la France s'est installée en Syrie, par Comte R. de Gontaut-Biron, Paris. Librairie Plon 1923

(٢) تاريخ الحرب لجريدة التيمس الانكليزية الفصل ١٤٨ الذي عنوانه نهضة العرب The Times History of the War, Chapter CXLVIII, The Arab Uprising.

وما كان امراء العرب انفسهم اميل كثيرا الى البدو . فقد قال الامير علي الذي كان في المدينة عندما وصل فيصل اليها ، فاشتركا في حصارها ، انه لم يتمكن بادىء ذي بدء من عمل كبير لان البدو لم يلبوه دائما ولم يثبتوا اذا كانوا ملبين . وكذلك الامير فيصل الذي حاول متابعة الهجوم بعد تخريب سكة الحديد عند العلا ، فخرج الاتراك من حصونهم في شهر آب وحدث بينهم وبين العرب قتال خارج المدينة خسر فيه الامير خمسمئة من رجاله وخسر الاتراك ضعفي هذا العدد ، فعادوا الى المدينة وطفقوا يضطهدون اشياع الشريف من اهلها وينكلون بهم . على ان الامير لم يتمكن من متابعة ما عده نصراً في تلك الواقعة لان قواته لم تكن منظمة . وبالاحرى لان قواته كانت لا تزال من العربان الذين لا يأتمرون بغير اوامر شيوخهم وينفرون من التنظيم .

اما اندحار الاتراك في مكة فقد اثر تأثيراً عظيماً في قوى العدو المادية والمعنوية . فتوقف جمال باشا عن شنق الاحرار في سوريا ، وامر انور قائدَ الحامية في المدينة ان يدافع عنها حتى الموت ، وتضاعفت الحامية في معان للاحتفاظ بخط الحديد ، واستؤنفت المواصلة بين الشام والمدينة بالرغم عما خربه العرب من الخط قرب العلا .

كذلك اوقف الاتراك الامير فيصلاً ، فاتخذ لنفسه مقراً حربياً بين العلا وينبع ، ولبث ينتظر انشاء جيش نظامي يدير جيوش البدو . اذ ان الانكليز كانوا قد اسروا كثيرين من العرب وضباطهم الذين حاربوا في صفوف الاتراك ، فجاؤوا بهم الى مصر حيث بدأ التجنيد لجيش العرب الشمالي . كان اكثر الاسراء من العراق وسوريا وفلسطين فلبوا مهللين دعوة الشريف حسين ، وفيهم من الضباط الذين اشتهروا بعدئذ في ساحات القتال مثل جعفر العسكري ونوري السعيد وغيرهم . بيد ان تنظيم هذا الجيش لم يتم حتى اوائل سنة

١٩١٧ ، فلما ظهر في الحجاز ازداد عدد الفارين من جيوش الاتراك[١] المنضمين الى جيوش العرب .

من انكر فضل الملك حسين وانجاله في النهضة لا يستطيع اذا كان منصفاً ان ينكر فائدتين في الاقل فيها ، فائدة للاحلاف وخصوصاً للانكليز[٢] وفائدة لعرب سوريا وفلسطين الذين اثارت فيهم مظالم جمال كوامن الضغينة والغضب ، فوجدوا في صاحب النهضة الاكبر زعيماً يتبعون ، وقطب ثأر فيثأرون ، ومحط رحال آمال يحققون .

جاءوا كما تقدم من مصر يقود قسماً منهم الامير لواء السيد علي باشا فانضموا الى جيش الامير فيصل الذي شرع يزحف شمالاً في شتاء تلك السنة حتى وصل الى حدود بادية التيه . وكان الامير علي مشتغلاً في ضرب مراكز الاتراك العديدة على جانبي سكة الحديد ، فحمى بذلك مؤخر جيش اخيه الذي استولى في زحفه على خط مسافته ستون ميلاً يمتد من البحر الى معان . اما اكليل انتصارات العرب في هذه السنة فهو سقوط العقبة ودخول الامير اليها في ٦ تموز . ولم يكن ذاك ليذكر لولا تأثيره الحسن في حركة الجنود الانكليزية في هجومهم على غزة وبير السبع .

كان الجنرال آلنبي قد استلم آنئذٍ قيادة الجيش ، فاعترف بفضل العرب

---

(١) « قد كانت خسارة الاتراك في هذه الوقعة (وقعة غزه الثانية) ٣٩١ من القتلى و١٣٣٦ من الجرحى و٢٦٣ من الفارين » .

ليمون فن سندرس في كتابه (خمس سنوات في تركية) صفحه ١٩٦

(٢) « بعد دخول العرب في الحرب بدأ الانكليز في الزحف على بادية سينا(×) »

ليمون فن سندرس صفحه ١٧١

(×) وفي الهجوم على مراكز العدو في العراق . فبدأت وقعة غزة الثانية في ٢٦ اذار ١٩١٧ واستمرت الى ٢١ نيسان ، وحدث في العراق قتال عنيف في ٢٣ نيسان انكسر فيه الاتراك وتقهقروا الى ناحية سامراً . هو هجوم مثلث كان العرب الضلع الثالث فيه .

في ردهم سريات الاتراك التي كانت تجيء من معان الى بادية سينا فتضرب الانكليز في مؤخرهم . ولو لم يكن للعرب غير هذا الفضل ، اي تأمين مؤخر جيش الجنرال آلنبي ، لكفى به فضلاً . الا ان فوائده المعنوية ظهرت في كل ساحة من ساحات الحرب الشرقية . فلولا تقدم فيصل الى حدود سينا لما ضرب آلنبي غزة وبير السبع ، ولولا سقوط العقبة لما سقطت تلك البلدة على البحر التي دافع عنها الترك والالمان دفاعاً يستحق الذكر والاعجاب . ولما عاد الانكليز الكرة على بغداد لولا ثقتهم بالنهضة العربية ورجالها وجنودها .

جاء في نشرة من نشرات الوزارة الحربية في آب ١٩١٧ : ان خطة العرب في بداءة نهضتهم لخطة وجيهة فيها حذق وحزم ودهاء . فقد خربوا اقساماً من سكة حديد الحجاز ، واستولوا على مراكز الاتراك الى جانبي السكة وكانوا في اعمالهم على جانب عظيم من الجرأة والبسالة ، فيتغلبون غالباً على جيش اكثر منهم عدداً واوفر منهم عدة .

وجاء في كتاب الكونت دي غنطو بيرون[١] « لا قيمة حربية لجموع العرب ، فهم يظهرون ويختفون كيفما يشاؤون وساعة يشاؤون ، ولا يستطيعون رد الصدمات الشديدة ، بل يتفرقون ويهربون اول مرة تطلق عليهم النار » .

وجاء في الاعمال وهي اصدق الشهود : عندما سقطت غزة في منتصف تشرين الثاني كانت قد وصلت سريات الامير فيصل الى ما بين عمان ودرعا ، فهدموا جسراً هناك ، وغلبوا الاتراك في واقعة صغيرة قتل فيها خمسة من العرب ومئة وعشرون من الترك ، ونسفوا القطار الذي كان مقلاً جمال باشا ، وهو عائد من القدس الى الشام وقد كتبت له السلامة .[٢]

(١) « كيف استغرت فرنسا في سوريا » صفحة ٤٢

(٢) « وقد ساعدنا العرب في هذا الشهر العصيب ، شهر تشرين الثاني ، مساعدة تذكر في هجماتهم على الخط بين عمان ومعان فاوقفوا النقليات بضعة ايام في الوقت الذي كان الاتراك يحاولون امداد جنودهم في القدس . » تاريخ الحرب العظمى : نهضة العرب

في الشهر الاول من سنة ١٩١٨ استأنف الامير القتال والهجوم. فاتصل جيشه بطرف من جيش الجنرال آلنبي في ناحية البحر الميت قرب رجم البحر، وتجددت الهجمات على معان التي كانت لا تزال في حوزة الاتراك. ثم امعن العرب في الغزوات شرقاً فوصلوا الى ناحية الجوف حيث كان الترك يحاولون مفاوضة ابن الرشيد في حايل ليغروه بالشريف. استولى العرب على تيما. وقطع العرب الخط على العدو فاستحال عليه بعدئذٍ ارسال النجدات من معان الى المدينة. نسف العرب قطاراً قرب تبوك مشحوناً بالجنود فقتلوا كل من فيه وغنموا كل ما فيه مع اربعة وعشرين الف ليرة.

قد كانت خطة الامير فيصل في بداءة هذه السنة تنحصر ظاهراً في الاستيلاء على معان، ولكنه اراد في اشغال الترك هناك ان يستولي على بقعة ارض خصبة في شرق الاردن وهي الكرك. فارسل شراذم من جنوده على معان يداومون الهجوم والمفاجآت، وساعده الجنرال آلنبي بما ساق من الطيارات على البلد. قد غنم العرب في هجماتهم مدفعين جبليين، وثمانية عشر مدفعاً رشاشاً، وثمانمئة بندقية، ومئتي رأس من الخيل، واستولوا على جوف الدرويش فأحاطوا بالعدو ومنعوه من ارسال نجدات الى المرابطين من الاتراك في الكرك.

كذلك تقدم الامير، وهو امين من الغدر، الى محجته فقسم جنده قسمين قسماً مشى من العقبة فاجتاز خط الحديد شمالاً ورد العدو الى مركز يبعد خمسة اميال من معان، وقسماً مشى من وادي موسى فأخرج العدو من مراكزه في الطريق حتى الطفيل التي هي على مسافة ثمانية عشر ميلاً من البحر الميت. فلما سلمت حامية الطفيل اضطرب الاتراك في الكرك وخرجوا باحد عشر طابوراً وبعض الخيالة والمدافع يستعيدونها، فالتقى الفريقان في ٢٦ كانون الثاني على شاطىء سيل الحسا، وهي على مسافة احد عشر ميلاً شمال الطفيل، فانهزم الاتراك وكانت خسائرهم اربعمئة من القتلى وثلاثمئة اسير.

لم يقف الامير فيصل عند هذا الفوز ، بل استمر زاحفاً حتى وصل بعد يومين الى البحر الميت ، فضرب جيشه مركزاً للترك هناك ، فاغرق مركباً حربياً صغيراً وعدة سنابيك، وغنم كثيراً من الحبوب، واسر عدداً من الجنود. ثم اعاد الامير تنظيم جنوده ، بعد ان ثبت قدمه على شاطىء البحر شرقاً ، ليواصل الزحف على الكرك . وكان الجنرال آلنبي قد استولى على اريحا وعبر بجنوده الاردن فتقدم نحو عمان . لا شك ان الهجوم الانكليزي شرقي الاردن كان عوناً للامير في ما سعى اليه . وكان من حظه ايضاً ان الطيارات التي جاءت تساعد الجنرال في زحفه الى عمان ساعدت كذلك العرب في زحفهم على الكرك التي استولوا عليها في ٧ نيسان ، فقطعوا عن الاتراك في معان مورد تموين مهم .

وقد كان في الكرك مئات من الارمن المنكوبين ، الذين ساقتهم مظالم الاتراك الى تلك الجهات ، فلقوا في الامير وجنوده العطف الجم ، بل كانت ايدي الاحسان تتبارى في انقاذهم من البؤس والجوع .

الفصل الخامس

معان وعمان

مساعدة فرنسا للعرب – وفد الجزائر والهدية المشهورة – الضباط المشارفون – حاجة فرنسا الى الجنود – مشاركتها في حملة السويس – ثلاثة طوابير من الجزائر والمستعمرات – الغرض السياسي – انشاء الفرقة الشرقية – البدو وضباط الجيش النظامي – تحامل الفرنسيس على العرب – خطبة في مجلس النواب – تزييف الحقائق – الاتراك يحمون عمان – العرب والانكليز يتقهقرون – سقوط معان – الهجوم العام – انهزام الجيش الرابع – سقوط درعا – الدخول الى الشام .

قد اشرت في الفصل السابق الى مساعدة الفرنسيس للعرب وما يدعيه بعضهم من الفضل في انتصارات جيش الشمال . فلا بأس ، وقد وصلت الى هذا الحد ، ان ابين بما لديَّ من المعلومات ، واكثرها من المصادر الافرنسية نفسها ، مقدار تلك المساعدة .

عندما كانت المفاوضات جارية بين الانكليز والشريف او بعدها بعثت الحكومة الافرنسية وفداً من مسلمي الجزائر الى الحجاز يحمل الى اميره تلك الهدية المشهورة ، تلك الساعة التي رمزت الى هدية مثلها من خليفة العرب الى ملك الفرنجة في سالف الزمان . ثم ارسلت بعض المواد والمعدات الحربية وبعض الضباط الى جده ليشارفوا تنظيم الجيش الحجازي[1] .

غني عن البيان ان فرنسا في تلك الايام كانت تحتاج في بلادها الى كل جندي تستطيع تجنيده ، ولم تكن مشاركتها في الحملة على الاتراك في فلسطين الا اسمية في البداءة . فشاءت ان تتجاوز هذه الحال ليحق لها كلمة سياسية

---

(١) هم الكولونيل بريمond Col. Brémond والقومندان كوس Commandant Cousse الذي قام مقامه بعدئذ في جدة والملازم بزاني Capitaine Pisani والملازم رامو Capitaine Raho وضابط آخر يدعى كادي Lieutenant-Colonel Cadi ويظهر ان هؤلاء الثلاثة الاخيرين رافقوا بعدئذ جيش الشمال فدخلوا معه الشام .

بعدئذ في ما يختص بصيد البلاد ، فأرسلت ثلاثة طوابير من جنود الجزائر والمستعمرات لتشترك في الدفاع عن ترعة السويس وفي الهجوم على فلسطين . وكانت قد باشرت في اوائل عام ١٩١٧ انشاء الفرقة الشرقية من متطوعي الارمن والسوريين ، فنقلت الى ساحة القتال بعد فتح القدس من كانوا منهم يتمرنون في قبرص وبورت سعيد .

بيد ان هذه العساكر التونسية والجزائرية والسورية التي رافقت الجيش الانكليزي لم تشارك العرب في شرق الاردن بشيء يذكر . اما الضباط الانكليز والفرنسيس فليس من ينكر ان بعضهم رافقوا الجيش النظامي وساعدوه في تنظيم العربان وتحريضهم على القتال .

كان عدد من انضم من البدو الى الجيش العربي يناهز المئة الفاً . اما العسكر النظامي فلم يتجاوز الخمسة آلاف ، وكان ضباطه كثيرين ولا غرو بالنسبة الى عدده . غير انهم لم يبلغوا عشر ما ادعاه ساسة الفرنسيس المتحاملون على العرب، المشنعون بهم في الصحافة وفي مجلس الامة[1] . وقد فاتهم ان عدد

(١) خطب الموسيو لينيل M. Lenail في مجلس النواب الافرنسي في ٢٥ حزيران سنة ١٩٢٠ قال : « وما هو الجيش العربي ؟ ازهة الاف جندي برأسهم ستمئة قائد والف وثمانمئة من الضباط . . ولم يحارب العرب مرة واحدة وحدهم ، بل كانوا دائماً محاطين بثلة من الانكليز او الفرنسيس . . وعندما كانت تطلق المدافع كانوا يفرون هاربين(×) . . . لم ينتصروا غير مرة واحدة عندما اخذوا البلدة الصغيرة معان . اوَ تعرفون كيف اخذوها ؟ كانوا على مسافة خمسة او ستة كيلومترات منها فتقدم الملازم بيزاني بثلة افرنسية صغيرة عددها مئة واربعون رجلاً فهجموا على القرية واخذوها وسلموها الى العرب . »
من كتاب (كيف استقرت فرنسا في سوريا) الفصل الثالث صفحة ٦٦

(×) « في مدة سنتين من الحرب اخرج العرب الترك من الحجاز ، ومن سواحل البحر الاحمر ، وخربوا قسماً كبيراً من سكة الحديد ، وقتلوا واسروا اربعين الفاً من احسن جنود الدولة العثمانية . » تاريخ الحرب العظمى الفصل ١٦٨ نهضة العرب

الضباط ، في مثل هذه الحال ، يجب ان يقاس بالنسبة الى عدد المقاتلين كلهم لا بالنسبة الى الجنود النظامية فقط .

اعود الى الحوادث . بعد شهر من سقوط الكرك في حوزة الامير اي في ٨ ايار ضرب العرب محطة القطرانة واسروا عدداً من الترك . ثم بعد اسبوع هجموا على الحسا فأخذوا قطاراً كان هناك ودمروا قسماً من العدة والذخيرة . ولكن العدو اخرجهم بعدئذ من الحسا فتقهقروا جنوباً وهم يخربون في الجسور والخط[1] .

وكانت تزداد قوات الترك بعد هجوم الانكليز على السلط وعمان . فالقيادة العامة في الناصرة ، عندما وصلتها تلك الاخبار — وصلتها مؤخرة لان العرب كانوا عاملين بتقطيع سلوك البرق والتلفون — اصدرت الاوامر بانجاد الحامية في عمان وبنقل الجنود من الشام وحلب الى درعا ووادي اليرموك . يصح ان يقال ان اشد ايام القتال على العرب كانت في صيف هذه السنة ١٩١٨ وقد ظهرت نتيجة النجدات في تقهقر الانكليز من عمان والسلط الى غربي نهر الشريعة بعد واقعة الاردن الثانية .

على ان هذه الهزيمة لم تثبط من عزم العرب بل حملتهم على استئناف الهجوم والقتال . وكانوا في شهري ايار وحزيران يزدادون قوة بما جاءهم من العساكر النظامية الجديدة من عراقيين وسوريين وفلسطينيين . حتى انه بينما كان شبه هدنة في ساحات الحرب غربي الاردن في شهر حزيران ، كان العرب بقيادة الامير فيصل وقواده يواصلون الهجوم والغزو والقتال . ولكنهم رُدوا عن معان خاسرين مراراً ، وخصوصاً في ٢٢ تموز عندما هجموا على محطة قربها فكانت خسائرهم عشرين ضابطاً ومئتين من الجنود . كان نوري باشا

---

(١) «من اول شهر ايار الى التاسع عشر منه خرّب العرب خمسة وعشرين جسراً .» ليمون فن سندرس في كتابه (خمس سنوات في تركيا)

السعيد[1] في تلك الناحية عين الحركة وبدها . فحمل في اواخر آب بالفين من الجنود النظامية وخمسمئة من البدو وعشرة مدافع حملةً على معان اسقطتها بعد قتال عنيف في حوزة العرب .

وصلت هذه الاخبار الى الشام فاستيقظت فيها الروح العربية الراقدة ، وطفق الناس يتهامسون مستبشرين بالنصر القريب . بل حام بعض العرب حول المدينة وفيها ، مبشرين بفيصل ، رافعين علم الحجاز المربع الالوان . وشرعت تتحرك وراء الاستار وتحت الحجب تلك السياسة التي كادت تقضي عليها مظالم جمال وفظائعه ، فاتصل بالاستانة خبرها ، فسارع اولياء الامر هناك الى اصلاح الامر . ارسلوا يعرضون على القائد الالماني الجنرال فن سندرس الحكم في سوريا علهم يقاومون بذلك تلك الروح النافرة منهم ويسترضونها . ولكنهم ابطأوا في ما اهتدوا اليه من الحكمة الموهومة وغدا الجنرال في ذاك الحين اشد اهتماماً بالحرب منه بالحكم .

صدرت الاوامر بالهجوم العام في ١٩ ايلول، فتحركت الجنود البريطانية في خط طوله ثمانون كيلومتراً ، يمتد من الساحل حتى نهر الشريعة ، ولم تقف الا بعد ان اخرجت الالمان والاتراك من فلسطين والجليل . وجاء العرب من

(١) نوري السعيد ولد في بغداد في سنة ١٨٨٨ ودرس في مدارسها ، ثم في المدرسة الحربية بالاستانة ، فخرج سنة ١٩٠٩ برتبة ملازم ثاني والتحق بالفيلق السادس العثماني في بغداد . وفي سنة ١٩١٠ دخل مدرسة اركان الحربية في الاستانة واشترك في الحروب البلقانية . وفي سنة ١٩١٣ على اثر اعتقال عزيز بك من قبل الاتحاديين ترك المدرسة هارباً من عقاب الديوان الحربي وسافر الى مسقط ومنها الى البصرة . ثم التحق بشريف مكة سنة ١٩١٦ وحاز على رتبة زعيم ثم امير لواء ، وظفر بالاوسمة العربية الهاشمية كلها . وبوسام الحرب الافرنسي والانكليزي . وقد رافق الامير فيصلا الى اوروبا وخرج مع الملك فيصل من سوريا ، فجاء الى العراق سنة ١٩٢١ وتقلد رئاسة اركان الجيش العراقي . ثم في سنة ١٩٢٣ تعين وزيراً للدفاع في وزارة صهره جعفر باشا العسكري .

شرقي الاردن يسوقون امامهم ما تبقى من الجيش الرابع حتى قربوا من درعا. وكانت مفرزة النصر بقيادة جودت بك[1] في طليعة الجيش فضربت الاتراك في درعا في ٢٨ ايلول فهزمتهم واسرت منهم عدداً كبيراً من الضباط والجنود.

وبعد يومين ، في ١ تشرين الاول سنة ١٩١٨ ، دخل الامير فيصل على رأس الجيش العربي الى الشام ودخلت سريات من الجيش البريطاني الى بيروت[2]

(١) « كان جودت بك البغدادي يقود هذا الطابور الذي لم يتجاوز عدده الالف» وفيهم ثلاثون من الجنود الهندية « الغُركا » وثلاثة وثلاثون من المصريين ومعهم الملازم بيزاني وبضعة عساكر من الفرنسيس . وكان من مهمة هذا الطابور ان يخرب خط الحديد في درعا . فنجح بفضل الملازم بيزاني الشجاع الذي اشعل بيده الفتيل الممتد على الحديد تجاه العقبة الحجازية . اما العرب فتشتتوا فارين عندما حدث الانفجار . »

الكونت غنطو بيرون في كتابه (كيف استقرت فرنسا في سوريا)
الفصل الثالث : صفحة ٤٥ .

وقال الجنرال كريس فون كريستتاين الالماني، الذي كان قائد المقدمة العثمانية في حرب سينا ، للامير عادل ارسلان ، نقله الامير عادل في مقال له في كتاب « ملوك العرب » :

لولا الثورة العربية لما استطاع الانكليز دخول فلسطين لان الجنود الذين كان العرب يشاغلونهم من درعا الى المدينة كانوا اكثر عدداً من جنود جبهتنا الفلسطينية .

(٢) ودخلت الجنود العربية الى حمص في ١٤ تشرين الاول ، والى حماه في ١٦ ، والى حلب بعد مقاومة شديدة في ٢٥ من الشهر عينه .

الفصل السادس

مناطق الفوضى

من الظلم الى الظلمات – عوامل السياسات الخفية – العرب والانكليز والفرنسيس – السهم ضربات – موقف الامير فيصل – غلطة العرب الاولى – بلاء من الاحلاف ينقضه بلاء من الانكليز – سفر الامير الى باريس – نقطة دائرة الشهرة والاعجاب – سوريو اميركا – رئيس الجامعة الاميركية – ضجة ازعجت الحكومة الافرنسية – تصريح الموسيو بيشون وزير الخارجية – مطالب الامير الاولى – مطالبه في موءتمر فرساي – الفوضى في سوريا – الانكليز والفرنسيس قدوة صالحة – منقذ قارة الوقاش – اصحاب السيادة وطلابها يتسابقون الى الكراسي – الانفجار – الاحتجاج على تصريحات الموسيو بيشون – مذبحة الارمن في حلب .

عند انتهاء الشهر الاول اي تشرين الاول من سنة النصر كانت البلاد السورية قد خلت من جيوش الترك والالمان، فزالت عوامل الحرب الظاهرة، ودخلت الامة في طور من اطوار السياسة الذي يماثل بنتائجه شدائد الحرب . اجل، ما كادت تخرج البلاد من مظالم الترك حتى دخلت في ظلمات الفوضى . ولا اظن ان عوامل السياسة وانواعها – وهمومها – تعددت في بلد من البلدان الصغيرة التي اشتركت في الحرب تعددها وتزاحمها في هذه البلاد السورية ، وعلى الاخص في دمشق .

وكانت البلية الكبرى في عوامل السياسة الخفية . جاء الجيش العربي وجاءت معه السياستان العربية والحجازية ، وجاء الجيش الانكليزي يعضد العرب ظاهراً ويناهض سراً الفرنسيس، فتشعبت سياسة حكومته الى ثلاث شعب اولها واهمها واثبتها المصلحة البريطانية، وجاء الفرنسيس هائجين ناقين وفي مقدمة قافلتهم سياسة لبنان ، وفي مؤخرها سياسة الموارنة ، وفي اولها ووسطها وآخرها سياسة فرنسا في البحر المتوسط .

وكان في البلاد ولا يزال فيها سبع طوائف رئيسية هي سبعة احزاب

بل سبع ضربات مذهبية ، وفي كل ضربة سبع ضربات وطنية . ثم جاءت اللجنة الاميركية تستفتي هذه الامة المنكوبة فزادت بنكبتها - بسموم سياستها . اضف الى ذلك كله وعود الاحلاف وعهودهم السرية وما فيها من اخلاص كنهه الاخطار فاذا ما زالت الاخطار زال . ثم حقوق العرب والوحدة العربية وما فيها من احلام تجلت ساعة العاصفة كقوس قزح في سماء الحرب العظمى فغدت بعدها كالحباحب في مساء الامال .

انك اذا تصورت هذه الحالة العجيبة في شكل دائرة نقطتها البلاد السورية وروح النقطة وحياتها الامير فيصل ، ثم تمثلت السياسات التي ذكرت تحوم حولها وحوله تارة ، وطوراً تجري كالضباب المكهرب تحتها وفوقها ، دون محجة تُعرف ، ودون قصد ظاهر يدرك ، بانت لك الصعوبات التي يندر مثلها في حياة رجل واحد حُرم ركنين من اركان العظمة السياسية وهما الامة المتحدة القوية والتقليد الوطني الحي . لا اظن ان كبيراً من كبار ساسة الاوروبيين الذين يستمدون قواهم ابان العواصف من امة حرة متحدة وقومية مجردة من النزعات الدينية والنعرات ، يود ان يكون مكان فيصل في ادوار حياته السورية .

دخل الامير الشام دخول الظافر المحبوب ، والمنقذ المطلوب ، فاحتلت جيوشه العربية ومعهم بعض الجنود الانكليزية البلدان التي فتحت لهم ابوابها وقلوبها مهللة مرحبة . ورُفع العلم العربي المربع الالوان فوق دور الحكومة من السويداء الى حلب ومن دمشق الى بيروت ، فاضطربت على السواحل وفي لبنان اقوام ، وطربت اقوام .

على ان العرب في بادئة امرهم اخطأوا مرتين حربياً وسياسياً . فقد اخطأوا في قتلهم الامير عبدالقادر الجزائري واخطأوا في انفاذ شكري الايوبي الى بيروت ليحكمها باسم الملك حسين . فما عتمت ان ظهرت في

المدينة المعقدة السياسية التي حجبتها عن عيون الناس زين الترحيب وازهار الفوز والتمجيد . اجل ، قد امتعض المسلمون انفسهم من هذا العمل لانهم كانوا يفضلون ان يقام الحاكم من المدينة نفسها . كذلك يفعل الفاتح الحصيف الحكيم ولكن الحكم العربي لم يدم اكثر من اسبوع . امر الايوبي برفع العلم العربي فوق السراي في اليوم الثاني من تشرين الاول ثم امر في اليوم التاسع بانزاله[1] . وكان القائد الفرنساوي الكولونل بياباب[2] قد وصل بجنوده الى المدينة فخرجت اذ ذاك السياسة من طورها العربي الى اطوارها الدولية والمذهبية المتعددة .

ان التبعة في ذلك لعلى الاحلاف اصحاب العهود السرية ، والمطامع الاشعبية ، والوعود العرقوبية . اليك من فعلاتهم اثنتين ليس بينهما غير شهر واحد من الزمان . الاولى منشورهم الذي نشر في ايلول قبل احتلال البلاد السورية ، والثانية بلاغهم في الشهر التالي اي بعد الاحتلال ، ذاك البلاغ الذي ينقض كل ما في المنشور .

اني الخص ما أعلن قبل الاحتلال في ما يلي : ان الغاية التي من اجلها تحارب انكلترا وفرنسا في الشرق هي تحرير الشعوب الرازحة منذ زمن طويل تحت ظلم الاتراك تحريراً تاماً ناجزاً ، وانشاء حكومات وطنية تستمد قوتها من اهالي البلاد عملاً بارادتهم ، ووفقاً لاختيارهم الحر .

اما البلاغ الذي اصدره الجنرال بُلس[3] المتعلق « بادارة اراضي العدو

---

(١) لم تسلم الحقيقة في هذا الايجاز . فقد رُفع العلم في حفلة رائعة وكان من خطبائها بعض رجال الدين المسيحيين . والاجمل من ذلك ان اليد التي رفعته يد اخت اثنين من الشهداء وخطيبة احدهم هي الانسة فاطمة المحمصاني .

اما الذي امر بانزاله فهو قائد جيش الاحتلال الانكليزي . ولما رفض الايوبي ورفض كذلك رئيس البلدية ومدير الشرطة ان ينزلوا العلم ارسل القائد بعض الجنود الاستراليين فانزلوه في الساعة الثانية بعد نصف الليل .

(٢) Le Colonel de Piépape

(٣) Major Gen. Sir G. L. Bols

«المحتلة» المؤرخ في ٢٢ تشرين الاول فهو يقسم البلاد السورية الى ثلاث مناطق على الطريقة التي قسمت سابقاً في معاهدة «سيكس – بيكو» وهي المنطقة الجنوبية اي فلسطين – ادارتها انكليزية . والمنطقة الغربية اي السواحل حتى الاسكندرونة – ادارتها افرنسية . والمنطقة الشرقية من حلب الى دمشق – ادارتها عربية .

لم يكن في هذا البلاغ ما يرضي احداً من اصحاب السيادة والمصالح في هذه البلاد لم يرض الانكليز ، وهم يصدرونه مكرهين، لانهم لا يرغبون بالفرنسيس في سوريا . ولم يرض الفرنسيس لانهم طامعون بالغنيمة كلها . وكانوا يفضلون الرجوع الى معاهدة « سيكس – بيكو » التي تضمن لهم اضعاف هـذه المنطقة مساحة واهمية . ولم يرض العرب لان البلاغ سلبهم بلاداً هي جزء حي من البلاد العربية .

بعد اعلان هـذه الخطة الادارية اضطربت دوائر السياسة في الشام . وكان قد اتفق الامير فيصل واولياء الامر من الانكليز ان يسافر الى باريس ليمثل العرب في مؤتمر فرساي. فنزل الى بيروت وفي معيته الكرنل لورنس، فدخلها مثلما دخل دمشق زعيماً محبوباً وكان له فيها استقبال، فاق استقبال الدمشقيين رونقاً وبهاء . نزل الامير ضيفاً على الجنرال بلفين[1] قائد الفرقة البريطانية الحادية والعشرين، واقام في المدينة ثلاثة ايام، وصرح قبل سفره انه يطالب باستقلال المناطق المحررة بمساعدة الاحلاف من حكم الاتراك ، وانه ذاهب الى باريس لهذه الغاية .

وفي ٢٢ تشرين الثاني سنة ١٩١٨ ابحر من بيروت ، فاستقبل في مرسيليا استقبالاً رسمياً ، وما كاد يصل الى باريس حتى استحالت شهرته العربية الى شهرة اوروبية ، بل الى شهرة حملها البرق عـلى اجنحة الصحافة الى اقطار العالم المتمدن كافة .

(1) General Bulfin

كان الامير في باريس قطب دائرة باهرة من دوائر السياسة . ولا غرو ، فهو لطيف في مقابلته ، مؤنس في مجلسه ، ممتع في حديثه ، فأدهش حتى الصحافيين . لا اظن ان الصحافة اجمالاً عطفت على قضية من قضايا الحرب عطفها على القضية العربية وحامل لوائها .

وقد اعجب بالامير كثيرون من السوريين اللبنانيين الذين كانوا يقاومون سياسته العربية بسياسة لبنانية افرنسية. وجاء باريس وفود من سوريي اميركا ليعلنوا رسمياً انهم من انصاره . فكان والحق يقال موفقاً في انصاره ومريديه اكثر من كبار ساسة ذاك الزمان .

ثم جاءه فاضل اميركي يفتح باب الامل الاكبر ، الامل الجديد الابهر ، فتمثل الامير الفوز بواسطة اميركا اذا خذلته انكلترا ، ورحب بمساعي رئيس الجامعة الاميركية السابق الدكتور هاورد بليس الذي كان يعتقد ان الحكومة الاميركية تقبل الانتداب في سوريا اذا طلب ذاك السوريون .

هوذا الامير فيصل تتجاذبه العوامل السياسية العديدة . يحوم حوله الزعماء وتتزلف اليه الآمال المائمة ، وتشع امامه مصابيح الصحافة ، وتجلس لديه عرائس الشهرة والاعجاب ، وتهمس في اذنه المقاصد الدولية كلمات لها كل يوم معنى جديد . ولكنه في باريس ، تحت عين الحكومة الافرنسية ، وفي ظل ابتسامة امة نبوغها في تهكمها . بيد ان هذا النبوغ لا يشمل دائماً حكومتها . فقد أحدث وجود الامير في باريس ضجة ازعجت تلك الحكومة ، فصرّح في ٢٩ ك ١ المسيو بيشون ناظر الخارجية يومئذ بان لفرنسا حقوقاً تاريخية وشرعية وادبية في سوريا لا تتنازل قطعاً عنها .

وكان الامير لا يزال ينتظر الاذن بالدخول الى مؤتمر السلم فرفع اليه بعد يومين عريضة فيها الجواب بما يلي من المطالب على تصريح ناظر الخارجية .

طلب الامير :

اولاً – استقلال سوريا الداخلي التام مع مساعدة اخصائيين من الاجانب

تختارهم وتستخدمهم الحكومة السورية . اما الامور الخارجية فتكون متصلة بامور الحجاز ، اي ان تكون حكومة الحجاز والحكومة السورية حكومة واحدة في الامور الاجنبية .

ثانياً – تشارف على العراق والجزيرة دولة من الدول العظمى .

ثالثاً – استقلال الحجاز مقرر ومعترف به .

رابعاً – اما في اليمن وفي نجد فتدير شؤون كل منها حكومة مستقلة يكون لها اتصالٌ مباشرةً مع الحجاز[1] .

خامساً – فلسطين مثل العراق تقبل بوصاية اجنبية .

قد حاول الامير في هذه العريضة ان يوفق بين سياسة انكلترا وسياسة جلالة ابيه ولم يغفل فرنسا تاماً . فهو لم يذكر لبنان اعتباراً لما تدعيه فيه ، واحتراماً لاماني اهاليه . ولكنه عندما طلب ان يدخل المؤتمر ممثلاً لجلالة ابيه أبت الحكومة الافرنسية ولم تقبل ان يحضر الجلسات الا بصفته قائداً من قواد جيوش الاحلاف . فدخل بهذه الصفة وارتقى في مطالبه الى الوحدة العربية التي تشمل الاقطار العربية كلها من جبال طوروس الى اليمن ومن الموصل الى حضرموت .

اما في سوريا فبالرغم عن بلاغ الجنرال بلس ويصح ان اقول بفضل ذاك البلاغ كانت الاحوال تزداد خللاً واضطراباً . وماذا عسى ان يرجى من العوامل المثلثة في الجيوش الثلاثة، والادارات الثلاث؟ فقد كانت السياسات الرئيسية تتجاوز الحدود الجديدة اما جهلاً من اولياء الامر واما عفواً واما عمداً ، فتصدم في كل حال الارادات والمصالح ، وهي في حال الالتهاب. بل

---

(١) هي فكرة الملك حسين الذي يريد ان يكون الاتصال بواسطة الوزارة الخارجية اي ان الحكومة الحجازية تمثل في الخارج الامارات العربية كلها .

راجع فصل المعاهدة صفحات ٢١٠ – ٢٣٢ من الجزء الاول من هذا الكتاب .

كانت البلاد كلها في تلك الايام مليئة بالمواد المتفجرة ، وكان كل من تحرك فيها ممن له شيء من السلطة يحمل على لسانه وبيده النار والكبريت . فلا عجب اذا تعددت فيها حوادث الانفجار .

احتل العرب انطاكية فجاء الفرنسيس يخرجونهم منها ، فرُفع فيها العلمان الافرنسي والعربي ، وكانت فيها ضجة من جراء ذلك ما بين احمد والمسيح . احتل جيش انكليزي الاسكندرونة فجاء الفرنسيس من البحر يحتجون عليهم ، فرُفع فيهــا العلمان ، وتخاصم تحتهما الفريقان . جـاء المندوب السامي الموسيو جورج بيكو[1] الى الجنرال آلنبي[2] ذات يوم يحتج باسم الحكومة الافرنسية في امر من الامور فقال الجنرال : انا لا اعرف لا حكومتك ولا حكومتي . انا لا اعرف غير الوزارة الحربية. وتسربت الاحقاد من الكبار الى من دونهم ، فكانت المنافسات بين وكلاء الانكليز والفرنسيس تقلل من قيمة الاوروبيين في عين الاهالي مسيحيين كانوا او مسلمين .

أضف اليها تلك الضغائن التي ولدتها الحرب ونشأت بين جنود الامتين في الخنادق ، فانتقلت الى ساحة السياسة في الشرق الادنى وكان اهل سوريا فريسة شرورها . ثم الدسائس العربية على الفرنسيس والتجسس لهم ايضاً بواسطة اناس من السوريين ُعدوا يوماً من كبار الوطنيين . ثم دسائس المسيحيين على العرب وكانت مصادرها تلك المقامات العالية المحترمة،مقامات الورع والتقوى . ثم صيحات الفرنسيس انفسهم واحتجاجاتهم المتواصلة المتعددة على الانكليز ، وعلى العرب ، وعلى الجيش الشريفي ، وعلى القيادة العامة ، وعلى الاميركيين والجامعة الاميركية ، وعلى كل من قاومهم سراً او علناً او رفض ان يعترف بحقوقهم « الادبية والتاريخية والشرعية » في البلاد.

(١) Georges Picot
(٢) General Edmund Allenby

انها لحالة عجيبة محزنة يندر نظيرها في العالم . وأدعى منها الى الحزن انهم جاءوا الى سوريا فارغي الوفاض يطالبون بهذه الحقوق . جاءوا يبسطون سيادتهم في البلاد دون ان يبذلوا شيئاً في سبيلها ، او يستطيعوا في الاقل ان يحفظوا النظام فيها . فلم يكن لديهم في السنة الاولى من المال والرجال والجنود والاعتدة ما يكفي لحكم مدينة صغيرة ، فحاولوا الاستيلاء على المنطقة الغربية منطقتهم بما تبقى من الفرقة الشرقية وببضع مئات غيرها من الجنود ، فاسقط في ايديهم ، وسقطوا في عيون مريديهم .

ان ضعف الفرنسيس ، والحق يقال ، وقصر ذات يدهم بالنسبة الى ما كانوا يدعون ويطلبون ، لمن الاسباب الاولى في تلك الاضطرابات . ومن تلك الاسباب ايضاً جهل اولياء الامر من العرب ، جهلهم السياسة الدولية ، جهلهم طباع الاوروبيين ، جهلهم التاريخ ، جهلهم حتى خطة الانكليز في اطماعهم ، تلك الاطماع التي قيدتها وعودهم في الحرب فاضطرتهم الى السياسة السرية في تنشيط العرب تارة وطوراً في تثبيطهم . ومن اسباب الاضطرابات ايضاً تعدد الحكومات في البلاد ، فكان فيها اولاً القيادة البريطانية العامة ، ثم الانتداب الافرنسي مدعوماً بشرذمة من الجنود البحرية ، ثم مجلس ادارة لبنان ، ثم الحكومة العربية ، ثم رجال الدين والاعيان .

والكل سارعوا كالاولاد الى تبوّؤ كراسي السيادة والمجد . فقد تسرع الفرنسيس في تعيين وكلاء لهم في الشام وحلب كما تسرع العرب في تعيين حاكم عربي في بيروت . وكيف لا والقيادة الانكليزية العامة صاحبة الامر رسمياً في البلاد ، فلم تعترف حتى بالمندوب الافرنسي السامي الا كمستشار سياسي لديها . فماذا عسى ان تكون العلائق بين مستشارين صغيرين . ان وجود الكومندان كوس [1] يومئذٍ في الشام والكولونل بيشون [2] في حلب

(١) Le Commandant Cousse
(٢) Le Colonel Pichon

لما زاد الحالة شدة وتعقداً .

بدأ البركان يتفجر في اواسط كانون الثاني سنة ١٩١٩ . اذ عندما علمت الشام بتصريح المسيو بيشون في ما يتعلق بفرنسا وحقوقها في سوريا ضجت المدينة غضباً واحتجاجاً ، وكان النادي العربي رأسها ولسان حالها . فأضرم في الجرائد نار العداء للاجانب ، وبعث الخطباء في انحاء البلاد يحرضون الوطنيين على التظاهرات ضد الاحتلال والانتداب ، وخطب خطيب في الجامع الاموي يدعو الناس للتجند دفاعاً عن الوطن .

في هذا الشهر ايضاً القى المسيو بيكو خطاباً في دمشق جاء فيه ما فهم منه ان قد تم الاتفاق بين الامير والحكومة الافرنسية بشأن سوريا . فغضب لذلك المسيحيون وهم يظنون ان فرنسا تفضل المسلمين عليهم وقد تفادي بهم في سبيل السياسة والمصلحة . فما كانت فرنسا في ما صرّح به وزيرها ومندوبها لترضي احداً ، لا الخصم ولا الصديق .

ثم خطب في سراي بعبدا رئيس الوفد اللبناني الاول داود عمون مفصحاً عما كانت نتيجة مسعاهم في باريس فقال : « ان بين لبنان وسوريا علاقات تجارية ، وصلات متينة ، تستوجب الاّ يفصل الشقيق عن شقيقه . فاجتمعت كلمتنا ، كلمة الوفد ، على وجوب انضمام الاثنين تحت لواء مراقبة واحدة » .

فجاء كلامه ضغثاً على ابالة . قال زعماء العرب : ان الحكومة الافرنسة تروم احتلال سوريا بواسطة اصدقائها اللبنانيين . واتفق ان يوم خطب داود عمون خطبته عُقد اجتماع في دمشق احتجاجاً على تصريح المسيو بيشون ، فعقبت عليه المدن السورية الاخرى ، وحدثت اثناء هذه التظاهرات في ٢٨

شباط سنة ١٩١٩ مذبحة الارمن في حلب .

لا حاجة ولا مجال ها هنا للنظر في تلك الحادثة المحزنة . بيد انه من المؤكد ان لو كان في المدينة حكومة متيقظة منظمة ، عربية كانت او انكليزية او افرنسية ، لما كان عتو الارمن يحمل بعض العرب المسلمين على المفاداة بسمعتهم الطيبة ، خصوصاً بعدما كان من احسان الامير فيصل وجنوده الى منكوبي الارمن في الكرك .

الفصل السابع

لجنة الاستفتاء الاميركية

نظريات المصلحين ومصالح الامم – كليمنصو يقترح اتفاقاً بشأن سوريا ولبنان – الامير يرفض ويرجع الى سوريا – امتنان تتباريان في اكرامه – نظرية تستغويه – الرئيس ولسون خادع ومخدوع – فيصل في فخ الاحلام – امة تخلص من امتين – « الاستقلال يأخذ لا يعطى » – الاستقلال التام الناجز – الحجاز تابعة لسوريا – الوفد اللبناني لدى الامير – تصريحه بخصوص لبنان – الشروط التي عرضها على جورج بيكو في ١٧ ايار – البطريرك الماروني يسافر الى باريس – عاد البطريرك يحمل كتاباً من كليمنصو – الوحدة السورية والوحدة المسيحية – « لجنة الاستفتاء بروتستانية فيجب ان تقاوموها » – مطالب الدمشقيين – اللجنة تفضح فرنسا – الضرر بالقضية العربية – بلاغ اللورد آلنبي – خروج العساكر البريطانية من سوريا – رجوع الامير الى اوروبا – وحدة عربية مطاطه – تصريح لا يفيد – احتجاج بليد .

كان الامير محترماً مكرماً في مؤتمر فرساي ، وكان كذلك الرئيس ولسون . ولكن السياسة الدولية لا ترعى آداب الاجتماع ، ولا تهمها فروض التكريم ، فلا تملك نظريات المصلحين واماني الوطنيين من مصالح الامم . قد سقت ولسون ، تلك السياسة ، الخلَ والمرَّ بعد ان شاركت صامتة في اكرامه ذلك الاكرام الفريد المجيد . وكانت ارفق حالاً بفيصل . وكيف لا وقد عرض احد اساطينها في تلك الايام على الامير العربي بعض بنود فيها تضمن فرنسا استقلال سوريا تحت امارته وبمشاركتها في بعض الامور الاختصاصية والاقتصادية . وتضمن كذلك استقلالاً نوعياً للبنان الى ان يتم الاتفاق بينه وبين سوريا .

ولكن الامير رفض ما عرضه الوزير الافرنسي الموسيو كليمنصو وعاد الى سوريا ليستشير كما قال الامة . سافر الامير الى فرنسا على المدرعة الانكليزية « غلاستر » وفي معيته الكرنل لورنس[1] وعاد الى بيروت على

(1) Col. T. Lawrence

المدرعة الافرنسية « ادغار كينه » وفي معيته الكولونل تولا[1] امتان تتباريان في اكرامه ، امتان تتسارعان الى خطب وداده ، امتان تسعيان في تعزيز سياستهما في سوريا والبلاد العربية بواسطته .

اني متيقن انه ، لولا امر واحد ، لكان قد اختار احدهما في سفرته الاولى الى باريس ، بل لكان قبل كل ما عرضه عليه الموسيو كليمنصو . امر واحد تخلل معقوله واضعف فيه القوة الحاكمة . امر واحد هز منه القلب والمخيلة واشعل فيهما مصباح امل هو اقرب الى الاحلام منه الى احكام الايام . فخُدع الامير و خدع غيره ممن هم اكبر منه . اجل قد خدع به احد « الثلاثة الكبار »[2] الرئيس ولسون نفسه . وهو الذي خدع الامير ، كما خدع غيره من الناس ومن الامم والشعوب ، بما ظنه مظهراً لسياسات الدول كلها وبلسما لجروح الامم جمعاء .

« تقرير مصير الشعوب » — « حق الشعوب بتقرير مصيرها » انها الكلمات فتانة ! ولكنها لم تكن لتستطيع ان تخدع الامير لولا مساعي هاورد بليس في سبيلها . ولا اظن ان ما صوره وتصوره الدكتور بليس ، وما ضج به سوريو المهجر ، كان يقنع الامير كل الاقناع ، ويحمله على عمل يخالف الحكومتين الانكليزية والافرنسية لولا — وها هنا رأس الخدعة واكليلها — لولا اللجنة التي طلب تشكيلها الرئيس ولسون لتستفتي الامة السورية . مَن من الناس لا تخدعه هذه المناورات السياسية ، وبالاحرى هذه النظريات والاحكام من رئيس احدى الامم العظمى ، بل اعظمها في تلك الايام .

عاد الامير الى سوريا وفي صدره ولا ريب امل بالتخلص من الحكومتين

---

(١) Le Colonel Toulat

(٢) اي الذين اداروا مؤتمر فرساي وهم وودرو ولسون وجورج كليمنصو ولويد جورج .
Woodrow Wilson, Georges Clemenceau. Lloyd George.

الانكليزية والافرنسية ، بل في صدره امل بتحقيق امانيه الوطنية العربية بواسطة الحكومة الاميركية . وصل الى بيروت في ٣٠ نيسان وكانت الامة تنتظر قدومه وهي تائقة شيقة الى اخباره وتصريحاته . تركها منذ خمسة اشهر وآماله راقدة ، فعاد اليها وآماله تغرد في قفص الاحلام . تركها اميراً عربياً قد يفلح وقد لا يفلح في مساعيه ، فعاد اليها اميراً خطيراً ، اوسع شهرة ، واعظم ثقة بنفسه ، وارفع مقاماً . فاستُقبل في بيروت استقبالاً ملكياً ترأسه القائدان الافرنسي والانكليزي فيها وخطب في الناس فادهش الناس

« الاستقلال يؤخذ ولا يُعطى . . . حرية الامة بيدها . . لنسعَ متحدين فنحيا حياة عزيزة . . . الاستقلال التام في الاتحاد التام » . ثم قال اكراماً للفرنسيين والانكليز : « لا انكر اننا في حاجة الى المساعدات المادية والاقتصادية والعلمية . ولكننا سنطلب هذه المساعدات باجرتها ، ستستخدم الحكومة الاخصائيين من الاجانب وتدفع رواتبهم من مال الامة » .

وقد كان الامير اشد لهجة في دمشق : « الامة السورية تروم الاستقلال التام الناجز ولا تقبل بغيره بديلاً » . فرددت الشام ومدن سوريا كافة صدى هذه الكلمات : الاستقلال التام الناجز !

وصل الامير قبل اللجنة الاستفتائية الاميركية فبشر بقدومها ، وحث الشعب ان يطلب الاستقلال التام بدون شرط ولا قيود . — « برهنوا على انكم لستم كانعام تباع وتشترى . . . الاستقلال بدون حدود البتة . الحرية بدون قيود اجنبية . . . من يطلب فرنسا او انكلترا او اميركا او ايطاليا فهو ليس منا » .

ثم زار المجلس التشريعي في ٧ ايار فرحب به اعضاؤه ونادوا به زعيماً — الزعيم الاكبر ! — « لك الامر وعليك بعد الله الاتكال . » ووقف نوري الشعلان يعاهد بالطاعة والولا . : « حنا كلنا عرب الرولا اطوع لك من

يمينك ، ومن لا يكون مثلنا ليس من دين الاسلام . »

وفي هذا الشهر تنازل الامير عن الخطة السياسية التي كان من شأنها ان تربط سوريا بالحجاز بل تجعلها تابعة لحكومة والده ، فقبل جلالة الملك حسين ذلك حباً بما بدأ يتبلور من الآمال ، فارسل الامير الى مؤتمر السلم يقول ان الحجاز لا تعترض ان تكون تابعة سياسياً لسوريا. وقد قال لي جلالة الحسين هذا القول مراراً .

اما في ما يختص بسوريا نفسها فقد كان لفيصل رأي في تقسيم البلاد الى مقاطعات ، وفقاً لحالاتها الطبيعية والعقلية والتهذيبية ، صرح به خصوصاً للوفد اللبناني الذي جاء الى دمشق ليهنئه بعودته سالماً من باريس ، وليؤكد له ان فريقاً كبيراً من اللبنانيين يتمنون الانضمام الى سوريا . فرحب الامير بهم وخطب فيهم خطبة بليغة فقال : « انه يجب ان يضم الى لبنان القسم اللازم الوافي لحياة اهاليه الزراعية ، فيستفيدون من توسيع ارضهم كما تستفيد هذه البلاد من ذكائهم ونشاطهم . . . اقول بكل حرية ان لبنان مستقل داخلياً وادارياً ويلزم ان يبقى ما يلحق به مستقلاً وممتازاً . . . مع المحافظة على الارتباط بالوحدة السورية . ولكن هذا الانضمام لا يكون اجباراً بل اختياراً . . . اني مستعد ان اعطي الضمانة الخطية بكل ما اقول . وليعلم اللبنانيون ، وهم اخواننا بل قلوبنا التي بها نحس وعقولنا التي بها نفكر ، اننا نحن واياهم واحد لا يفصلنا فاصل طبيعي او مادي . . . ما كان عندنا ولا يكون ادنى فرق بين لبناني ودمشقي او بين مسلم ودرزي . »

هوذا مبدأ الامير الذي اخلص له في تلك الايام ، واعتصم به ، وسعى في تعزيزه . على انه في بعض المواقف ، كما سيتضح للقارىء ، تغلبت الحوادث وبعض الرجال على معتقده ويقينه . قد وصل في شهر ايار سنة ١٩١٩ الى ذروة القوة والنفوذ ، فكان عاملاً بمبادئه ، واثقاً من نفسه ، ذا رأي يُسمع

وامر يُطاع . غير ان الفرنسيس في البلاد ، خصوصاً المندوب السامي وكبار الضباط ، لم يثقوا كل الثقة به ، ولا كانوا يرون السداد في سياسة حكومة باريس في ما يختص به وبسوريا ولبنان .

قد تقابل المسيو جورج بيكو والامير فيصل في ١٧ ايار فعرض الامير على المندوب شروطه بصراحة لا غبار عليها . قال انه يقبل بالانتداب الافرنسي اذا أُلغيت معاهدة « سيكس — بيكو » واذا أُلغي في المنطقتين الشرقية والغربية الحكم العسكري وسحبت فرنسا جنودها من البلاد ، واذا انحصرت المساعدة الافرنسية بالاخصائيين الماليين والمعلمين العسكريين والمهندسين والمستشارين في دوائر الحكومة . وقيل انه طلب ان تضم الموصل الى سوريا وان تساعد فرنسا عرب العراق في استقلالهم . فبلغ المندوب السامي حكومته هذه الشروط وجاءه بعد شهر تفويض بان يقبلها .

ولكن المسيحيين في المنطقة الغربية تألبوا اثناء هذا الشهر على السياسة الافرنسية السورية ، وعقدوا الاجتماعات لتأييد استقلال لبنان وتوسيع حدوده ، لطلب الانتداب الافرنسي . وكان الاكليروس روح هذه النهضة والبطريرك الماروني رأسها . فرأى المسيو بيكو ان في تعزيزها يضمن افرنسا السيادة في لبنان على الاقل . وقد كان يظن ان المسيو كليمنصو لم يهتم كما يجب لهذه المسئلة الخطيرة ، فأوعز الى بعض اعيان لبنان ورؤساء طوائفه ان يبعثوا بطريرك الموارنة الى باريس ليمثل اللبنانيين لدى الحكومة الافرنسية ويطالب بحقوقهم .

انتدب اكثر الطوائف غبطة البطريرك الياس الحويك لهذه الغاية ، فسافر على مدرعة افرنسية الى ايطاليا حيث اقام شهرين وقابل قداسة البابا . ثم سافر الى باريس فقابل هناك الموسيو كليمنصو الذي اعطاه كتاباً يسكن فيه روعه وروع اللبنانيين ، ويعدهم بما يطلبون من الاستقلال والانتداب .

فقفل غبطته راجعاً يحمل هذا الكتاب الثمين الى موكليه ، فوصل الى بيروت في ٢٥ كانون الاول سنة ١٩١٩ وتكلم في الاحتفال الذي اقامته له حكومة لبنان فقال : « قد كان اتحادكم من اسباب نجاحي . فأؤمل ان تثابروا على هذه الخطة ، فيحيا لبنان بعد ان يكون قد نال استقلاله ... ولكم خير ضمين باستدراجه الى الحياة في مساعدة الدولة المحبوبة التي حرمت نفسها من خدمات احد اعاظم ابنائها — الجنرال غورو — حتى تكلفه بمهمة دعوها مهمة ابداع وخلق » . ثم خاطب الجنرال غورو بالافرنسية قائلاً : « اني اجهر على رؤوس الملا ان فرنسا تحب لبنان ، وتساعد لبنان ، وها نحن نفتخر بفرنسا ... ولاسيا بعد ان اوفدت الينا الجنرال غورو الخ » .

فبينا كان الامير فيصل يدعو الناس الى وحدة سورية قومية لا تفرق بين الدمشقي واللبناني ، او بين المسلم والمسيحي والدرزي ، قام اللبنانيون ، والاكليروس يستحثهم ويغريهم ، يطالبون بوحدة لبنانية ، فقلدوا بطريركهم الكبير زمام امرهم ، فجعلوا المسألة دينية مذهبية [1] وابوا ان يكون لهم ادنى علاقة بالعرب المسلمين . بل امعن رؤساء التعصب بالشقاق عندما وصلت لجنة الاستفتاء الاميركية الى سوريا . فبما ان اساتذة الجامعة من انصار النهضة العربية واعضاء اللجنة من وطن الجامعة ، ادعى غير واحد من رؤساء الدين ان للجنة مقاصد دينية بروتستانية وطلبوا من اللبنانيين ان يقاوموها ويتضافروا عليها .

ومما يدعو للاسف ان قد كانت اللجنة نفسها عاملاً آخر من عوامل الشقاق ، لانها في طريقة الاستفتاء عززت من حيث لا تدري مبدأ العصبيات

---

(١) اول اجتماع عقد في بيروت في ٢٢ تموز سنة ١٩١٩ قرر ان تضم المدينة ، الى لبنان ويعلن استقلاله وانتدب لجنة مؤلفة من اربعة وعشرين شخصاً ليس فيهم واحد مسلم حتى ولا بروتستاني واحد ، بل اكثرهم من الموارنة التجار .

الدينية والطائفية . الا انها فضحت فرنسا وجردت مزاعمها من الاوهام لان الاقلية اللبنانية فقط طلبت الانتداب الافرنسي ، ولم تشمل هذه الاقلية الطوائف المسيحية كلها . فازداد العرب تمسكاً بما يطلبون وازداد قسم منهم تعصباً ادى الى الاعمال التي سودت صحيفتهم . وسيجيء الكلام عليها .

وصلت اللجنة في تموز الى دمشق فطلب فريق من الدمشقيين الوحدة السورية بما فيه لبنان وفلسطين ، والاستقلال التام الناجز ، وان تكون الحكومة ملكية دستورية لا مركزية ويكون الامير فيصل ملك البلاد . ثم طلبوا المساعدة الاقتصادية والفنية من اميركا ، واذا رفضت اميركا ، فمن بريطانيا العظمى . وقد طلبوا ان يكون العراق مستقلاً كل الاستقلال ، وان لا يكون حواجز اقتصادية بين البلادين .

ثم استفتت اللجنة العلماء فطلبوا ما يلي : الوحدة السورية المستقلة عن الحجاز ، وحكومة دستورية لامركزية على رأسها الامير فيصل ، ومساعدة دولة غنية قوية لا مطامع استعمارية لها .

اما المتطرفون اصحاب الوحدة العربية الحجازية الاسلامية فظلوا متشبثين بارائهم ، عاملين سراً وجهراً في نشرها وتعزيزها . وقد كان في المجلس التشريعي، وفي النادي العربي، وفي معية الامير ايضاً من لايسكنون ولا يعقاون من الحزبين .

جاءت لجنة الاستفتاء في فلسطين وسوريا ففضحت كما قلت فرنسا ، واضرت بالقضية العربية، ولم تنفع احداً في البلاد . وكيف اضرت بالقضية العربية ؟ اني اعتقد انها كانت السبب — بعض السبب ان لم يكن كله — في البلاغ الذي قدمه اللورد آلنبي للامير فيصل في ٩ ايلول وفيه ما يلي :

١ً — ان حكومة بريطانيا العظمى ترفض الانتداب في سوريا . ٢ً — انها

توافق على المبدأ الذي يضمن لليهود وطناً قومياً في فلسطين . ٣ً – ليس من شأنها ان توجب على السوريين قبول حكومة لا يريدها اهل البلاد . ٤ً – ان المارشال آلنبي المسؤول لدى مؤتمر السلم عن الامن في البلاد يتخذ الوسائل اللازمة لقمع الفتن والاضطرابات .

وفي ١٥ من هذا الشهر ايضاً تم بين الحكومتين الافرنسية والانكليزية الاتفاق الذي بموجبه تكفلت بريطانيا العظمى ان تخرج في تشرين الثاني عساكرها من سوريا بشرط ان العساكر الافرنسية لا تدخل المدن الاربع منها ، اي دمشق وحمص وحماه وحلب ، لان بريطانيا العظمى قد عاهدت العرب على تأليف حكومة عربية .

اثار هذا الاتفاق وذاك البلاغ خواطر المتطرفين والمعتدلين من العرب ، وبلبل الناس على ان اولي الالباب المرنين في سياسة التلون والهوادة رأوا في الوثيقتين تناقضاً قد يكون تعمده الانكليز من اجل حلفائهم العرب . فها ان انكلترا تنفض يدها منا ، ولكنها تقول انها لا توجب علينا حكومة لا نريدها . وها انها تسحب جنودها من البلاد ، ولكنها تبقي السيادة المطلقة بيد المارشال آلنبي . فقام الناس يتظاهرون مثل تظاهرهم احتجاجاً على المسيو بيشون ، وتأسست لجنة الدفاع الوطني التي باشرت التجنيد .

وكان الامير في مقدمة المحتجين فاعاد تصريحه بالوحدة العربية وابرق الى مؤتمر السلم ان البلاد في اضطراب عظيم ، وان الشعب يقاوم اية خطة تجعله قيد المساومات ، ويتنصل من التبعة في الحاضر والمستقبل تجاه الحوادث التي من شأنها هضم حقوقه .

ثم سافر في اواخر ايلول الى لندن ليسعى شخصياً لدى الحكومة الانكليزية في سبيل الوحدة العربية المطلقة التي مر ذكرها ، والتي صرح بها على صفحات الجرائد ، فقال لمراسل روتر : ان معاهدة «سيكس – بيكو»

لا تعتبر ولا يعمل بها في نظر الامة العربية . وقال لمحرر جريدة « الايام اليهودية » انه يعتبر فلسطين جزءاً من سوريا وانها في نظر العرب ولاية لا بلاد مستقلة . ثم قال : ان ما يسعى اليه هو تأسيس دولة عربية تشتمل في الاقل على العراق وسوريا وفلسطين .

انها في السياسة خطة لا تزدريها الدول العظمى ، ولكن القوي اذا غير رأيه يعززه بالقوة ، وهو يتغلب حتى اذا تقلب . اما الضعيف بقومه ان لم اقل بنفسه فالثبات خير له وابقى . هاهنا يبدو في الامير ضعف لا نجده في جلالة ابيه ، وقد ثبت الى اليوم في مطالبه كلها ، فلم تتغير وحدته العربية وتتلون وفقاً لحوادث الايام ، وسياسات الدول العظام .

اما احتجاج الفرنسيس على الحكم العربي في الشام فلا يخلو من التحامل . قالوا ان العرب لم يحكموا باسم الحلف ، كما تحتم عليهم وانما حكموا باسم ملك الحجاز . وهل حكم الفرنسيس في المنطقة الغربية باسم الاحلاف يا ترى؟ وهل حكم الانكليز كذلك في المنطقة الجنوبية - في فلسطين ؟ وقالوا ان الملك حسين عجل في طلب المكافأة على خدماته في الحرب العظمى ، وكان ينبغي له ان يتربص الى ان تتم المعاهدة بينهم ويصير الاتفاق بخصوص سوريا . فليت شعري ما الذي فعلوه هم انفسهم ؟ افلم يقسموا البلاد السورية ويتسابقوا والانكليز في الحصول على قسمتهم منها ؟

الفصل الثامن

مرجعيون

الامير في لندن – الرجوع الى كليمنصو – الشروط – المساومة – الشورى – الرفض – الرجوع الى سوريا – موقف تجاه الامة – العصابات – ضرب الغيرة على ذبح النصارى – حادثة الحولة – الهجوم على الجديدة – النار والسيف – على من التبعة ؟ – حوادث عين ابل والقليعة – القومندان في الجديدة يلاعب الارنب – جواب المستشار لخوري عين ابل – فريضة الكولونيل نياجر .

قد خابت في لندن امال الامير، لانه وان كان اثناء اقامته هناك موضوع اكرام الطبقة العالية من الامة الانكليزية ، فقد أعلم رسمياً ان الحكومة تحافظ على العهد الاخير الذي عقدته مع فرنسا ، وانها وان كانت قد اشترطت عليها الا تدخل بجنودها المدن السورية الاربع فقد سلمت بان تكون المساعدة الفنية والاقتصادية للحكومة العربية منها لا من انكلترا . لذلك أشير عليه بان يسافر الى باريس ويتفق مع كليمنصو .

سافر الامير الى باريس ، وقابل المسيو كليمنصو ثانية ، فدار بينهما في ٢٢ تشرين الاول، حديث تناول المسئلة السورية بكل فروعها ، وكانت النتيجة لائحة تضمنت حل المشكل على طريقة تكفل له الحكم في سوريا، ولفرنسا حق المساعدة ، وللبنان توسيع الحدود والامتيازات التي يطلبها .

تردد الامير ثم لجأ الى المساومة ، فطلب ١ً – ان يكون نصف المستشارين افرنسيين والنصف الاخر من سواهم . ٢ً – ان لا يكون للمستشار الرأي الفاصل في الامور . ٣ً – ان لا يكون في سوريا ولبنان عسكر افرنسي . وقبل ان يكون العسكر الوطني تحت ادارة افرنسية .

رفض المسيو كليمنصو الشروط الثلاثة، فجمع الامير من كان في معيته يومئذٍ واستشارهم في الامر فارتأى فريق منهم وفيهم اثنان من المسيحيين ان يقبل

لائحة الوزير . اما الفريق الثاني وفيهم اثنان من المتطرفين ، الواحد طبيبه والثاني اديب من نابلس درس الحقوق في فرنسا ، فقد قاوموا فكرة القبول اشد المقاومة وكانوا من الفائزين ، فبرهنوا في فوزهم على ضعف في الامير كان يؤلم المعتدلين المتعقلين من انصاره ومريديه .

عاد الامير في اواخر كانون الاول الى سوريا وهو يعلم ان الحكومة الانكليزية لا تخاصم فرنسا من اجله ، وان فرنسا لا تتنازل عن سوريا[1] مهما كان من امرها في المفاوضات ، وان الحكومة الاميركية[2] لا تتدخل بالرغم عن لجنة الاستفتاء في امور البلاد السياسية . فاية خطة كان ينبغي له اتخاذها ؟ هل في امكانه ان يغير سياسة انكلترا الدولية ؟ هل في امكانه ان يحارب فرنسا اذا شاءت الاستيلاء على المنطقة الشرقية ؟ اذا اجبت سلباً ، وهو اقرب الى الحقيقة ، على السؤالين ، ارى بحكم الحال ان امام الامير سبيلين وفي كليهما شرف وحكمة ووطنية . فاما ان يكون قادراً على قيادة الشعب السوري فيقوده في جادة الاعتدال الى ما فيه المصلحة المشتركة بين الامتين الافرنسية والسورية ، واما ان لا يكون فيستعفي ويعيد مقاليد القضية الى جلالة ابيه .

وماذا كان بعد رجوعه المرة الثانية من باريس . هاكم الحوادث وهي اصدق رواة الاخبار . عندما وصل الامير الى بيروت خطب في الناس فاشار الى ما لا يزال بينه وبين فرنسا من الولاء ، فاعترضه بعدئذٍ ممثل الحكومة

---

(١) قد طالما قال وزراؤها بريان ولايغ وبيشون ان مركز فرنسا في البحر المتوسط يتزعزع اذا تركت سوريا ، وان الاستيلاء السياسي على بلاد ما لا يفيد اذا كان لا يقرن بالاستيلاء الاقتصادي ، وان لفرنسا في سوريا مصالح مادية وسياسية فوق حقوقها التقليدية .

(٢) قد قابل الامير فيصل في باريس المستر بولك المستشار القضائي يومئذ للنظارة الخارجية بواشنطون ، فلم يعده ولا علله بشيء .

العربية فيها وانتقد اعتداله آخرون . وكان قد ذهب الى استقباله واستخباره وفد من الشيعة في جبل عامل فلم يكلمهم ملياً في بيروت بل استصحب لهذه الغاية بعض علمائهم الى الشام . وقد عُقد اجتماع في وادي الحجير فضرب احد المشايخ خيرة (استخار الله بالسبحة) على ذبح النصارى . وكان في الحولة حكومة يديرها زعماء العصابات ، والحكومة الافرنسية عالمة بها . اما العرب وهم اعداء فرنسا فاصبحوا اعداء من والاها ناهيك بن تعصب لها من المسيحيين . وقد كان في من وُلي الامر منهم ، في النادي العربي وفي لجنة الدفاع بالشام ، اناس لا يأمرون بالمنكر ولكنهم في سبيل السياسة لا ينهون عنه .

فكانت النتيجة ان في ٤ كانون الثاني سنة ١٩٢٠ اي بعد وصول الامير فيصل ببضعة ايام ، أشعلت في مرجعيون ، باسم الوطن والسياسة ، نار الجهل والتعصب والفوضى . وكان العرب مشعليها والفرنسيس متفرجين عليها .

غير ان حادثة المطلة تقدمت الهجوم على الجديدة وكانت السبب القريب في نكبتها . وما حادثة المطلة ؟ قد كان الامير محمود الفاعور ، امير عرب الفضل ، خارجاً يومئذ على الحكومة ، فضرب بعض الجنود الافرنسية ، على اثر حادث عدائي في الحولة ، دار الامير بالرصاص وهدموها . فثارت عليهم العربان فبعثوا يطلبون النجدة من الجديدة ولم يكن في تلك الناحية يومئذ ، مع علم الحكومة بما يهدد الامن وبما ينذر من العصابات بالويل ، غير الفين من الجنود في المطلة وخمسمئة في الجديدة .

طلبت المطلة النجدة من الجديدة فارسل القومندان اربعمئة وخمسين من رجاله فلم يبق لديه غير خمسين . ولم يكن عند الاهالي غير مئة وعشرين بندقية واليسير من الذخيرة . اما الذين هجموا على الجديدة في ليلة ذاك اليوم فلا يقل عددهم عن الاربعة آلاف وفيهم العرب والدروز والمتاولة ، فاضرموا فيها النار واعملوا باهلها السيف والرصاص . حرقوا اربعين بيتاً ، وقتلوا

اربعين نفساً ، ونهبوا من الامتعة ومن الرياش ما قدرت قيمته بثة الف ليرة ذهباً .

ومن المسؤول ؟ قد تحقق ان ثلاثة من العرب كانوا يأخذون المال من الحكومة بدمشق باسم العساكر فيتصرفون بها ، ثم يأخذون من العصابات قسماً مما ينهبون . وقد كان رجال العصابات العاملية يلزمون القرى في جبل عامل القيام بنفقاتهم ، ويقدم رؤساؤهم التقارير الى المؤتمر العربي بدمشق. أتبغي الحقيقة كلها ؟ هاكها باسم الله . قد اخبرني احد افاضل الجديدة انهم عاينوا بعض الجنود النظامية في من هجموا على المدينة .

ولكني لم اطلعك على غير نصف الحقيقة في ما تقدم وهو نصفها كاملاً وهاك النصف الاخر. ان الحكومة الافرنسية او القيادة الافرنسية العامة التي كانت مسؤولة عن الامن في البلاد كانت تستطيع لو شاءت ان ترد عن البلاد واهله هذه النكبات كلها . فكان قد جاء الجنرال غورو ومعه بعض القوات العسكرية التي استمرت تزداد لتحقيق مقاصد حكومته في المدن الاربع بالرغم عن اتفاق ١٥ ايلول .

فاذا القينا بعض التبعة على الحكومة العربية وآخذنا الامير لانه لم يسعَ ، واذا كان قد سعى فلم يفلح ، في استيلائه على تلك الحكومة وارشادها الى ما فيه الحكمة والسداد ، فاننا نلوم اولا الفرنسيس الذين جاؤوا لحماية المسيحيين وما كانوا في البلاد الا بفضل المسيحيين . نلومهم لانهم وقفوا متفرجين وكان في امكانهم ان يخمدوا النار .

والذي يثبت فوق كل اثبات ما اقول هو ان تلك الفظائع تكررت بعد خمسة اشهر ، في ١٥ حزيران ، في عين ابل والقليعة والجديدة نفسها . ولم تكن الحكومة مستعدة لمقاومتها . طلب اهل الجديدة اسعافاً منها فلم تمدهم بشيء . جاء احد خوارنة عين ابل الى المسيو شاربنتيه ، المستشار الافرنسي في لواء الجنوب ، يشكو العصابات ، وقد كان في صيدا قوة كافية لمطاردتهم

والتنكيل بهم ، فكان الجواب منه ان دافعوا عن انفسكم . وجاء احد اهالي مرجعيون في حادثة الجديدة الثانية الى قومندان الموقع يطلب منه بعض الذخيرة ، وكان قد نفد ما عنده وهو يدافع عن نفسه واهله ، فلما وصل الرجل الى دار الحكومة وجد القومندان في فناء الدار يلاعب ارنباً . فطلب منه ذخيرة فابى . فقال الرجل : لا تدافعون عنا ولا تعطونا سلاحاً وذخيرة لندافع عن انفسنا ! فلم يكترث . ظل يلاعب ارنبه . ثم نظر اليه بعين الاحتقار قائلاً : مات من الفرنسيس الوف في الخنادق وانتم تشكون اذا مات منكم عشرة رجال .

وجاء – بعد خراب البصرة – الكولونل نياجر لينكل بالعصابات ففرض على اهل جبل عامل مئة وخمسين الف ليرة ذهباً ، وفوض الى حاكم صيدا العسكري ورجاله ، وفيهم ثلاثة من السوريين ، بجمعها . فجمعوا ضعفي المئة والخمسين الف ليرة بطرائق لا حاجة الان لذكرها – وقال العارفون المدققون ان الجباة الماهرين جمعوا اربعمئة وخمسة وثمانين الف ليرة– فدفعوا تعويضاً لاهل الجديدة خمسين الف ليرة منها . . . واطلقت الحكومة على شارع من شوارع بيروت اسم الكولونل نياجر ! Le Colonel Nieger

الفصل التاسع

ملك سوريا

فيصل بين الاحزاب – ساعة الشدة وساعة الرخاء – مؤتمر يتوج ومؤتمر يحتج – الحكومة الجديدة تباشر عملها بحاطتين – الفكرة اللبنانية في الانضمام الى سوريا – جزء الحزب الاكاديمكي – اتهام الوطنيين بخيانة وطنهم – قرار مجلس ادارة جبل لبنان – قصة العشرة الالاف ليرة – الحكومة تلقي القبض على اعضاء المجلس – البلاغ النهائي من الجنرال غورو الى الملك فيصل – « ابتدأ الفساد يوم حلت جيوشنا محل الجيوش البريطانية » – ذنوب الحكومة العربية – قرار المؤتمر السوري .

كان الشهر الاول من سنة ١٩٢٠ ويلاً على المسيحيين وعاراً على الفرنسيس . وكان الشهر الثاني من هذه السنة بداءة الويل على العرب . هاجت حول الامير فيصل الاحزاب ، وهدرت في الاسواق وفي المساجد شقشقة الخطباء ، واستفحلت في المؤتمر السوري قرون النعرات الدينية ، فاشتد تحمس بعض الاعضاء . وتغيظ الآخرون ، وسمو الامير يكافح تارة ، ويستسلم طوراً ، يردد كلمة الملك الافرنسي[1] ساعة الشدة ، ويعود اذا ما صفا الجو هنيهة الى بطانته وزعمائه . حتى استقر دور الاضطراب الاول ، او علته فاخفته افراح اليوم الثامن من شهر اذار ، يوم انتخب المؤتمر السوري العام بصوت حي فيصلاً بن الحسين ملكاً دستورياً على البلاد السورية .

حملت الانباء البرقية خبر التتويج الى العواصم الاوروبية والاميركية فجاء من احداها ، من باريس ، من مؤتمر فرساي ، نبأ الغضب والغرور . مؤتمر يتوج ومؤتمر يعترض ويحتج . بل يصدر الاوامر وهو يتوهم ان احكامه نافذة في كل مكان . لماذا قبلت التاج يا فيصل ؟ احضر عاجلاً الى هذا المجلس الاعلى وافصح عن شذوذك وشذوذ الامة السورية . انها من

(١) الملك لويس الرابع عشر الذي قال : الدولة انا انا الدولة .

مضحكات السياسة الاوروبية . هوذا امير عربي ، في بلاد عربية ، وقد انتخبه مؤتمر عربي ، فما دخل اوروبا او بالحري فرنسا وانكلترا بذلك ؟ ألا يجوز لامة شرقية، عربية، سورية ان تقيم ملكاً عليها دون ان تستأذن اثنين او ثلاثة من وزراء اوروبا ؟ وهم يتهمون العرب بأنهم يهتمون بأمور غيرهم اكثر من اهتمامهم بانفسهم . ولكن الملك فيصلاً لم يهتم بغير امره وامر بلاده فلم يلب دعوة مؤتمر الصلح المبجل .

باشر جلالة الملك والمؤتمر السوري تأسيس حكومة جديدة ، وتأليف الوزارة ، وتنظيم الجيش . وكان من اعمال هذه الحكومة السورية عمل لم يسر انكلترا واخر زاد بغيظ الفرنسيس . الاول هو اعلانها استقلال العراق عندما اعلن استقلال سوريا ، والثاني هو منعها الفرنسيس من استخدام سكة الحديد الى حلب ، ورفضها التعامل بورق البنك السوري الذي اجازته حكومتهم في المنطقة الغربية .

اما الفكرة اللبنانية في الانضمام الى سوريا ، فقد كانت الاحوال في المنطقة الغربية تزيدها قوة وانتشاراً . نفر بعض عقلاء اللبنانيين وولوا وجوههم شطر الشام . فاعترى الجزع الحزب الاكليريكي الافرنسي فراح كباره يسألون البطريرك الماروني ان يسافر ثانية الى باريس ليطالب المسيو كليمنصو بما وعده به لجبل لبنان . واستمرت حكومة الجنرال غورو تقاوم كل من قال بالوحدة السورية ، فوصلت في منهجها الى ما كان من امرها واعضاء مجلس ادارة جبل لبنان . جاء في البلاغ النهائي من الجنرال غورو الى الملك فيصل ما يلي :

« وآخر ما لجأت اليه حكومة دمشق من المآتي هو انها اشترت بمبلغ قدره اثنان واربعون الف ليرة القسم الاكبر من اعضاء مجلس ادارة لبنان فاوقفتهم مخافرنا بتاريخ ١٠ تموز وهم على أهبة السفر الى دمشق

ليبيعوا اوطانهم بيع السلع عابثين بالآماني التي اعرب عنها اهل وطنهم منذ زمن طويل باتفاق يقرب من الاجماع » .

لست ممن استحسنوا الطريقة التي سلكها الاعضاء الى غايتهم الحميدة، وكنت ولا ازال اظن ان ممثل الامة الشرعي لا يخرج من بلاده كالمجرم سراً، ولا يجبن فيموه رأيه اذا كان يعتقد الصحة فيه . ولكن هذه التهمة من اجنبي تنزع من الوطني، مهما كانت عقيدته السياسية، سلاح النقد والتثريب. مثل لنفسك انكليزياً في باريس يتهم اعضاء الندوة الافرنسية بالخيانة. . . أيغار الاجنبي على لبنان اكثر من غيرة ابنائه عليه ؟ عد الى القرار الذي اصدره مجلس الادارة ترَ الحقيقة التي يسمونها خيانة ، وترَ العجب في من يطالع القرار كله ثم يقول ان اصحابه مسافرون الى دمشق « ليبيعوا اوطانهم بيع السلع . »

ان اصدق وابلغ جواب انما هو في ما انقله لك من ذاك القرار :

« قد بذل هذا المجلس مزيد الاهتمام توصلاً لوفاق يضمن حقوق البلادين المتجاورين لبنان وسوريا ومصالحهما ودوام حسن الصلات بينهما في المستقبل، وبعد البحث في هذا الشأن وجد انه من الممكن الوصول الى ذلك بمقتضى البنود التالية :

١ً – استقلال لبنان التام المطلق . ٢ً – حياده السياسي بحيث لا يحارب ولا يحارَب ويكون بمعزل عن كل تدخل حربي . ٣ – اعادة المسلوخ منه سابقاً بموجب اتفاق يتم بينه وبين حكومة سوريا ٤ً – المسائل الاقتصادية يجري درسها وتقرر بواسطة لجنة من الطرفين وتنفذ قراراتها بعد موافقة مجلس نواب لبنان وسوريا . ٥ –يتعاون الفريقان في السعي لدى الدول للتصديق على هذه البنود وضمانة احكامها . »

اما سفر اعضاء المجلس « فلاجل التمكن من العمل على ذلك بحرية

وبمعزل عن ضغط خارجي ، ولاجل السعي الناجع في المراجع الايجابية لتقرير احكام البنود الاربعة المتقدم بيانها » . ولم يكن قصدهم السفر الى الشام بل الى اوروبا واميركا عن طريق حيفا هو ظاهر قصدهم وحقيقته ، لا ريب عندي بذلك . ولكني ارى في الطريقة التي سلكوها وفي بعض المقاصد التي اخفوها او موهوا بها ما يؤاخذون عليه.

الاسفار تقتضي النفقات ولم يكن في الخزينة اللبنانية ما يقوم بها فجاء الامير امين ارسلان، صديق العرب واللبنانيين الاحرار، ليسعى في ذا السبيل قال سليمان كنعان ، احد اعضاء المجلس ، للامير امين : لا نستطيع ان نجمع مالاً كافياً للسفر . فقال الامير : انا اتكفل بذلك . وبعد قليل جاءهم بخمسة آلاف اخرى عندما يجتازون حدود لبنان . وها نحن في دور التمويه الذي افسد على الاعضاء عملهم . المال الذي جاء به الامير امين بوزارة نوري باشا السعيد هو من الملك فيصل لا من عارف النعماني . ولكن السند الذي كتبه سليمان كنعان بالقيمة كلها هو لامر النعماني وبكفالة الامير امين. فحبذا لو كان السند صادقاً فيكون المال من احد تجار الامة الذي يشارك الاعضاء في عقيدتهم السياسية ويود نجاح مسعاهم . ولكن المال من الملك فيصل وهذه حجة الفرنسيس في الرشوة .

قال سليمان كنعان للامير امين : بشرط الا نمر بالشام ولا نقابل الملك فيصلاً . وكأني بالامير اللطيف الحاذق يقول و تأخذون ماله ولا « تباون » للسلام . فاتفقوا ان يسافروا الى حيفا ويرسلوا من قبلهم اثنين او ثلاثة الى الشام للسلام – والمفاوضة . ولكن التقادير حالت دون الاثنين فقد اوقفتهم السلطة الافرنسية قبل ان يجتازوا الحدود ، وعادت بهم مخفورين الى بيروت حيث حوكموا امام مجلس افرنسي يرأسه ضابط اسمه ده فوكروسون[1]

(1) M. de Veaucresson

فجرمتهم المحكمة فنفتهم الحكومة الى جزيرة ارواد ثم الى جزيرة كورسيكا.

بعد ان القي القبض على اعضاء مجلس الادارة باربعة ايام اي في ١٤ تموز سنة ١٩٢٠ ارسل الجنرال غورو بلاغه النهائي الى الملك فيصل ، ومطلعه هذه الكلمات :

« بينما كانت السكينة سائدة في سوريا اثناء الاحتلال الانكليزي ابتدأ الفساد يوم حلت جيوشنا محل الجيوش البريطانية ولا يزال آخذاً بازدياد منذ ذلك الوقت »[١].

هي الحقيقة بعينها. ابتدأ الفساد يوم حلت جيوش الفرنسيس محل الجيوش الانكليزية فقد كانت الجيوش الافرنسية اما عاجزة واما مهملة . اما العجز فالحزم الذي ابدته هذه الجيوش بعد البلاغ النهائي ينفيه كل النفي . واما الاهمال فقد يكون ناتجاً عن قصد سياسي هو رغبتهم في الاستيلاء على المدن الاربع التي تعهدت فرنسا لانكلترا في اتفاق ١٥ ايلول من سنة ١٩١٩ الا تحتلها .

اما بلاغ الجنرال غورو فتنقسم الاحتجاجات فيه الى خمسة اقسام . اولاً – « الاعمال الموجهة الى حكومة الاحتلال الافرنسية » وفيه ذكر الحوادث المفجعة التي كانت العصابات سببها وان حكومة دمشق قد قابلت القائمين بتنظيمها بالحفاوة والاكرام « ونخص بالذكر منهم صبحي بك بركات الذي اصبحت عداوته لنا اشهر من نار على علم » .[٢] ثانياً – « سياسة حكومة دمشق العدائية » وهي تنحصر على ما يظهر من البلاغ بتعيين رجال في الحكومة « معروفين بعدائهم لفرنسا » . ثالثاً – « التدابير الادارية ضد فرنسا » واهمها ما يتعلق برفض التداول بعملة البنك السوري . رابعاً –

(١) اعتمدت على الترجمة التي في كتاب « مركز لبنان السياسي » ليوسف اصاف بك

(٢) وقد عينوه بعدئذ رئيساً للاتحاد السوري .

« الاعمال العدائية الموجهة لفرنسا رأساً » وفيه ذكر بعض الذين أهينوا في المنطقة الشرقية لانهم اصدقاء فرنسا ، والذين احترموا لانهم اعداؤها ومنهم الدنادشة ، وكامل بك الاسعد ، ثم اعضاء مجلس ادارة لبنان . خامساً — « التعديات على الحقوق الدولية » وفيه احتجاج على التجنيد الاجباري وعلى ملكية الامير « المغتصبة غير الناتجة عن ارادة الشعب الحرة » وعلى المؤتمر السوري الذي تألف وشكل بصورة غير مشروعة .

« ان هذه الاسباب تثبت جلياً انه اصبح من المستحيل الاعتماد على حكومة جاهرت بصراحة تامة بعدائها لفرنسا . . . وعليه فان فرنسا ترى نفسها مضطرة ان تحتاط بالوسائل اللازمة لتأمن راحة جيوشها وراحة اهالي البلاد » . . . ولذلك هي تطلب الضمانات التي يلي ذكرها : اولاً — حق التصرف بسكة الحديد بين رياق وحلب . ثانياً — الغاء الخدمة العسكرية الاجبارية . ثالثاً — قبول الانتداب الافرنسي . رابعاً — التداول بالعملة السورية . خامساً — معاقبة المجرمين الذين تثبت عليهم اكثر من غيرهم مناجزة العداء للجنود الافرنسية .

وقد طلب الجنرال قبول هذه الشروط « بوجه اجمالي دون استثناء البتة في مهلة اربعة ايام تبتدىء في الساعة الاولى ليلاً من ١٥ تموز وتنتهي في الساعة الثانية عشر ليلاً في ١٨ منه . »

وصل البلاغ الى الشام في مساء اليوم التالي فاستدعى الملك للمشاورة عدداً من وجهاء المدينة من جميع الطوائف ، ففوضوا الامر اليه ليعمل بما فيه خير البلاد . ولكن المؤتمر السوري اصدر في جلسة قانونية القرار التالي :

« ان المؤتمر السوري الممثل للامة السورية في مناطقها الثلاث يعتبر قراره التاريخي بمواده الثلاث التي هي : اولاً — الاستقلال التام والوحدة ورفض الهجرة الصهيونية . ثانياً — ملكية جلالة الملك فيصل على الاساس

النيابي الدستوري . ثالثاً – بقاء المؤتمر منعقداً يراقب اعمال الحكومة المسؤولة امامه الى ان يجتمع مجلس النواب بموجب القانون الاساسي ، قراراً واحداً لا يقبل التجزئة . وان نقض جزء منه يعتبره المؤتمر نقضاً للقرار بجذافيره . وان المؤتمر السوري لا يعترف باسم الامة السورية باية معاهدة واتفاقية او برتوكول يتعلق بمصير البلاد ما لم يصادق المؤتمر نفسه عليها . »

في هذا القرار وطنية شماء لا يزدريها من كان له وطن في العالم .

الفصل العاشر

ميسلون

الخلاف بين الملك ووزير الحربية – الحكمة والاعتدال – التحمس والضحية – الثلمة بين الحكومة والامة – اعلان الحرب – قبول الشروط – وصول الجواب مؤخراً – السبب في التأخير – دعوى حكومة الانتداب – الحقيقة – الجيش الافرنسي يزحف على دمشق – الطريق التي اتخذها – قطع خط الرجعة – تسريح الجيش العربي – احتلال مجدل عنجر – دفاع البقية من اللواء الاول – الهدنة – الثورة في دمشق – معركة بين الجنود والاهلين – الملك يدعو الناس للجهاد – يوسف العظمه في ساحة القتال – وقعة ميسلون – الاستشهاد – دخول الجيوش الافرنسية دمشق .

كان يوسف العظمه ، وهو صنو انور ومصطفى كمال في المدارس الحربية الالمانية ، شديد البأس شجاعاً باسلاً ، صريح الكلمة ، صادق اللهجة ، ذا وطنية اجيجها من نار الشهداء . ولكنه في حماسته واندفاعه ، وهو وزير الحربية في الحكومة السورية ، اساء الى معقوله ونسي حقيقة الحال التي توجب الحكمة والاعتدال .

اما الملك فيصل فهو في سياسته ، وخصوصاً في المواقف الحرجة ، ينسى ان الحماسة روح الحقيقة ، وان الضحية نورها . فلو رأى الواحد منهما ما في الاخر وتنزل الى قبول شيء منه في الساعة الخطيرة ، ساعة الجزم واليقين ، لما كانت تلك الثلمة التي انقضت منها روح الفوضى فساعدت الصائل على الامة وذبحت فيها الحرية والامل .

كانت الثلمة ، مهما قيل في حسن الصلات بين جلالة الملك والمؤتمر السوري ، وكانت الفوضى ، وكان الاستيلاء الاجنبي . ثبت المؤتمر في قراره الاخير فاعلن الحرب ، على اثر وصول البلاغ النهائي ، دفاعاً عن الوطن . وصدر الامر من نظارة الحربية بارسال الفرقة الاولى الى مجدل عنجر في منطقة

ميسلون لتكون هناك مستعدة للحرب .

ولكن اعيان الامة ورؤساءها الروحيين كانوا يميلون مثل الملك الى قبول الشروط ، فوكلوا الامر اليه ، فارسل جلالته في ١٦ تموز برقية الى الجنرال غورو يقبل الشروط كلها ، واصدر امراً في تسريح الجيش وآخر الى الجنود في منطقة ميسلون لترجع الى الشام ، الا اللواء الرابع فيبقى محافظاً على الحدود . على ان البرقية لم تصل الى الجنرال الا بعد انتهاء المدة المعينة في البلاغ ، لان العصاة ، كما ادعت الحكومة ، كانوا قد قطعوا الاسلاك البرقية في جهات الزبداني .

هب انها الحقيقة ، فان القيادة العامة كانت عالمة بما كان يجري في تلك الايام في دمشق . وقد طارت طيارة في ١٨ تموز فوق المدينة فألقت منشوراً من الجنرال غورو مطلعه ما يلي : « في هذه الساعة التي تقذفكم فيها حكومتكم الى القتال وتستهدف بلادكم لاخطار الحرب وويلاتها اوجه اليكم الخطاب لاقول لكم السبب الذي من اجله تقتتلون . »

فاذا كان عالماً بما اقره المؤتمر السوري افلا يكون عالماً كذلك بما اقره جلالة الملك بالاتفاق مع وزرائه وفريق من اعيان المدينة ؟ أوَ ما كان جديراً به ان يسأل في الاقل ضابط الارتباط الافرنسي في دمشق ليبحث عن السبب في تأخير الجواب ، وهو القائل في منشوره : « على اني ما زلت آملاً بان السوريين الاذكياء المتنورين سوف لا يرضون بان يلقوا بانفسهم الى التهلكة دفاعاً عن الاقلية الاثيمة . »

اذن هو عالم ان الاقلية ترفض شروطه والاكثرية تقبل بها ، وقد ارسلت الجواب الذي فيه فصل الخطاب . فلماذا فضل الجنرال العمل بظنه على العمل بيقينه ؟ فبعد ان ارسل البلاغ النهائي زحف جيشه وهو زهاء ستة الاف من

الجنود السنغالية والمراكشية والجزائرية[١] على الشام متخذاً غير الطريق المعروفة ، طريق وادي الحرير ، فقطع سهل البقاع من جب جنين الى وادي القلوح ، فمر بقرية بكّا ، ثم بدير العشائر ، فاستصحب احد الرجال هناك دليلاً ، ودار من دير العشائر الى الديماس فقطع خط الرجعة على العرب المعسكرين في منطقة ميسلون ، ووقف هناك ليأمن مؤخره قبل ان يستأنف الزحف على دمشق .

وقد دل المسلك في زحف الجيش على استعداده للقتال ورغبته فيه ، فشاء عند وصوله الى الديماس ان يخرج الجنود العربية من مراكزها المحصنة ليضربها في الفلاة ويحتل تلك الاماكن . لذلك بادر الى احتلال مجدل عنجر عندما انسحبت الجنود العربية منها ، واخذت تتراجع بدون نظام الى دمشق بيد ان اللواء الرابع ظل محافظاً هناك بموجب الامر الذي اصدره الملك ، فتصدى للدفاع عندما تقدمت الجنود الافرنسية ، فأسقط في يده وأسر برمته .

اما ناظر الحربية يوسف العظمه فكان قد اصدر امراً الى الجنود المسرحة يناقض امر جلالة الملك ، فاوقف قائد اللواء الاول حسن الجندي ، عملاً بذلك الامر ، عدداً من جنوده يتراوح بين الثلاثمئة والاربعمئة وعاد بهم الى ساحة القتال . فئة صغيرة وقفت وقوف الابطال في وجه الفئة الكبيرة فخشيت القيادة الافرنسية ان تكون القوات العربية التي انسحبت من مجدل عنجر متحصنة في جهات خان ميسلون ، وان تكون هذه الشرذمة طليعة جيش كبير من العرب . فرغبت الى الملك فيصل بهدنة مدتها ثماني واربعون ساعة تنتهي في الساعة الاخيرة من ٢٣ تموز . فكانت الهدنة وجاء

---

(١) كان هـذا الجيش مؤلفاً من بقية الاي البيادة ٤١٥ والاي الرماة الجزائريين الثاني والفرقة السنغالية والاي الرماة الافريقيين وطابور من الصباهية المراكشيين والمدفعية السهلية والجبلية تدعمها الطيارات والدبابات .

اثناءها مندوب الحكومة العربية مصحوباً بالمعتمد الافرنسي بالشام للمفاوضة مع الحكومة الافرنسية بعاليه .

اعود بالقارىء الى المسرح في دمشق حيث الثلمة بين الحكومة والامة كانت تزداد خطراً واتساعاً . فلما انتشر خبر الامر بتسريح الجيش نهض جمهور من الدمشقيين يحتجون، بل نهضوا للثورة في سبيل الاستقلال، وبادروا الى الثكنة والقلعة يطلبون الذخيرة والسلاح . فاصدرت الحكومة امراً بتشتيتهم . وكان قد وصل الى دمشق بعض الجنود المسرحين العائدين من ميسلون، فازدادت نار الثورة تأججاً ، وكانت الفوضى تنفخ فيها على الدوام، فقام بعض الرعاع يصيحون مع الثائرين ويسلبون وينهبون . جاءت كتيبة من الجند لتنفيذ الامر بتشتيت هـذه الجموع الهائجة فنشب بين الفريقين القتال ووقع مئات من القتلى تحت نيران المدافع الرشاشة .

وكان يوسف العظمه لا يزال مصراً على رأيه وعزمه . اما الملك فيصل فبعد التردد والتحير ، نهض يوم الجمعة يشد حقويه ويستل السيف باسم الله. وقف يومئذ في الجامع الاموي خطيباً وطفق يدعو الناس للجهاد ، ويعدهم بانه سيكون في طليعة الجيش .

ولكن وزير الحربية الباسل سبقه الى الجهاد والاستشهاد فخرج باربعمئة جندي ومئتين من الهجانة، يصحبهم ويتبعهم جيش من الاهالي والعربان يتراوح عدده بين الاربعة والخمسة الاف. جاء ينجد تلك البقية المستبسلة من اللواء الاول . ولكنه وهو وزير الحربية كان يعلم ان الذخيرة والمعدات لديه لا تكفي لمعركة واحدة خطيرة ، ففضل الشهادة على الحكمة والموت في سبيل الوطن على الحياة في ذله .

اتخذ العظمه عقبة الطين جبهة للدفاع ونشبت في ٢٥ تموز نار الحرب بين الجيشين في واقعة دامية استمرت ست ساعات ، واستخدمت فيها الجنود

الافرنسية الطيارات والدبابات . هي واقعة ميسلون المعروفة التي اضعفت القوات العربية واوقعت في صفوفها عوامل التفكك والتقهقر .

وظل يوسف العظمه في مقدمة رجاله يحثهم على القتال، فاصيب برصاصة في فخذه ، واخرى في كتفه ، وظل يحرض ويقاتل حتى اصابته الثالثة في رأسه فهوى الى الارض صريعاً . رحم الله كل من مات بطلاً في سبيل الحرية والاستقلال .

في اليوم التالي دخلت الجنود الافرنسية دمشق وكان قد غادرها الملك فيصل ومعه بعض من لا يزالون في حاشيته من بغداد .

الفصل الحادي عشر

الثورة في العراق

شهر الحرية شهر شوءم على طلاب الحرية – ولا زعامة ظاهرة – خسارة العراقيين والانكليز – فساد الاخلاق في اوروبا – روح التمرد في الشرق – حكومة هندية في العراق – ضعف السيادة المعنوية – تأجج الفتنة – العشائر والقاتيل – السر آكيلر هالداين – المعاقل الانكليزية – سوري مقتدر حكيم – السر آرنلد ولسون – في سياسته سوط ونكتة – السر برسي كوكس – في سياسته كثير من الزيت – بلاغ المندوب السامي – حكومة وطنية – السيد عبدالرحمن النقيب الجيلاني – اعضاء المجلس الوطني – اعمال المجلس – السيد طالب النقيب – العراق يطلب ملكاً – السيد طالب يابى الطلب .

ان الشهر الذي استقرت فيه السيادة الافرنسية في سوريا لشهر شؤم على السيادة الانكليزية في العراق . فقد اختار الافرنسيس تموز ، شهر الحرية ، ليقاوموا شعباً مجاهداً في طلب حريته ففازوا . وقد حاول العراقيون في هذا الشهر ان يخرجوا الانكليز من العراق فلم يفلحوا . وكانت الثورة قد اشتعلت وتأججت في انحاء العراق كلها ، من النجف الى بعقوبة ، ومن المنتفق الى الموصل وبلاد الاكراد .

جاءت الكلمة من العلماء ، وفي مقدمتهم كبير المجتهدين في النجف ، فقامت العشائر ترددها وتعمل بها ، فارسلت روح التمرد في البلاد سمومها ، فالتهمت الاخضر واليابس في المضارب وفي المدن ، وعمد الوكلاء السياسيون لبريطانيا العظمى الى البرق والتلفون يطلبون النجدات من البصرة ومن العاصمة . انه لأعجب ما حدث في العراق بعد الاحتلال الانكليزي . هوذا بلد لا صحافة فيه تذكر ، ولا طرق مواصلات حديثة صالحة ، ولا قيادة ، تعمه الثورة فترتبط اطرافه بعضها ببعض في اقل من شهر ، ثم تستمر اشهراً وهي تزداد قوة وهولا . حتى ان العاصمة بغداد كادت تسقط في حوزة الثائرين .

قد انفقت الحكومة البريطانية ملايين من الليرات وفادت بالوف من الجنود لاخمادها ، وكانت خسارة العراق كذلك كثيرة فادحة . هي ثورة شبيهة بزلزال هائل، لا بحادث اجتماعي شاذ يديره مع ذلك العقل والحكمة، فلم يكن فيها شيء من الخير لا لأهل العراق ولا للحكومة المحتلة .

بيد انها نبهت الانكليز الى حال في البلاد العربية بل في الشرق جديدة، وذكرتهم بحال في اوروبا هي بنت الحرب العظمى وام الانحطاط المعنوي ، تلك الحال العامة وقد كادوا ينسونها . ان لكل عمل رجلاً ولكل رجل يوماً ، ولكل يوم سياسة . قد كان الانكليز السبب الاول في ثورة العراق في صيف ١٩٢٠ لانهم نقلوا الى البلاد حكومة هندية قديمة عقيمة ، هندية في طريقتها ، هندية في سياستها ، هندية في رجالها . والهنود بجملتهم لا يحبون العرب ولا يحترمونهم ، والعكس بالعكس . وقد كان رئيس الحكومة في هذه الفترة رجلاً من الطراز الاول من ابناء بريطانيا الاشداء الذين شادوا في الماضي معالم مجدها . غير انه وجد في زمان غير زمان اجداده ، وبين شعب غيرت نفسيته وعقليته حوادث الايام .

السر آرنلد ولسون[1] الحاكم بالوكالة يومئذ في العراق هو كهل في العقد الرابع من العمر، ومن الانكليز الذين كانوا يحملون السوط في القرن الماضي ويحكمون بموجب ضميرهم لخير انكلترا اولاً ثم لخير الناس . وكانوا في تفوقهم محسنين، وفي ظلمهم عادلين، قوتهم في يقينهم ويقينهم في اخلاقهم، واخلاقهم متأصلة في فضائل شعب مجيدة، اظهرها الشرف والعدل والصدق والثبات . بيد ان هذه الفضائل امست اليوم من التقاليد المحترمة وقد يعيد الزمان الى التقاليد الحياة والعمل .

قام السر آرنلد ولسون يمثل في العراق امة افقدها الحرب كما افقدت

---

(1) Sir Arnold Wilson.

امم اوروبا جمعاء كثيراً من قواها المعنوية الروحية، فصارت تفادي بعدلها في سبيل شرفها، او تتنزل عن شيء من شرفها لتحفظ مقامها، او تتساهل بالصدق لتظل ثابتة القدم مسموعة الكلمة، او تتغلب وتتلون دفاعاً عن نفسها وكيانها. رجل من حديد يمثل امة من فولاذ اعتراه الصدأ، قام في العراق يحكم باسم الله وبريطانيا العظمى، فوجد شعباً ظنه كشعوب الهند في القرن الماضي يقبل دائماً بالتأديب ويشكر دائماً المؤدب.

قلت ان الحرب افقدت الامم الاوروبية كثيراً من قواها المعنوية، الادبية والروحية، ولم تُكسب الشعوب العربية بل الشرقية غير حب الحرية والاستقلال ونزعة في سبيلها لا تاثلها شدة حتى النزعات الدينية. ولكن الحروب والثورات، اذا كسرت قيود الظلم، لا تعلم المظلومين النزاهة والحكمة والعدل، ثم العمل المدني الذي فيه هذه الفضائل الثلاث. فقد الانكليزي من قواه المعنوية ما كانت تقدر في الاحكام بنصف نفوذه، ولم يبق في العربي بل الشرقي من الخوف والاحترام ما كان يقوم مقام النصف الآخر. كانت بريطانيا العظمى تحكم ثلاثمئة مليون من الناس بثلاثين الفاً من الجنود. هي حال وأت ايامها. فقد ارسلت سبعين الفاً من جنودها الى العراق، وسكانه لا يتجاوزون الثلاثة ملايين، ولم تستطع ان تخمد الثورة في اقل من سبعة اشهر.

السبب بسيط. ان كلمة الحاكم العادل المستبد تستوجب في تنفيذها، اذا كان لا يحترمها الناس، قوة الشرطة او قوة الجيش. فكيف بها اذا كان الناس ينفرون منها ويقاومونها. زرع السر آرنلد ولسون، اثناء قيامه مقام المندوب السامي، بذور الفتنة، وهو متيقن انها بذور الحكمة والخير، وشاركه في الزرع وفي الحصاد رجل آخر من رجال الحكم الانكليزي هو السر آلمر هالداين[1] قائد الجيوش البريطانية يومئذ في العراق. ويظهر ان

(1) Lieutenant Gen. Sir Aylmer Haldane.

السر آلمبر كان احرص على صحته وراحته من السر آرنلد . فقد اعتاد في الهند ان ينتقل مع الحكومة في كل فصل من فصول البرد والحر ، فجاء العراق في آخر الشتاء ، وما كاد يدخل الربيع الذي هو النصف الاول من صيف هذا القطر حتى احس بحر حمله على التجوال في جبال العجم . ثم نقل مركز القيادة العامة الى تلك الجبال بينا البلاد كانت تتمخض بالثورة . اضف الى ذلك ما كان يحدث بينه وبين وكيله المندوب السامي والوكلاء السياسيين من الخلاف الذي زاد في خلل الادارة وفي امتداد الفتنة . حتى ان السر آرنلد بعث ذات يوم يشكوه الى الحكومة بلندن فجاءت برقية من الوزارة الحربية تسأل القائد العام ماذا يعمل في جبال العجم . اجل ، ماذا يعمل في الجبال ونيران الفتنة تشتعل في السهول ؟

اما الغاية من هذه الثورة فقد انحصرت كما يظهر بأمرين ، اخراج الانكليز واعلان الاستقلال . على ان نهضة يديرها او يوعز بها او يدعو لها المجتهدون لا تخلو من نزعة دينية تتخلل دعوتها السياسية . فقد كان المجتهدون في النجف وبعض الزعماء مثل يوسف السويدي وجعفر ابي التمن يعملون سراً في اثارة الفتنة . اما العشائر فقد كانوا مستعدين — وهم دائماً مستعدون لتلبية اي دعوة تخلصهم من دفع الضرائب الباهظة التي تفرضها الحكومة عليهم وتحاول تحصيلها بالطرق الفعالة ، القانونية وغير القانونية . فما همهم شيء ولا عرفوا بشيء من مقاصد الزعماء المحتجبين الخفية .

وقد كانت للعشائر قوة في الدفاع والقتال عجزت دونها الجنود البريطانية ارض العراق كما هو معلوم مسطحة بسيطة لا يكاد يكون فيها ملجأ يلجأ اليه المقاتلون في الغارات او مكمن يكمنون فيه فبنى العشائر لهذه الغاية المفاتيل . والمفتول هو برج صغير مستدير ، علوه من خمسين الى سبعين قدماً ، فيه درج غالباً لولبي يتصل بغرفة في رأسه فيها كوى كبيرة من الداخل صغيرة من الخارج يرصد منها العدو ويطلق منها النار . وهي تختلف حجماً

فيمكن ان يحاصر فيها من الخمسة الى العشرين رجلاً عدة ايام . قد رأيت منها . في اليمن وفي نجد ولكنها قليلة هناك .

اما العراق فقد كان فيه الوف من المفاتيل عند دخول الانكليز . بل كان في بعض الجهات لكل بيت او في الاقل لكل حي مفتول . المفاتيل ! انما هي الويل الاكبر على الجنود الانكليزية ، وهم في الفلوات معرضون دائماً لنارها ولا كنف يحميهم منها . فلا عجب اذا عدت حصن العراقي المنيع ، والسلاح الوحيد الذي يخشاه العدو . ولا عجب اذا كان العدو في الزحف والهجوم يسعى اولاً في هدمها ، ثم يبني في السهول ما يقوم مقامها لجنوده وهو المعقل او ما يسمونه بالانكليزية Block House وليس هناك ما يحول دون ذلك . فالمعقل مربع بسيط له اربع نوافذ عالية وليس له باب ، وفي الداخل مواقف للجنود تمكنهم من الرصد واطلاق النار . قد بنى الانكليز الوفاً من هذه المعاقل ، وفي الطريق من البصرة الى بغداد كثير منها ، ليس بين الواحد والاخر اكثر من مسافة ميل واحد .

اما هدم المفاتيل فيستلزم قوة وشجاعة واستبسال . وقد بذل الانكليز فوق ذلك كثيراً من المال . فكانوا يتقدمون الى شيخ القرية او شيخ القبيلة بشرك او بمعروف او بشيء من الرصاص او المال ، فيضغطون عليه او يستغوونه او يرشونه او يغدرون به — والحرب خدعة . اجل ، قد بذل الانكليز كثيراً من المال ومن الرجال في هدم المفاتيل . ولم تكن الطيارات التي حملوا بها على العشائر لتساعد كثيراً ، الا اذا كانت المفاتيل داخل القرية التي يضربونها ، فيهدمون ويحرقون فيها ليهدموا تلك الحصون الصغيرة المخفية او ليروعوا اهلها المتمردين . لا اظن ان في مظالم الحكم مظلمة تورث العراقيين بغض الانكليز وتثير عليهم ثائرة الاحقاد مثل الطيارات ، ذاك السلاح الطائش الاعمى الذي يقتل النساء والاطفال والابرياء مع المذنبين .

وعلى الرغم من الطيارات قد حاصر الثائرون كثيرين من الضباط والوكلاء السياسيين وهم في مراكزهم يدافعون عنها الى ان تجيئهم النجدة او يُقتلوا . وقد كان اكثر الموظفين من الجندية فلم يحسنوا الادارة خصوصاً في بلاد اجنبية ، ولم يكن بينهم وبين اهلها شيء من العطف . فضلاً عن الخلل في الادارة العسكرية التي كانت قيادتها العامة معتصمة في جبال العجم . فلا عجب اذا استمرت الثورة سبعة اشهر ، والعرب فيها فائزون بالرغم عن المعاقل المشيدة والمفاتيل المهدومة .

وعلى ذكر المفاتيل اذكر سورياً سعى في هدم مئات منها وكان من المفلحين . فقد كان في خدمة الانكليز الادارية بعض السوريين من المقتدرين المخلصين ، كما جاء في تقرير المندوب السامي الى دائرة المستعمرات . « وقد كان احد سوريينا المقتدرين المخلصين عوناً كبيراً لنا في هذا الموقف الحرج » ولكن كاتب التقرير لم يذكر اسم ذاك السوري . هو الجندي المجهول . فها اني عملاً بالواجب الانساني لا الوطني اذكر اسم من يستحق ضعفي هذا الثناء . هو سوري من حيفا كان نائب متصرف البصرة يوم كنت هناك ، فخدم الحكومة العراقية الانكليزية في ايامها الاولى العصيبة خدمات جليلة في وظائف شتى ، وحاز جزاء خدمه في النجف خصوصاً وسام الدولة الهندية .

كان جاد غاوي معاون الوكيل السياسي في الشامية[1] وكانت المفاتيل في تلك الايام كما قلت اشد اعداء الجيوش البريطانية وامضى سلاح بيد العراقيين . فتمكن جاد غاوي في الشامية من حمل العرب على هدم مفاتيلهم ولم يبذل من اسباب النجاح غير اللطف والمعروف وقوة الاقناع . داراهم وهو في دارهم ، فاكتسب ثقتهم وحبّ مشايخهم ، فهدموا من حصونهم ما

---

(١) هو قضاء الشامية من متصرفية الحلة وعدد سكانه نحو خمسة وستين الف نفس كلهم شيعيون ومن العشائر .

يتجاوز الالفين منها ، وكانوا بعد ذلك من اصدقاء الحكومة والانكليز .
قد لا يذكر اسم جاد غاوي في التقارير الرسمية ، ولكني سمعته حيثما سرت في العراق وما سمعته مقروناً بغير كلمات الحب والتكريم .

اما السر آرنلد ولسون ، فلا يزال في العراق من الانكليز لا من العرب ، من يعجب به بالرغم من هذه الثورة ، ويستحسن خطته السياسية . ولا غرو ، فهو على نزقه وتسرعه وعنفوانه حر الطبع ، صريح الكلمة ، طلق المحيا . وهو حنطي اللون ، اسود الشعر والعين ، كأنه ايطالي او اسباني . وله شيء مما كان لروزفلت من المغناطيس في المصافحة والحديث . قد كان الرئيس الاميركي الشهير يضرب بيده على كتف من يحييه عند المصافحة ، فاصبحت من عاداته المحبوبة . اما السر آرنلد فلا يضرب بيده بل بلسانه او باشارة من اشارات النفس التي تظهر في اللحظ او الابتسام او في نبرات الكلام . قد اجتمعت به في البصرة بعد ان رجع من انكلترا ليرأس شركة الغاز الانكليزية الفارسية في عبادان . فسلم كأنه من المعارف . وعندما تبادلنا السلام تبادلنا كلمة بخصوص السر برسي كوكس . وكان قد علم السر آرنلد باني انتظره لارافقه في السفر الى العقير فقال على الفور : ستنتظر طويلاً . فقلت : اذا كان لا يصل في هذا الاسبوع اسافر وحدي . فقال : حسناً تفعل . هي الطريقة الوحيدة في النجاح فخطر في بالي اذ ذاك ما قاله الشاعر العربي فترجمته له :

وانما رجل الدنيا وواحدها من لا يعول في الدنيا على رجل

فقال السر آرنلد على الفور : عند العرب الشعر ولا ريب ، وليس عندهم العمل .

هوذا الرجل الذي كانت سياسته في العراق من العوامل الاولى في ثورة سنة ١٩٢٠ . ولا اظنه اذا ذكرت مرة يحس بشيء من الندم ، لانه كان ولا يزال يعتقد ان القوة في الحكم بالرغم عن التعنيف خير من اللين والفوضى .

اما الرجل الذي جاء في تشرين الاول من هذه السنة ليطفىء ما تبقى تحت الرماد من جمرات الثورة، ويؤسس حكومة وطنية لاهل العراق «وفقاً لرغائب جلالة الملك» فهو نقيض السر آرنلد على خط مستقيم .

السر برسي كوكس[1] رجل طويل القامة ، نحيل الجسم ، بيضي شكل الوجه ، دقيق الانف والشفة ، ابيض الاديم ، ازرق العين . هو انكليزي لا غش فيه . ظاهره ، وهو في سكون ، ينبيء عن نفس رائقة ولكنها ليست بشفافة . واذا كان من اضطراب هناك فقلما يبدو للنظر . في لطفه ما يدفيء ولا يشع، وفي صراحته شيء يشير غالباً الى التعمد . هو من السياسيين الذين يحتفظون بسرهم ، وان كان لا يهم ، كأنه رأس مالهم في الحياة . واذا كشف عن زاوية منه فبعد ان تكون الحوادث قد كشفت عنه الستار كله .

ان سكوت السر برسي هو غالباً افصح من نطقه . وان عمله السياسي، وان وقف فيه احياناً عند حد الغموض او العجز ، لا يخلو من الاخلاص للعراقيين وللعرب . فاذا حصرت النظر في سياسته العربية ارى ان اكبر فضله واظهر حسناته هو هذا الاخلاص، ولو ظهر في بعض الاحايين في مظهر مائع او في مظهر مؤلم . فقد قضى مدة من حياته قريباً من العرب ولا يزال يحبهم ويعجب بمواهبهم الراقدة ، ويود ان تكون المنافع في العلائق الانكليزية العربية مشتركاً فيها على السواء بين الامتين .

---

(١) دخل السر برسي كوكس في سلك الحكومة الهندية سنة ١٨٩٠ ، وعين بعد ثلاث سنين نائب قنصل زيلا في بلاد الصومال ، وانتقل في السنة التالية الى بربره ، ثم عُين سنة ١٨٩٩ قنصلاً في مسقط ، ثم قنصلاً عاماً في ابي شهر . وفي سنة ١٩٠٩ أسند اليه منصب المندوب السامي في خليج العجم . وعندما شبت نار الحرب العظمى أُنتدب لان يكون رئيس الحكام السياسيين لفرقة D من الحملة الهندية لفتح العراق . ثم ذهب بعد الحرب الى بلاد ايران بصفة وكيل للوزير البريطاني في طهران ، وعاد منها مندوباً سامياً لحكومة بريطانيا العظمى في العراق .

كنت اتحدث وأحد رجال السياسة المعتدلين ، غير العرب ، وكان السر برسي ونفط العراق موضوعنا فقال جليسي : ان في سياسته كثيراً من الزيت . هي استعارة غريبة علمية، وفيها خلا الاشارة الى زيت العراق مغزى لطيف. فالآلة الميكانيكية اذا كثر زيتها يخف صوتها وتنعم في احتكاك اجزائها . ولكنها تقف احياناً من الاحتقان في مفاصلها فيعتريها الخلل . وكثيراً ما وقفت الآلة السياسية في دار الانتداب، وكان رئيس المهندسين، بل رئيستهم المس بل ، تذكر في البلاغات بعض اسباب الخلل ، ولا تشير مرة الى كثرة الزيت والاحتقان .

مهما قيل في السر برسي فان وجوده في العراق، في ما يعد من اهم ازمنة العراق السياسية بعد الحرب ، كان خير ضمين لكرامة انكلترا ومصلحتها ، وخير صلة بينها وبين هذا القطر الناهض من الاقطار العربية . فقد حدث في عهده من الحوادث ما ستكون باذن الله وبهمة العراقيين اول صفحة مجيدة في تاريخ العراق الجديد .

عند وصول السر برسي في تشرين الاول سنة ١٩٢٠ انتهى الحكم العسكري رسمياً . ولكن شراذم من الثورة كانت لا تزال خارجة في اماكن مختلفة فصوب المندوب السامي باكورة اعماله اليها . فسلمت كربلا ، وهي قطب الفتنة ، في ١٣ تشرين الاول ثم أُنجدت الحامية في الكوفة ، فسلمت على اثر ذلك النجف ، وأذعنت عشائر الشامية والديوانية لاوامر الحكومة، فكان عدد ما جمع من السلاح في هذه النواحي خمساً وستين الف بندقية .

اما في لواء ديالى ، حيث كانت الثورة في اشد حالها ، فقد استمر الاضطراب وما تخلله من الحوادث المؤلمة الى اواخر سنة ١٩٢١ عندما عقدت المعاهدة بين الحكومة ورؤساء العشائر هناك . وظل في الشمال في نواحي الموصل نفوذ الاتراك ينخر كالسوس في عظم السيادة العربية الانكليزية .

عندما باشر المندوب السامي اعماله السلمية اصدر بلاغاً الى العشائر خصوصاً والى اهل العراق عموماً يعلمهم فيه بانه انتدب ليساعد في تحقيق اماني الامة بواسطة زعمائها ، وليؤسس بمؤازرتهم حكومة وطنية . على ان ذلك يستحيل قبل ان يستتب في البلاد الامن والنظام . ولما توفقت حكومة الانتداب الى الجادشي، من ذلك اصدر بلاغاً آخر يعلم الامة بتأسيس حكومة موقتة الى ان يجتمع المجلس النيابي العام في ١٧ حزيران من سنة ١٩٢١ ، وان هـذه الحكومة الموقتة تتألف من مجلس وطني يحكم تحت مشارفة المندوب السامي في كل الامور ما عدا الخارجية والعسكرية .

ان اصدار مثل هذا البلاغ لمن ابسط الامور واسهلها ، ولكن تأسيس حكومة موقتة ، تحوز ثقة البلاد وتكون مرنة بيد المندوب السامي ، هو من الامور التي يكثر فيها العقد ولا تخلو من النفاثات .

لا ريب ان بيت النقيب ، وعلى رأسه الشيخ الجليل السيد عبدالرحمن الجيلاني ، هو مسموع الكلمة ، محترم الجانب في بغداد بل في العراق . ولكنه في السياسة ، كما هو في الدين ، يؤثر التقاليد على البدع ، ولا يرفع على الاعتدال حسنة من حسنات الوطنية . وقد تتغلب في اعتداله المحافظة التي يعقم عندها الرأي وتتقلص عوامل التجدد . الا ان ذلك لا يهم النفاثات في العقد اللواتي تمثلهن المس بل .

— ان فضيلة النقيب صديقنا، صديق انكلترا، وهو ثابت في صداقته . وان له نفوذاً سياسياً مقروناً بنفوذ ديني لا يضاهيه نفوذ في البلاد . اذن هو صديق الامة وصديق الانكليز — هو الزعيم . سأعود الى فضيلة النقيب ومجلسه وسياسته في فصل آخر .

قبل متردداً رئاسة المجلس الوطني الذي كان من اعضائه الاخصائي المالي الشهير في العراق ساسون افندي حزقيل ، والسياسي الداهية السيد طالب

النقيب ، نقيب البصرة ، والعالم الفقيه مصطفى افندي الالوسي ، والوجيه الفاضل عبداللطيف باشا المنديل . كلهم من اصحاب التجلة والكرامة ، وليس فيهم ممن حارب في الحرب العظمى وكان من الشبيبة الوطنية التي تنعكس في آمالها واقوالها ، وفي بعض اعمالها ، جمال النهضة العربية ، وحقيقتها العالية ، الا جعفر باشا العسكري .

اجتمع المجلس لاول مرة في ١٠ تشرين الثاني واستمر في الحكم الى يوم تتويج الامير فيصل ملكاً على العراق . وقد كان من اعماله العفو عن بعض المنفيين ممن اشتركوا في الثورة ، ومساعدة الضباط العرب الذين خدموا في الحكومة السورية الفيصلية ليرجعوا الى العراق ، وتنظيم حكومة مدنية يديرها موظفون وطنيون تحل محل الحكومة العسكرية التي كان يديرها الوكلاء السياسيون الانكليز . ثم باشر المجلس درس انشاء جيش عراقي ودرس قانون الانتخابات التركي وتصحيحه ليطابق احوال البلاد الجديدة .

وكان قد تولى هذا الامر ناظر الداخلية طالب باشا النقيب . غير ان الانتخابات والمطامع الملكية قلما تلتئم خصوصاً اذا كان امر الاثنين منوطاً برجل واحد . بدأت الامة تطالب بتنفيذ قرار ١٧ حزيران الذي اصدرته الحكومة العسكرية واجازته الحكومة الوطنية الموقتة . بدأت تطالب بانتخاب المجلس النيابي العام .

وكان الامير فيصل قد سافر الى اوروبا ووصل الى انكلترا ، وكانت الحكومة الانكليزية تفكر في ملكية العراق وفي نكبة الامير . اما في العراق فكان قد ولى بعض الناس وجوههم شطر الكعبة يستمدون من ظلها المبارك الوحي في تشييد ملكهم الجديد . فشاع في البلاد امر الملك حسين واولاده ، وبعث بعض اولئك العراقيين يرغبون اليه بان ينفذ احدهم ليتبوأ العرش الجديد .

ازعج الحبر وزير الداخلية الذي فكر ملياً في الامر فرآه متشعباً كثير الاخطار . ان للشريف اربعة انجال وفي كل واحد منهم الخير والبركة . ولكن الامة العراقية تأبى التفضيل ، وقد تسيء الاختيار ، فتنقسم على نفسها فيتزاحم ويتهالك الانجال الاشراف في سبيل مصالحها ... وليس في مثل هذه الحال خير للعراق .

لذلك شرع السيد طالب يطوف في البلاد ليتم اصلاحاً خاصاً في قانون الانتخابات ، كانت المادة الاولى فيه ، تلك التي تولى بنفسه نشرها وتعميمها ، ان لا تنتخبوا شريفاً اجنبياً ملكاً عليكم . ويحكم . هوذا السيد طالب وهو مثل انجال الشريف من الاشراف . فهو يتكفل لكم بمن يملأ كرسي العرش ولا يكون التاج على رأسه كبيراً او صغيراً . بيد ان المستر تشرشل ، وزير المستعمرات الانكليزية ، وهو يومئذ « طنب سارح » مثل السيد طالب ، كان يسعى في غير هذا السبيل .

الفصل الثاني عشر

فليحيَ الملك

ثلاثة يهتمون والتاج واحد – السيد طالب يخطب – المستر تشرشل يدبر – الامير فيصل ينتظر – موتمر القاهرة – رجوع السر برسي كوكس الى بغداد – السيد طالب يهدد دار الانتداب – الخواتين يدعونه للشاي – الجنود تحمله على بساط الريح . . . – المندوب السامي يصدر بلاغاً – الامير فيصل يزور والده بمكة – السفر الى العراق – الوصول الى البصرة – الاستفتاء والمبايعة – التتويج – فليحيي ملك العراق – ملكان يتعاهدان – الامة والصحافة تهللان .

ثلاثة في هذه الحوادث التاريخية عظمت همومهم فبلغت الحد الفاصل بين النكبة والنعمة . ثلاثة يمثلون الشعب الذي اصبح وبيده التاج والصولجان يهبهما من يشاء، ويحطمها اذا شاء . ثلاثة يهتمون والتاج واحد . اما المستر تشرشل فقد كان همه الاول ان يخفف الضرائب عن الشعب البريطاني ليحفظ السيادة له ولحزبه في الحكومة فيضمن لمليكه سلامة التاج وثاني الثلاثة الامير فيصل الذي فقد تاجه في سوريا وراح يطالب الحكومة التي اعتادت – وفي كل عادة شيء من اللذة – ان تضارب خارج بلادها بالتيجان . والثالث سيد من سادات البصرة ، فيه شيء من الاسد وشيء من الثعلب ، رأى الامة وبيدها تاج تبغي صاحبَه فجاء يخبرها بان صاحبه النقيبُ سيدُ البلاد الأوحد . اما اذا احببتم ان ينوب عنه السيد طالب ، وهو نقيب ابن نقيب مثله ، فلا بأس . وراح يطوف البلاد كما جاء في الفصل السابق ليتحقق رغبة الامة .

وجاء المستر تشرشل الى فلسطين ثم امّ القاهرة ليدرس الحالة السياسية في الشرق الادنى فيدعم بشيء من الاصلاح سياسة الاحرار في الحكومة . هذا ظاهر الغرض من تلك السياحة ، ومن المؤتمر الذي عقد في القاهرة . دعا المستر تشرشل رؤوس الحكومات الانكليزية في بعض الاقطار العربية للمفاوضة

فجاء من العراق المندوب السامي يصحبه بعض المستشارين والمس بل ووزير المالية ساسون افندي وجعفر باشا وزير الدفاع .

وجاء الى القاهرة في ذاك الشهر ايضاً اي الشهر الثاني من سنة ١٩٢١ الامير فيصل وحاشيته — متنزهين . فصفا الجو في العراق للسيد طالب ثم اكفهر كما سيجيء الكلام . والسبب في ذلك، مهما قيل في التقارير الرسمية، انما هو مؤتمر القاهرة . — قد اجتمعنا ايها السادة لننظر في طريقة صالحة تمكننا من تخفيض القوات الانكليزية المسلحة في الشرق الادنى دون ان يلحق شيء من الضرر بالسيادة الانكليزية . ثم للنظر في تأسيس دائرة خصوصية للشرق الادنى في وزارة المستعمرات لتوحيد السياسة والعمل . وبكلمة اخرى ، بكلمة وجيزة صريحة ، يجب ان نخفض نفقات حكومات الانتداب لترفع عن مناكب الشعب البريطاني اثقال الضرائب . واننا نرى ان تنظموا في العراق جيشاً من الوطنيين فنتمكن من سحب جنودنا من تلك البلاد . . . قد اجتمعنا ايها السادة . . . ملك العراق ؟ نعم . نعم . . . وكان الامير فيصل وحاشيته قد أمّوا القاهرة كما قلت ترويحاً للنفس .

عاد وفد العراق الى بغداد فاصدر المندوب السامي بلاغاً في ١٢ نيسان قال فيه ان ما قرره مؤتمر القاهرة يجب ان يعرض على الحكومة بلندن قبل ان يعلن . وكان السيد طالب قد امعن في التطواف والخطابة ، وتوسع في سياسة الانتخابات والتاج ، فازعج فريقاً من الامة وخصوصاً فضيلة النقيب الذي كان يدرك من غوامض الامور ، وهو الصوفي الكامل ، ما تعجز دونه روحية طالب باشا وعقلية امثاله . أغمض النقيب الاكبر عينيه ونظر الى ما وراء حجاب الغيب ، فرأى هناك وزيراً من كبار الوزراء ، وخاتوناً من كبيرات الخواتين ، دع النفاثات في العقد ، فسمع الاول يقول والثانية تترجم : لا ترغب حكومتي لعرش العراق بغير واحد من بيت الحسين بن علي .

ولكن السيد طالب لا يسمع ولا يرعوي . ففي مأدبة اديها لبعض الصحافيين الانكليز، وحضرها عدد من الوجهاء الوطنيين ورؤساء العشائر، وقف بعد ان دارت الكؤوس خطيباً ، وكان في جهره عجيباً — ان في دار الانتداب من لا تحبهم لانهم يتدخلون في شؤون الامة التي لها الحق ، ولها وحدها، ان تؤمر او تملك عليها من تشاء . وقد صرحت حكومة الانتداب بانها ستحترم ارادة الشعب العراقي . ونحن نحترمها اذا فعلت . اما اذا اخلفت فها هنا علينا — ونظر اذ ذاك الى رؤساء العشائر — عشرون الف بندقية .

كلمة شديدة صريحة ساقت الى جو السياسة الغيوم والضباب فقامت الخواتين تبددها . دعت اللادي كوكس السيد طالباً للشاي وكانت المس بل هناك تمثل على الدوام النفاثات في العقد ، فسُحر النقيب ابن النقيب ، وخرج من القصر مسحوراً ، فاستقبله عند الباب بعض الجنود ، فدفعوه الى سيارة كانت طيارة . حملوه على بساط الريح دون ان يدري بذلك احد من الانس ، ولم يقفوا به حتى امسوا خارج العراق . ثم صدر منشور المندوب وفيه الاسباب التي حملته على نفي صاحب المعالي السيد طالب باشا النقيب .

وظل الامير فيصل سائحاً في جو صفا اديه وتلألأت من ورائه طلائع الغيب، فوصل الى الحجاز في اوائل حزيران ، يوم القى المستر تشرشل خطاباً في مجلس النواب يختص بالعراق ، وركب الهجين من جده الى مكة ليقوم هناك بالواجب البنوي . تباركت الاقدار التي تديرها سياسة بريطانيا العظمى . فقد أنست الابن غضب ابيه ثم استيقظت في صدر صاحب الجلالة الرحمة والرضوان ، فجاءت منه برقية تقول ان ابنه فيصلاً قد سافر الى العراق .

وبعد عشرة ايام اشرقت شمس الامير في خليج فارس فجاءت النقيب برقية ثانية تقول انه سيصل الى البصرة في ٢٤ حزيران . وما ضل البخار ولا غوى . وصلت الباخرة في الوقت المضروب فاستقبل من تقل استقبالاً

رسمياً جميلاً في البصرة بالرغم عما كان فيها من عوامل الريب والتردد بشأن من جاء يجلس على عرش العراق . بيد ان الامير في محضره وحديثه وخطبه هو اكبر حجة لنفسه على المترددين من الناس . وقبل ان أم بغداد زار المشهد[1] والحضرة[2] فاستمال اليه القلب الجعفري الخفي . ثم في ١١ تموز اجتمع مجلس الوزراء برئاسة النقيب وقرر ان يكون الامير فيصل ملك العراق بشرط ان تكون الحكومة دستورية ديمقراطية نيابية . فاضاف المندوب السامي انه بموجب تصريحات حكومة جلالة الملك بان يكون للامة العراقية حق انتخاب من تشاء ملكاً عليها ، فلا يعمل بهذا القرار قبل ان يثبته الشعب العراقي . وشرعت الحكومة في الاستفتاء او الانتخاب او المبايعة ، فكانت النتيجة واحدة . ان انتخابات هذا الزمان الديمقراطية ، خصوصاً في الشرق ، لاضحوكة من اضاحيك السياسة . على انه بالرغم من مساعي الضباط الانكليز السياسيين الذين تولوا امر الانتخاب قد اشترط كثيرون من المنتخبين بان تكون حكومة الملك حكومة مستقلة عن اية سيادة اجنبية كانت . اي انهم رفضوا الانتداب

وكانت حفلة التتويج في ٢٣ آب سنة ١٩٢١ ، فوقف السر برسي كوكس يعلن امام الجماهير المحتشدة ان الامة العراقية اجمعت بستة وتسعين من اصواتها على مبايعة الامير فيصل ، وان حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى تعترف به ملكاً على العراق . فالقى جلالة الملك خطاباً جاء فيه : ان اول عمل اقوم به مباشرة الانتخابات وجمع المجلس التأسيسي .

وبعد انتهاء الحفلة قدم المندوب السامي للملك برقية من الملك جورج الخامس فيها الكلام المألوف في التهنئة ثم ما يلي : « وان المعاهدة التي ستعقد

---

(١) قبر الامام علي في النجف .

(٢) قبر الحسين في كربلاء .

قريباً بيننا فتثبت التحالف الذي تحالفناه في ايام الحرب المظلمة ستمكني ولا ريب من القيام بواجباتي المقدسة لادخال العراق في عهد جديد من السلم والنجاح » فاجابه الملك فيصل بعد كلام الشكر المألوف بما يلي : « لا اشك بان المعاهدة التي ستعقد قريباً بيننا ستمكن عرى التحالف الذي قدسه في ساحة الحرب العظمى دم الانكليز والعرب وانها ستقام على اساس متين » .

اما الشعب والزعماء والصحافيون فلم يدركوا ، وهم في نوبة من الحماسة والابتهاج شديدة ، خطورة هاتين البرقيتين . لم يدركوا ان الملكين عقدا يومئذ عقدة استحال في السنة التالية حلها فكانت السبب في ما شوه الاحكام الاسمية والانتدابية من الخلل والاضطراب . غمس الصحافيون يومئذ اقلام الفصاحة في محابر البيان ، واستعاروا من البلاغة اجنحة طاروا بها في سماء الاماني الوطنية والاحلام .

— وفي هذا اليوم شخصت انظار الامة الى مليكها تستعيد ذكر المنصور والرشيد والمأمون . وفي هذا اليوم تستمد الامة من ماضي مجد العباسيين نوراً تسير فيه الى اعالي مجدها الجديد . وفي هذا اليوم تؤسس حكومة عربية حرة دستورية نيابية ديمقراطية مستقلة كل الاستقلال . وفي هذا اليوم — سقط منذ سنة ملك سوريا ، فليحيَ اليوم ملك العراق .

بعد سنة اخرى ، في عيد الجلوس الاول ، رددت الصحافة آيات البلاغة الذهبية ، وحلقت في سماء الامال المسجدية ، فبرهنت على ضعف في ذاكرتها او في سمعها . في مثل هذا اليوم منذ سنة وقف المندوب السامي يعلن للشعب باسم جلالة الملك استقلال العراق وانتخاب الامير فيصل ملكاً على العراق . وفي مثل هذا اليوم ابرق الملك جورج الخامس الى الملك فيصل يهنئه والشعب العراقي ويذكره بالمعاهدة . فلم يكن لا في كلام المندوب ولا في برقية الملك كلمة عن الاستقلال التام .

امر تساهلت به الحكومة قبل التتويج وامر تساهلت به الامة يوم التتويج وبعده ، ها هنا رأس الخطل والخلل . فقد اشترط المبايعون في بيعتهم رفض الانتداب فلم يأبه لذلك دار الانتداب . هم المشترطون ونحن الحاكمون . وقد تعاهد الميكان على عقد معاهدة في القريب العاجل فلم تدرك ذلك الامة ، او انها ادركت ولم تكترث . دع الملوك يتعاهدون . اما الحكم اليوم فللشعوب . هوذا الاساس الواهي في الملك الجديد . هوذا رأس الخطل والخلل .

الفصل الثالث عشر

المعاهدة

العجز في الحكومة عجزان – الضرائب – الامة حائرة – الانكليز قانطون – اعترافهم بالخطأ – معاهدة تثبت الاستقلال وتنفيه – لا صراحة ولا ثقة ولا يقين – الاستقلال مجاناً – لا حرية ولا اتحاد – الوزارة الجديدة – المعاهدة – بعض بنود النص الاول والنص الثاني – حكومة امبرطة تحتج – البند الحادي عشر ينتج اضراراً لها – خلاصة المعاهدة – توقيعها – المحتجون في بيت النقيب – سقوط الوزارة – وزارة السعدون – عبداللطيف باشا المنديل – المعاهدة وملحقاتها في الوزارات التالية – المعاهدة في المجلس التاسيسي – سياسة الضغط والارهاب – امضاء المعاهدة – ولا تزال الامة تشكو وتحتج .

باشرت الحكومة الجديدة اعمالها بما اشرت اليه من العجز المعنوي . هو عجز لان التصريح التام في مثل تلك الاحوال ، بل التحديد الاكيد الذي اقتضته تلك الحوادث الخطيرة ، كان مفقوداً . فلا الملك العربي قيد وعده للملك الانكليزي بالشرط اللازم ، ولا الامة التي بايعت الملك اصرت على الحكومة في البداءة بقبول شرط ال « لا انتداب » . ولا حكومة الانتداب صرحت برفضها شرط الامة في المبايعة . هذا هو العجز المعنوي الذي قلّ من سلم من نتائجه الخبيثة .

وقد كان في ميزانية الحكومة عجز مالي لا يقل عن المليون ليرة انكليزية فسُدد بقرار من مؤتمر القاهرة — أدخل في ميزانية حكومة انكلترا — تمهيداً للعهد العراقي الجديد . بيد ان ذلك القرار اوجب على الحكومة العراقية ان تخصص في ميزانيتها الجديدة ثلاثمئة وخمسين الف ليرة للجيش العراقي . فكان ذلك عجزاً آخر . لانه تعسر جمع الضرائب من امة كانت ثائرة وظلت ناقمة معاندة . هما عجزان كانت الثورة السبب المباشر فيهما ، تلك الثورة التي اتلفت في الزرع والضرع ما اثر في الضرائب تأثيراً شديداً

وفككت من عرى الامن والنظام ما اضعف الحكومة الى حد لم يكن لها فيه سيادة تحترم . على ان الامة في حبوط الثورة فقدت الثقة بنفسها وصارت في جرأتها ، في جسارتها ، اقرب الى التهويل منها الى العمل . وما يصح فيها من هذا القبيل يصح في حكومة الانتداب وفي الموظفين الانكليز عامة . الا ان طريقة هؤلاء ، وهم يظهرون من الضعف قوة ، كانت اضمن للستر والكرامة . قد يكون الفرق بين الاثنين فرقاً طبعياً لا خلقياً وقد يكون غير ذلك . امرهما امر اثنين تصارعا وتغالبا وكانا في النهاية مغلوبين على السواء في ما اصابهما من الم ونهك وقنوط . بيد ان آلام الواحد كانت ظاهرة ، وآلام الآخر خفية .

ومع ذلك فقد ابت على الكاظم الخفاء . ما كلمت انكليزياً في تلك الايام ، ايام العجز الادبي والمالي ، الا وكان ، بالرغم عن التجلد والشدة والثبات المشهور هذا الشعب بها ، متألماً من الحالة حتى اليأس . — « عندنا من المتوظفين من يظنون انفسهم اكبر من كراسيهم فلا يحسنون الجلوس فيها . وعندنا آخرون هم كالاوتاد المستديرة في الاثقاب المربعة مترعزعون متقلقلون » . وقال آخر : « عساكر وضباط في وظائف ادارية ومركزهم الطبيعي انما هو في الجيش » . وآخر — بارك الله بمن عرف خطاه واعترف به — : « حكومة لندن تربط ايدينا وحكومة العراق تزدرينا . . . النية حسنة وان كانت الاغلاط كثيرة . . . نحن في حاجة الى العراق والعراق في حاجة الينا . ولا خير لنا وللعراقيين بغير المصلحة المشتركة والاكرام المتبادل » .

على انهم ، وهم ينطقون بالحق ويعترفون باغلاطهم ، يرتكبون الخطأ الفادح في معاهدة تكفل الاستقلال للعراق وتنقض في بعض موادها ذلك الاستقلال . وقد يكون الحق في جانبهم في ما ينقض ، من الوجهة المالية في الاقل ، لا في ما يثبت الاستقلال . ولكنهم لم يصرحوا بذلك . نعطيكم كذا وكذا ، فتعطونا كذا وكذا ، والاستقلال الحقيقي انما هو القيام

بالعهود . لم يكن في العراق لا من المعتدلين ولا من المتطرفين من يقول هذا القول . طلبوا الاستقلال مجاناً ، وهذا لا يكون . ولكن الانكليز سكتوا فظُن في سكوتهم القبول . ثم جاءوا بالمعاهدة تتقاضاهم ثمن الاستقلال فرفض العراقيون الدفع . وجاءوا بالمعاهدة قبل ان يجتمع المجلس التأسيسي الموعود به في قرارات سابقة اثبتت رسمياً في حفلة التتويج .

ان المرء ليعجب من حكومة عاقلة راقية مثل حكومة انكلترا اذ تقدم على عمل في غير بلادها لا حكمة ولا سياسة ولا عدل الا في عكسه . هم يطلبون المعاهدة اولاً ، ثم يشترطون في القانون الاساسي ان لا يكون مخالفاً لموادها ، ثم يأذنون بانتخاب مجلس نيابي ليجيزها . والمثل الذي يعيب هذا المسلك مثل انكليزي . على ان العربة جرت الحصان في العراق ! فهل تستطيع ان تجره الى حيث تنتهي وظيفته المضحكة ؟

ثبت الانكليز في غلطهم وفازوا . فهل يثبت الفوز المبني على الغلط يا ترى ؟ (١)

اعود الى حيث انعطفت بالقارىء ، لاطلعه على القسم السوري من تاريخ جلالة الملك ، فاقف به ثانية عند حادثة القصر في تاريخ الحكومة العراقية الجديدة اعود به الى تلك الايام التي لم يكن في العراق لا حكومة تذكر ولا انتداب ، لا كل قصة المعاهدة المشهورة . مرّ العام الاول بعد التتويج وما رأى الناس فرقاً كبيراً بين سياسة الحكومة الحاضرة وسياسة الحكومة الاحتلالية الغابرة . فلم تضع الامة ثقتها التامة بوزارة النقيب الثانية ولا وضعت الاحزاب المقاومة ، وعلى رأسها الشيعة ، ثقتها التامة بجلالة الملك .

---

(١) وها قد مرت خمس سنوات على تلك المعاهدة ولا تزال الحكومتان البريطانية والعراقية تتفاوضان في امرها . لا يزال فيها ما يجب اصلاحه او تعديله او الغاؤه . معاهدة ولدت قبل المجلس النيابي والدستور الاساسي ابويها — ولدت باعجوبة فهل تحيا باعجوبة يا ترى ؟

وكانت دار الانتداب بين فريق يعرج ووجهته النقيب، وفريق آخر مثله ووجهته القصر، يحاول الانتفاع بالحالتين ليصل الى الغاية المنشودة. والغاية عقد المعاهدة. الا ان هذا التمهيد في المعاهدة يا فخامة المندوب، وفيه نص صريح على الانتداب، لا تقبل به الامة ولا يمكننا من العمل واياكم بما فيه خير البلادين. اجل، قد كان حتى النقيب من المحتجين.

استمرت المفاوضات بين بغداد ولندن بخصوص ذاك التمهيد وبعض بنود في المعاهدة هي من بابه وقد كانت دار الانتداب شديدة اللهجة على الوزارة الخارجية. — قد خفضنا كثيراً نفقات الحكومة يا مستر تشرشل، اسقطنا اكثر من ثلثيها، فاصبحنا ولا قوة لدينا تنفذ اوامر الحكومة وتجمع الضرائب. وكل تخفيض في النفقات في بلدان الشرق، كما لا يخفى على فخامتكم، يلازمه او يتبعه ضعف في الحكومة. ومع ذلك مشينا واياكم بما تأمرون — والحرب سهل فى الخريطة يا مستر تشرشل. انتم تبغون عقد المعاهدة ولا تراعون واقعة الحال. اليس من الممكن ان تتنازلوا عن الانتداب — او عن النص عليه في الاقل؟

سمع المستر تشرشل شكوى دار الانتداب ببغداد، فنُقحت المعاهدة، وأُلغي ذاك التمهيد المشؤوم، وأُضيف الى المادة الاولى جملة احتياطية بخصوص السيادة الوطنية، وأُبدل في المادة الثالثة الشرط الايجابي بشرط سابي، ثم في المادة الحادية عشرة اضيفت جملة احتياطية طويلة لا اكراماً للعراقيين ولا للانكليز، بل ارضاء لحكومة ولايات اميركا المتحدة.[1]

---

(١) المادة ١١ في النص الثاني النهائي: يجب ان لا يكون ميزة ما في العراق للرعايا البريطانيين او لغيرهم من رعايا الدول الاجنبية الاخرى على رعاية اية دولة هي عضو في جمعية الامم، او رعاية اية دولة مما قد وافق جلالة ملك بريطانيا بموجب معاهدة على ان يضمن لها عين الحقوق التي قد تتمتع بها فيما لو كانت من ضمن اعضاء جمعية الامم في الامور المتعلقة بالضرائب والتجارة الخ.

اما المعاهدة نفسها فيمكن تلخيصها بعشرين كلمة. وهي ان حكومة انكلترا تمد الحكومة العراقية بالمال والسلاح وبالمساعدات الادارية والتقنية بشرط ان تقبل نصائحها واوامرها في كل ما يتعلق بذلك. في هذا شيء من الاستقلال، فيه يستقل العراق عن دول الارض كلها سوى دولة بريطانيا العظمى. ولكي يدرك القارىء ما هو اعتمادها على هذه الدولة اتوسع بما تقدم من خلاصة المعاهدة فاقتطف ما يلي من اهم بنودها.

ان جلالة ملك بريطانيا العظمى يتعهد بان يقدم ما يقتضي من المشورة والمساعدة الى دولة العراق (المادة الاولى) وان يقدم من الامداد والمساعدات الى قوات العراق المسلحة ما يتفق عليه من وقت الى آخر (المادة السابعة) وان يسعى بادخال العراق في عضوية جمعية الامم باقرب ما يمكن (المادة السادسة)

ويتعهد جلالة ملك العراق في مقابلة ذلك بان لا يعين في الحكومة العراقية من الموظفين الاجانب غير الانكليز (المادة الثانية) وان يقبل المشورة التي يقدمها ملك بريطانيا بواسطة المندوب السامي في جميع الشؤون المهمة وخصوصاً الشؤون المالية (المادة الرابعة) وكذلك الخطة التي يشير بها في الامور العدلية لتأمين مصالح الاجانب (المادة التاسعة) وان ينظم قانوناً اساسياً لا يخالف في

ولهذه الجملة الاحتياطية التي أضيفت ايضاً الى المادة ١٤ التي تختص بالآثار القديمة قصة لا تخلو من لذة. هاكها بالايجاز: من المعلوم ان اميركا لم تدخل في جمعية الامم. ومن المعلوم كذلك انها كانت قد اتفقت مع انكلترا وفرنسا على استثمار زيت العراق. على ان هناك ما لا يعلمه غير بعض الاخصائيين والسياسيين وهو ان شركة اميركية ارسلت مهندسين من قبلها في شتاء سنة ١٩٢٢ الى العراق ليتحروا الحقائق العلمية والاقتصادية بخصوص الزيت فلم يمكنهم المندوب السامي، من ذلك. وكانت المعاهدة يومئذ همه الاكبر. فاتصل الخبر بحكومة واشنطون التي احتجت على عمل المندوب السامي، وبعد المفاوضات بينها وبين حكومة لندن ادخلت الجملة الاحتياطية على البندين الحادي عشر والرابع عشر من المعاهدة. فيظهر ان اميركا لا يهمها من العراق الا ما كان مدفوناً في اراضيه من الآثار، ومن منابع الدولار!

مواده هذه المعاهدة ليعرض على المجلس التأسيسي للتصديق .

وقـد اتفق المتعاهدان بان تضمن المساواة بين رعايا بريطانيا العظمى ورعايا الدول الداخلة في جمعية الامم في الامور المتعلقة بالضرائب او التجارة او الملاحة او ممارسة الصنائع والمهن الخ (المادة الحادية عشرة) وان تكون مدة المعاهدة عشرين سنة .

في اليوم العاشر من تشرين الاول سنة ١٩٢٢ م و ١٩ صفر ١٣٤١ هـ اجتمع في باب السيد عبدالرحمن نقيب اشراف بغداد ورئيس الوزارة في الحكومة العراقية جمهور من الناس ضاجين مشاغبين وهم يبغون مخاطبة الوزير، فحمل احد الحجاب خبرهم الى سيده فاذن لهم بالدخول . كان قد وقع المعاهدة صباح ذاك اليوم فدخلوا يحتجون عليها وعليه . فسألهم قائلاً : باسم من تحتجون ؟ فاجابوا باسم البلاد . فاحتدم فضيلته غيظاً وانتهرهم قائلاً : ومن انتم لتحتجوا باسم البلاد ؟ عودوا الى بيوتكم واشغالكم . انا صاحب البلاد . فخرجوا احتراماً ساكتين ، وما كانوا مقتنعين ولا راضين .

ثم نشرت الجرائد صورة المعاهدة مصدرة ببلاغ من صاحب الجلالة الى الشعب العراقي يقول فيه ان قد اعترض سير المفاوضات مصاعب جمة « ولكننا تمكنا من التغلب عليها والوصول الى هذا الحل المرضي ... وهي خطوة واسعة في سبيل تحقيق امانينا الوطنية ... فقـد اعترفت بريطانيا العظمى باستقلالنا السياسي واحترام سيادتنا القومية » ثم يدعو الناس لمؤازرته ولاتخاذ الخطوة الثانية وهي مباشرة انتخاب المجلس التأسيسي ووضع القانون الاساسي للامة . فقرأ الناس البلاغ الملكي والمعاهدة وما كانوا مقتنعين ولا راضين . وقرأها اشياع الحكومة ساكتين احتراماً وآسفين .

بعد شهر من يوم التوقيع سقطت وزارة النقيب . كنت يومئذ في العقير

وكان عبداللطيف باشا المنديل[1] عندي في الخيمة عندما استلم برقية من عبدالمحسن بك السعدون في بغداد يخبره فيها بان جلالة الملك قد عهد اليه بتأليف وزارة جديدة ويسأله ان يكون وزير الاوقاف فيها . وفي ذلك اليوم نفسه علمت من السر برسي كوكس السبب في سقوط الوزارة فحزنت لما علمت . اجتمعت الصداقة بالسياسة مرة في قديم الزمان فقالت الواحدة للاخرى : وكان سلامه عليّ وداعاً .

وبعد سنة وثلاثة اشهر من يوم التوقيع اجتمع المجلس التأسيسي في بغداد وكانت الامة لا تزال مقاومة لتلك المعاهدة ، مناوئة لانصارها القليلين ، فرفض المجلس انفاذها . ثم انتقلت الوزارة الانكليزية الى حزب العمال ولم تتغير في سياستها الخارجية . فاصدر المستر مكدونالد بلاغاً رسمياً اعلن عزمه على احالة المعاهدة الى عصبة الامم اذا لم تُقبل بحذافيرها في ١١ حزيران . وكانت معضلة الموصل يومئذ قيد البحث بين مندوبي انكلترا وتركيا في الاستانة فاتخذتها الحكومة الانكليزية سلاحاً آخر تروّع به الامة العراقية . اتبغي الزيادة من هذه القصة المحزنة ؟

---

(١) عبداللطيف بن ابراهيم المنديل هو من عشيرة الدواسر ويمت بنسبه الى عمر بن الخطاب . ظعن احد اجداده الى حلاجل في نجد ومنها منذ ثمانين سنة جاء والد عبداللطيف باشا العراق فأسس محلاً تجارياً في البصرة وآخر بعدئذ في بمباي ، وآخر في بغداد . وقد سلك عبداللطيف مسلك والده في التجارة والزراعة فزاد بثروته واملاكه . وهو حرّ الكلمة سديد الرأي ، يخلص الود لآل سعود وخصوصاً للسلطان عبدالعزيز ، ويخلص العمل لوطنه الثاني العراق . فقد انتخب في زمن الحرب عضواً في مجلس الاشراف في البصرة ، ثم اسندت اليه وزارة التجارة في الحكومة العراقية الموقتة ، وبعد التتويج تشكلت الوزارة برئاسة النقيب ايضاً واسندت اليه وزارة التجارة مرة ثانية . ثم جاء الى الحسا يزور السلطان عبدالعزيز الذي شاء ان يفاوضه في بعض الشؤون . وعندما كنا في العقير جاءه من عبدالمحسن بك السعدون برقية يسأله فيها ان يرأس وزارة الاوقاف فقبل عبداللطيف باشا واستمر في هذا المنصب سنة ، ثم انتخب في ٢٥ شباط سنة ١٩٢٤ عضواً عن البصرة للمجلس التأسيسي .

دُعي المجلس التأسيسي لعقد جلسة فوق العادة ، بعد ان ارفض في ١١ حزيران دون ان يبرم المعاهدة ، فلم يحضر الجلسة غير تسعة وستين عضواً من مئة وعشرة اعضاء . فاقترعوا على المعاهدة فكان معها ستة وثلاثون وضدها اربعة وعشرون . اما التسعة الباقون فرفضوا الاشتراك في الاقتراع .

هذي هي نتيجة ذاك المسلك السياسي الذي رأينا العربة فيه تجر الحصان. بل هذي هي النتيجة لتلك الخطة السياسية التي يبدأ صاحبها بالسقف قبل ان يهتم باساس البيت . فقد قبلت دولة بريطانيا العظمى معاهدة ابرمتها اقلية صغيرة في المجلس التأسيسي العراقي ، ولا شرف في قبولها لانه يخالف تلك القاعدة الاساسية للحكم الدستوري المحترم في بلادها .

الفصل الرابع عشر

اصحاب المعالي

سكرتير الوزارة يخلصني من فندق بغداد – خليل ومصيفي – السيد عبدالرحمن النقيب – تاريخ العالم منذ سقوط حواء الى سقوط الاتراك – اهل العراق – المثالق والكرسي الكهربائي – « لسنا بسياسيين » – قصة الفيلسوف واللص – الامبرطي العالم بكل شيء – اغراس النخل والزراعة – اولاد النقيب الشيوخ والصبيان – وفد من الصبيان – اراوحر الثورية – اقيم في بيت القداسة والطهر – الولي عيدروس – مولانا عبدالقادر الجيلاني – مائدة سيدى النقيب – المجتهدون والوطنيون – الفرق في حب الذات عند الانكليز وعند سواهم .

النادي العراقي – الطاولة الخضراء – اخصائي في لعب الـ« بريدج » عربي لا غش فيه – السكوت العزوز – ترجمة عبدالمحسن بك السعدون – وزارته واعمالها – نفي زعماء الشيعة – مطالبهم – رسالة من معالي الوزير .

الوزارة الجعفرية – جعفر باشا لا يكذب اسمه – الجيش العراقي – وزير لا يهمه المنطق – درهم جدارة خير من قنطار مقامات – الوزير التلميذ – الحية والعصفور – رأيه في الانكليز .

الوزير الكئيب – شجا في حلق الانكليز – فيلسوف في الاحزان – على مائدة المس بل – لجنة لتدقيق المعاهدة – مطالبها – وزارة ياسين باشا وترجمته – الوزير الثابت في الوزارات العراقية – ترجمة ساسون افندي .

والوزيرة الوحيدة جرترود بل – رأي احدى النساء فيها – رأي احد المستشارين – انكليزية عربية – القاعدة والقضيب – خالة العرب وعمتهم .

قد كان من حظي في بغداد اني لم اضطر ان اقيم دائماً في فندق من فنادقها الفخمة ، فأروض الجسم في احدى غرفها منذ اليوم للقبر ، واكل تحت الارض في السراديب من المآكل التي لا يعرفُ لها تاريخ ، ولا قومية . والفضل في خلاصي لشاب اديب كريم ، له جذوع وفروع في تاريخ الدين والدنيا تحير علماء الانساب والآثار ، ولا تقيه مع ذلك من النار . فهو فارسي الاصل ، انكليزي التربية ، شيعي المذهب ، درويني العقيدة ، نبوي السليلة قديماً وحديثاً . اقول قديماً وحديثاً ، واليك البيان : هو في الاول سيد من السادة الذين يتّصل نسبهم عن طريق الحسين بفاطمة الزهراء ، وهو في الثاني

غصن صغير يابس من شجرة النبوءة الحديثة التي زرعها « الباب » في بلاد العجم في القرن الماضي، ثم نقلها « البهاء » الى حيفا، فاستثمرها « عبد البهاء » خال صديقي ونقل من ثمارها الى اوروبا واميركا . وهو مع ذلك وفوق ذلك استاذ في علم الاقتصاد السياسي .

عرفته يوم وصولي الى العاصمة . جاء به الكسباني امين يقول : هذا الحسين بن الحسين وعنده من كل فن خبر . كان من الواجب ان يسموه فنوناً ولكنهم اساءوا اختيار الجمع فسموه افنان ، — حسين افنان ، سكرتير مجلس الوزراء والصلة المرنة المفيدة بين الوزارة والعرش ودار الانتداب . فقلت : سبحان الله الذي جمع مساوىء الثلاثة في شخص واحد . فقال الكسباني : وقد اضاف اليها مساوىء اخرى : فضحك افنان فانارت الضحكة وجهه القمري — المستدير كالقمر . وعندما سمعني اشكو من الفندق فخامةً فيه، وفي مآكله واغانيه ، قال : غداً انشاء الله نريحك منها وكان قد استأجر بيتاً له وللكسباني فاعد لي فيه غرفة لا تهجرها الشمس في النهار ، ولا الهواء ولا الغبار . هي بغداد . وما فيها غير فصلين في السنة فصل الغبار وفصل الوحل . وصلت اليها في الفصل الاول ، ثم سافرت الى نجد وعدت اليها في الفصل الثاني كي لا يفوتني شيء من محاسنها . . .

رفيقي خليلي ، ولا اخاطبكما شعراً . قد تحسنان وقد تسيئان في وظيفتيكما ، قد تكونان في ما تكتبان وتترجمان ، وتسعيان وتجربزان ، خيراً للانتداب يوماً وشراً على الامة ، او خيراً صافياً للاثنين في بعض الاحايين . اما في صفتكما العمكية في محلة الاشراف ، في ذاك البيت الذي كان مفتوحاً دائماً ، ليس لي فقط بل للشمس والغبار والضوضاء ، فكنا نعتصم من الحر بسردابه في النهار ، كما تذكران ، وبسطحه في الليل ، فلم يكن فيكما وانتما الرفيقان المضيفان غير الخير الصافي على الدوام .

السيد عبدالرحمن النقيب[1]

قال الحسين يوم اجتماعي به في الفندق : قد قابلتَ صاحب الجلالة سيد الكمباني فيجب ان تقابل صاحب الفضيلة والمعالي سيدي . فقلت : اني في الحالين طائع وسرت واياه الى بيت جميل على شاطئ دجلة كان في تلك الايام قطب السياسة والسياسيين كما هو قطب الاتقياء والمتعبدين — والمزارعين . فان سيدي النقيب يهتم بالارض اهتمامه بالسماء .

وكان اول اجتماعي به في القاعة التي تجتمع فيها الوزارة والتي وقعت فيها بعدئذ المعاهدة . هوذا شيخ في العقد الثامن من العمر ، يحمل في قلبه افراح الثمانين واتراحها هادئ البال ، ويحمل في رأسه فلسفة روحية سياسية زراعية خالية من غش الاوهام والخيال ، ويحمل في مفاصله داء اقعده فالجأه الى العصا يتوكأ عليها من عقر داره الى بهو الاستقبال . وكان يومئذ يحمل فوق ذلك كله الحمل الاثقل والاخشن ، حمل المعاهدة الانكليزية العراقية وسياستي العرش ودار الانتداب .

رجل عدل القامة ، وافر موضع النطاق ، براق العين ، ناصع الجبين ، قصير اللحية ، بسام المحيا . يلبس الانابيز البيضاء وهي دائماً كالثلج ، ويجلس على الديوان ، والى يمينه عصاه وبالقرب منه على قيد ذراعين الزائر الجديد ، وقبالته على ديوان آخر شيوخ مثله اجلاء ولكنهم دونه سناً . هم اولاده . وكان قد اخبرني صديقي بان فضيلة النقيب ، على علمه وحصافته وروحانيته ، يتقزز من لمس ايدي الناس . فلما دخلت وقفت امامه محنيّ الرأس مسلماً وكان قد وقف لاستقبالي ومد يده مصافحاً ، فدهش الحضور كما علمت بعدئذ . ولكني زرته وانا في بغداد مراراً ، وشرفني مراراً ، بان دعاني

(١) توفاه الله في شتاء عام ١٩٢٧ فخلفه في الرئاسة الروحية ابنه السيد محمود .

لمائدته ، فآكلني وصافحني دون ان يغسل بعد ذلك يديه . كأني به وهو اكبر المقربين من سدة مولانا عبدالقادر العلوية ، وحامل مفتاح حجرته القدسية ، نظر بعين الغيب الى ما وراء الحجب ، فرأى في هذا الرحالة رغبة في التصوف لا تزال طفلاً ، فأحب ان يغذيه بتعطفه وبقربه وبشيء من الكرامة في يده .

وكان اول ما حدثني به من مدهشات مجلسه انه قص عليّ في بضع دقائق قصة العالم منذ سقوط امنا حواء الى سقوط الاتراك في بغداد . ثم قال : وتاريخ الانسان يا افندي مثل تاريخ الامم — مقدمات انتيجة واحدة هي السقوط . ونحن العرب خصوصاً العراقيين اوفر الامم حظاً من هذا القبيل . العراقيون يا افندي انت تذكر ما قاله الحجاج ابن يوسف . فقلت : ولكننا في زمان غير زمان الحجاج . فقال على الفور : اما اهل العراق فلا يتغيرون . خلصناهم من الاتراك ، ومن العجم ، ومن الاحتلال العسكري ، ونحن نسعى الان في خلاصهم من الفوضى وهم لا يريدون ، ولا يرضون ، ودائماً ناقمون . . . هل رأيت في كل سياحتك يا افندي شعباً يحسن صنع الحبال وصنع المشانق ولا يجد من يجربها فيه غير نفسه ؟ وهل يستخدمون المشنقة في اعدام المجرمين في اميركا ؟

قلت : عندهم الكرسي الكهربائي . فسألني ان اصفه ثم قال : خُش طريقة . يلزمنا عدد من تلك الكراسي في العراق . فقلت : العفو اذا خالفت سيدي النقيب . فان امة توكل امرها الى مثله لتجد في اساليب السياسة وطرق الحكمة حلاً مرضياً مفيداً لمشاكلها كلها .

فقال وهو يمكن النفي بيديه : لا ، لا ، لسنا بسياسيين . ما عندنا من علم السياسة الا اليسير . وهذا اليسير التقطناه في اختلاطنا برجال السياسة الحقيقيين . مثلنا مثلُ اللص والفيلسوف . جاء اللص في ليلة مقمرة الى بيت

الفيلسوف يبغي السرقة، فدخله من النافذة وكان الفيلسوف جالساً في الزاوية يشكر الله الذي انار بيته بنور القمر . فجال اللص في البيت وهمَّ بالخروج وهو خائب الامل . فخاطبه الفيلسوف قائلاً : اذا كنت انا صاحب البيت لا اجد فيه شيئاً في ضوء النهار فهل تؤمل انت الغريب ان تجد في ضوء القمر شيئاً فيه ؟

فقلت : ولكني لم ادخل البيت من النافذة يا مولاي . فضحك حتى استلقى وهو ينظر الى الجماله تارة وطوراً اليَّ والى افنان ويقول : غلبني . غلبني .

ثم اخبرني قصة تفصح عما فيه من حب النكتة ومن البراعة في التهكم قال : زارنا في الاسبوع الماضي رجل اميركي مندوب احدى الجرائد هناك . وجلس هناك — اشار الى الديوان قبالته — واخذ يتكلم — خوش كلام — وهو يسألنا سؤالات في السياسة ، وفي الامتيازات ، وفي النفط ، ويجيب عليها بنفسه . ونحن مثل الفيلسوف الذي قصصت عليك قصته جالسون في زاوية السكوت نشكر الله الذي انار بيتنا السياسي بنور القمر . ولكننا استأنسنا بهذا الاميركي — جاء مثلكم في النهار ولم يدخل من النافذة . ولكن لسانه مثل سيف ذي الفقار — خوش لسان . هل كل الاميركيين مثله حذقاً وبراعة وعلماً ؟ عندما قام يودع شكرناه على زيارته وعلى ما استفدنا من حديثه . وخطر لنا يومئذٍ ان نسأله عن اغراس النخل التي أُخذت من هذه البلاد الى اميركا ، وزرعت هناك . ولكنه لم يفسح للسؤال مجالاً فهل لك علم يا افندي بتلك الاغراس ؟ هل نجحت في اميركا ؟

فاجبته قائلاً : اذا اذنتم باستعارة استعارتكم اقول ان بيتي الزراعي مثل بيت الفيلسوف الذي وصفتم .

فضحك وقال : وانا مثلكم دخلت من الباب لا من النافذة . ثم نظر الى الجماله وهم جالسون امامه متكتفين يبتسمون ولا يضحكون فقال :

اراني مع الافندي مغلوباً – مغلوباً اليوم . يجب ان يزورنا مرة اخرى .
فقلت: هو احب ما أحب في هذا البلد، ثم كملت جملتي السابقة : اما البيت فلكم كل ما فيه . اذكر اني قرأت مرة ان نظارة الزراعة في واشنطون استجلبت من البصرة اغراساً من النخل وغرستها في الولايات الجنوبية .

– اذن علمك وعلمنا واحد .

– في هذه المسئلة فقط .

– بيتنا بيت الفيلسوف انتم تسوحون طالبين العلم ونحن نأخذ علومنا من الكتب وممن نجتمع به مثل فضلكم .

فاعتذرت وشكرت . وكنت قد نظرت الى افنان فأعطاني الاشارة فقمت اودع . فنهض فضيلته ومد يده ثانية يصافحني .

ان للسيد عبدالرحمن الجيلاني ، سليل مولانا عبدالقادر قدس الله سره ، طائفة من السالكين المتعبدين منتشرة في اقطار الشرق كله . وله في بيته جيلان من الانجال ، الجيل الاول كان جالساً معنا وهم ثلاثة يتراوح سنهم بين الخمسة والخمسين والستين يحضرون مجلس والدهم فلا يتكلمون ، اذا كان عنده زائر ، الا اذا سئلوا ولا يضحكون ، مهما كانت النكتة ظريفة ، ضحكة عالية . اما الجيل الثاني وعدده ستة او سبعة صبيان فن هذا الزمان حقيقة ومجازاً . لان بينه وبين الاول فترة مقدارها نحو اربعين سنة . والسبب في ذلك سر احترمناه .

زارني ذات يوم كبيرهم ، وهو لا يتجاوز السابعة عشرة ، فلم يكن مثل الصحافي الاميركي الذي زار فضيلة ابيه . سألني ان اقول له ما الفرق بين الانتداب والاحتلال . فاجبته فقال . ولكن الانكليز يعترفون باستقلال العراق ولا يخرجون منه . وجاءني ثانية ومعه بضعة اولاد من اقاربه ورفاقه

في المدرسة يبغون السلام والتعرف ثم الاحتجاج على الانكليز . فاتخذت في مقابلتهم الخطة التي اتخذها النقيب في زيارتي له اي اني سبقتهم الى السؤالات فكانوا في اجوبتهم مدهشين .

— واذا كانت اللغة الانكليزية لغة الحكومة المحتلة أفلا تتعلمونها ؟ فاجاب احدهم : اذا كانوا ينوون الاقامة في بلادنا يجب ان يتعلموا لغتنا . وقال آخر : نتعلم لغتهم ويتعلمون لغتنا فيفهم اذ ذاك بعضنا بعضاً . وقال الثالث وهو صغيرهم : اذا كان لا خير في الاجانب فلا خير في لغتهم . فاجابه ابن النقيب قائلاً : اللغة شي. والسياسة شي. اخر . فاذا تعلمنا لغتهم نتعلم طرقهم السياسية ونحاربهم بها . فرد عليه الصغير وهو يضرب الارض برجله انا لا استعير يد رفيقي لاضربك بها . انا اقاتلك بيدي .

— ولكن السياسيين لا يضربون بايديهم .

— يضربون بارجلهم اذن ؟ لنا ارجل مثلهم . الا لا يجهلن احد علينا . فنجهل فوق جهل الجاهلينا .

صفق له رفاقه ثم عادوا ، وقد وبخهم الاكبر ، الى التأدب . وكنت اخشى ان ينتقل هـذا الوفد العراقي الوطني العجيب من الكلام الى الايدي فنهضت اكشف الساعة ، فكان الصغير اول من فهم الاشارة ، فنهضوا وسلموا مودعين .

كنت اقيم ببغداد بين وليين كريمين عرفت الواحد منهما لاول مرة في عدن . وهو هناك ولي البلد له مقام بقبة ، وعشيرة واحبة ، وصندوق احسان يملأه كل شهر الاتقياء ، فيوزع المال على الفقراء . هو عيدروس المدفون كما قيل في عدن ، وله في بغداد مقام وعباد . اما الولي الآخر الذي كان قربي ، بل كنت انا السعيد بقربه ، فهو اشهر من عيدروس واعظم ، اذا لم يكن كرامة وقداسة ، فسيادة ونفوذاً . كيف لا ومن شاطىء دجلة تشع شمسه

شرقاً وغرباً فتنير ضفتي الكنج والنيل كيف لا وهو مولانا عبدالقادر الجيلاني المدفون رمزه المادي تحت تلك القباب اللازوردية في جامع يعد من افخر واجمل ما في بغداد . هناك شرقاً من سريري على السطح مطلع الانوار ، فكنت كل يوم عندما انهض صباحاً امتع نظري وروحي بمشهد الشروق على مسرح القداسة . فارى الشمس تكوّن من الغيوم البيضاء المتقطعة ، فوق قباب عبدالقادر المتعددة ، ما يشبه قطعان الغنم وهي تسرح في مروج من النرجس الذهبي العين ، والعصفر الذهبي الجبين . كانها الزوار جاءت من العجم والهند لتستقي من الموارد القدسية ، وتحيا في المروج القادرية . . . عبدالقادر الجيلاني ، من احسانك لا تنساني !

وما كان كرم الله وجهه لينساني وانا في بغداد . فكان يوحي الى فرع دوحته الاكبر السيد عبدالرحمن حباً موضوعه هذا الغريب في جوار الحبيب . وكنت انا المجذوب الى تلك الشخصية الفسيفسائية ، كانها كُوّنت من الوان تلك المروج وتلك القباب فوق ضريح عبدالقادر . ليتأكد القارىء اني مجد في ما اقول . قد لا استحسن سياسة النقيب ، وقد لا تهمني الا في سبيل الادب مصادر القداسة حوله وفيه . ولكنني ممن يعجبون بمظاهر الحياة الفريدة ، اينما كانت ، وبشواردها الجيدة ، كيفما بانت . ولاسيما اذا تمثلت في مثل هذا البشر الكريم ، والشيخ القديم .

ما رددت مرة دعوته لمجلس او لمائدة ، وكنت كلما دنوت من صميم ذاتيته ازداد اعجاباً بها . وان بين النقيب ومائدته وجه شبه لطيف . في الاثنين غذاء كثير ، وفاكهة وابازير . في الاثنين فيض برمكي اصمعي ، فترتاح الى الاول العين والمعدة كما يلتذ بالثاني السمع والفؤاد .

وما عرفت اشجع منه ، على سنه ودائه ، اذا مدت الايدي الى الزاد . على انه لا يشبه الاكول في انه يهمل من يواكله . كنت اسمعه يتكلم ،

واراه يتصرف بالالوان الواحد تلو الاخر ، وعينه على ضيوفه ، يشجعهم ويحرضهم على الهجوم .

— خوش حبارى يا افندي امين . من صيد اليوم . لا تزهد بها . . . اذا كنت لا تتكلم يا حضرة الكسباني افلا تأكل ؟ . . . افنان لا يحتاج الى من يغريه بشيء .

وكان الكسباني امين على علمه وادبه وسياحاته في الارض — وسنه — يخجل كابنة السادسة عشرة اذا وجه اليه الكلام في مائدة النقيب او مائدة الملك . فيغص باللقمة ويزداد ارتباكاً قليل الكلام ، قليل الاكل — في المواقف الرسمية . ولكني والحق يقال رأيته سكوتاً خجولاً حتى في حضرة السيدات .

بيد انه تغلب مرة على حيائه ونحن الى مائدة النقيب فاكثر من اكل الزيتون — اكل على ما اذكر ثلاث حبات ، وهو يحن الى صحراء الشويفات . فجاءه من مولانا في اليوم التالي جرة من الزيتون واخرى من الزيت . اتبغي اوضح من ذلك دليلاً على عجيب مواهب النقيب وتعددها ؟ ان القابلية للطعام ، كغيرها من المحاسن البشرية . بل هي ، مثل الذكاء والكرم والتيقظ وحسن الحديث ، موهبة من المواهب التي يهبها الله من يشاء من عباده . وقد خص هذا الرجل الكبير بكثير منها كلها . اني لا انساه حياتي وهو يأكل كالشاب ، ويحدث كالشيخ ، ويراقب من طرف خفي كالامرأة فلا يفوته مما له وما عليه .

وما كنا في الحديث لندنو من السياسة الا نادراً . اذكر انه مر بالموضوع مرة فقال انه شديد الرغبة في العزلة — ولولا الحاح المندوب السامي وزملائه في بداءة الامر ، قبل التتويج وبعده ، لما كان يقبل ان يدير سياسة البلاد . ولكنه بعد ان وقع المعاهدة واحس ان الفكرة في القصر تزداد صلابة وظهوراً

عليه ، وان دار الانتداب تميل تسللاً اليها ، ورأى فوق ذلك ان مقاومة المتطرفين تزداد شدة وعناداً ، نزع بحكم رد الفعل الى التسلط والاحتفاظ بمنصبه. ولما صدر امر الحكومة الاول بمباشرة الانتخابات للمجلس التأسيسي، فاصدر على اثره احد المجتهدين في النجف فتوى بان الانتخاب مخالف لقواعد الاسلام ، رأيت فضيلة النقيب مضطرباً وسمعته غضوباً :

— في البلاد وطنيون كثيرون وكلهم رجال سياسة . ولكن ليس في رؤوسهم عيون تريهم ما هم فيه . اين هم من البلاد ، واين البلاد منهم ؟ كانوا امس تحت اقدام الترك ، واليوم يبيعون البلاد الى الترك بفلس لينتقموا ممن يظنونهم اعداءهم . نحن اخذنا الامر على عاتقنا ، ولا نسأل التوفيق من غير الله ، ولا نتوكل الا عليه سبحانه وتعالى . . . اما اجتمعت بالوطنيين يا افندي وسمعتهم يتبجحون ؟ غداً تجتمع بكبارهم في كربلاء والنجف . . . نصف هذا الاجتهاد جهل ، ونصفه عناد .

ذكرني كلامه وتغيظه بالكلمة الانكليزية المأثورة التي قالها الفيلسوف دجونسون فترجمتها لفضيلته : ان حب الوطن ملجأ المنافقين الاخير(١) . فسر بها جداً .

— خوش كلام . خوش حكمة . الانكليز يا افندي امين احكم الناس بالرغم عن سيآتهم كلها . هم ينافقون ولا شك ولكنهم لا يسمون نفاقهم اجتهاداً ولا يخلطون الدين بالسياسة . هم يحبون انفسهم ولا شك . ولكن حب الذات يختلف عندهم عما هو عند سواهم . عند الالمان مثلاً حب الذات نيء بارد لا تقبله الناس . اما عند الانكليز فهو ناضج وفيه شيء من الابازير هي لبعض الناس مثل السم . عند الانكليز العلم ، وعندهم المال ، وعندهم الحكمة . اما الوطنيون في البلاد فاي شيء عندهم ؟ هل هم يحبون

---

(١) « Patriotism is the last refuge of the scoundrel. » — Samuel Johnson.

البلاد اكثر منا وهي بلادنا قبل ان تكون بلادهم ؟ واكثرهم لا يزالون من الاجانب . . . اعد المثل الانكليزي . — حب الوطن اخر ملجأ للمنافقين — خوش كلام ، خوش حكمة ·

ولكنه بعدئذ، او انه كان عالماً متجاهلاً ، بان السياسة ، انكليزية كانت او عراقية ، لا تعرف الثبات والوفاء . فقد استنصره واستخدمه الانكليز الى ان تمت مقاصدهم فيه ، الى ان تم توقيع المعاهدة ، وبعد ذلك هجروه . وقبل الهجر ، عندما اراد السيادة والتغلب ، خذلوه .

عبدالمحسن بك السعدون

في النادي العراقي روح اجتماعية وطنية صحيحة لانها مبنية على المساواة والاخاء ، ولانها فوق ذلك مختلطة اي انها عراقية انكليزية . ما رأيت الانكليز قبل اليوم ولا سمعت بهم يخالطون اجتماعياً من يحكمونهم او يساعدون في حكمهم من الشعوب . اما في العراق فالروح الجديدة يستبشر بها . قد تعرف في لعب الورق شيئاً من اساليب خصمك في السياسة . والذي ادهشني من الموظفين والمستشارين الانكليز في العراق ان اكثرهم يحسنون التكلم باللغة العربية . كنت اجتمع بهم في النادي وارى بعضهم جالسين الى تلك الطاولة الخضراء يحاولون كسب روبية من زملائهم العرب .

اجل ان في النادي طاولة خضراء يجتمع اليها الوزراء بعد الظهر ، ساعة الشاي ، ليحافظوا على الموازنة النفسية بينها وبين تلك الطاولة الاخرى في السراي . فقد كُتب لي ان ارى الوزراء يلعبون ساعة بالورق ليبددوا هموم الاوراق الرسمية والمعاهدات . وليس في ذلك ما يؤاخذون عليه ، بل وفيه برهان على ان للفلسفة العملية مقاماً عندهم محترماً .

اما الطاولة الخضراء في النادي العراقي فهي مثل الحكومة العراقية قليلة

الموارد محدودة الخراج ، ولها ان تفاخر غيرها بالكيفية لا بالكمية . هي برجالها تفتخر لا بالعابها واموالها . هاك على رأسها الاخصائي المالي ساسون افندي . من وكلت الامة اليه امر ماليتها ، يجيء كل يوم ، وهو اثبت في ذلك من قيم النادي ، ليفادي بشيء من ماليته . ولكني لم اسمع انه خرج مرة خاسراً ، او ان ارباحه كانت تتجاوز الخمس الروبيات . وكلهم في لعب الـ « بريدج » اخصائيون . الا ان الكسباني امين كان يسدد حسابه في الفندق من حسابه في النادي . لانه في الـ « بريدج » مثله في التحفظ السياسي سيد الاخصائيين .

قد ذكرت النادي لاني اجتمعت فيه لاول مرة بزملاء سيدي النقيب بساسون وصبيح ونوري وياسين وبالسعدون عبدالمحسن موضوع حديثي الان ، واظنني فضحت نفسي في ما كنت اجهل من امر آل سعدون وما لهم من السيادة والنفوذ في العراق[1] على ان من يقابل وزيراً لاول مرة في تلك الحال لا يلام اذا نسي التاريخ او تناساه . ظننتها جلسة « بوكر » وظننت الاعضاء مثل غيرهم في نوادي القمار فسلمنا وما تحدثنا . بل نسيت الرجل فخجلت بعدئذ مما كان . ضاع وجه السعدون بين الوجوه العديدة التي كانت تمر صورها امامي في تلك الايام فلا ينطبع في الذهن منها الا القليل . ثم اجتمعت به مرة ثانية في نادي الحزب العراقي الحر الذي خطبت فيه ، وكان هو جالساً الى جنبي ، فسلم علي فسلمت وانا اذكر صورة وجهه ولا اذكر اين بدت لي سابقاً . فسألته ، فاضحكني بلطفه وابتسامه .

اجتمعنا بعد ذلك مراراً ، وكنت كل مرت ادنو منه اراه بعين التصور

---

(١) هم من الاشراف وقد هاجر احد اجدادهم منذ اربعمئة سنة الى العراق فاستوطن البصرة ثم ذهب الى المنتفق فتأمر احفاده على عشائرها . والسيادة في لواء المنتفق لا تزال لهم الى الان .

قبل ان اراه بعين الجسم. فيتمثل امامي لابساً العباءة والعقال، راكباً الهجين، قائداً الى الغزو العربان. اجل، ان صاحب المعالي عبدالمحسن بك السعدون هو الوزير الاول في وزارته الذي تبدو فيه العروبة الحقة، والثاني هو عبداللطيف باشا المنديل. اما الاخرون ففي ظاهرهم مستعجمون. ناجي بك السويدي اشبه برجل من شمال اوروبا. صبيح بك نشأت هو في تركيته اظهر منه في عروبته. جعفر ونوري من الاكراد، وساسون افندي حزقيل من العالم — من الاسرائليين في العالم. اما السعدون فمن العراق. من صميم العرب، ووجهه اصدق اخباره الصادقة.

هو رجل في العقد الرابع من العمر[1] ربع القامة، اسمر اللون، حسن البزة، اوروبي حتى رأسه — حتى الاستثنائية اريد. فالرأس اسود الشعر قصيره ومثل كلة المدفع مستدير، والعين فيه كالمشعل بين الليل والغسق. والفم عدل الا انه قاس، قلما يبسم وقلما يتكلم. ولكنه عندما يتحرك يؤنس، اذ تسارع اليه نفس جذابة فتمتزج بكلماته القليلة، وفيها مضاء

(١) ولد سنة ١٨٧٩ م في الناصرية مركز لواء المنتفق، وكان يومئذٍ والده فهد باشا حاكماً في اللواء واميراً على جميع عشائره ومقرباً من المابين. فطلب منه السلطان عبدالحميد ان يرسل ابناءه الى الاستانة ليتعلموا في المدرسة التي كان قد انشأها خاصة لابناء رؤساء العشائر. فارسل فهد باشا ابنيه عبدالمحسن وعبدالكريم. وكان عبدالمحسن يوم سافر الى الاستانة في الثالثة عشرة من سنه فتخرج من المدرسة المذكورة، ثم دخل واخوه المدرسة الحربية العالية فتخرجا منها ضابطين في الجيش العثماني، فاختارهما السلطان عبدالحميد مرافقين له في المابين، وبقيا في تلك الوظيفة الى اعلان الدستور، وترقيا اثناء ذلك في الجندية الى رتبة بكباشي. على انهما استقالا من الجندية بعد سقوط عبدالحميد، فرجع عبدالكريم الى وطنه ليهتم باملاكه التي في البصرة وفي المنتفق، وبقي عبدالمحسن مقيماً في الاستانة. ثم انتُخب نائباً في مجلس النواب العثماني عن المنتفق وظل كذلك الى بداءة الحرب العظمى، فرجع اذ ذاك الى وطنه العراق وتقلد بعد وصوله منصب وزارة العدلية في الوزارة النقيبية الاولى ثم وزارة الداخلية في الوزارة الثانية التي استقالت في شهر آب سنة ١٩٢٢

وليس فيها جفاء . رجل سكوت . وكل سكوت لغز لمن لا يعرف شيئاً من سابق حاله . على اني الفت السكوت في من سافرت معهم من العرب ، فكنا نسير ساعات في النهار جنباً الى جنب دون ان نفوه بكلمة واحدة . وكنت غالباً اعجب بما يحجبه السكوت فيهم من شمم وكرم وذكا .

وهوذا السعدون عبدالمحسن العربي السكوت ، ويحق لي ان اقول الان السكوت العزوم . فقد برهن في وزارته التي استمرت سنة[1] على انه فعّال لا قوال ، وعليم في ما يفعل حكيم . كانت نفسية البلاد من حيث المعاهدة ، التي رُفعت منها لفظة الانتداب ولم تمس قيوده ، كما وصفت في الفصل السابق ، عندما استلم زمام السياسة العراقية . فاقدم السعدون على عمل يعدّ من اهم اعمال وزارته ولسان حاله يقول : لا نضحك من الامة فنصور لها الانتداب خيالاً زائلاً ، ولكننا نخفف عليها ثقل القيود . فتم عقد الملحق بين حكومة العراق وحكومة ملك بريطانيا العظمى الذي بموجبه أُنزلت مدة المعاهدة من عشرين سنة الى اربع سنوات[2] .

ولتلك المعاهدة ملحقات أُخرى تتعلق بالجندية والمالية والقضاء وبشروط استخدام الموظفين البريطانيين في الحكومة العراقية . فتوفقت وزارة السعدون الى عقـد الملحق الذي يتعلق بالقضاء ودرست الملحق الذي يختص بالموظفين البريطانيين ، فقدمت به لائحة فلم تقبلها حكومة الانتداب . وسعت في

---

(١) تألفت في كانون الاول سنة ١٩٢٢ واستقالة في تشرين الثاني سنة ١٩٢٣

(٢) هذا نص البروتوكول اي الملحق بالمعاهدة :

قد تم التفاهم بين الفريقين الساميين المتعاقدين على انه مع وجود نصوص المادة ١٨ يجب ان تنتهي المعاهدة الحالية عند دخول العراق عضواً في جمعية الامم وعلى كل حال يجب ان لا يتأخر انتهاؤها عن اربع سنوات من تاريخ عقـد الصلح مع تركيا . وليس في هذا الاتفاق ما يمنع عقد اتفاق آخر لتنظيم ما يكون بعد ذلك من العلاقات بين الفريقين الساميين المتعاقدين . ويجب الدخول في المفاوضات بينها لاجل ذلك الغرض قبل انتهاء المدة المذكورة اعلاه .

تحسين الصلات بين العراقيين والانكليز فكان سعيها مبروراً وان لم يكن مثمراً . وجاهدت في سبيل الميزانية فأفلحت، اذ اعادت اليها التوازن بالرغم عن التخفيض الذي اجازته في رسوم الاراضي الاميرية ورسوم المواشي والنخيل . ولكن هناك صخرة اصطدمت بها فحملها ذلك على الاستقالة.

يذكر القارىء ان في المعاهدة بنداً يوجب على الملك ووزارته وضع دستور اساسي للحكومة العراقية ثم انتخاب المجلس التأسيسي للنظر فيه وتنفيذه . فقد وضعت وزارة سعدون الدستور واصدرت قراراً يوجب مباشرة الانتخاب ، فاعترضها في ذا السبيل ما اعترض الوزارة السابقة من مقاومة علماء الجعفرية اي الشيعة. ولكنها تغلبت عليهم بعض التغلب اذ قد تم في عهدها انتخاب المنتخبين الثانويين ولم يبق سوى انتخاب الاعضاء .

هي ذي العقبة الكؤود . قد سمعت ما قاله النقيب عند تغيظه في هؤلاء الاقوام ، واكثرهم من الاعجام . ان سياستهم الوطنية اصولاً ونزعات كلها او جلها ولا شك مذهبية ايرانية . وان لعلمائهم في العراق نفوذاً يفوق نفوذ اكبر المقامات الرسمية العالية . وفيهم المجتهدون الذين « يجتهدون » دائماً ان يعرقلوا مساعي الحكومة . ازعجوا السعدون كما ازعجوا سلفه النقيب . فاصدروا الفتاوي الدينية ضد الانتخاب والانتداب . وفي العراق مليون من الشيعة يسمعون فتاوي المجتهدين فيطيعونها ويعصون الحكومة .

هاك ما حمل السعدون السكوت العزوم ، بالرغم من تردد الملك والمندوب السامي ، على العمل الذي يعد من اكبر اعماله ، اذا اعتبر فيه العزم والشجاعة فنفى الى الحجاز آية الله الشيخ مهدي الخالصي احد مجتهدي الكاظمية [1] واكبر مجتهدي العراق ، فاحدث ضجة في البلاد ظن انها ستفضي الى ثورة ثانية . على انه لم يكن من نتائجها غير احتجاج نفر من العلماء فسافروا الى

(١) زميله هو السيد حسن صدر الدين . راجع الشرح في صفحة ٣٠٠ من هذا الجزء

ايران مغضبين .

اما جلالة الملك فقد كان يؤيد في البدء قولا وفعلاً سياسة وزارته بالرغم عن احتجاج الشيعة في البلادين ايران والعراق . وبما ان اكثر اهل الشيعة في العراق من التبعة الايرانية ، وهم ثابتون فيها ، فقد اصدر منشوراً طلب منهم فيه ان يتجنسوا بجنسية البلاد ليحق لهم التمتع بالحقوق التي يتمتع بها العراقيون . فزادهم المنشور سخطاً وتمرداً . وقام اولئك الذين ظعنوا الى ايران يتقدمون الشعب الايراني في التظاهرات على الملك فيصل ، وعلى المندوب السامي البريطاني . ثم اعلنوا مقاطعة البضاعة الانكليزية .

قد احتجت كذلك حكومة طهران الى حكومة العراق فاحس بعض الخاصة في الدواوين بسلك كهربائي انكليزي في ذاك الاحتجاج . وكيف لا وقد هزّ دار الانتداب في بغداد فتأثر القصر والمجلس ، فقال جلالة الملك بعد المذاكرات ما قاله فخامة المندوب . ولكن العلماء استمروا مكابرين معاندين فقالوا انهم لا يرجعون الى بلادهم الا اذا نفذت اربعة شروط ، وهي : ١ً — اخلاء الانكليز للقطر العراقي ، ٢ً — استقالة الوزارة الحاضرة ، ٣ً — تعيين زمن الانتخاب ، ٤ً — ادخال عدد محدود من الشيعة في المجلس النيابي ، قال المندوب السامي . . . فقال الملك فيصل . . . فقالت الوزارة : الوداع .

وما اجمل التغيظ في الرجل الجريء العادل . قد جاءني من معالي الوزير كلمة بعد استقالته يقول فيها : « احببت ان اسعى لرفع الغشاوة الفكرية عن اخواننا الشيعة واثارة بصائرهم بالحقائق . فبينت لهم ان الموكل موهوم والموكل غشوم . لقد قمت بهذا الامر في هذا المحيط وهذا الزمان وتحملت من الاعباء ما تحملت لافتح طريقاً لاخي الوزير الشيعي فيتمم ما بدأت به . وحينئذ يبدأ بتغيير عام ، اطرد جيوش الرياء والاوهام ، وينفخ في صور الاخاء والمساواة وتتم نبوءة اشعيا الفيلسوف حيث السباع والغنم يرتعون سوية ، ويسود سلام في العالم وسلامة الضمير في بني الانسان » .

هوذا عربي كبير يحلم مثل النبي اشعيا الاحلام وينشد المثل الاعلى في العالم . وهو في موقف العمل كما تبين يفقه حقائق الحياة الوضعية وما بينها كلها من صلة العقل والخيال . وان السعدون صريح اذا قال ، مخلص اذا مال . سألته عن رأيه في السياسة العراقية الوطنية وما هي عقيدته تجاه الانكليز . فاجاب بما لا يقبل التفسير والتأويل « اني اعتقد ان منفعة الوطن تقضي علينا في الوقت الحاضر بان نكون في سياستنا تجاه الانكليز مصادقين لهم لاننا محتاجون اليوم اشد الاحتياج في نهضتنا السياسية الحاضرة الى يد مساعدة ودماغ راق نسترشد به . ولا نجد في هذا الباب خيراً من الانكليز . ولكن على شرط ان لا يجحف ذلك باستقلال البلاد او ينافيها »

جعفر باشا العسكري [1]

زرته اول مرة في وزارة الدفاع التي كان يومئذ وزيرها . وكان الحر

(١) هو مثل سلفه السعدون في العقد الرابع من العمر ، وقد تلقى العلوم مثله في المدرسة الحربية في الاستانة ، فخرج منها ضابطاً ثم سافر الى المانيا ليتمم دروسه الفنية . وقد بدا من نبوغه لانور باشا في الحرب العظمى ما حمله على ترقيته الى رتبة باشا وارساله على غواصة الى بنغازي لقيادة متطوعي العرب الذين كانوا يقصدون الزحف على البلاد الداخلة في المنطقة الايطالية . فقادهم جعفر وحدث على الحدود المصرية قتال بينهم وبين الجيش البريطاني فجرح في المعركة ، فاعتنى به رجال الصليب الاحمر ، ونقل بعد ذلك الى القلعة في القاهرة . فحاول التفلت من الاسر فوقع فانكسرت رجله فلزم الفراش ستة اشهر .

وكانت الثورة العربية في بداءتها والضباط العرب ينضمون اليها ، فكتب لجعفر ان يكون منهم ، فجاء سنة ١٩١٧ الى مكة ثم الحق بالجيش العربي الذي كان مرابطاً حول المدينة . ثم ارسل الى العقبة فعين قائداً من قادة جيش الشمال . وبعد فتح الشام تعين مفتشاً عاماً للجيش العربي في سوريا ، ثم حاكماً عسكرياً لولاية حلب ، ثم رئيساً لحجاب جلالة الملك ، وبعد واقعة ميسلون عاد الى بغداد ليساعد في تأسيس حكومة وطنية ، فتعين وزيراً للحربية في الحكومة الموقتة اي قبل التتويج ، ثم في وزارتي

شديداً ، فدخل والعرق يتصبب من جبينه يجر ما فرضه الله عليه من وزر السمن ، كأنه مدفع يتحرك بنفسه ، او كأنه في ساحة القتال حيث لا ترسم ولا تجمل . جعفر باشا لا يكذب اسمه ، فهو اولاً وآخراً عسكري ، يسرع ولا يتكلف في ما يقول ويفعل . سلم سلام الاحباب ونزع « ساكوه » وجلس في الكرسي وراء منضدته وهو يروح بمروحة من القش ويتكلم .

فتمثل امامي رجلاً اميركياً ، رجل عمل واهلية ، من اولئك الذين يديرون ادارات كبيرة بالضغط على زر كهربائي . اما وزير الدفاع في الحكومة العراقية فكان يصفق كفاً على كف ليعطي اوامره . وهذا لا يهم عند روح العمل الجديدة التي تتمثل في جعفر وزملائه — روح العمل العصرية المجردة من خزعبلات الابهة الشرقية وسخافات اللياقة كلها .

— والله يا استاذ عندنا رجال وعندنا وطنية . ولكن الادارة مفقودة والمال ، اين المال . مثلنا ، او بالحري مثل الحكومة التي تولت في البدء امرنا ، مثل شاب ورث ثروة من ابيه فخسرها في القمار . بذل الانكليز في سنة واحدة من المال في البلاد ما يكفي جيشاً وطنياً كبيراً خمس سنين . ولا اثر ولا نتيجة لما بذلوه . والان ونحن في اشد حاجة الى المال هم ينفضون ايديهم ويرونا كيساً فارغاً . مبدئي الوطني واملي وعملي تتوقف كلها على تنظيم الجيش العراقي . يقول لنا الانكليز : ساعدوا انفسكم نساعدكم . وهذا صواب ولكنهم افسدوا علينا وهم لا يدرون موارد المساعدة . عندما تكون البلاد في هياج سياسي يصعب على الحكومة فيها اية كانت ان تجبي

النقيب الاولى والثانية . ولما دعا المستر تشرشل رؤساء حكومات انكلترا في الشرق الادنى لمؤتمر القاهرة كان جعفر باشا ممن رافقوا مندوب العراق السامي وشاركوا في البحث في امور العراق المالية والعسكرية وفي شتاء ١٩٢٢ - ١٩٢٣ كان مندوباً للحكومة العراقية في لندن فجاء منها الى لوزان باسم العراق ولكنه لم يشترك في ذلك المؤتمر .

اموال الخراج .

— وما هو عدد الجيش العراقي الذي باشرتم تنظيمه ، وما هي حالته ؟

— عدده خمسة الاف وحالته المعنوية دون ما تروم . لا تظن ان السبب في ذاك نقص في الوطنية . لا والله . انما هو دليل من احد الوجوه على الوطنية . وهــذه هي الورطة التي نحن فيها الان . ندعو شبان البلاد الى التجنيد فلا يلبون واذا لبوا فيجيئون يمرجون ولسان حالهم يقول : اذا كان الانكليز يبغون الاقامة في البلاد فليدافعوا هم عنهـا . ومن وظيفتي انا ان اقنعهم بان الانكليز ، وهم في البلاد ، غير مقيمين فيها ، وانهم وهم الاغنياء بالمـال والرجال ، لا يستطيعون الدفاع عنها مع رغبتهم فيه . هل تعرف وزيراً في حكومات العالم اليوم هذا موقفه في السياسة والمنطق ؟

جعفر باشا حر الكلمة صريح الاشارة والعبارة . سألته رأيه في احــد رجال السياسة العراقيين الذي كان يومئذ من الموجهين لرئاسة الوزارة فقال : اي رجل اخر احسن منه . درهم من الاهلية يا استاذ خير من قنطار مقامات . البلية الكبرى في هذه المقامات التي ليس فيها غير الادعاء والسخافة .

وهو ان رفعته الجدارة الى اعـلى المقامات لا يكتفي بما عنده من خبرة وحكمة بل يسعى دائماً في ما فيه زيادة وتحسين . قد اخبرت القارىء في مطلع هذا الفصل بان حسين افنان سكرتير مجلس الوزراء هو استاذ في علم الاقتصاد ، ولا فرق في مصادر علمه اصلية كانت او منتحلة . فكنت ارى الحسين مكباً على ترجمة آدم سميث[1] وغيره من اساتذة هذا العلم واعجب باخلاصه ، وبقوله : خير لي ان اترجم عن الثقات من ان اجيئهم بما يجلب اللعنات . انك لترى الفقيه والاديب والوزير في من يحضر تلك الدروس الاقتصادية ولست مبالغاً في ما اقول .

(١) The Wealth of Nations, by Adam Smith.

دهشت يوم اخبرني جعفر باشا بانه يحضر دروس السيد افنان وازددت اعجاباً بمعاليه . اطلب العلم من المهد الى القبر . ليس اشرف من الحديث النبوي غير الحديث النبوي المتجسد في وزير من وزراء العرب وهو تلميذ من تلاميذ كاتب سره . جاء جعفر باشا يزورني يومئذ في البيت ويدعوني للعشاء في بيته .

— لا تظنك تؤاخذنا ونحن لا نزال في ما هو اشبه بالكرخ . ولكنه خارج البلد فتمر في طريقك ببساتين يروقك منظرها .

ثم تطرق في حديثه الى الانكليز ، وهو معجب بهم متخوف منهم . الانكليز وجعفر مثل الحية والعصفور . ولكن الوزير العراقي وان وقف امام الحية مسحوراً ، فلا يمكنها منه اسمع ما يقول :

— يجب ان نتفاهم واياهم ونتفق . وخير البر عاجله . الانكليز يختلفون عن بقية الناس . هم وحدهم يا اخي — ممتازون ! نزلوا من السماء في دقة . افلا ترى كيف يسلكون في نهارهم وفي ليلهم ؟ يلبس الجندي منهم البنطلون القصير فيكشف ساقه حتى الركبة — ابن عم البرابرة — ولكنه في المساء ، اذا دعي للعشاء ، تراه في ثوبه الرسمي وفي سلوكه كأنه من الاعيان . فلو كانت هذه الحرية لنا لكنا برابرة في النهار وفي الليل ... يجب ان ندرس هؤلاء الانكليز ونفهمهم ، ونتفاهم واياهم . ثم لازمون لنا في الوقت الحاضر

وقد حاول في السنة التي تولى فيها رئاسة الوزارة ان يفهمهم ويتفاهم واياهم . فدرست وزارته ملاحق المعاهدة الثلاثة الباقية اي تلك التي تتعلق بالجندية والمالية والموظفين الانكليز . ولكن المجلس التأسيسي ، او بالحري اللجنة التي عينها المجلس لدرس تلك الملاحق والاتفاقيات ، رأت ان الشروط فيها فادحة فتفاقت على الوزارة الاحتجاجات ، فاستقالت .

ياسين باشا الهاشمي

كان ياسين باشا[1] من المغضوب عليهم في دار الانتداب يوم كنت في بغداد ، وكانت المس بل مع ذلك تعجب به وتحترم اراءه · وقد يصح فيها وفيه ما قلته في جعفر باشا والانكليز . هما مثل العصفور والحية . على ان الاية تعكس ها هنا ، فلا تنحصر الحكمة والجاذب في المرأة ·

كنت اجتمع بياسين باشا في النادي فاسمعه يجهر برأيه ضد الانكليز او بالحري ضد حكومة الانتداب · وكانت المس بل تدعوه لمائدتها فيجيء في ثوبه اليومي وبآرائه التي هي مثل ثوبه طليقة ، لا تقيد فيها ولا ادعاء ·

وكان على الدوام كئيباً · وكانت الكآبة بليغة مستحبة ، تنظر من عينه السوداء اليك كأنها تقول : ان هدوء نفسه ، وحسن وجهه ، وشجا صوته ، انها كلها مني · ظننت تلك الكآبة من خلقه · ولكني علمت بعدئذ

---

(١) ولد ياسين باشا الهاشمي في بغداد سنة ١٣٠٣ هـ وتخرج في المعاهد التركية فيها ودخل بعدئذ في المدرسة الحربية بالاستانة وخرج منها في سنة ١٣٢٠ مالية برتبة ملازم ثان وبعد ان درس سنتين في مدرسة ضباط اركان الحرب تقلد عدة وظائف في الجيش التركي الى ان اعلنت الحرب العامة وهو وقتئذ رئيس اركان حرب . وقد اشترك في مواقع غاليسيا وغيرها وكان في رأس الفيلق الثامن لما انهزم الترك في سوريا فانخرط صاحب الترجمة في الجيش العربي وعين رئيس اركان حرب حاكم سوريا العسكري ورفع الى رتبة امير لواء وعين رئيساً لديوان الشورى ونفي بعد ذلك . وبعد رجوعه من المنفى احتل الفرنسويون سوريا فعاد الى مسقط رأسه بغداد سنة ١٣٤٠ فعين متصرفاً للمنتفق . وبعد ان تولاها مدة شهرين عين وزيراً للاشغال والمواصلات في وزارة عبدالمحسن بك السعدون . ثم انتخب نائباً عن لواء بغداد في المجلس التأسيسي وكان فيه نائباً ثانياً لرئيس المجلس . وكان رئيساً للجنة تدقيق المعاهدة العراقية البريطانية ولجنة قانون الانتخاب ولما اتم هذا المجلس اعماله واعتزلت وزارة جعفر باشا العسكري انتدب لتأليف الوزارة في ٢ آب سنة ١٩٢٤

ان ابنه الصغير الوحيد كان مريضاً ولا يرجى شفاؤه فأغلقت في وجهه ابواب الطب كلها ، وانصرف عنها وعن الاشغال يسعى بما عسى ان يصل الى عرش الرحمة الاعلى ، كيأذن الله بشفاء صغيره العزيز .

لم يستجب الله طلبة عبده . وعندما رحت اعزي ياسين باشا الذي كان يومئذ وزير الاشغال في وزارة السعدون ، استقبلني هاشاً ولم يأذن بتلك الكلمة المألوفة التي لا تغني فتيلاً . ما شاء الله كان . هو مثل داود النبي تقي في المصيبة ، فيلسوف في الاحزان .

ولكنه في السياسة لا يستسلم دائماً الى الاقدار . اما وفي ذلك الوقت كان رئيس الوزارة التي خلفت الوزارة الجعفرية ، وكان رئيس اللجنة ، لجنة تدقيق المعاهدة ، التي عينها المجلس التأسيسي ، فماذا عسى ان يكون موقفه في سياسة اصبح لا يملك غير طرف واحد منها ؟

جاء في تقرير اللجنة ان في بنود المعاهدة والملحقات او الاتفاقيات ما يثقل كاهل العراق فلا يمكنه القيام بتعهداته . ثم تطالب اللجنة التعديلات الآتية

١ً – التصريح باستقلال الدولة العراقية .
٢ً – التصريح بالغاء الامتيازات الاجنبية قضائية كانت ام اقتصادية
٣ً – الحكومة العراقية حرة في تنظيم ميزانيتها السنوية .
٤ً – التصريح بان الحكومة العراقية ستصبح حكومة حرة مستقلة ذات سيادة تامة عند دخولها في عصبة الامم او عند انتهاء الاربع سنوات .

وهناك تعديلات فرعية تتعلق بالاتفاقيات المالية والعسكرية .

فمهما قيل في وجوب هذه التعديلات كلها لا اظن معالي الوزير الجديد يسعى في نقض قاعدة مالية اجمعت الامم على صحتها . يقول العراق لبريطانيا العظمى : يجب ان تسحبي قواتك من العراق ويجب ان تقرضيني مالاً لانشيء

جنداً وطنياً يقوم مقامها . فتقول بريطانيا للعراق : يجب ان تعطيني ضمانة على المال وستبقى بعض قواتي في البلاد الى ان تسدد الدين .

هوذا المشكل الذي يُرجى حله في عهد الوزارة الهاشمية خصوصاً لان فيها اخصائياً في التجنيد هو رئيسها واخصائياً مالياً مشهوراً هو ساسون افندي [1]

جرترود بل [2]

النادي العراقي مختص بالرجال دون النساء . ولكني سمعت يوماً صوت امرأة في غرفة القراءة ، فدخلتها فاذا هناك المس بل واحد الوزراء يتجاذبان اطراف الحديث كما يقال . وكنا يوماً مدعوين انا والسيد افنان لمأدبة فمررنا باحد المستشارين ظناً منا بانه وزوجته من المدعوين فقال المستشار : انا ارافقكم اما الست فلا . يظهر ان الليلة مختصة بالرجال . فقلت وقد سمعت ان المس بل ستكون هناك . فقالت السيدة زوجة المستشار : ولكن المس بل ... وسكتت .

نعم ، ان المس بل في صفتها الرسمية لمن الرجال ، فهي لا تقيد نفسها بما

---

(١) هو الوزير الثابت في الوزارات العراقية لان ليس في العراق من يضاهيه في علم الاقتصاد والتضلع من ادارة الشؤون المالية . ولد ساسون افندي حزقيل في بغداد في ١٧ اذار سنة ١٨٦٠ وتلقى علومه في بغداد ولندن وتخرج في الحقوق بفينا عاصمة النمسا وقد شغل عدة مناصب ادارية في الحكومة العثمانية الى ان انتخب نائباً من بغداد في مجلس النواب العثماني من سنة ١٩٠٨ الى ١٩١٨ وكان رئيساً للجنة الميزانية في ذاك المجلس سنين عديدة . وعين مستشارا لوزارة التجارة والزراعة في الاستانة . ولما تألفت الحكومة الموقتة في العراق في تشرين الثاني سنة ١٩٢٠ عين وزيرا للمالية وبقي في الوزارة المذكورة ثلاث سنوات اي الى ان استقالت وزارة السعدون . ولما تألفت الوزارة الهاشمية في شهر آب سنة ١٩٢٤ اسند اليه المنصب نفسه

(٢) راجع صفحات ١٨ و ١٩ و ٢٠ من هذا الجزء

يقيد بنات جنسها • وهي تغضبهن لان الحرية التي الفتها لا تأبه للاصطلاحات العقيمة . على ان الوظيفة تضطرها احياناً الى ما يظنه الناس تعمداً في الخروج عن المألوف . وهي في صفتها الرسمية تعمل عمل الرجال فتستحق ان تذكر مع الرجال . بل هي شبه وزير دار الانتداب فينبغي لي ان افسح لها في هذا الفصل مجالاً . ولا اظن اصحاب المعالي الوزراء يستنكرون او يعترضون .

ان السيدة جرترود بل كاتبة اسرار المندوب السامي في الامور الشرقية او رئيسة القلم الشرقي في دار الانتداب[1] لمن اولئك الانكليزيات القليل عددهن اللواتي يستشرقن او يتعرّبن لدافع فيهن اولاً نفسي بل روحي يصعب تعليله على ما اظن بغير ناموس التناسخ او الوراثة البعيد الاسرار والاسباب. ان امرأة عالمة ، نشيطة ، حصيفة ، ذات عزم ومضاء مثلها ، لتجد في بلادها من دواعي العمل والشهرة والفخار ما يرغبها عن البلدان الاجنبية ولكن نزعة فيها الى الشرق ، الى العرب ، تغلبت على كل آمالها ومطامعها ، فجاءت الشرق الادنى سائحة ، طالبة علم ، وجالت في البلاد العربية ، فقطعت الصحراء الى جبال شمر وحائل ، وآخت العربان ، وكتبت في ما كتبته كتباً عن العرب والبلاد العربية والسورية فيها العلم مقرون بالعطف والاخلاص . ثم جاءت ايام الحرب الى بغداد فكانت للقيادة العامة والوكلاء السياسيين عوناً كبيراً في ادارة شؤون البلاد .

ان المس بل لتعلم من امور العراق وعشائره ومشايخه واشرافه وتجاره والسياسيين فيه ما يندر ان يعلمه سواها . وهي تتكلم العربية بلسان عربي تخف اللكنة فيه وتجالس العرب فتستأنس بهم ، ولا تكلف ولا عناء ، كأنها تجالس من تحب من ابناء جنسها ، بل كأنها عربية بنت عربي .

امرأة طويلة نحيلة جليلة ، تكاد تكون مجموعة اعصاب وافكار ،

(١) Oriental Secretary to the High Commissioner.

هادئة الاشارة واللهجة ، هادئة البادرة ، يتغلب في حديثها العقل ، وتتغلب في عقلها السياسة . وهناك شيء من القلب ، بل اشياء ناضجة مستوية ، تزاحم العقل والسياسة احياناً فتجيء تارة عفواً وطوراً تنم على اجتهاد وعناء .

حدثني احد المستشارين قال : طريقة المس بل السياسية قديمة ، وهي مع ذلك لا تركن في الامور لا لعقلها دائماً ولا لقلبها . وقال آخر : الناس يأبون التأديب اسواء اكانوا عراقيين ام انكليزاً .

ولكن المس بل لا تجبه العراقيين دائماً بالقاعدة والقضيب كالمعلمة المرشدة . بل تجيئهم مراراً وهي تحمل هدية بدل القضيب . هوذا قلبها عربون اخلاصها ايها الزعيم الوطني . هي ام المؤمنين يقيناً . واذا رفضت الهدية والمشورة ، اذا ابيت النصح والامتثال ، فهوذا السجل وفيه سيرة حياتك منذ دببت ودرجت الى يوم وقفت مستعطفاً او محتجاً في دار الانتداب

لذلك لا يبادلها العراقيون الحب والوداد . ولكنهم يحترمونها ، ويعجبون بها ، ويودون لها ما يوده المرء لعمته او الفتاة لخالتها . لا تجبينا كثيراً عافاك الله ولا تتدخلي كثيراً في امورنا .

الفصل الخامس عشر

اصحاب القوافي

السياسة والمقاهي – الفرج في التدخين – الشعراء – معروف الرصافي في الفريكة – في الاستانة – الرحالة والشاعر في بغداد – الشاعر الناقم على الجميع – المس بل تحافظ على اللياقة في الصحافة – الشاعر يودّبها – غضب المرأة الراقية – لا منفى للشاعر – ذنب الحرية – عقيدته في الدين – اقاربه في العالم – شيء من شعره في الشعر –

من ذا القادم من المعرة راكباً حماراً ابن اتان ؟ – وصف الزهاوي – شيخ زاهد – ليلى الاخيلية تمسح دموعه – شكاية الشاعر الفيلسوف – قصة شاعر الملك – « لا امدح بالاجرة » – المبتذل في شعر الزهاوي – « نزعات الشيطان » – حقائق رائعة – « يا شرق ويا غرب ! » – الشعر الحقيقي –

اولئك الذين يكفرون الناس – تلتيق الضفادع – الاعظمية والكاظمية وراهب كبوشي كرملي – التقليد والتقييد والتعقيد – شاعر لا قلب له – اوهام الفردية والاحسان – الدجيلي شاعر القوة القاهرة – هنلي ونيتشي – شيء من شعر الدجيلي – الـ « رياليزم » realism في شعره – مادي يهتم بالارواح – وطني يقرّع ابناء قومه ومذهبه –

راية الكثرة – ان الكرام قليل – « الفقر يشيعهم من الديوان الى البيت » – مجيد الشاوي – في وجهه شيء من الاسد والنمر – وليس على صدره نيشان – ولا يعرف التدرسم – الى من ينتسب – ابن عمي – المعري والخيام – في مجلس السيد محمود النقيب – جدال في حلم النبي وحنانه – وما ذنب النساء في الحروب؟ – دائرة معارف الادباء في العراق روفائيل بطي – مثال من نثره وشعره المنثور .

لولا الشعراء في العراق لسئمت السياسيين ، ولولا السياسيون لفررت هارباً من الشعراء . وبكلمة اوضح لولا الفريقان حولي لكنت من الهالكين . بيد اني مشيت مثل البلهوان على حبل الاحتفالات والتكريم ، احمل بيدي خيزرانة التوازن وفي احد طرفيها اكرة السياسة وفي الآخر قيثارة الشعر . تباركت الامة التي يتوازن فيها الشعر والسياسة .

ليس في امم الارض على ما اظن من يهتم بالسياسة اهتمام الامة العربية . وليس في الاقطار العربية كلها من يشغفون بالسياسة شغف العراقيين . في

مدينة بغداد مثلاً ثلاثمئة مقهاة وفي كل مقهاة عشرون سياسياً في الاقل يدخنون الارجيلة ليل نهار ويديرون شؤون العرش والانتداب . ولكل سياسي لو حدثته رأي في السياسة الدولية وسياسة العراق غير رأي زميله وجاره. الا انهم لحسن الحظ يدخنون وينسون. ان في الارجيلة لنعتصم الامة

معروف الرصافي

ولكن في هذه الامة اناساً ممتازين يدخنون ويكتبون، فيجمع اليراع احلاماً يولدها التنباك ويبددها ، ويحفظ القرطاس من النغمات والنقرات ما لا نعددها . هم الشعراء . واكثرهم بل كلهم في العراق اليوم سياسيون ينظمون، او نظامون يعالجون السياسة كرماً منهم، وفي مقدمتهم شاعر تجاوزت شهرته حدود الجزيرة ، فرحبت بها سوريا ومصر والاستانة ، واجلستها على ديوان الفخر والاعجاب .

وقد وصلت هذه الشهرة الى الفريكة في شخص صاحبها المحبوب معروف الرصافي يوم كان عربياً — بدوياً — في قلبه ولهجته ، وفي نظمه وقيافته . نام معروف الرصافي يومئذ في خيمة الناسك المشرفة على الوادي ، واكل من جفنته ، وشرب من ابريقه . ثم سافر الى الاستانة اولاً وثانياً ، وكان فيها من المرشدين الواعظين، وعاد منها يلبس الطربوش والثياب الافرنجية ، فافصح ذا التطور الظاهر عما خفي منه فيه اجل ، قد افسد الاتراك او بالحري مدنية الاستانة — وهي في هذا الباب اشد واسرع فعلاً من مدنية باريس— قد افسدت شيئاً من السذاجة الجميلة في شاعر عربي مجيد . احترقت حواشي تلك السذاجة فتغير لونها وطعمها ، وصار الشاعر سياسياً ، وصار العربي مسلماً . او بالحري صار الشاعر في سياسته وفي اسلامه تركياً من اتراك ذاك الزمان .

على ان الرصافي وهو ممن خصهم الله بشعلة النبوغ – والنبوغ طَموح ، والطُموح جهاد مستمر – لم يقف في التطور عند حد يريب ويعيب ، بل ظل يشتغل في الادب والشعر حتى امست السياسة التركية الاسلامية بعيدة عنه ، تكاد لبعدها لا ترى ، وحلت محلها سياسة عربية قومية ، مجردة من كل نزعة دينية ، وكل صبغة مذهبية . وكأني بمعروف قد عاد الى تلك الخيمة ، خيمة الناسك ، فذكر فيها الجفنة والابريق ، وعقيدة الاخ الصديق ، الذي كان مثله هدفاً لعوامل التطور الشديدة . فقد صار ناسك الفريكة رحالة ، فراح يجول في الارض غرباً وشرقاً ، حتى اجتمع بعد سنين بصديقه الشاعر في بغداد وهو يشغل وظيفة صغيرة في وزارة المعارف .

وكان معروف اول المرحبين، واول من قال شعراً فيه زمجرة وفيه انين. شكا الى صديقه القديم حالاً هو فيها فقال :

اقمت ببلدة مُلئت حقوداً	علي فكل ما فيها مريب
امرّ فتنظر الابصار شزراً	الي كأنما قد مرّ ذيب
وكم من اوجه تبدي ابتساماً	وفي طي ابتساماتها قطوب
سكنت الخان في بلدي كأني	اخو سفر تقاذفه الدروب
وعشت معيشة الغرباء فيه	لاني اليوم في وطني غريب
وما هذا وان آذى بدائي	ولا هو امره امر عجيب
ولكني ارى ابناء قومي	يدبّر امرهم من لا يصيب

وحمل على السياسيين في العراق ، الوطنيين منهم والانكليز ، وحمل كذلك على الاغنياء والاعيان ، وشكا الدهر والزمان ، كأن صديقه الرحالة يحمل في حقيبته دواء لكل ادواء الانسانية وترياقاً لسموم الحكومات الانتدابية والاستعمارية .

أأمين لا تغضب عليّ فانني لا ادعي شيئاً بغير دليله
من اين يرجى للعراق تقدم وسبيل ممتلكيه غير سبيله
لا خير في وطن يكون السيف عند جبانه والمال عند بخيله
والرأي عند طريده والعلم عند غريبه والحكم عند دخيله

ما كنت لاغضب على صديقي الشاعر لو لم اكن جئت العراق من قطر عربي ليس فيه جزء صغير مما في العراق من دلائل الرقي وطلائع الادب والعمران . الا ان غضبي عتاب اخوان ، ولعب صبيان ، اذا قوبل بغضب اصحاب المناصب العالية ، والسيادات الدينية البالية . وليس غضب هؤلاء وهم رجال بشيء اذا قيس بغضب سيدة سائدة ، لها الامر وهي اجنبية ، ولها نفوذ يمتد حتى الى ادارات الجرائد العراقية .

قد اغضب الرصافي المس بل فحالت دون نشر قصائده في الجرائد . وهذا قليل من كثير جاءه منها بالاساليب الدقيقة الخفية ، لانها وهي امرأة راقية وهي فوق ذلك سياسية ، لم تناصبه العداء بالطرق الاعتيادية . ولا اخطأت كما اخطأ سابقاً دار الانتداب في نفيه الوطنيين الاحرار . كأنها قالت في نفسها : هو شاعر ، والشعراء يلتذون بالسجن ويفتخرون بالمنفى . وكيف لا وفي الاثنين ما يكفيهم مؤونة العيش والعمل فيضمن لهم خبز يومهم والعزلة للنظم والتأليف . دعت المس بل معروفاً وشأنه ، ولم تلجأ في تونيبه الى غير الدقيق الخفي من اساليب النقمة عندها . وكان معروف يومئذ ناقماً على العراق كله كما تقدم وعلى كل ما فيه ومن فيه .

سأنصب للهواجس حر وجه يعود الى الشروق به الغروب
واضرب في البلاد بغير مكث اجوب من المهامه ما اجوب
الى ان أستظل بظل قوم حياة الحر عندهم تطيب

وكان امله ان المس بل ، وهي ولية الامر ، تسمع في الاقل هذه

الشكوى منه ، فارسل اليها كتاباً يقول فيه انه يحترمها لانها عالمة ولكنها في الامور الوطنية ليست اعلم منه ، وانه اذا احسنت العمل يخلد ذكرها في التاريخ والا فلا رادع لشعره عنها « واني ارجو ايتها السيدة ان يكون لغضبك نتيجة ظاهرة . »

سكنت الخان في بلادي كأني اخو سفر تقاذفه الدروب
وعشت معيشة الغرباء فيه لاني اليوم في وطني غريب

أفلا ترثي المس بل لحاله ، وقد سئم الاقامة في بلاد لا خير ولا ما يشبه الخير فيها ، فتسعى بابعاده او بسجنه او بنفيه ؟ انما الغريب في امر هذا الشاعر انه لم يفقه عقلية المرأة المهذبة ولا ادرك السر الاول من اسرار قلبها . فهو يطلب منها كالصبي ما يبغي حقيقةً ولا يخفي غرضه او يموه به . فلو قال لها : اني افضل زاوية مظلمة في سرداب من سراديب بغداد على قصر في الاستانة لكانت سعت ولا ريب بابعاده عاجلاً عن العراق ، بل بتسفيره الى الاستانة .

اما العلماء الناقمون على الرصافي او بالحري الناقم هو عليهم فانهم يجدون قصتهم في بيتين من شعره :

لقد مزقوا احكام كل ديانة وخاطوا لهم منها ثياب رياء
وما جعلوا الاديان الا ذريعة الى كل شغب بينهم وعداء

ولا همهم أ أُبعد الرصافي عن العراق ام لم يُبعد ، فهم يعلمون ان الشاعر المجيد الحر الذي تتناسخ وتتناقل اشعاره الناس قبل ان تطبع يستطيع ان يضربهم اينما كان . وقد تجيء الضربة شديدة بالنسبة الى بُعد مرماها . لذلك اقتصروا على تكفيره في بلده وشرعوا يشنعون به لدى العامة حتى صار يُنظر اليه اذا ما مر « كأنما قد مر ذيب » وهو والحق يقال ذئب الحرية في العراق يثب على كل من يحاول قتلها او تقييدها .

لمعروف الرصافي عقيدة في الدين والاخرة تكاد تكون مادية . ولكنه وهو الحكيم المدرك حدود علمه ، قلما يفصح عنها تفصيلاً وتأكيداً في ما يكتب وينظم . وعندي انها في هاته الحال السديمية اشد تأثيراً في ما يقصد بها من اصلاح العقائد والتقاليد . قال لي مرة : لا تصطلح البلاد العربية وترتقي الا بالفكر . وانا افهم وهو يفهم ما يريد بما قال . فلو نطق كعالم بموجب قياس العلم والمنطق لما كان يؤثر في الناس كفره المزعوم .

ولرب قائل يقول : مالك وانت تكتب عن شاعرٍ عبقري تقدم في شعره السياسة والدين ؟ الجواب : ان الباحث اليوم في احوال الشرق عموماً والعرب خصوصاً يرى ان للسياسة والدين الشأن الاول والاعلى في امورهم كلها . اجل ، ان في مصبغتَي السياسة والدين تصطبغ الاقوال والاعمال والامال ، فيقدر الشعر الصافي والنثر الادبي في ما ينظمون ويكتبون . وعندما اجد في ثمرات العقول الكبيرة الحرة ما يعارض النعرات المبتذلة الذميمة بنزعات جديدة في الفكر والاعتقاد اقدمها عملاً باهميتها على غيرها . كذلك سلكت في تشريح جزء من شخصية صديقي الرصافي الممتازة .

اما الشاعر فيه المجرد من نعرات الناس، ومن النزعات السياسية كلها — الشاعر الذي لا يعرف في الحياة غير الشعر والجمال والحقيقة العلوية فيها — فهو دائماً فوق الجماعات والاحزاب ، لا يعتبر في الانساب غير النسب الذي بينه وبين البلبل ، والعواصف ، والكواكب ، والازهار . ولا وطن له غير وطن الفكر والعلم والحرية . فهو اذا سألته : ما الشعر ؟ يجيبك قائلاً :

وما الشعر الا كل ما رنّح الفتى كما رنّحت اعطافَ شاربها الخمرُ

وحرّك فيه ساكن الوجد فاغتدى مهيجاً كما يستنُّ في المسرح المُهر

فمن نفثات الشعر سجع حمامة على ايكة يُشجي الحزين لها هدر

ومن شذرات الشعر حوم فراشة على الزهر في روض به ابتسم الزهر

ومن ضحكات الشعر دمعة عاشق — بها قد شكا للحب ما فعل الهجر
ومن جمرات الشعر رنة ثاكل — مفجعة اودى بواحدها الدهر
ومن نفحات الشعر ترجيع مُطرب — تعاود مجرى صوته الخفض والنبر
وان من الشعر ائتلاف كواكب — بجنح الدجى باتت يضاحكها البدر
وان ابتسام الغيد عن كل اشنب — ليطرب نفسي فوق ما اطرب الشعر

هوذا الشاعر الحقيقي . هوذا الرصافي ينطق بلغة زملائه واقاربه في البساتين وفي السماء .

جميل صدقي الزهاوي

وللرصافي زميل ونسيب من الناس يشاركه الاقامة في العراق كان ينبغي لي ، لو اعتبر السن والعلم في الشعر ، ان اقدمه عليه . ولكن الشاعر هو شاب ابدا والعلم في الشعر يكسبه حكمة ولا يزيده جمالاً . على ان لجميل صدقي الزهاوي منزلة في الشعر العربي اليوم لا يشاركه احد بها . فهو في علمه وفي ادبه ، وفي شعره اقرب نوابغ العرب الى المعري ابي العلاء . واذا صح مبدأ التناسخ والحلول يكون « رهن المحبسين » قد عاد الى هذه الدنيا بعد الف سنة فاتخذت روحه الزهاوي محبساً جديداً ، ومعقلاً من الفكر مجيداً . او َليس شبيهاً بصوت صاحب اللزوميات صوتُ من قال :

« نم بعيداً في خلوة الاجداث — من رغاء الخطوب والاحداث
انما الموت خير ما خلفته — لبنيها الاباء من ميراث »

وما كان المعري في هذا التجسد الجديد موفقاً في الصحة والعافية ، لان شللاً في رجل من حل فيه يمنعه عن المشي . جاء في اللامية الزهاوية :

« وقد احاول ان أسعى فتمنعني — رجل رمتها يد الايام بالشلل »

فاضطرته اذا خرج من البيت الى الركوب، وكان اختياره في المركوب اختيار الشاعر الفيلسوف . هوذا الشاعر الفيلسوف راكباً اتانه البيضاء كأنه من مدينة المأمون المدورة لا من بغداد الجديدة . ولكنه يلبس الطربوش لا العمامة ، فيبدو شعره من تحته خصلاً منثورة شاردة ، لكل منها يد من الهواء تداعبها فتبعدها عن اختها . وقد يتصل بعضها بشعر لحيته الشمطاء «البلشفية» التي لا تخضع حتى لمشط من السيادة او لمقراض . وهي تظهر في اشد المظاهر الفوضوية في الشوارب منها الثائرة على كل نظام وكل ظلام . وقد اختبأ تحت الشوارب جل ذاك الفم البليغ الذي هو ختم الفم اذا سكت ، وباب الصواعق والاضاحيك اذا تكلم . اما الانف فمنبسط الاطناب مستريح تحت عين دامعة تشكر النظارات على ما تجسمه وتوحده لها من الوان الحياة . ويشرف على هذه الايات في التكوين المنثور جبين رفيع نصيع منيع .

اما ثيابه فافرنجية ، ولكنها كذلك حرة ابية ، لا يهمها الشكل والزي ، وقلما تلفت الاناقة فيها النظر . بنطلونه كالكيس حول الساق ، قميصه مفكوكة الزر عند العنق ، ومستقلة في بياضها — غير الناصع — فلا يحتمل قسماً منه شيء مما تدعوه قطة او ربطة رقبة . شيخ زاهد بكل شيء الا بالعلم والحرية ، وليلى الاخيلية . اجل ان الزهاوي ليلاه ، تطرد من نفسه الظلمات ، ومن قلبه الشبهات ، ومن بيته الطالبات . هي عروس شعره ، عروس حياته ، عروس افكاره واحلامه . وهي كذلك رمز سياسته .

« كان يهوى ليلى ابن عم لليلى   فابتغاها من اهلها كخطيب
ولقد اخبروه من بعد حين   ان ليلى قد زُوجت بغريب »

وان هذا الشاعر في عشقه لكالأ باحي في بعض الاحايين يشرك بحب ليلى كل عاشق حزين . هي ليلى الاباحية التي يخاطبها فيقول :

« ليلى أطلي على العا   شقين ليلى أطلي

تري اعـزة قومهم مطـأطئين بذل
تري صدوراً من الشو – ق والصبابة تغـلي
عدي وان كان وعد ال – حبيب رهناً بمطـل »

ثم يتفلت الشاعر من يدي الوطني والفيلسوف، ويركب وعروسه الاتان البيضاء ، الى الصحراء ، او يختلي بطيفها في داره ، فيسمعه من الشعر الرقيق المنسجم ما يقارن اجمل نفثات « المجنون » .

« ابيت في الدار وحدي معاتباً لخيالك
قـد غرني انه كا ن باسماً كمثالك
لا تسألني عما اصابني بعد ذلك
مـا زلت اضمر حباً مناسباً لجمالك
ابيع كل حياتي بساعة من وصالك
اني بحبك يا ليـ لى لا محالة هالك
فهـل سأخطر يومـاً اذا هلكت ببالك؟ . . »

جاءني الشاعر الفيلسوف ذات يوم يحمل الي شكاية هي ظاهراً عن ليلى وعشاقها – ما هم والله اهلاً لها ، ينظمون الشعر للاخيلية ويقدمون الهدايا للاجنبية . والملك فيصل لا يكترث ، واذا اكترث فلا ينصف . أوَ لم اقل له في قصيدتي :

« لا يرأس الناس في عصر تعيش به الا الذي لقلوب الناس يمتلك »

والشاعر يا استاذ من الناس ، وله فوق ذلك حق عـلى الناس ، في من يملكون او يؤمرون . ترانا نحمل النار بايدينا الى امة تكاد من الدنق تموت ، فيوقفنا في الباب اناس لا يساوون قلامة ظفر منا . »

هي الحقيقة في كل قطر من الاقطار العربية . ولكنها في العراق مجسمة

في كبار شعرائه . اعجب بشعراء غاضبين شاكين ، وقد تنازلوا عن مكافحة الزمان الى مكافحة الانسان . الا انهم يختارون ولا شك الاقران ، او من يدنو من الاقران . حمل الرصافي على سيدة اجنبية من اجل ليلى وعشاقها . وجاء الزهاوي يشكو من مدَحه بالامس وكانت لا تزال قوافيه ترن في البلاد .

— سألوني يا استاذ ان اكون شاعر الملك وعينوا لي راتباً شهرياً . فقلت : لا امدح بالاجرة . واني اقبل الوظيفة بشرطين ، ان لا اقول الا عندما ارى المدح واجباً وان يكون الراتب لوظيفة غير المدح .

فغضب جلالته ، وكان لي على بعض الاصحاب السائدين حق المساعدة فاغتنموا فرصة غضب الملك وانقلبوا علي . والله يا استاذ ما قبلت ان اكون شاعر الملك الرسمي الا بالشروط التي ذكرت . . . . معاذ الله ان اصير في اخر هذا الزمان مداحاً بالاجرة .

هـذا نصف القصة سمعته غير مرة في بغداد كما رواه الزهاوي . وسمعت كذلك النصف الآخر . اما جلالة الملك فيصل فقد كان بين النصفين ، تتجاذبه اكثر من ارادتين . واني اروي القصة كلها لما فيها من نور يضيء بعض زوايا الملك الجديد . اننا نرى في البداءة جلالة الملك بين شاعرين هما صنوان ، هما شاعرا العراق الاولان . وللشاعرين اصحاب من ذوي السياده والنفوذ في المدينة وفي البلاط . وبين الشاعرين ، بل بين الشعراء عـلى الاطلاق ، منافسة دائمة تكاد تكون طبيعية . قد فات ذلك جلالة الملك فاغضب في انعامه الشاعرين معاً .

ولو كان ممن مارسوا الشعر وخبروا طبائع الشعراء لاختار لهذه الوظيفة احـد ابناء الطبقة الثالثة او الرابعة لانهم يحسنون المديح اكثر من سواهم ، ولكان كفى نفسه عداء شاعري العراق الكبيرين بل كان في استطاعة جلالته ان يعمل احسن من ذلك ، فيقول لمن حببوا اليه « الشاعر الرسمي » ،

اننا في بداءة امرنا ، ولا حاجة لنا بمدّاح مأجور . او انه يقول : شاعر البلاط من كالات الملك ونحن اليوم احوج الى الضروريات . أفلا تظنه مفلحاً لو اتخذ هذا المسلك ورفض ان يعين شاعراً رسمياً ، فيصير شعراء العراق كلهم شعراء البلاط — وبدون اجرة ؟

ظلمت والله يا استاذ . انا لا ابغي اجرة على المديح اذا مدحت واني لا امدح دون فكر او نصح . ألم اقل لفيصل :

« تلقي اعتمادك لاستتمام نهضتهم على الذين بنهج الحق قد سلكوا
على اناس لصدق القول قد لزموا على رجال لغل النفس قد تركوا
على الألى عركت الايام اظهرهم عركاً طويلاً وللايام قد عركوا »

اجل ، ، ومن يا ترى عركتهم الايام مثل الزهاوي ؟ ولكن الشاعر يخدم بلاده في ما لا يحسن الخدمة احد مثله . قد تقلد الزهاوي مناصب في الدولة كثيرة وكانت يوماً له ويوماً عليه ، وكان في ذلك واحداً من كثيرين وقد تعددت صفاته في فنون الادب ، فشغف بالعلوم الطبيعية ، وألف كتاب « الكائنات » وكتاب « الجاذبية وتعليلها » وكان فيها واحداً من مئات الغواة . ومن غرائب اجتهاده وتنوع علومه انه كتب رسالة في سباق الخيل وكتاباً في علم الداما . وفي هـذا الكتاب العجيب ذكر الف لعبة من مخترعاته ! فلو لم يكن الزهاوي شاعراً وطنياً لقلنا ان في تعليم الامة لعب الداما وظيفته الاولى . ولكنه شاعر كبير بالرغم عما في شعره من مبتذل القول مثل :

« العلم ثروة امـة ويسار والجهل حرمان لهـا وبوار »

. . .

« ان التوقف في زمان حازم فيـه تقدمت الشعوب لَعار »

. . .

« من راح يمشي في طريق مستو أمن العثار فمـا هناك عثار »

ومثل قوله في مطلع قصيدة « الجهل والعلم » :

« الا ان ليل الجهل اسود دامس وان نهار العلم ابيض شامس
وتشقى حياة ما لها من مدرّبٍ وتشقى بلاد ليس فيها مدارس »

هي حقائق لا ريب فيها . ولكنها من الحقائق المعروفة المبتذلة ، وقد اصبح الاعتقاد بها عند الغربيين من باب الاعتقاد بوجوب الرياضة مثلاً او الاكل . اما عند العرب فالامر غير ذلك . وانه ليغتفر لشاعر في امة تطرب للشعر طرب الغربيين للموسيقى اذا وضع لها حقائق كل يوم — حقائق ايام الشغل — في قوالب شعرية .

من مزايا الشاعر الحقيقي ان البؤس في الامة يحزنه حتى الالم ، فيصبح كأنه هو الامة البائسة الموجوعة ، فيسمع صيحته من قد خشنت او تخدرت من الآلام اعصابهم ، فيستفيقون طالبين الدواء والشفاء . هذه هي وظيفة الشاعر الكبرى في امة كان للعلم فيها ربوع زاهرة امست كالقفر اليباب .

ولكن في شعر الزهاوي غير هذه الحقائق — حقائق ايام العمل . ان فيه كثيراً من حقائق الآحاد ايضاً والاعياد . هو الشاعر الذي يبهجه اريج الازهار ، وبريق الانوار ، فيود لو كان بامكانه ان يداوي بها البؤس والظلام — البؤس الذي منشأه الخمول ، والظلال الذي هو الجهل .

اننا نقدس سراً في الاكوان . فحبذا ما نقدس دواء لما نقاسيه . حبذا الحياة ، حياة النمو الدائم والتجدد الدائم . ولكن الجهل عدو هــذه الحياة وعدو الله ، والمتاجرون بالجهل رؤساء الاديان ، ورؤساء الاديان في كل بلد لا يخفّ شرهم الا بمثل الزهاوي والرصافي وشعرهما . وها هنا في هذه الامة الجديدة سبب التغيظ الجديد ومصدره . اولئك الجامدون في مكانهم وفي علومهم يكفرون الناس فيدفعون ذوي النبوغ فيهم الى الكفر بالله . ان

وجودهم في المجتمع الانساني سادة لما يضعف الثقة بالعقائد الدينية كلها ، فيخرج الزهاوي اذ ذاك من المبتذلات ، ومن الوطنيات ، وينظم ديواناً كاملاً في « نزعات الشيطان » فيسمعك من الحقائق التي هي كالنصل الياني وكالمدفع الالماني . ويسمعك بعد الزمجرة ضحكة لا تنسى زمانك صداها وصدى التهكم فيها .

« توقفت لا ادري تجاه الحقائق ألني خلقت الله ام هو خالقي »

ان الزهاوي في « نزعات الشيطان » مثل ابي العلاء في « رسالة الغفران » وقد يفوق معري اليوم معريَ الامس جسارة وبريقاً . فتصل يد شيطانه حتى الى العرش الاقدس ، وحتى الى لحية صاحب العرش . على انه بعد التطاول والتجديف يستغفر الله ويعود الى عمل كل يوم فيرى الغرب في الشرق فاغراً فاه ، ضارباً بعصاه ، فيزجره بالمبتذلات ويهدده :

يا ايها الغرب ان الشرق مضطرب
يا ايها الغرب ان الشرق مغتصب
خفف من الوطء فالايام تنقلب
الشرق يشبه بركاناً به حمم
اخاف من انه يا غرب ينفجر
يا سرحة الماء انت اليوم وافرة
وانت ناعمة خضراء ناضرة
لا تأمني الدهر فالايام قاهرة
يا سرحة الماء ان جاء الخريف غدا
فانما هذه الاوراق تنتثر

ثم بين التجديف والتعنيف يسمعنا الشاعر من نغماته الناعمة الصافية ما هو من صميم الشعر الذي يستأثر بعناه الايماء ، فالسكوت ، فترى الدمعة فيها

تروي الابتسامة ، وترى الابتسامة تحضن الدموع كما يحضن ورق الورد الندى . من ذلك قوله مخاطباً سماء العراق :

« انظريني اذا العنادل غنت سحراً فوق منكب الشجراء
انظريني ليلاً اذا الشمس غابت بعيون النجوم في الظلماء
انظريني اذا الطبيعة أصغت في الدياجي الى خرير الماء
انظريني اذا الحوادث رامت هدأة في الصباح او في المساء
انظريني اذا الخريف ترا ای آسياً من اشجاره الجرداء
انظريني اذا غدا الروض خلواً من زهور او زهره من رواء
انظريني من الفروج خلال الـ سحب سراً بعينك الزرقاء
انظريني اذا نظرت بعيني وهي شكري اليك عند البكاء »

كاظم الدجيلي

ان في العراق من العلماء من لا يزال في المعقل الذي مات فيه « ملفان » الكنيسة المسيحية يوم قضي على ما كان للكنيسة من سيادة ادبية في العالم . وعهد « الملفان » ليس ببعيد . بيد ان وظيفته في مراقبة اداب الدنيا والدين لم تكن لتنحصر بالكنيسة الكاثوليكية ، بل تجاوزتها الى علماء اكسفورد[1] البروتستانيين الذين كفروا في النصف الاخير من القرن الماضي دروين واصحابه لقولهم بمبدأ النشو والارتقاء على ان زمن الـ « ملفان » في المسيحية قد ولى ، وكذلك الـ « دون » فودعهما التاريخ شاكراً مسروراً .

اما في الاسلام ففي بعض الاقطار كالعراق مثلاً لا يزال العالم يحمل سهام التحريم والتكفير ، يرمي بهما من خالفه رأياً او نشر ما يخالف عقيدته في

(١) اكسفورد اكبر جامعات انكلترا وهي المدينة التي تدعى بهذا الاسم . والملفان يدعى في اكسفرد « دون » Don

داب الدنيا والدين ولا يحق للشيعة وحدها ان تفاخر بمثل هؤلاء العلماء وان كثر عددهم عندها . فان عند السنة منهم من يسوّد الوجه حتى يخفى على « ملافين » كربلاء والنجف .

وهناك في تلك البقعة النائية عن دوائر العلم الغربية بعض رجال الدين المسيحيين الذين ينقون نقيق الضفادع كل مرة يُسمع في البلاد صوت حر كريم ، فيصدرون الفتاوي بالتحريم والتكفير اقتداء بفضيلة الشيخ الاعظم و« آية الله » الاكبر . وما الفرق يا ترى بين ثلاثة هم واحد تجاه الحقيقة ؟ انهم وان اختلفوا اسماً ومذهباً لأعداء الحرية . بل هم الاحلاف على انصارها . الا ان الكرملي والالوسي والقزويني لثلاثة رؤوس ، هي التقليد والتقييد والتعقيد ، على جسم واحد ، هو التعصب . وكلهم لادام فضلهم من فضلات السخافة والخرافة في العالم . بل من آيات السقم والعقم والادعاء والرياء ، ان كان في الكاظمية[1] او في الاعظمية[2] في النجف او في بغداد .

وكلهم يكفرون الزهاوي والرصافي والدجيلي ، ثالث المغضوب عليهم هناك . على انه في التساهل والصراحة والجرأة الادبية علم من الاعلام وقلما يُعد احد قبله . الشيخ كاظم الدجيلي فيلسوف ينفر من الخيال ، وشاعر يهوى صدق المقال ، وليس في ظاهره ما ينبيء بوجود الشاعر فيه او الفيلسوف ليس في طلعته او في صوته ما يستميلك اليه او يستوقفك وانت غريب . بل في وجهه المخروط الضامر ما يشير الى النزق والتسرع ، اللهم اذا قسنا التكوين الالهي بقياس الفن الانساني ، فنقول ونستغفر الله : قد ارتجفت يد المكون في تكوينه ، او ان الناظم اخل بالنظم فلم يكُ موزونا . هاك وجه الدجيلي .

---

(١) الكاظمية مدينة على الساحل الغربي من دجلة على مسافة اربعة اميال من الكرخ واهلها من الشيعة وفيها جامع جميل مدفون فيه الامامان موسى الكاظم ومحمد الجواد

(٢) الاعظمية هي قبالة الكاظمية على الساحل الشرقي من دجلة وفيها قبر الامام الاعظم ابي حنيفة .

عيناه بعيدتان الواحدة عن الاخرى ، فمه وانفه كبيران بالنسبة الى صفحة وجهه ، شعر رأسه وهو دائماً قصير يظهر انه ملتصق بجبينه . اما الرأس ففيه من الاذن الى القمة طول يخالف ايضاً قواعد التناسق ، وهو الدليل الظاهر الوحيد على ما في الرجل من قوى التفكير والحكمة . وليس في صوته اذا حدثك ما ينسيك ظاهر صاحبه ، او يستغوي الغرض فيك ، فهو دائماً عالٍ رفيع لا منخفضات فيه ولا منعطفات . تنفر منه لاول وهلة ولا غرو . الا انك بعد ان تألفه ترتاح الى الوتر الواحد فيه . وقد تكون المادة التي يحملها ويرمز اليها السبب في ذلك . انما هي لب الرجل وكنهه ، هي حقيقة وجوده .

ان الدجيلي عقل كله ، عقل صافٍ لا يمازجه شيء من الروح والقلب . فيه نور الشمس ونارها ، وليس فيه ظل او خيال . وهو في حريته مثل نور الشمس يحرق وينير ، ويحرق احياناً نفسه قبل ان يحرق سواه . ما اجتمعت في البلاد العربية برجل مثله في صراحته وجرأته واخلاصه . وانك في الشرق ، حيث اللطف ضارب اطنابه والتجمل حامل ابداً محرقة الطيب ، لتعجب بالدجيلي ضعفي اعجابك بمثله في اوروبا او في اميركا . وما تأثير الظواهر بعد ان ينكشف النقاب عن هذه العقلية الباهرة .

رجل ولد في مهد التقليد والتقييد والتعقيد وهو اليوم مطلق منها كلها . ينبذ المذاهب الدينية ، ويحمل عليها ، ولا يحتفظ بغير اللب من الدين . له في الحياة عقيدة مادية يجهر بها ويناضل عنها ، شغف بالقوة القاهرة وهي عنده الحق ، لا يرثي للضعيف ، ولا توقفه زخارف التلطيف واوهام الغيرة والاحسان . هو في شعره اقرب الى شعراء الجاهلية من حيث انه لا يرى الا ما يُرى من حقائق الوجود . ولكنه في ذلك عصري ، اي انه اتخذ هذه الطريقة لانها تساعد اكثر من سواها في تجريد الاداب من ترهاتها ، والاديان من خزعبلاتها ، والانسان من اوهامه كلها .

يذكرني الدجيلي بشاعر انكليزي من شعراء الشطر الاخير من القرن الماضي جرد شعره من حلي التقاليد الصناعية كلها – من زخارف الخيال، من اوهام الآمال، من مصقول المقال، فجاءت قوافيه كالبرق يشق الظلمات، وكلماته كالنصال وقد جردة من الاغماد . هو الشاعر الكبير شعراً لا شهرة ارنست هنلي[1] القائل :

ولو احيقت بي الظلمات والاعصار ،
وكان الليل من القطب الى القطب كالقار ،
فالى الامام ولا اندحار ،
اني ربان هذه النفس ، اني سيد الاقدار .

وكأن هنلي وقد كان معاصراً لنيتشي[2] الفيلسوف الالماني الشهير يردد شعراً احدى كلماته الملتهبة او شيئاً من فلسفته المكهربة . – الارادة الارادة. العزم العزم . الاعتماد على النفس . التدرع على الضعف فلا تمكنه منك . والقوة اولاً واخراً . خذ هذه الفلسفة نظماً من شاعر عربي عصري من « هنلي » الشيعة من « نيتشي » العراق . قال الدجيلي في مطلع قصيدة « الحياة الاجتماعية » :

حديثك عن غير القوى حرام	وسعيك في نصر الضعيف اثام
تحدث بمجد الاقوياء ففيهم	قعود باحكام الورى وقيام
يؤله مذ صار ابن آدم قوة	وما الكون الا قوة ونظام
اذا كنت بين العالمين اخا قوى	رعتك عيون الناس حين تنام
حمى الغاب بأس الليث من كل طارق	ولم ينج من فتك البزاة حمام
يقولون ان الحق من فوق قوة	وما الحق الا مدفع وحسام

(١) Ernest Heneley

(٢) Frederick Nietzche

لولا ما في هذه القصيدة مما لا يخلو شعر عربي منه ، اي العادي المبتذل من الفكر والتعبير، لجاءت في تجردها ، مثل شعر هنلي من اوهام الخيال وزخرف الآمال ، فريدة في بابها . وقد تطرق الشاعر فيها الى ذكر الاديان فقال :

حكاية اديان الانام عجيبة ... تجمع فيها فرقة ووئام
تريد الهدى والخير للناس كلهم ... وكم ثار منها فتنة وخصام
وغايتها القصوى عبادة واحد ... حقيقته ما ان ترى وتراه
عظيم لديه يصغر الحق كله ... وتستصغر الاجرام وهي عظام[1]

مهما كان من تزعزع عقيدة الشرقي فلا يحمله ذلك على الالحاد . بل يظل مؤمناً بالله في ما صفا وتعكر من امره وخمره . وعلى ذكر الخمر ان للدجيلي اسهماً في شركة الخيام وابي النواس كما له في شركة ابي العلاء المعري . فقد وصف الخمر ومدحها وذمها كذلك بعد الاختبار فكان في الثلاثة صادقاً .

الم يك ما نظمت بها صحيحاً ؟ ... فلي فيها تجارب واختبار

وقد جاء في قصيدة له عنوانها « برايس بغداد » وهي احدى « منظومات السجن » :

ادرها علينا بالكبير فاننا ... كبار ومن شأن الصغار صغيرها
متى يهدر الابريق عند انسكابها ... علينا يزدنا من هواها هديرها

وفي هذه القصائد من التجريد ، ومن القول الصريح الشديد ، ما يجيز المقابلة بينها وبين « منظومات المستشفى » للشاعر الانكليزي الذي ذكرت

الى ان وردنا السجن والسجن ضيق ... وقاعته محدودبات صخورها
يشم حديث العهد منها نتانة ... يزيد اذا اشتد الهجير ظهورها

---

(١) وان عظموا كيوان عظمت واحداً ... يكون له كيوان اول ساجد
ابو العلاء المعري

وفي الصبح ساقونا الى متحكم   باحكامه غر حكاه غريرها
وعاقبنا كلًا بعشرين جلدة   فجيء باسواط دقاق سيورها

في آداب الافرنج وفنونهم طرائق شتى تشمل اغراض الحياة وطبائع الناس كلها . منها ما يدعى « ريالزم Realism » وهي طريقة من يلتزم في ما يصف او يفصح عنه الحقيقة المجردة ، دون مبالغة ودون تنميق . وقد يجوز اهمال بعض اجزاء فيها حشمةً ولياقة، فلا يتقزز القارىء ولا ترتعد فرائصه. وهناك طريقة اخرى نشأت بعد الطريقة الاولى لتسد فراغاً مزعوماً فجاء اصحابها وفي مقدمتهم اميل زولا بكل ما هناك من هول الحقائق الواقعة ومرعبات الوجود ، وفي شعر الدجيلي شيء من الطريقتين .

يا لك من آمرة ناهية   احكامها نافذة ماضية
جامعة الاضداد شيطانة   الاهة رشيدة غاوية
قاسية رفيعة الحاشية   سافلة عالية راقية
خبيثة شريرة باغية   طيبة طاهرة زاكية
يدفعها النفع على حب من   ينفعها ولو الى الهاوية

ليست المرأة من يصف بل هي . . . النفس التي حيرت افكار ارباب النهى السامية . وقد قال فيها ما لا يخرج عن الحقيقة ، فكان في هجوه صادقاً ولكنه جائر . والجور من شيمة الـ « نيتشيين » وقد قال في عبادة الناس لله :

عبد الناس الهاً   ما رأوه ورآهم
طمعاً فيه وخوفاً   منه . هل يخفى هواهم؟

بل قال اكثر من ذلك ولم يستثنِ حتى نفسه او يتناساها :

ارى حياة الورى جهاداً   في معرك دائم النضال

يخدع فيه الفتى اخاه والخدع قد جاز في القتال
كل امرئ ناصب حبالاً حتى انا ناصب حبالي

ان ادب الشاعر الحقيقي وان افقره يقيه من حبائل مثل هذه الحياة، وان علم العالم واخلاقه لترفعانه عليها فيسلك مسلكاً ينفي به ما يسجله على نفسه . هذا لعمري فضل الادب والعلم حتى في من كانت عقيدتهم بالحياة مادية دهرية . والشيخ كاظم الدجيلي بعيد عن التعصب العلمي بعده عن التعصب الديني . سألني مرة رأيي في الارواح واستحضارها فقلت : لا اصدق ولا انفي . يهمني درس الموضوع ولا يلذ لي التشيع . فقال : وانا من رأيك . الحياة اضداد . وقد تتخذ الارواح لها جسماً من الكهرباء في الفضاء . وقد تكون الكهرباء البحر الذي تعيش فيه الارواح بعد الموت كما يعيش السمك في الماء . بل قد تكون هي مصدر الكهرباء، وكنهها فيمتزج بعضها بعد الانفصال عن المادة في الفيض العام، وبعضها تظل مدة على كونيتها الارضية فتزورنا اذا رغبنا بزيارتها وتبلبل افكارنا .

ان هذا مثال من عقلية الرجل العلمية . اما عقليته الوطنية فالحدة تغلب فيها، بل هي غالباً في حالة الاضطرام . اذكر يوم كنا في كربلاء انه تكلم في مجلس غص برجال الشيعة اخوانه وكانت الصراحة تسابق التسخط في حديثه فاشفقت عليه من نقمة المتعصبين . سمعته يمدح الامة الانكليزية لما فيها من علم وادب وقوة ونظام ثم صاح بهم قائلاً :

— واين العلم واين القوة واين النظام عندنا ؟ أفي حكوماتنا العربية والعصر الماضي الذي تسمونه مجيداً انما كان عصر السفاحين ؟ أفي مدارسنا وقد عشش الفساد حتى في الكتاتيب ؟ أفي بيوتنا وقد تراكمت في زواياها وفي صحونها اوساخ التقاليد وعفونة العادات القديمة ؟ أفي ديننا وقد حلت الخرافات والقداسات المزعومة محل اليقين والعمل المفيد ؟

هوذا الدجيلي يقرّع ابناء قومه ، ابناء مذهبه ، فلا عجب اذا افتى المجتهدون غير مرة بتكفيره

مجيد الشاوي

ها قد عرفتك ايها القارىء العزيز الى ثلاثة ممن يكفرونهم في العراق . وتذكر اني قلت انهم اربعة . اليك اذن بسجل الكفرة كله . ان الرابع في السجل الكريم عربي تجاوز العقد الخامس من العمر ولا يزال فتياً — فتياً برأيه ، فتياً بلهجته ، فتياً بروحه وبواجب راحه . قد شغل هذا العربي مناصب متعددة في الحكومة ، وما خرج من واحد منها آسفاً . هو من اولئك الموظفين القليل عددهم الذين يعطون المنصب اضعاف ما يأخذون منه . فيخلصون الخدمة ، يعدلون ويصلحون ، ولا يكون جزاؤهم غير جزاء من لا يعدل ولا يصلح ، بل اقل . يبذلون من قواهم ومواهبهم خيرها ، ويخرجون من دار الحكومة والفقر يشيعهم الى البيت . على ان النزاهة ترافقهم ايضاً وتلازمهم دائماً فتعزيهم بعض التعزية .

ان الرابع ممن اخص هذا الفصل بذكرهم هو عبدالمجيد بك الشاوي ، الشيخ عبدالمجيد ، الذي يشبه السياسي الافرنسي الكبير كليمنصو ليس فقط في وجهه بل في ذكائه المتأجج وسلوكه البسيط الشاذ . وقد تكون صورة الاسد في وجه الشيخ عبدالمجيد اظهر من صورة النمر . الا انه في صورته لا يهدر ولا يزمجر .

كنا في بهو الانتظار ننتظر الامر لنصعد الى بهو الاستقبال فنسلم على جلالة الملك فيصل ونقوم بالواجب الآخر الذي دعينا له . وكان في المدعوين الذأدبة من الانكليز العسكريين والمدنيين مَن جاءوا في اثوابهم الرسمية ونياشينهم تتلألأ على صدورهم ، ومَن جاءوا يلبسون الاسود القاتم وقد

صقلته المكواة وعززت اطرافه وحروفه . ولم يكن بين الوطنيين الذين ارتدوا كذلك الاسود المصقول ، والابيض الناصع المكوي ، طوعاً للامر الملكي المطبوع بماء الذهب على رقاع الدعوة ، غير واحد لم يكلف نفسه الطاعة وما تستوجبه مثل هذه الرسميات . جاء في ثوبه الافرنجي اليومي وقد اكسبه الزمان لمعة في حناياه، وهو يلبس قميصاً — استغفر الله اذا العين اخطأت او الذاكرة — لا تعرف النشاء حتى ولا المكواة . هو عبدالمجيد الشاوي ، شيخ المعرّيين في بغداد .

وكان اول اجتماعي به تلك الليلة فاتحة الحب والاعجاب . لم يزرني في الفندق ، ولم يسعَ الي في غير مكان مثل غيره من الاخوان . ولكنه قال عندما تصافحنا : نحن ابناء عم وليس بيننا واجب التجمل واللياقة . فلم افقه مراده ولم اتظاهر بغير ذلك . فقال : انت ابن المعري وانا ابن الخيام والاثنان اخوة . ليس في الانساب اشرف من هذا النسب . اهنئك واهنىء نفسي

واذا انتسبت وقلت اني واحد   من خلقه فكفى بذاك تنسبا

اراد المعري بقوله من خلق الله . ونحن فكراً ومبدءاً من خلقه اي من خلق المعري .

فقال احد الحضور : ولكن المعري كان متقشفاً الى حد النسك .

فاجاب الشيخ مجيد على الفور : لزوم ما لا يلزم . ونحن كذلك نتقشف الى حد الاضطرار .

فقال آخر : والمعري يذم بنت الحان .

فاجاب الشيخ الذي امسى نقطة الدائرة : والخيام يمدحها . وهي تستحق الاثنين . الذي ينقص المعري يكمله الخيام . هما خير الرسل ، رسولان صادقان كريمان سويان — فبأي الاء ربكما تكذبان .

وقد برهن الشيخ عبدالمجيد تلك الليلة على انه من اتباع الاثنين الصادقين . رأيته الى المائدة يحسو من المشعشة الذهبية الكأس تلو الكأس وسمعته يردد من اللزوميات وهو يميل الى جاره السيد افنان :

رويدك قد غررت وانت حر بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرم فيكم الصهباء صبحاً ويشربها على عمد مساء
يقول لكم غدوت بلا كساء وفي لذاتها رهن الكساء

ثم رفع الكأس ولم يبق فيها غير التزر فشرب ثم قال :

وقد شرب الدهر صفو الانام فلم يبق في الارض الا العكر

ليس الشيخ عبدالمجيد[1] من اصحاب القوافي الا ان تكون لغيره . وكأني به لا يضيع وقته في النظم وعنده اللزوميات يستعين بها على الزمان واضاليله . ولا هو ممن يسودون الاوراق ويبيضون مع انه غزير المادة ، صافي الذهن ، سريع الخاطر ، لا يكبو يراعه اذا راح عادياً في مضار الانشاء . ولكنه مثل سقراط يفضل الكلمة المقولة على الكلمة المكتوبة . هو عبدالمجيد كتاب لنفسه ، يقرأ منه في المجالس ، ويعيد كلماته ويمكنها حسبما تقتضي الحاجة . لا يداري ، ولا يحابي ، ولا يتهيب احداً . هو في صراحته مثل الدجيلي والرصافي ، ولكنه في سرعة خاطره ونكتته وميله الى الاحماض اشبه بالنقيب السيد عبدالرحمن .

كنا يوماً في مجلس ابن النقيب السيد محمود فدار الحديث على حروب النبي محمد وما كان يظهر فيها من حنان صاحب النبوءة وحلمه . فقال الشيخ مجيد : حنان الذئب على الشاة . واين الحنان واين الحلم ، رعاك الله ، في

---

(١) رحمه الله . جيء به مريضاً الى بيروت في صيف عام ١٩٢٧ فما افاده تغيير الهواء ، ولا نجع فيه العلاج والدواء .

تحليله الرق واباحة النساء لرجاله . كانت حروبه مثل حروب تلك الايام ، ولا تختلف عنها الا بالدعوة . . . وما ذنب النساء في الحروب ؟

فاجاب السيد محمود بان النبي صلى الله عليه وسلم اراد بالنساء خيراً حينما كان يجيز سبيهن واسترقاقهن . لانه اذا دخلت جنود الاسلام بلاداً فمن باب الشفقة على النساء يأخذ كل محارب قسمته منهن فيعولهن ويحميهن .

فقال الشيخ عبدالحميد : هذا من باب الاجتهاد . . ما اظن في النساء قديماً وحديثاً من ترضى ان تكون عبدة اسيرة خوفاً من ان تموت وهي حرة من الجوع . دفاعك مثل دفاع الذئب عن الشاة عندما وثب عليها ليحميها من الضبع . . . لا تزال متأخرين ، متأخرين جداً يا سيد محمود ، اذا كنا نرى شيئاً من الحق في مثل هـذا الدفاع عن مساوى. اجدادنا وفظائعهم . . . الغريب في امرنا نحن المسلمين اننا لا نتقدم الا اذا رجعنا الف سنة الى الوراء ، لا نرتقي حقاً الا اذا رجعنا الى ابي العلاء المعري . فننبذ الاضاليل كلها وننبذ المتنطعين من علمائنا الذين يبثون هذه الاضاليل ويثبتونها في الناس .

نكذب العقل في تصديق كاذبهم   والعقل اولى باكرام وتصديق

وقد قال ايضاً المعري ونعم القول :

ولا تطيعن قوماً ما ديانتهم   الا احتيال على اخذ الاتاوات

ان الشرائع القت بيننا احناً   واودعتنا افانين العداوات

والاديان والمذاهب بلية الشرق الكبرى :

تآلف في الناس شرقاً ومغرباً   تكامل فيهم باختلاف المذاهب

نعم ، وفي قلوبنا منها السم ، وفي عقولنا العفونة . يضحكني ويبكيني صياح شعرائنا وخطبائنا . يهددون الغرب بنهضة الشرق . ولعمري يجب ان ينهض الشرق على نفسه ، قبل ان ينهض عـلى الغرب ومدنيته . ولا نتقدم

نحن المسلمين الا اذا عدنا الف سنة الى الوراء – الى المعري ابي العلاء[1] . .

ابن خلكان العراق

وفي العراق من الادباء كثيرون من هم شغفون بالحرية وبروح الادب الجديد . ولكن هذا الفصل يضيق دون ذكرهم ، وهذا الكتاب ، « ملوك العرب » لا يسمح بفصل آخر اخصه بهم . الا اني افسح لكبيرهم عملاً لا سناً فنقف – ولا كرسي اخر للجلوس – بين من ذكرت

هوذا دائرة معارف ادباء العراق وابن خلكانهم ، صديقهم الاكبر ، ناشر آثارهم ، حامل لوائهم ، روفائيل بطي . وهو منهم في الصف الاول . فقد حمله حب الاداب العصرية على تأليف كتاب « الادب العصري في العراق العربي » الذي نشر منه الجزء الاول وسيليه ثلاثة اجزاء . هو عمل ادبي كبير وهو جدير بالبطي المعروف بنشاطه واخلاصه ، وبذوقه وغزارة علمه . لذلك سميته دائرة معارف ادباء العراق وابن خلكانهم .

ولروفائيل اسلوب في الانشاء سهل منسجم جلي ، لا تكلف فيه ولا اغراب . وله في معالجة المواضيع مزية مستحبة ، هي انه يقف عند حد بين الاسهاب والاقتضاب فلايطولها على نفسه فيمل ، ولايقصرها على القارىء فيضل

هاك مثالاً من الكتاب الذي اشرت اليه :

قال في الزهاوي :

« نشأ الزهاوي في بيئة تصوحت ازاهير الادب فيهـا بعد الازدهار ،

---

(١) ما اصدقها كلمة ، وما ابلغها ، وما احدرها بالنقل والترداد . خذوها عن الشيخ مجيد واسترحموا له الله . انها من الحكم التي تضمن الخلود لاصحابها : فكم من شاعر وكم من اديب تغلب على النسيان والفناء بكلمة بليغة ذهبت مثلاً او بيت من الشعر تغنت به الركبان .

ودرست معالم العلم بعد ان ناطحت بعلوها الفضاء، فراعه الجمود الهائل المستولي على الفهوم والاقلام، واستنكر الطريقة البالية التي يتبعها النظامون مقلدين غير مبتكرين ... فلم تأنس روحه الناهضة هذه الخطة، وعز على عقله المتوقد ذكاء ان يبقى مصفداً باغلال التقليد . »[١]

وقال في الرصافي :

هو اول شاعر جاء قومه العرب بما يحبون وصارحهم بما لا يحبون . لم يعرف للتقليد او الخضوع للبيئة معنى لا في صناعته ولا في افكاره . كان من شعره صيحات عملت على تقويض معالم الاستبداد الحميدي، كما انه ما لبث بعد تحية الدستور العثماني واستبشاره به ان رجع ينعي على القوم تخاذلهم لما شام فيهم من الرجعة . »[٢]

وقال في الدجيلي :

« لو كان للعلم والادب قيمة في هذه الديار لكان للشيخ كاظم الدجيلي مجال واسع لاظهار مواهبه وجلده على البحث . ولو كان لحرية الفكر حرمة في هذا القطر لرنت حقائق الدجيلي في شعره رنة تحدثت بها المجالس . »[٣]

ان روفائيل ايضاً من الشعراء العاملين في السبيل الذي فيه التحريم والتكفير . وسيكفرونه ولا شك تكفيراً مضاعفاً لانه يسيء الى اصحاب العقائد والاداب العتيقة اساءتين في الفكر وفي الطريقة . اجل، هو من انصار الشعر المنثور . وقد قال في قصيدة له عنوانها « النابغة » :

وجدتني في مجاهل ارض كل ما فيها يثير الدهش والذهول .

---

(١) الادب العصري في العراق العربي – الجزء الاول – صفحة ٥ .

(٢) الادب العصري في العراق العربي – الجزء الاول – صفحة ٦٧ .

(٣) صفحة ١٨٧ .

ورأيت نفسي مكبلاً بسلاسل التقليد ، سجيناً في قفص
الاوهام ، اسير عادات ، ورهين اوصاب .
حطمت السلاسل ، وكسرت القيود ، وقوضت جدران الوهم ،
وانعتقت مما درج عليه اجدادي
فصاح اخواني وضجوا ، واعولوا وبكوا .
رأوني خارجاً عن سجنهم ، اتمتع بحرية هم منها محرومون .
شاهدوني ارفل بصحة وسلامة ، وهم في الامهم يتعذبون
اولئك الذين يتخذون من جهل الشعب عليهم ، ومن ضعفه
قوتهم . —

وقاك الله شرهم يا روفائيل .

الفصل السادس عشر

حجر الزاوية

الشعراء والسياسيون – المدارس العالية – المدارس العامة – بودقة الوطنية – في دار المعلمين – المدارس في العراق – الطريقة التركية في التعليم – الانكليز يقاومون الفكرة اللاطائفية – مساعدات الحكومة للمدارس الخاصة – الحاجة الى معلمين – هل السوريون والمصريون اجانب ؟ – ساطع الحصري – حديث عن المعلمين السوريين – معمل الشوكولاته ودار المعلمين – استعينوا بالسوريين والمصريين .

الاعلانات في الاسواق – « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » – « لا حياة بغير العلم » – « العلم اساس العمران » – المعهد العلمي مصدر الاعلانات – عميد المعهد ثابت عبدالنور يصطدم بعمد الحياة – لماذا خلق الله الانكليز ؟ – لماذا خلق الله الخواتين ؟ – اخوان ثابت في المعهد – حفلة سوق عكاظ – قف عند العمود واتل الآية – ثابت يهتدي – ثمرة الاعلانات – تعليم الاميين – بعد عودتي من نجد – لماذا خلق الله ثابت عبدالنور ؟ – ليعلم الاميين الالف باء – المدارس الليلية المجانية – دورة التفتيش – ثابت يمشي في الليل ولا يصطدم بعمود واحد – المبادىء الاجتماعية الخمسة – حجر الزاوية – الملك فيصل يساعد المشروع – هرون الرشيد يزور متنكراً المدارس الليلية .

ليس بالشعراء والادباء يُستدل على ترقي الامة، ولا بالسياسيين والصحافيين تُسير العقلية المدنية فيها . فقد تمتاز امة بتعدد شعرائها وادبائها ولا تمتاز بوطنيتها وقد يدير المحنكون من السياسيين شؤونها ولا يعززونها، وقد يقود الصحافيون الرأي العام وليس فيه روح مدنية ترفع الامة المفككة الاوصال الى وطن صحيح سالم موحد المقاصد ، موثق العرى .

وقد تكثر المدارس العالية في امة وتكون عليها ، كما هي في سوريا ، بلية من بلايا التفريق والشقاق . حتى ان المدارس العالية، ولو كانت وطنية اسماً وعملاً، تنحصر فوائدها في عدد مخصوص من شبان الامة. وقد لا تفيدهم الافادة التي تؤهلهم للسعي والفوز في مضمار الحياة. بل هي تخرج شباناً ادباء

يكونون غالباً نُكلاً ، فتتألف منهم طبقة الافندية الذين قلما يصلحون لعمل وطني مفيد .

لم يبق اذن غير المدارس العامة نعتمد عليها في تحسين عقلية البلاد المدنية، وتوليد روح وطنية جامعة راقية عاملة . اجل، ان المدارس العامة لدليل الرقي الحقيقي في الامة ، لانها تعمم التعليم وتوحد المحجة فيه . هي البودقة التي تتكون فيها الروح الوطنية الجديدة . بل هي هي سياج الوطن وفيها عز الملك وشرف الامة .

ولكنها لا تكون كذلك ، لا تفلح في التكوين ، الا اذا كانت البودقة واحدة لا تتغير في تغير المكان والمذهب واللغة . ان امة تعددت شعوبها ، ومذاهبها الدينية ، ولغاتها ، لا يتكون منها وطن عزيز الجانب ، رفيع الشأن ، مهما كان سلطانها ، مهما كان جيشها ، مهما كانت ثروتها ، الا اذا اسست الحكومة فيها مدارس عامة ، مجانية ، لا مذهبية ، تتمشى كلها على برنامج واحد ، ويكون التعليم فيها بلغة واحدة هي لغة البلاد الاصلية.

ماذا في العراق من هذه المدارس اليوم ؟ استبشرت باول حفلة دعيت للخطابة فيها وكانت في دار المعلمين . فاجتمعت هناك بوزير المعارف يومئذ السيد هبة الدين الشهرستاني ومستشاره الانكليزي ومديره الاستاذ ساطع بك الحصري ، وبزهاء مئتين من المدرسين في المدارس الابتدائية وفيهم نفر من السوريين والمصريين . كانت الحفلة عامرة بالخطباء والشعراء . وكان الحديث بعد الحفلة في موضوع المدارس والتدريس ، فنم عن اشياء نثبتها بعدئذٍ من مصادر شتى ، وهي مما يستوجب الاسف .

قد اشرت مراراً في ما تقدم الى الاغلاط التي ارتكبها الانكليز في العراق وهم انفسهم يعترفون بها او ببعضها . فمنها ما كانوا فيها مسيرين ، ومنها ما كانوا فيها متعمدين ، وهم لا يعتبرون هذه من الاغلاط . مثال ذلك

التعليم الابتدائي . قيل لي ان النية حسنة فيه ولكن الاعمال دون النيات - وقال آخرون لا النيات حسنة ولا الاعمال .

عندما دخل الانكليز العراق كانت الطريقة في التعليم تركية ، اي ان الدولة اجازت انشاء المدارس الاجنبية الطائفية ، وكانت تخصها بشيء من المساعدة المالية . وفي هذه المدارس كان يتعلم التلاميذ دينهم ولغتهم اولاً ، ثم مما لا يضر بالروح الطائفية والجنسية من العلوم . لا يخفى ما في هذه الطريقة من عوامل التفريق واسباب الشقاق . واذا خفي على الشرقيين فلا يخفى على الانكليز الذين تمشوا مع ذلك في التعليم العام على طريقة الاتراك . وهذا مما يؤسف له جداً . كأنهم ارادوا ان يثبتوا الامة في طائفياتها وتقسيمها ومع ان في العراق من ينصرون الطريقة الحديثة المجردة من المذهبية ، ويطالبون ببرنامج واحد في التعليم وبلغة واحدة ، والاستاذ الحصري في مقدمة هؤلاء المصلحين ، فحكومة الانتداب لا تقبل بذلك . وما عذرها غير عذر الخائف من تسليح خصمه فيخرج عليه متحد القوى .

اما قول الانكليز ان اهل العراق غير مستعدين اليوم لبرنامج يوحد التعليم العام ، وان الحكومة لا تستطيع ان توحد اللغة في الاقل فتجعل العربية لغة التدريس في الموصل وفي كركوك مثلها في بغداد والبصرة ، فهو قول يحتاج الى برهان . لم تقدم الحكومة على ذا العمل ولا الانكليز اذنوا به . قد كان في امكانهم ان يقوموا في البداءة بنصف الاصلاح فقط ، فتمنع الحكومة عن المدارس الخاصة — الطائفية —[1] المساعدة المالية وتقدم هذا المال ، الذي لا يزال يبذل في سبيل التفريق ، لوزارة المعارف ، وهي احوج اليه ، لسد نفقات مدارس الحكومة الابتدائية .

---

(١) في العراق من هذه المدارس الخاصة اكثر من ثلاثين مدرسة منها لليهود ومنها للطوائف المسيحية اجنبية ووطنية ، ومنها اسلامية . والحكومة تخصها بمساعدات مالية

ان هذه المدارس تزداد عدداً كل سنة فتضاعف لدى وزارة المعارف الصعوبات في ادارتها. والحقيقة هي ان اقبال الامة العراقية على العلم هو اكثر من اهتمام الحكومة في تخصيص النفقات وتسهيل الاسباب. وقد يكون بعض التبعة عليها اي على الامة. ان عدد التلاميذ تضاعف في السنتين الاخيرتين، صعد من ثمانية الاف الى سبعة عشر الفاً. وان عدد المدرسين لم يزدد اكثر من ثلاثين بالمئة، ولم يتخرج من دار المعلمين في السنة الاخيرة غير خمسة وعشرين مدرساً. فما السبب في ذلك. هناك اسباب اولها الميزانية واخرها الوطنية العراقية. واليك البيان والبرهان.

ليس في العراق ما يكفي من المعلمين العراقيين لسد الحاجة في ازدياد عدد الصفوف والمدارس. ولم تكن في ذلك النفر منهم تلك الجدارة التي يتطلبها التعليم الحديث. حتى وان كانت الجدارة فدار المعلمين لا تكفي لتخرج العدد اللازم كل سنة. ان خير ما يعملون اذن في حل هذا المشكل هو ان يستعينوا بمعلمين من سوريا او من مصر. ولكن الوطنية العراقية تحول دون ذلك.

هب انها وطنية صحيحة، افيستغني العراق اليوم عن المساعدة الاجنبية؟ هذا اذا عددنا سوريا من اوروبا. ولكن القطرين شقيقان لغة، وجنساً، وروحاً، ومذهباً. فحبذا وطنية في التعليم اعلى من الوطنية في السياسة. حبذا وطنية مثل التي في مديرية المعارف. ان الاستاذ ابا خلدون ساطع الحصري لمن الاخصائيين في علم التدريس الذي مارسه مدة في اماكن مختلفة وحكومات عديدة. وما هو بسوري ولا بعراقي. هو عربي لا غبار على عربيته غير لهجتها. ذلك لانه، وان كان ولد في صنعاء اليمن، فقد اقام مدة في الاستانة يخدم الامة التركية. ثم تجرد لخدمة العرب عندما دخلوا الشام فكان وزير المعارف في الحكومة الفيصلية. ثم سافر مع من سافر الى بغداد من رجال النهضة وهو لا يزال في وزارة المعارف يدير اهم شؤونها.

والاستاذ ابو خلدون من اولئك القلائل الذين حرروا انفسهم وبيوتهم من قيود التقاليد الاجتماعية . اظن مجلسه هو الوحيد في بغداد الذي تستقبل فيه ربة البيت الزائرين سافرة وتشاركهم في الاحاديث .

اول مرة زرت الاستاذ وحرمه الفاضلة المهذبة اجتمعت في بيتهما بعدد من المعلمين السوريين الذين يعلمون في المدارس الابتدائية واكثرهم من خريجي الجامعة الاميركية ببيروت . وكانت وزارة المعارف يومئذٍ هدفاً لانتقاد فريق من الناس شق عليهم ان يروا بعض التفضيل في معاملة المعلمين السوريين ، فقاموا يحتجون على وجود معلمين من الاجانب في سلك المدرسين ظننت لشدة الاحتجاج ان اكثرهم من الاجانب فسألت الاستاذ الحصري فقال : عدد المدرسين اليوم سبعمئة وعدد غير العراقيين منهم خمسة وعشرون .

ثم قالت حرمه باللغة الانكليزية : لو كان في العراق دار معلمين ثانية ! ولكن من اين المال ؟ الانكليز لا يساعدون ، والعراقيون لا يستطيعون . وهم يظنون ان دار المعلمين تعطيهم المعلمين بالمئات . ليست دار المعلمين مثل معمل الشوكولاته يعمل مئة صندوق كل يوم ... ومن هم الاجانب بين المدرسين ؟ نشكر الله ليسوا باتراك . تأمل يا مستر ريحاني (كانت تكلمني بالانكليزية لانني لا احسن التركية) انهم ينظرون الى المصري والى السوري نظرهم الى الاجانب . وليس في السلك كله اكثر من ثلاثة بالمئة وما هم كلهم سوريين ومصريين . عندنا عشرة معلمين سوريين فقط وستة مصريون وتسعة انكليز . خمسة وعشرون معلماً اجنبياً ، اذا دعوناهم كذلك ، بين سبعمئة معلم من العراق .

اثنان ونصف في المئة كان يجب ان تكون عشرين . ان في نفورنا من الاجانب الاوروبيين شيئاً من التعصب في بعض الاحايين ، فكيف به اذا كان يشمل من ليس من قطرنا من البلاد العربية . الاجانب السوريون ،

الاجانب المصريون ، الاجانب الاوروبيون – ان هـذه العصبية لشبيهة بالمذهبية . والويل لنا اذا كانت تحل محل الوطنية العربية والقومية الجنسية العامة . ما السوري ، خصوصاً في دوائر التعليم التي هي غير دوائر السياسة ، الا عربياً يساعد في تهذيب ناشئة عربية اينما كانت ، في العراق او في الكويت او في الحجاز . اني اذا لمت الانكليز لاتخاذهم في التعليم طريقة الاتراك الوم العراقيين اشد اللوم في تضييقهم نطاق الوطنية الى حد العصبية المذهبية او بالحري القُطرية فعدوا السوريين والمصريين من الاجانب .

ليست دار المعلمين بمعمل شوكولاته كما قالت حضرة حرم الاستاذ ابي خلدون، وليس المدرس من يحسن العلوم التي يدرسها فقط، كما اوضح الاستاذ في كتابه[1] . اما وزارة المعارف في مثل هذه الحال ، اي بين عجزين في المال والرجال ، فهي تضطر احياناً ان تعين من ليس فيهم الجدارة ليسدوا بعض النقص في المدرسين . وكثيراً ما يؤدي ازدياد عدد التلامذة بالنسبة الى عدد المعلمين الى الجمع بين صفين اثناء التدريس ، فيخسر في هـذا الجمع تلاميذ الصفين . أفلا يجدر بالحكومة العراقية اذن ان تستعين بجارتها ، بسوريا او بمصر ، لتتلافى النقص والخلل ؟ –

. . .

من يسكن في المدن الحديثة يألف نظرة الاعلانات في الاسواق فيراها ولا يقرأها ، كأنها جزء من الحائط او نقش على العمود الملتصقة به . وتمسي عمد الاسلاك البرقية وعمد المصابيح مثل الاشجار لدى الفلاح يصطدم بها فيظنها حجراً في طريقه فيسب بقرته او حماره ولا يسب الشجرة . كذلك كنت في بغداد وهي في عمد مصابيحها ، وفي جدران سوقها الاوحد ، اشبه

(١) « دروس في اصول التدريس »

بمدينة اميركية يجيبك الاعلان فيها كيفما سرت ، وكيفما نظرت . ولكني ما سببت بقرتي ولا حماري ، بل كنت امشي في ذاك السوق « الجديد » كأني في الدهنا ، انظر الى الارض تارة وطوراً الى السماء . فتقاضتني الاقدار يوماً ثمن هذه المكابرة . نعم ، نطحت عموداً من حديد ، فاضطررت ان اقف هنيهة ليعود اليَّ صفاء نظري ، فقرأت كرهاً الاعلان الملصق به :

— طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة —

فقلت : والحمد لله . هوذا في الشرق شيء جديد — اعلان للعلم ! بل اخذتني نازية صديقي الزهاوي فصحت مبتهجاً : ايها الغرب ! تعالَ انظر ما في الشرق من جديد مفيد . ايها الغرب ! هوذا اعلان يستحيل وجوده في بلادك ، ليس لانه غير لازم بل لانه لا يُستثمر مباشرة وليس من يقوم بنفقاته .

قرأت الاعلان ثم قرأته معجباً به مبتهجاً . وصرت بعد ذلك امشي وناظري لسبيين على العمود . تباركت اليد الطابعة ، واليد الناشرة ، واليد الدافعة المال . وهذا اعلان آخر : اطلبوا العلم من المهد الى القبر . وهناك آية اخرى من آيات النور : لا حياة بغير العلم . وهوذا اعلان للامة جمعاء : العلم اساس العمران . واليك على الحائط قاعدة النجاح والسعادة : تهذب وابتغ ما شئت . والاعجب من ذلك كله هو عند باب الـ « سينما » على اللوحة التي تعلن الرواية الاخيرة . هناك تقرأ الانذار الاخير : بالعلم تحيا وبالجهل تموت !

استطلعت خبر هذه الاعلانات فعلمت ان الحكومة بريئة منها ، وان المحسنين الاغنياء او الاغنياء غير المحسنين لم يسمعوا بها . ان في بغداد جمعية ادبية اصلاحية اسمها « المعهد العلمي » ، وهذا المعهد العلمي هو مخترع اعلانات العلم ، وهو طابعها وناشرها على نفقته مجاناً لوجه الله . ايها الغرب — العفو يا صديقي الزهاوي — هوذا الشرق ناهضاً ، وقد نبذ النظريات والخيالات

والاوهام. هوذا الشرق ايها الغرب يحتذيك ويفوقك في الغيرة المدنية هوذا اسلوب في الاصلاح عملي — هوذا مثال واحد من مظاهر النهضة الحقيقية في العراق .

سألت عن المعهد العلمي وسددت خطواتي اليه ، فاجتمعت هناك بعميده الاول ، وهو فيه القوة الدافعة المحركة المدبّرة ثابت عبدالنور . حدثت ثابتاً فابهجني وازعجني معاً . الفيته شاباً في العقد الثالث ، له من الحسن ما كان ليوسف وعنده من التسخط ما كان لايوب. وهو مع ذلك سليم الجسم والعقل ، براق العين والجبين ، صافي الذهن والصوت ، وطنه فوق مذهبه ومذهب اجداده ، وشرفه اكبر من دينه . شاب رائع تبسم له الحياة بكل ما فيها من بوادر الامل وبوارق السعد والمجد ، وهو مع ذلك مثل ايوب ، بل مثل « دون كيشوت » ، حاملاً رمحه على الدنيا ، كئيباً على الدوام .

حدثت ثابتا فازعجني . سمعته يشكو ويتسخط ويئن ، كأنه اصطدم بعمود في جادة الحياة ولا يزال الشرر يتطاير من عينيه . — لماذا خلق الله الانكليز ؟ لماذا خلق الحواتين ؟ لماذا خلق السادة الاشراف ؟ لماذا خلق الله المنافقين والخونة ؟ وجاءني منه بعد ايام كتاب يدعوني لتناول الشاي في بيته — « فتجتمع بصفوة الناهضين او بانموذج منهم في الاقل ، بشبان وطنيين اثبتت التجارب صدق عزيتهم واخلاصهم ، ومقتهم المنافقين وغيرهم من ذوي الالقاب الضخمة والابهة الفارغة الذين ما برحوا يسوقون الامة من سيء الى اسوإ . . . . الخ » فتى ثابت كما ترى « صفوة الناهضين » الذين دعاني لاجتمع بهم في بيته .

هم اخوانه في المعهد وفي الجهاد ، يسلكون في الاصلاح ، اوسع السُبل واطولها ، سبيل العلم : تعلم يا فتى فالجهل عار . وهو عميدهم المسؤول عن الاعلانات في شوارع بغداد . ان في هذا المعهد عقولاً عاملة مخترعة فلا مسوّغ

فيه للنفوس المكتئبة . وقد كانت باكورة اعماله واختراعاته انه اعاد الى بغداد الجديدة القديمة احدى المفاخر العربية التي خلدها سوق عكاظ . اقام جماعة المعهد العلمي سوق عكاظ في عاصمة العباسيين ، وكانت اول حفلة باهرة فريدة بعد التتويج ، حضرها جلالة الملك فيصل فجلس في فسطاط بين النخيل يسمع الشعراء ينشدون والخطباء يخطبون . وكان قس بن ساعدة في مقدمة الخطباء يمثله احد الصبيان الاذكياء ، وكانت الخنساء في طليعة الشعراء تتلو قصيدتها احدى الاوانس المعلمات سافرة صافنة .

فاز ثابت وزملاؤه في اقامة هذه السوق التي ستقام بعناية المعهد كل سنة ، وحاز فوق ذلك الجائزة الاولى في النثر . وهو مع ذلك يمشي في جادة الحياة الضيقة فيصطدم بالعمد فيها . احببت ثابتاً ورافقته مراراً . وكنت كل مرة نصل الى عمود في السوق الجديد اقف امامه واتلو الاية فيضحك . العلم اساس العمران . ليس في ذلك ما يضحك يا ثابت . ان امركم كله جد ، وان من يخترع مثل هذه الاعلانات ويسعى في نشرها لمن اكبر الوطنيين ويحق له ان يفتخر ويفرك يديه . بل يجب عليه ان يشكر الله الذي هداه سواء السبيل . سر عنك ودع المنافقين ينافقون . ان لله في خلقه مقاصد لا يدركها الناس . والانكليز واصحاب الالقاب الضخمة من خلق الله .

نعم ، وعظت ثابتاً ، بيد ان الوعظ ليس من شأني ، ولم اتأسف لذلك بل سررت بالنتيجة . وكيف لا تظهر النتيجة الحسنة وصديقي من الاذكياء النجباء الحكماء . صار يمشي في الجادة الضيقة والواسعة دون ان يصطدم بالعمد فيها . ثم جاءني ذات يوم يخبرني انه متابع للعمل الذي باشره بالاعلانات : قد فتحنا في المعهد مدرسة ليلية لتعليم الاميين مجاناً ثم بشرني بعد اسبوع بفتح مدرسة اخرى خارج المعهد .

....

سافرت الى نجد وعدت بعد اربعة اشهر الى بغداد فاجتمعت بثابت عبدالنور ودهشت لتغير ظاهر فيه – في حديثه ، وفي وجهه ، وفي خطواته. حدثته فا ذكر المنافقين . مشينا في الشارع فكانت خطواته اكثر تسدداً من خطواتي ، فلم يصطدم ببشر او بحيوان او بشيء من الاشياء الاخرى الجامدة . سألته عن مشروعه فقال : نجاحاً باهراً يا استاذ . صار عندنا اربع مدارس في المدينة وهي لا تكفي . تعال الليلة معي تر بعينك .

مشيت وثابت في الغسق ، في جادات بغداد الضيقة ، وهو ينيرها بانوار اماله العالية واعماله الناجحة . وسرنا الى مدرسة من مدارس المعهد فدهشت اذ دخلت مما شاهدت ومما سمعت . في الغرفة الاولى التي دخلناها صف الاولاد وسنهم يتراوح بين الخمس والخمس عشرة ، وكلهم يشتغلون في النهار فيحرمون التعليم في مدارس الحكومة . هم من الطبقة الثالثة في الامة ، من الشعب ، من العمال ، وفيهم بياع الخبز ، وبياع الليمون وفيهم من يساعد اباه الحدّاد ، او عمه السنكري . وفيهم من يخدم ليتعلم صنعة من الصناعات . وفيهم الحوذي والبويجي والكناس عند الحلاق .

وقفت عند صغير الصف فوقف ويده على رأسه يجيب على سؤالي . اخبرني بجرية مدهشة انه يشتغل في احد الافران في النهار ، وانه لا يحب الشغل ولا يحب المدرسة . فقلت : ولماذا تشتغل ؟ فقال : عندي ام وعندها قضيب . فقلت : ولماذا تجيء الى المدرسة ؟ فاجاب : امي تقول اذا تعلمت القراءة والكتابة اتخلص من الشغل في الفرن . واخبرني صغير اخر لا يتجاوز الست سناً بانه جاء المدرسة من تلقاء نفسه مع رفاقه في الحي . وقد بان لي من مجمل الاجوبة ان للأم في هذه النهضة الشريفة فضلاً يذكر .

دخلنا الغرفة الثانية في المدرسة فاذا فيها صف الشبان وبينهم الكهول . جالت عيني في الصف فوقفت عند الكبير فيه ، وهو رجل معتم حسن البزة

يناهز الخمسين . هم بالوقوف ليجيب على سؤالي - النظام على الكبير والصغير - فاشار المعلم تلطفاً ان يقبل رجائي ويظل جالساً . اخبرني انه تاجر في السوق يتاجر بالسجاد، وانه والحمد لله ناجح في تجارته مع انه قضى السنين فيها وهو امي . ثم قال : ولكن الزمان تغير يا افندي والرجل الذي لا يحسن الكتابة والقراءة في هذه الايام يحتقره الناس. فعقب جاره على كلامه قائلاً : ويحتقره خصوصاً الاجانب . عار علينا ونحن نطلب الاستقلال ان لا نحسن القراءة والكتابة . وقال اخر ، افصح الصباغ على يديه بصنعته : انه سمع بهذه المدارس الليلية وكان دائماً يتوق الى تعلم القراءة والكتابة بشرط ان لا يمنعه ذلك عن متابعة عمله في النهار ، لانه صاحب عيال وعليه رزقها . ومثله في صف الشباب والرجال كثيرون ، فيهم الحداد والدباغ ، والساعاتي والطيان ، والبناء والحلاق والفران . وكلهم يؤمون المدرسة الليلية راغبين بجني ثمرها ، شاكرين القائمين بها .

قطعنا الجسر لنزور مدرسة اخرى في الكرخ ، فعندما وصلت اليها رأيت عند الباب جمهوراً من الاولاد والشبان يتسابقون ويتزاحمون كأنهم داخلون الى الـ« سينما » لا الى مدرسة الفباء الليلية . ها هي ذي امة جنت بالعلم . اخبرني مدير المدرسة بان عندهم ثلاث غرف فقط للتدريس وفي كل غرفة من الخمسة وسبعين الى المئة طالب من الاولاد والشبان والرجال ، وانه لو كان عندهم ثلاث غرف اخرى لامتلأت كلها بليلة واحدة .

هنأت صديقي وزملاءه جماعة المعهد العلمي بنجاح مشروعهم هذا النجاح المدهش . ومما هو جدير بالذكر انهم لا يقتصرون في تعليم الاميين على الكتابة والقراءة وبعض مبادىء العلوم [1] فقد وضعوا لمشروعهم نظاماً

---

(١) الدروس مقسومة الى ثلاثة اقسام يسمونها دورات فيتعلم الطالب : في الدورة الاولى - القراءة ، الاملاء ، الحساب ، مبادي معلومات ارضية ، مبادىء

اقتطف منه ما يلي :

قد رأى مجلس ادارة المعهد العلمي في بغداد انه لا يتمكن من تحقيق مبادئه الاجتماعية اذا لم تستنر الاكثرية بنور العلم الصحيح وتتلقن مبادىء الاخلاق الراقية — تلك الاكثرية التي قضي عليها ان تبقى جاهلة . . . ولهذا فانه عزم على مكافحة داء الامية في بلاد العراق . . . فوضع نظاماً لهذا المشروع العلمي وقرر اذاعته مع المبادىء الاجتماعية الاتية :

١ً — حب الوطن من الايمان

٢ً — حب النظافة من الايمان .

٣ً — طلب العلم من المهد الى اللحد .

٤ً — مقت الكذب واحتقار الكاذبين .

٥ً — حب الخير وعمله .

ويجب على مدير المدرسة ان يلقن الطالب قبل كل شيء هذه المبادىء الخمسة الاساسية . مدارس ليلية تعلم الاميين ابناء الشعب الالفباء وحب الوطن والنظافة والصدق — هوذا حجر الزاوية في الرقي الحقيقي الثابت . هوذا الاساس الامتن في بناء الامة الجديد ، بناء الوطنية الصادقة ، المبنية على العلم والتهذيب ، المنيرة سبيل الاستقلال التام . هوذا حجر الزاوية ، وهو من صنع العراق ، لا يد اجنبية ساعدت في نحته ووضعه ، لا فضل لأجنبي فيه .

انه وايم الله لأجمل وأحب ما شاهدت من مظاهر نهضة العرب في الاقطار العربية كلها . مشروع تعليم بدأ بثلاثين طالباً في غرفة صغيرة من المعهد العلمي

معلومات مدنية .

وفي الدورة الثانية — قراءة ، املاء ، حساب ، جغرافية ، تاريخ ، مبادىء الصرف والنحو ، معلومات مدنية .

وفي الدورة الثالثة — قراءة ، املاء ، انشاء ، حساب ، تاريخ ، جغرافية ، صرف ونحو ، معلومات مدنية ، مبادىء هندسية

فعم في سنة واحدة مدن العراق الكبيرة كلها من البصرة الى الموصل . وان عدد الطلاب الاميين الذين يداومون ويتعلمون ليلاً مجاناً يتجاوز اليوم الخمسة الاف ، وقد يصل الى العشرة الاف غداً بفضل ادارة المعهد المنظمة واساليبه المبتكرة في التشويق ، وفي جمع ما يقتضيه المشروع من المال . فقد قررت بلديات المدن التي فيها مدارس ان تشترك في نفقاتها .

وهناك عدد من المؤازرين المتبرعين وفي مقدمتهم جلالة الملك فيصل الذي يعطف على المعهد ومشروعه عطف احد المؤسسين ويخصه سنوياً بمبلغ من المال. اجل ، قد اهتم جلالته اهتماماً خاصاً بمشروع تعليم الاميين ، وزار متنكراً المدارس الليلية فشاهد بعينه ما شاهدته من مظاهر الفلاح . وحبذا التنكر في غير سبيل اللهو والسرور ، حبذا بغداد الجديدة ، وقد جُنَّت بالعلم ، ورشيدها الجديد ينشطها ويساعدها ، فيطوف ليلاً كاحد عامة الناس لا ليحدث الصياد ، ويضحك من العباد ، بل ليقف امام اللوح الاسود ، لوح الالفباء ، الذي سيبيض منه وجه الامة ، فيستطلع خبر المتهافتين عليه من رعيته .

والحق يقال ان جلالة الملك فيصل ، مهما كان من شأنه في السياسة والزعامة ، لمن اكبر ملوك العرب غيرة على العلم ، وله في بث روح العلم والعرفان ، وفي تشجيع الادب والمشاريع التهذيبية في الامة ، الفضل الذي سيجعل عهده ولا شك عهداً ذهبياً مجيداً .

واني اتمنى ان يكون في كل قطر من الاقطار العربية مشروع مثل مشروع المعهد العلمي وامير مثل فيصل الاول يعضد المشروع ، فيُقضى بعد ذلك على الامّية والجهل في البلاد كلها .

الخاتمة

او

تتمة البحث في الوحدة العربية

اذا كنت تصفحت هذا الكتاب ايها القارىء او ما جاء فيه من المباحث السياسية تجد من نفسك ميلاً ، مقروناً بالعلم الذي لا يشوبه شائب الغرض والتحزب ، لتتبع هذا البحث .[١]

قلت في الفاتحة ان البلاد شرقي الاردن هي جزء من الحجاز ، والحجاز جزء من تهامة التي تمتد جنوباً الى المخا ، والمخا من اليمن ، واليمن هو الاصل الذي تتفرع منه نجران وعسير سهولاً وحزوناً . هوذا شطر من اساس الوحدة العربية لو كانت للجغرافية سيادة على السياسة تدوم ، او لو كان للدين نفوذ في تلطيف مطامع الامراء ، او لو كانت للقومية العربية سطوة في القلوب حقيقية تسوقها في سبيل واحد الى محجة واحدة .

افيستنتج من قولي اذن ان الدين والجغرافية والروح القومية لا تساعد اليوم في تحقيق الوحدة العربية ؟ ليس من الصواب ان اجيب بلا او بنعم . ان المذهب الديني في شبه الجزيرة لا يزال متغلباً على الدين . وهناك مذهبان قويان عصبية وسياسية لا يقبلهما السنيون ، حنفيين كانوا ام شوافع . وهذان المذهبان هما الوهابية في نجد والزيدية في اليمن . ومن عقبات القضية ان

(١) راجع خصوصاً الفصل الثامن من القسم الاول والفصلين السادس والرابع عشر من القسم الثاني والفصلين الحادي عشر والرابع عشر من القسم الثالث في الجزء الاول . والفصول السابع والثاني عشر والثالث عشر من القسم الخامس في الجزء الثاني من هذا الكتاب .

حاكمي البلادين ، السلطان عبدالعزيز والامام يحيي يحكمان حكماً مذهبياً . هما مليكان بفضل المذهب وباسمه ويصح ان اقول ايضاً ومن اجله . هما بين اعظم ملوك العرب قوة واقتداراً .

فلو فرضنا ان اكثر الاقطار العربية دانت لابن سعود فيظل القطر الياني عاصياً خارجاً محارباً . ولو فرضنا ان الامام يحيي اكتسح الاقطار العربية والجنوبية كلها فبسط سيادته من لحج بل من حضرموت الى الطائف ومن نجران الى جيزان ، تقدم طالباً تحقيق الوحدة كلها فانه ليجد في نجد سداً لمطامعه عالياً منيعاً .

هذا هو الداء الاول ومكروبه المذهبية . فهل تحقق اماني الوحدة او بعضها يا ترى اذا قتل المكروب او عُزل في الاقل من السياسة . لا استطيع ان اجيب بلا او بنعم لان نجاح القضية لا يتوقف على هذا الاصلاح وحده .

ان روح القبائل لا تزال سائدة في البلاد العربية ومتغلبة في اكثر اقطارها على الروح القومية . فلو فرضنا ان الامام يحيي خرج باسم القومية يجاهد في سبيل الوحدة العربية ، وقد اتخذ لقباً مدنياً وانشأ في اليمن حكماً مدنياً ، فلا تنفي نهضته ان السيف سيفها لا يزال سيف قحطان ، وان قحطان لا تزال نازعة الى عصبيتها ، مثيرة في نزوعها العصبيات الاخرى . وبكلمة اوضح ان العداء بين قحطان وعدنان عموماً ، وبين قحطان وربيعة خصوصاً ، لا يزال مستحكماً في جنوبي نجد مثلاً وفي اعالي عسير . فضلاً عن ان نجداً ، والصولة فيها لا تزال لربيعة ، تأبى السيادة العامة ليس في قحطان فقط بل في مضر ايضاً ومعقل مضر لا يزال الحجاز .

هذا هو الداء الثاني ومكروبه العصبية . فاذا تغلب امراء العرب الكبار على العصبيات القديمة فيهم وقاموا باسم القومية العربية المحضة الشاملة يبغون الوحدة ، فهل يظفرون بها يا ترى ؟ لا يجوز ان اجيب سلباً او ايجاباً لان

نجاح القضية لا يتوقف على هذين الاصلاحين فقط .

ان العوامل الطبيعية توجد في شكل اقسام من الارض وتقطيعها ، وفي من يسكنها ، ما يسمى وحدة جغرافية تتشابه فيها الاجناس والطباع والعادات والتقاليد ، وتشترك فيها مصالح الاهالي وسياسات المتقدمين فيهم . غير ان هذه الوحدة لا تدوم الا بثلاث : حكومة منظمة عادلة ، ومدارس وطنية عامة ، وطرق مواصلات حديثة اي البرق والبخار . وليس في البلاد العربية اليوم ، ما سوى العراق ، غير قطرين في احكامهما شيء من النظام المدني ، هما الحجاز واليمن . وليس في البلاد العربية اليوم غير حكم واحد عادل ، هو حكم ابن سعود . اما المدارس الوطنية العامة فلا تجدها الا في الحجاز ولحج والبحرين والكويت . وليس في شبه الجزيرة كلها ، اذا استثنينا سكة حديد المدينة والتلغرافات السلكية واللاسلكية في اليمن والحجاز ، شيء من البرق والبخار .

على ان في الحالة الجغرافية بعض الامل ، فيها اليسير مما يثبت وحدتها ويبشر بتعميم عواملها . وكأني بالقارىء يسأل سؤالا آخر . اذا عمت هذه العوامل الاقطار العربية كلها ، فأنشئت الحكومات المنظمة ، وطرق المواصلات الحديثة ، والمدارس الوطنية العامة فهل نفوز بضالتنا المنشودة ؟

اجيب : نعم . ولكن بعد خمس وعشرين سنة في الاقل من بداءة هذه المؤسسات ، فتزول بواسطتها العصبيات القديمة لتحل محلها روح القومية العربية الكبرى ، وتنبذ السيادات المذهبية من الاحكام المدنية ، فتقوم مقامها سيادة العقل والعدل والتساهل ، بل سيادة العقلية العربية الجديدة التي ترفع فوق كل مصلحة وفوق كل سياسة ، مصلحة العرب المشتركة وسياسة العرب الموحدة .

اذن لا امل للعرب في تحقيق الوحدة العربية الكلية اليوم[1] . فهل من الممكن ان يتفاهم ملوكها ويتآلفون ؟ اجيب : نعم . واقول فوق ذلك انه

(١) اي في سنة ١٩٢٢

من الممكن ان يؤلفوا وحدتين اوليتين تقسمان شبه الجزيرة شطرين في الحكم كما قسمتها الطبيعة ، اي الشطر الغربي والشطر الشرقي . وما كان هذا ليتم اليوم لولا سقوط الخلافة وتنازل الاتراك عنها .

اما رأيي فيها انا ذا اعرضه على سادتي ملوك العرب . الخلافة يا سادتي في قريش — حديث شريف . ومن في قريش اليوم ومن سلالة الرسول اصلح واشرف من جلالة الملك حسين ؟[1] ولكننا في القرن الرابع عشر بعد البعثة النبوية ، وسنة التطور سنة الله . فاذا استنكرنا عمل الاتراك فلا يجوز ان نتعامى عما هو صالح فيه ، بدأ مصطفى كمال وزملاؤه في فصل الخلافة عن السلطنة وهذا هو النصف الصالح في اصلاحهم . واني اظن ان الاسلام لا يعود بعد اليوم الى التقليد القديم .

افلا يجدر بالعرب اذن ان يخطوا هذه الخطوة الى الامام فيقبلون من مصطفى كمال نصف برنامج اصلاحه ؟ وهم اذا بايعوا حسيناً بن علي على الخلافة فيجعلون مقره مكة اي كالبابا في رومه ، ويقيمون بعدئذٍ ملكاً غيره منهم .

اذا سلمت بهذا اتقدم واياك الى ما يليه . لنفرض ان الملك حسيناً قبل الزعامة الدينية الكبرى فمن من ملوك العرب اليوم يستحق الزعامة المدنية الكبرى ويحقق امال العرب بها ؟ لا اظنك اذا كنت قرأت ما تقدم تتردد في الجواب . نعم ، ابن سعود وابن حميد الدين . فيحكم الاول الجزء الاكبر من شطر البلاد الشرقي ، والثاني الجزء الاكبر من شطرها الغربي . فلماذا لا نساعد كلاً منهما اذن ليبسط حكمه على سائر الشطر الذي هو اليوم السيد الاكبر فيه ؟

اني احدثك ايها القارئ بلغة فيها سداد المنطق وبساطة الف باء . ولا

---

(١) قد كتب هذا الفصل قبل سقوط الملك حسين . وبعده كان لا يزال المؤلف على رأيه ان فصل الخلافة عن السيادة المدنية والزمنية هو خير للاسلام والمسلمين .

انتقل من مقدمة الى اختها قبل ان ابين باجلى بيان الحقيقة فيها . سلمنا بالخلافة للحسين ، وبالملكية للملكين . ولكنما السبيل الى ذلك ، ما هي ؟ وما هي العقبات التي تقوم في وجه المشروع ؟ وكيف تذلّل .

ان في سبيل الفلاح عقبتين لا يستخف بهما ، الاولى في داخل البلاد والاخرى خارجها . اسم الاولى امراء العرب واسم الثانية دولة بريطانيا العظمى . وان بين الاثنين صلة لا تقطع اليوم ، ولست ممن يطالبون بقطعها . انا اقترح ان تنتقل من الفروع الى الاصل ، ارتئي ان يتألف من الصلات المتعددة صلة واحدة او بالحري صلتان لا غير . اما اذا اعترض الانكليز قائلين ان الامراء لا يقبلون بذلك فاجيب : ان للامراء ولوجهاء العرب الحق في معالجة الامر دون تدخل حكومة بريطانيا على شريطة انهم منذ البدء يؤكدون لها ان مصالحها في البحر الاحمر والبحر العربي وخليج فارس لا تمس بضر بتاتاً .

اما الامراء الحاكمون اليوم فاول ما يجب اقراره هو ان الحكم يبقى في بيوتهم كما كان منذ القدم ، اي ان آل صباح يظلون في الكويت ، وآل خليفة في البحرين ، والعبادلة في لحج ، والادراسة في عسير الخ . ولا يتغير في استقلالهم غير اعترافهم بالسلطان الاكبر واشتراكهم واياه في الدفاع عن البلاد وفي عقد المعاهدات ، وفي نظام واحد يختص بالمسائل الاقتصادية والمصالح العامة .

ليس في هؤلاء الامراء اليوم واحد مطلق من نفوذ الانكليز مهما كان ضئيلاً . وليس فيهم من لا اتفاق او معاهدة بينه وبين دولة بريطانيا العظمى فهل يفضل ان يكون النفوذ لامير عربي كبير اذا توفرت فيه شروط الزعامة فيتعزز بذلك شأن الاثنين ؟ وهل تخسر دولة بريطانيا العظمى او تفادي بشيء من مصالحها اذا عقد السلطان الاكبر معاهدة معها شبيهة مبدئياً بالمعاهدة او الاتفاق الذي كان بينها وبين الامراء ؟

انني ادرك انها تفضل ان يكون اتفاقها مع كل امير على حدة ، لان في ذلك تقسيم قواهم والاقتصاد بقواها . ولكن الامراء ، اذا هم فكروا ملياً ، يرون مصلحتهم الكبرى في غير هذه السياسة . فهم اذا وحدوا سياستهم يعتزون ويتخلصون من تدخل عمال الانكليز الشبه الرسمي وغير الرسمي ايضاً ذلك التدخل الذي يئنون كلهم اليوم منه . وان بريطانيا العظمى لتكتسب ثقة العرب وحبهم اذا قبلت بمثل هذا الاصلاح وفيه ضمان مصالحها .

ان ابن سعود صديقها وحليفها . فما ضرها اذا كان هو الموقع للمعاهدات والاتفاقات التي بينها وبين البحرين والكويت وقطَر وعُمان ؟ وما ضر هؤلاء لو كان ابن سعود ، وهو صاحب الصولة والاقتدار ، الضامن سلامتهم واستقلالهم ، العامل في سبيلهم — على شرط — الا يكون لسيادته فيهم صبغة مذهبية . واكثر هؤلاء الامراء مثل ابن سعود من قبيلة واحدة من ربيعة ويمتون الى بكر بن وائل .

ليس في ذا الامر اذن شيء مستحيل . والخطوة الاولى في سبيله هو ان يعقد مؤتمر عربي عام في مكة مثلاً يحضره كل الامراء فتتم فيه مبايعة الملك حسين على الخلافة ، ثم مبايعة الامام يحيى على الملك في الغرب والسلطان عبدالعزيز في الشرق ، ويكون بين الملكين معاهدة ولائية اقتصادية واتفاق بان يكون ايضاً بينهما وبين بريطانيا مثل هذه المعاهدة او ما يقترن بها مبدئياً .

اما الملك حسين فيشترط العرب في بيعتهم انه يقبل بمن يقيمونه ملكاً عليهم . واذا بايعه كل العرب يبايعه ولا شك المسلمون في الهند وفي الاقطار الاسلامية الاخرى . فهلا يرضى ، وهو الحصيف الحكيم ، ان يكون خليفة يحترمه المسلمون اجمع ، ولا يكون ملكاً في الحجاز همومه السياسية الخارجية والداخلية هي اشد من هموم حاكم من حكام الدول العظمى في هذه الايام ؟

ان في البلاد العربية اليوم [1] اربعة ملوك كبار ، وان في نفسية الرعايا

(١) اي في سنة ١٩٢٢

رعاياهم نصاً على شخصية اولئك الملوك وشرحاً على حالة تسود سياستهم في البلاد .

رعية الملك حسين تطيعه وتخافه .

رعية ابن سعود تطيعه وتحبه .

رعية الامام يحيى تطيعه دون حب ودون خوف .

رعية الملك فيصل لا تخاف ولا تحب ولا تطيع الا مكرهة .

فمن من الملوك المذكورين في شبه الجزيرة يستحق ان يسود العرب ؟

تم تأليف الكتاب « ملوك العرب » في ١٦ ايلول سنة ١٩٢٤
و١٥ صفر سنة ١٣٤٣

فهرس الاعلام

ملاحظة

– تدل على وجوب تعداد الارقام ما بين الرقمين . مثلا ١ – ٥ يعني ١ ٢ ٣ ٤ ٥
او ان هذه الكلمة وردت في اكثر الصفحات الواردة بين هذين الرقمين

– حرف الالف –

— حرف الباء —

— حرف التاء —

— حرف الثاء —

— حرف الجيم —

— حرف الحاء —

— حرف الخاء —

— حرف الدال —

– حرف الذال –

– حرف الراء –

— حرف الزاي —

— حرف السين —

— حرف الشين —

– حرف الصاد –

— حرف الضاد —

— حرف الطاء —

— حرف الظاء —

— حرف العين —

— حرف الغين —

— حرف الفاء —

– حرف القاف –

– حرف الكاف –

— حرف اللام —

– حرف الميم –

– حرف النون –

— حرف الهاء —

– حرف الواو –

– حرف الياء –


BOBST LIBRARY
3 1142 02821 6623

